الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل ادريس

Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي ادريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

العدد الثالث ـ اذار (مارس) ١٩٦٤ ـ السنة ١٢

استفتاء « الآداب »

فلسطين والأدب

يستطيع الناقد الادبي والمؤرخ الاجتماعي ان يلاحظ ان اثر النكبة الفلسطينية في الادب العربي الحديث كان دون المستوى الذي تفرضه الاحداث الضخمة في تاريخ حضارات الامم ، ولا سيما في الميدان الثقافي . فالام تعزون هذه الظاهرة ، وكيف تتصورون مستقبل « ادب النكبة » في نتاجنا الحديث ؟



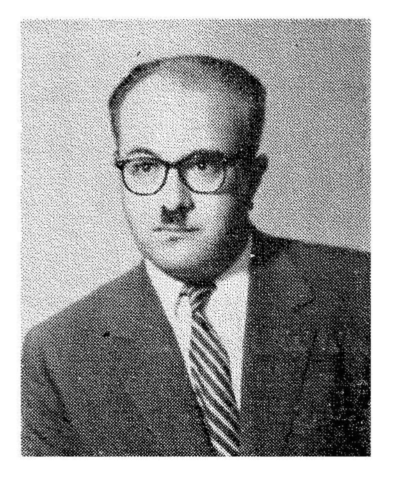
● **جواب الدكتور سهيل ادريس** ●

ليس في نتاجنا العربي المعاصر اثر مكتمل ناضج يعبر التعبير الفني المطلوب عن نكبة فلسطين بمختلف ابعادها ، او حتى عن بعض جوانبها . وتتبدى هذه الحقيقة بصورة جلية اذا حاول الناقد الادبي ان يقارن هذا النتاج بالآثار التي خلفتها الثورات والزلازل الاجتماعية في بعض الامم الاخرى في عصرنا الحديث ، مثل حرب المقاومة الفرنسية والحرب في الاتحاد السوفياتي والثورة في الجزائر ...

على ان تفسير هذه الظاهرة او حتى تبريرها ، ليس بالامر العسير . فالنكبة في ذاتها لم تنته بعد ، وما زال الشعب العربي يعيشها في جسمه وروحه ، وان ما تخلفه من احداث ، على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لا يزال من الحيوية والحداثة والمباشرة بحيث يمتنع على النضج الفني ، والاستبطان العميق . ثم ان استمرار الكارثة والامل المتزايد في محو عارها يجعلان المنتجين الاصلاء في حالة ترقب وعدم استقرار لا يتيحان لهم الاستعداد النفسي والفني للانتاج ، فينبغي لهذه الكارثة ، لكي تكون موضوعا كبيرا ناجزا ، ان تنتهي اما بتثبيت النكبة ، وما يستتبعه ذلك من تشريد وتمزيق ، واما بمحوها نهائيا . اما قبل ذلك ، فقصاراها انها تلامس السطوح دون الاعماق .

والحق ان الكارثة الفلسطينية ، من جهة اخرى ، قد خلقت في نتاجنا الادبي الحديث ، فترة انتقال لها سماتها الخاصة ، واهمها تعبير عن القلق والضياع والتمزق في آثار الاجيال الجديدة ، منذ خمسة عشر عاما . ولئن لم تتخذ هذه السمات بعد شكلها الفني الرفيع ، فلان الجيل الذي برزت على يديه جيل فتي ، حديث السن ، لما ينضج سنا ولا تجربة . وهذا الجيل نفسه ، لا جيل ما قبل ٤٨ ، هو الذي سيواصل عمله ليخلق ادبا للنكبة يكون لا ريب في مستوى النكبة ، على اي شكل افضت اليه .

● جواب منير البعلبكي ●



يحيل الي أن نكبة العرب في فلسطين كان لها في ادبنا المعاصر اثر اكبر جدا مما نتصور ، او مما نحب ان نتصور ، في بعض الاحيان . ففي حقل الدراسات حفزت النكبة الى وضع عدد من الكتب القيمة .

« معنى النكبة » لقسطنطين زريق ، « والنكبة والبناء » (في جزءين كبيرين) لوليد قمحاوي ، « والنكبة » (في خمسة اجزاء كبيرة) لعارف العارف ، و « هكذا ضاعت ... وهكذا تعود » لنقولا الدر ، و « تذكرة عودة » لناصر الدين النشاشيبي ... و « فلسطين » لشفيق رشيدات. وفي حقل الادب الخالص أوحت النكبة الى شعرائنا وقصاصينا باشياء كثيرة ، يحضرني الان منها « ارض الشهداء » (شعر) لابراهيم العريض ، و « جراح تغني » (شعر) لكمال ناصر ، و « وحدي مع الايام » (شعر) لفدوى طوقان ، و « لاجئة » (قصة) لجورج حنا ، و « الباب » (مسرحية) و « رجال في الشمس (قصة) و « موت سرير رقم ١٤ » لغسان كنفاني .

هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية ، كانت للنكبة الفلسطينية في ادبنا الحديث اثار خفية او مستترة نغفل عنها في كثير من الاحيان . فكما استطاعت هذه النكبة أن تغير وجه حياتنا السياسية كلها تغييرا جذريا تجلى في حركات التحرر الوطني ، وفي الانقلابات العسكرية ، وفي الثورة الاجتماعية ، والاندفاع نحو الغايات الاشتراكية ، والاخذ بمبدأ الحياد الايجابي ... كذلك استطاعت أن تغير وجه حياتنا الادبية تغييرا جذريا يتجلى ، في ما أزعم ، في هذا « العرق » التقدمي الذي يتناسج مع بنية الشعر العربي المعاصر والقصة العربية المعاصرة تناسجا يكاد يكون عضويا . ان هذا « العرق » وليد النكبة الفلسطينية من غير ريب .

ولكن هذا لا ينفي ، باية حال ، ان النكبة على جلال اثرها في الادب الحديث عجزت ، بقدر ما اعلم ، عن ان تطلع اثرا ادبيا واحدا (سواء في القصة أو المسرحية أو الشعر) له من صدق التجربة ، وعمق المعاناة، وفنية الاسلوب ، ما يكفل له الخلود . ولعل مرد ذلك الى ان العرب لم « يفيقوا » بعد من هول النكبة اذا جاز التعبير . وليس من ريب عندي في انهم سيفعلون عما قريب ، وعندئذ يكون في ميسورنا ان نتوقع صدور هذا الاثر الادبي الخالد .

جواب مطاع صفدي



الادب العربي لم يلحق باثار النكبة ، لانه لم يلحق باية ثورية عربية اخرى . وذلك لان الجدوى كلها ما زالت للفعل وحده ، ولكل ما يدفع للفعل . والكلمة الادبية لم تصدق نفسها بعد، لكي تتحول الى فعل. وليس أدل على ذلك ، من أن الادب عند كل منعطف قومي ، تخور قواه فجأة ، ويفضل أن يجهض نفسه ، فاذا به ادب للجنس ، ادب عن الاحتقان والتفريغ .

ان ادراك اثار النكبة ، هو دليل نحو البراءة والتعرية . اما عندما تتشنج الذاتية بكل عقدها لتفخر بها ، وتصبح مادة للقيم الثقافية ، فان العافية التي هي شرط لثورة البراءة ، لن تضع حدا لمرض النكبة ، قد طلبت لذاتها الصحة في كل شيء ما عدا الادب . ومع ذلك فلقد كان كل ما كتب باسم الادب ، منذ خمسة عشر عاما ، كتب ايضا باسم النكبة. حتى ولو لم نشهد مناظر من فلسطين الجريحة في كل ما كتب . بل لعل الامر اغرب من ذلك ، فانك تستطيع أن تطلب ادب النكبة في أشياء كثيرة لم تحمل اسم النكبة ، في اشياء لم ينتجها اصحابها للتفجع او التحريض . فالمسألة اعمق مما تترأى لنا . اذ ان النكبة قد حركت مستنقع الوجدان الانساني لهذه الأمة . لقد بدأت الحياة الجديدة من الجذر . فكل هذه الترددات في السطح ، انما هي رموز كبيرة لحقيقة المخاض الوهمي الدامي الذي يمزق صميم الخضم . خضم ولد من مستنقع والفصل للنكبة وحدها .

لقد كانت هناك أصداء ادبية لكثير من الاحداث الفاصلة الكبيرة ، التي تلاحقت عبر التموج الرهيب الذي راحت تنميه الكارثة التاريخية في كل مجال من مجالات الحياة العربية . ان الانقلابات والثورات والنكسات .. تركت اثارها على صفحات كثيرة ، خطتها اقلام متفاوتة القيمة ، تراوحت بين جاذبية العنوان ، وبين اصالة الاحساس بالمضمون المسؤول .

ومع ذلك ، فاننا ما زلنا نرفض الاعتراف بان الفكر العربي المعاصر قد ارتفع الى مستوى المخاض العظيم الذي تعانيه الامة ، وكانت تباشيره من صراخ اللاجئين . فما زال شعورنا بمعنى النكبة اعنف من ان يقنع باي تعبير محدود . ومن جهة اخرى ، فان غرورنا ، لاننا نشهد عملية الخلق ، يمنعنا من ان نعترف بثمرة الخلق . ولكن .. كيف يمكن ان يكون لنا يوما فكرنا الكارثي ، المعادل لحياتنا الكارثية . ان لم نتواضع

ونقبل بالبدء ، بلحظة التفجر الاولى ..

نحن نرفض ان يكون لنا كل ما قد كنبناه ، بانتظار الثقافة المعجزة، التي ستهبط يوما من رأس عبقري خارق ، ولكن لكي تكون لنا يوما هذه الثقافة المعجزة ، فلا بد من ان نقبل بالبدايات . والبدايات .. وابعد من البدايات ، كثيرة في ارضنا الحرون . وهي سجينة لاسوار حولها من الشوك والعوسج .

علينا اذن ان نقبل بما تقدم ، دون ان نطمر الماضي ، ونسد المستقبل فليس اصعب في مولد حضارة كارثية ، كحضارتنا ، من تكون الرشيم في رحمها .فالصورة اللامتناهية في الصفر ، هي التي ستصبح الصورة نفسها ، لا متناهية في الكبر .

ولقد اعتادت الاداب العظيمة ، في الفترات الحاسمة من تاريخ الحضارات ، ان تستحلب اصالتها من عصارة التجارب الانسانية في واقع الامم التي تنتمي اليها . ولعل مفتاح المشكلة بالنسبة لثقافة عربية تعادل زخم المعاناة العربية ، لن يكون الا حيث تتخطى التجربة الحضارية مرحلة الاصطدام بالعقبات المضادة . فهذا الاصطدام لن يكون واعيا بقدر ما يكون غريزيا . وحتى تتحدد معالم التجربة في وجدان الاديب والمفكر، فلا خوف ان تستبق الاحداث كلمات الاحداث . وهنالك لحظة ، يستقر فيها طريق المستقبل ، تؤذن بولادة الاداب الاصيلة ، والفلسفات المتكاملة .

نحن لا زلنا في مرحلة الفتح . وكما افتتح اجدادنا وطننا العربي ، فسكتت السنتهم الشاعرية ، ونطقت سيوفهم النبارة ، كذلك نحن خلال هموم الفتح المعاصر ، ما زلنا منشغلين بالحدث عن معنى الحدث ذاته .

اننا نفتتح وطننا ثانية ، اننا نطهره من عجماته ، وننسف حدوده ، ونوقظ قواه البشرية . وبقدر ما تنضج عملية الفتح هذه ، بقدر ما ستكون لنا روحنا الحضارية الجديدة ، ادبنا وافكارنا وعلومنا ، التي هي قيم ، تثبت ما شققناه في ارض العصر والعالم .

جواب
الدكتور
احسان
عباس

احساسي العام لا يناقض ما يوحي به السؤال . هناك تسليم ضمني بان النكبة اثرت في الادب العربي الحديث ، وهذا حق لا ريب فيه ، ومن تصدى لجمع الاشعار والمقالات والخطب والقصص القصيرة التي كانت نتاجا للنكبة طوال الاعوام الخمسة عشر الماضية وجد محصولا كثيرا وفيرا . ومن الانصاف ان اقول ان كثيرا منه كان يثيره الاخلاص ، واننا لا نعدم فيه النوع الجيد احيانا . بل لو شئنا ان نوسع مجال النظر لقلنا ان النكبة عملت في الميدان الادبي بطريق غير مباشر ، فنفت اشياء كثيرة كانت رائجة في الجو الادبي كالامعان في الذاتية وفي الانسياق وراء ادب المتعة ، وابرزت الحاجة الى ادب مرتبط بواقعنا الاجتماعي ، ومهدت لظهور قيم ادبية جديدة . وما دامت النكبة فعالة في كثير من التغيرات السياسية والاجتماعية التي ظل يشهدها العالم العربي منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم فكل وضع ادبي ، ايجابيا كان او سلبيا ، ذو صلة بها ، فهي مسؤولة عن النقلة في النظم والاساليب والقيم في حياتنا الحضارية الراهنة ، وهي - اذن - مسؤولة عما ينتج عن هذه النقلة من ازمات مؤقتة او عميقة في ميدان الادب والنقد ، وفي هذا نفسه تعليل لجانب مما يفترضه السؤال المطروح اعني : ان اثرها في الادب كان دون المستوى لانها هي نفسها - مجتمعة مع عوامل اخرى - هيأت الجو لتغيرات جذرية ، عجز الادب عن ان يواكبها بسرعة مماثلة ، حتى اصبحنا في نهاية المطاف نحس ان الادب كله في ازمة ، لا من حيث صلته بالنكبة

اعتذار

وردت ((الآداب)) مقالات وقصائد وقصص ومسرحيات لم يكن ممكنا درجها في هذا العدد الممتاز لوصولها متأخرة فتعتذر المجلة للادباء عن ذلك ، وتعد بنشر هذه المادة في الاعداد القادمة .

التحرير

وحدها ، بل في صلاته بأي مظهر اخر في حياتنا الحضارية . اما لماذا عجز الادب عن مواكبة التغير فأمر يحتاج نظرا في طبيعته هو نفسه وطبيعة منشئيه وحال التغيرات ومدى عمقها .

وكان اثر النكبة في الادب دون المستوى الذي تفرضه الاحداث الضخمة لانها كانت حدثا ضخما معلقا دائما بالقدرة العملية في حياة العرب جميعا . واقول في تفسير هذا : ان الادب تعبير فني - حقا - وقد يؤثر فينا تأثيرا بالغا ، ولكن اين يبلغ في أثره اذا وضعته على مدى خمسة عشر عاما ازاء واقع مفزع بابعاده وضخامته ، مثلا ، كل قطعة ادبية تصور بؤس اللاجيء وحاله المنكودة وتكتمل فيها العناصر الفنية تضيع وتتلاشى من النفس اذا انت رأيت اللاجيء في بؤسه الواقعي ، لان العيان هنا يطمس كل تعبير . ولذلك تميل النفس ازاء هذا الواقع الفادح الى ان تعد كل ما يصدر في هذه الناحية من باب ((الكلام)) الاجوف والشقشقة البيانية والسفسطة الزائفة . وان هذا كله لا يهيء أي امل لحل المشكلة لانها مشكلة معلقة بالقدرة العملية في حياة العرب جميعا . اي ان جسامة الواقع العملي قد تفقد المرء احساسه بجدوى اي تعبئة فنية ، وما كان هذا الاحساس ضروريا ولكنه طبيعي ، وهو في الوقت نفسه يجور على الادب بعامة وعلى الجيد منه بخاصة ، ويجعلنا نصم هذا الادب بالفراغ او بالفماءة والتخاذل والضآلة . هذا يذكرني بقصة الخطيب الذي ارتج عليه فقال وهو ينزل عن المنبر :

فان لا اكن فيكم خطيبا فانني   بسيفي اذا جد الوغى لخطيب

فقالوا : لو قال هذا وهو على المنبر لكان بليغا بارع البلاغة . ان شعورنا بطغيان الدور العملي في النكبة هو الذي يجسم احساسنا بان ادب النكبة جاء دون المستوى . لقد جاء دون المستوى حقا ولكن لو اتيح الحل المرجو للجانب العملي من المشكلة لارتفع مستواه عن ذي قبل، في نفوسنا .

وكان اثر النكبة في الادب دون المستوى لان طبيعتها تغيرت بسبب طول الزمن : كانت اول حدوثها مروعة تأخذ بالنفوس والقلوب ، كانت فاجعة ، والفاجعة تحدث عند من يتلقاها - صاحيا بعض الصحو او كله - ردا تلقائيا انفعاليا ، وادباء العرب في كل عصر يحسنون هذا النوع من الانفعال المباشر الذي يشبه انسكاب الدموع - قسرا او عفوا - والادب الناجم عن هذا الانفعال يشبه عويل الحيوان الذي اطبقت المصيدة على بعض اعضائه . وقد كان العويل والندب من سمات الادب الذي انفجر توا بعد النكبة . ثم تراخى الزمن ، وتبدد الانفعال ولم يعد النظر الى النكبة من زاوية مذبحة في دير ياسين او عرض ابيح او طفل قتل او شيخ جن ، انما اصبحت النكبة ذات عمق عربي (لا فلسطيني فقط) عسكري اقتصادي انساني ، اصبحت مشكلة وجود ، اي غدت تتطلب من الاديب العربي جذوة خالدة من الشعور والفكر معا ، بحيث يراها مشكلته ، ويتحسسها قبل اية مشكلة اخرى . وهذا وضع يحتاج اصالة في الادراك وسعة في الافق وايمانا بوحدة المصير . هل يستطيع ان يرقى الى هذا الوضع اديب ينظر الى الاشياء بمنظار حزبي او اقليمي او طائفي او فردي او مصلحي ؟ فكيف بمن يرى في نكبة فلسطين عبئا عليه لانها وضعته امام مسؤوليات تحول بينه وبين كثير من رغباته !! من هنا تبدد الانفعال المباشر ولم يحل محله وعي متوقد ، بل حل محله سأم وبرم وهزة كتفين ويأس مفلول . فاذا بقي شيء بعد انحسار ذلك الانفعال فهو ذكريات في نفوس الشعراء والادباء من النازحين ، ذكريات لا يشاركهم في تذوق طعمها حتى الجيل الناشيء من ابنائهم .

وقد كان من الخير لنا في واقعنا العربي ان تظل النكبة مشكلة

معلقة بالامل ، اي ان لا ننظر الى عمقها في الزمن بمقدار لا نستشرف صلتها بالمستقبل ، وهذا يجعلها في نظرنا ـ مهما تكن جسامتها ـ نكبة مؤقتة . ترى الا تؤثر هذه النظرة الواقعية في مدى عمق الادب ؟ ذلك على اية حال اقل خطرا من تعليقها بالحاضر العابر بحيث تصبح مشكلة سعي وراء لقمة العيش وبرشامة الدواء او تمرسا جديدا بالسجن والضرب والتعذيب . فاذا قيل لنا ان جانبا كبيرا منها اصبح فعلا معلقا بهذا الحاضر فاي ادب واي مستوى ؟!

ترى كيف اتصور مستقبل « ادب النكبة » في نتاجنا الحديث ؟ احب ان اتصور معنى النكبة فيه قد زال بتحقيق الوحدة واسترجاع الوطن ، وقبل ذلك لا ارى وسيلة تغني سوى « تجنيد » الادب في جميع صوره لجعل المشكلة جزءا من غذائنا وجوعنا ، من افراحنا واحزاننا ، والادب طاقة جبارة ، تعتمد التفاني في سبيل التعبير المخلص ، وليس من العدل ان نخلطه « بالكلام » الاجوف والشقشقة والتمويه الخادع .

جواب غسان كنفاني

ان الفترة القصيرة التي مرت على نكبة فلسطين لا يمكن ان تكون باي شكل مقياسا كاملا يقاس عليه الجواب ، ورغم ذلك فانه من الممكن رسم صورة اجمالية عن طريق البدء بتسجيل ملاحظتين هامتين :

اولا : كانت النكسات السياسية والاجتماعية ، في معظم الاحيان ، تؤدي الى نكسات فنية ايضا ، ويبدو ان القاعدة العريضة هي ان ترافق النكستان معا في الفترات الحاسمة من تاريخيهما قبل ان تستبق الاعمال الفنية كل الظواهر الاخرى في التعبير عن بداية النهضة السياسية والاجتماعية مرة اخرى .

ان تاريخ الادب العربي يعطي مثالا واحدا فقط على صحة هذه النظرية وبوسعنا ان نرى ان ذروة النهضة السياسية تترافق مع ذروة النهضة الفنية بشكل عام ، ورغم ان الاوضاع السياسية والاجتماعية تسبق عادة في التدهور فانها ، من ناحية اخرى ، تتأخر بعض الشيء عن اللحاق ، ايضا ، بالنهضة الفنية في دورتها التالية .

وتاريخ الادب العبري ، ايضا ، يمكن ان يكون مثالا واضحا في هذا المجال ، فازدهار الادب العبري يرافق دائما ازدهار الحياة السياسية والاجتماعية لليهود بدءا من العهد البابلي ، مرورا بعهد اليهود الذهبي تحت الحكم العربي في اسبانيا او تحت حكم العثمانيين في فترات متسامحة في اواخر القرن الخامس عشر ، او تحت الحكم الالماني في القرن الثامن عشر ... الخ .

واعتمادا على هذه الظاهرة التاريخية يمكن ان يعزو الناقد الادبي والمؤرخ الاجتماعي سبب تخلف الادب العربي عن اللحاق بمستوى النكبة الى التخلف السياسي والاجتماعي الذي تعيشه الاحداث المتعلقة بالنكبة.

ثانيا : ان الذي يلفت النظر اكثر هو ان انخفاض مستوى اثر النكبة الفلسطينية في الادب العربي الحديث هو جانب واحد من الحقيقة ، فهناك تخلف عن اللحاق بمستوى النكبة على كافة الاصعدة المباشرة وغير المباشرة ، المتعلقة بها : اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وبشريا ، وليس تخلفا متعلقا بالادب العربي الحديث فقط .

مما لا شك فيه ان هذا كله يدخل في الصورة التي ترتسم امامنا عن « اثر النكبة » بشكل عام لانه ليس من الممكن باي حال من الاحوال الفصل بين تاثير النكبة على الادب وتاثيرها على كافة الاشكال الاخرى من ردود الفعل المنطقية المترتبة على هذا الحدث الضخم .

وهذه الاشارة ـ رغم انها تبدو خارج الموضوع ـ الا انها في غاية الاهمية ، ونسيانها يتيح المجال للوقوع في منزلقات تجريدية لها طابع التخمين .

ومع وضع هاتين الملاحظتين (وهما ترافق التدهور السياسي والاجتماعي مع التدهور الفني ـ وكون اثر النكبة هو في الواقع دون المستوى المطلوب ليس في الاعمال الادبية فقط ، بل في كافة المجالات السياسية والاجتماعية ايضا) مع وضع هاتين الملاحظتين في الاعتبار يضحي من الممكن الاجابة على السؤال المطروح .

***

هنالك في اعتقادي ثلاثة عوامل هامة لعبت دورا كبيرا في حجب اي عمل ادبي كبير يكون بالمستوى الموازي واللائق لحجم النكبة الفلسطينية في الحياة العربية .

اولا ـ تعقد وتعدد وتناقض العوامل ذات التأثير الفعلي في انشاء اي عمل ادبي معاصر .

فالاديب المعاصر لا يعيش في اطر محدودة ليستجيب فورا ومباشرة الى اي تأثير ينشأ في داخل تلك الاطر ، ذلك ان طبيعة الحياة المعاصرة اضحت اكثر تعقيدا من ان تسمح بمثل هذا الانفعال السريع والمباشر بحدث من الاحداث .

ان التيارات الادبية العالمية ، التطور السريع والمذهل للمذاهب الادبية ونشوء مذاهب جديدة ، تضخم حجم المشكل الذاتي والشخصي في اي عمل ادبي ، نبذ الالتزام بشيء كثير من « القرف » ، تزاحم الاحداث العالمية وخطورتها ، التوتر السياسي والاجتماعي المتزايد يوميا في المنطقة ، كل هذه الامور تعرقل الطريق امام استجابة سريعة ومباشرة وكلية لحدث واحد .

ربما كان هذا العامل يبشر ، في رأي الكثيرين ، بتمخض ناضج لعمل ادبي كبير يستوعب كل ابعاد الوعي اللازم للنكبة في كافة وجوهها، ولكن هذا الرأي لا يلغي « وجود » هذا العامل كسبب من الاسباب التي حالت دون نشوء عمل ادبي عربي كبير في السنوات الماضية منذ نكبة فلسطين .

وعلى اي حال ، فانه من الطبيعي ان يوضع هذا العامل في حساب (العوامل الايجابية) بمعنى ان يكون سببا وجيها يدفع الى توقع ولادة عمل ادبي كبير فيما بعد يكون في موازاة قيمة النكبة ومستوعبا لابعادها التاريخية والعالمية والمحلية .

ثانيا ـ الجو « المؤقت » الذي عاشته قضية فلسطين في اذهان الشعب العربي عامة ، بما فيه الادباء والفنانون العرب .

ان اسبابا معينة ـ ليس هنا مجال ذكرها ـ عيشت قضية فلسطين في جو مذهل من التوقعات : فمنذ عام ١٩٤٨ حتى الان ، تقريبا ، استطاعت عوامل كثيرة ان تفرض على الشعب العربي صيغة من التوقعات بالنسبة لحل مشكلة فلسطين بحيث اقامت جوا منع اي اديب من البدء عمليا بانشاء عمل ادبي كبير يتعلق بقضية فلسطين .

ان هذا العامل ، رغم انه يبدو قليل الاهمية ، الا انه كان ذا تأثير كبير على الاعمال الادبية التي تناولت اي جانب من جوانب القضية الفلسطينية .

وبنفس كمية التأثير التي فرضها جو التوقعة هذا على الاعمال السياسية المتعلقة بالقضية الفلسطينية فشلها بشكل يكاد يكون تاما استطاع ان يؤثر على الاعمال الادبية بشكل عام فيحول دونها ودون ولادة عمل كبير في مستوى النكبة الكبيرة .

ان الخمس عشرة سنة الماضية كانت سنوات اكتشاف القضية الفلسطينية ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى : اكتشاف ابعادها ومعناها وطبيعتها ، وقد عاش الشعب العربي بشكل كامل تقريبا في عملية

ـ التتمة على الصفحة ١٢٢ ـ

جواب الدكتور محمد يوسف نجم

قد يكون في هذا القول شيء من المبالغة يحتاج الى ان يرد الى شيء من الاعتدال والعدل . لان الادب العربي الحديث بمجموعه ادب رخص العود ناعم الاظافر ، وخاصة في الفنون المستحدثة كالقصص والمسرحية . ولو عرضنا امام ناظرينا علاقة هذا الادب بالاحداث الجسام التي انتابت الامه العربية ، من الداخل او من الخارج ، ابتداء من ظلم عبد الحميد فثورة عرابي فالاحتلال البريطاني لمصر فالحرب العظمى الاولى فثورة ١٩١٩ في مصر ، فتعطيل الدستور ايام صدقي ، فثورات فلسطين المتتابعة فالحرب الثانية ، فالنكبة ، فالانقلابات والثورات العربية التي تلتها — لو عرضنا هذا الادب امام ناظرينا لوجدنا انه لم يسجل ايا من هذه المواقف ، التسجيل العميق الصادق الذي يرتفع الى مستوى الروائع . وقد كانت الاحداث التي تنتاب الاقطار العربية احداثا محلية ، تثير ادباء هذا القطر او ذاك ، اما نكبة فلسطين فقد هزت الوجدان العربي منذ سنة ١٩١٧ وخلقت ادبا سياسيا وجهاديا عنيفا شاملا ، شارك فيه ادباء العربية في مختلف اقطارهم . ومن هنا يتبين لنا ان هذه النكبة التي تفردت بطابعها الخاص ومعناها العربي العام ، استطاعت ان تهز النفس العربية وان تثيرها ، وان تحرك فيها ضميرا ظل حيا ، او متسما ببعض الحياة حتى اليوم .

ويتبين لنا صدق هذا القول حين ندرس الشعر الفلسطيني خاصة والشعر العربي عامة في العقود الاربعة الاخيرة من هذا القرن . فشعراء فلسطين قبل النكبة — ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وعبد الكريم الكرمي مثلا — كانوا يرصدون مراحل النكبة ويسجلون اطوارها في حرقة وتفجع ، ليؤلبوا الرأي العام الفلسطيني والعربي ، وليجعلوا منها القضية الحية او الجرح الدائم النزف في نفس كل عربي . يأتي بعد ذلك كوكبة من الشعراء الذين انضجتهم النكبة فغلب الطابع القومي على شعرهم ومنهم فدوى طوقان ومحمود الحوت وكمال ناصر . على ان الشعراء الفلسطينيين الذين خلقتهم النكبة واكتووا بنارها ، وهي اشد ما تكون وهجا وتأججا ، كانوا اصدق في تعبيرهم عنها ، بكل ما خلفته من مآس انسانية ، وفجائع نفسية . واذكر منهم هارون هاشم رشيد ويوسف الخطيب وسلمى الخضرا . ويبرز لنا خطر هذه الحقيقة حين نتذكر ان الادب الفلسطيني ، لم يكن في يوم من الايام ادبا عربيا قويا متميزا كما كان الادب المصري والادب اللبناني .

هذا في النطاق الفلسطيني ، اما في النطاق العربي العام فقد شارك الشعراء العرب في المراحل التي اشرنا اليها اعظم مشاركة . ففي المرحلة الاولى ، مرحلة ما قبل النكبة ، نذكر قصائد بشارة الخوري والجواهري وعمر ابي ريشة وشعراء المهجر امثال الشاعر القروي والياس فرحات وجورج صيدح في الجنوب وابي ماضي ونسيب عريضة في الشمال . وفي طور النكبة وما بعدها قرأنا قصائد قومية مجلجلة ، مشبعة بروح الثورة والنقمة والثأر لنزار قباني وعمر ابي ريشة وسليمان العيسى ومحمود حسن اسماعيل وسواهم .

هذا في الشعر ، وقد كان وما يزال اقوى التيارات الادبية واكثرها هديرا وصخبا في ادبنا الحديث ، لانه امتداد ميراث عريق تأثل على مدى مئات السنين .

اما الفنون المستحدثة ، فقد كانت اضعف نبضا من الشعر للاسباب التي بينا سابقا ، ولم تحرك النكبة اقلام كتاب القصة الا في اعمال قليلة ، نذكر منها قصص غسان كنفاني وعبد الحميد السحار وعيسى الناعوري . وقد كانت مشاركة كتاب الاقصوصة اكثر جدية واتساعا وذلك لان الاقصوصة ، بحكم نوعها ، تستطيع ان تستجيب للحظة العابرة وان تسجل الموقف الجزئي السريع واذكر هنا اقاصيص سميرة عزام وغسان كنفاني من الفلسطينيين ، واقاصيص بديع حقي وعبد السلام العجيلي وفارس زرزور وعيسى الناعوري من العرب غير الفلسطينيين .

والمسرحية كذلك كانت فنا متخلفا في ادبنا ، لم يبرز فيه سوى كاتب متميز واحد هو توفيق الحكيم . على ان بعض الكتاب المسرحيين ، ومنهم باكثير والعبوشي ، استطاعوا ان يسجلوا بعض جوانب هذه النكبة في مسرحيات تتفاوت في قيمتها الفنية بين الاتقان والضعف . الا ان مشاركة المسرحية الاذاعية — والسينما ايضا — كانت اقوى من ذلك بكثير .

اما ادب البحث السياسي ، ادب البحوث والمقالات ، فقد كان صنو الشعر في المشاركة . ويكفي ان نذكر الكتب العديدة التي عالجت النكبة من وجوهها القومية والسياسية والدولية والعسكرية ابتداء بكتاب معنى النكبة للدكتور قسطنطين زريق وانتهاء بابحاث الاستاذ وليد الخالدي ومحاضراته القيمة التي تميزت بالدقة في التحليل والتعليل .

بقيت نقطة ذات شأن ، خطرها يضارع خطر هذا الادب الذي صور النكبة بطريقة مباشرة بل يزيد . وذلك ان النكبة هزت الضمير العربي ، وخلقت جيلا ثائرا من السياسيين والثوريين والمفكرين ، هو الجيل الذي اضطلع بالواجب الاعظم وهو تقويم الانحراف وتوجيه الحكومات نحو العمل القومي السليم ، ابتداء بالانقلاب السوري الاول ١٩٤٩ وانتهاء بمؤتمر القمة العربي اول هذا العام . وهذا الجيل الذي مزقته النكبة هو الذي وقف موقف الشك والقلق والتمرد من جميع القيم القديمة في السياسة والفكر والادب ، فاقام الجمهوريات ونادى بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية وطرح قضية الالتزام وحطم قواعد الشعر التقليدي وارسى اسس الشعر الحر . وهو في كثير من هذه المظاهر شبيه بالجيل الفرنسي الذي عانى الحرب والاحتلال ، فنظم المقاومة ضد الالمان ، وجعل من الوجودية والعبث والتمرد فلسفة له . انه جيل سارتر وسيمون دي بوفوار وكامو ، ولكن على الصعيد العربي. وبحسبنا ان نذكر عشرات الكتب التي عالجت القومية والاشتراكية والوجودية والثورة ، وعشرات القصص التي صورت البطل المتمرد ، او المنهزم بالمعنى الوجودي الايجابي . ومنها قصص سهيل ادريس وهاني الراهب ومطاع صفدي . ومن هنا يصح لنا ان نقول ان نكبة فلسطين خلقت جوا عربيا جديدا واستهلت مرحلة فكرية كان اثرها في الادب العربي قويا ، ولكن بطريقة غير مباشرة .

قد يقول البعض ان هذا تاريخ موجز للكم فاين الكيف ؟ اجيب على ذلك ، بالعبارتين اللتين صدرت بهما جوابي وهو ان الادب العربي الحديث بمجموعه ادب رخص العود ناعم الاظافر .

اردنية فلسطينية في انكلترا

مهداة الى : A. Gascoigne



(١)

ـ : طقس كئيب
وسماؤنا أبدا ضبابيه
من اين ؟ اسبانية ؟
ـ : كلا
أنا من .. من الاردن
ـ : عفوا من الاردن ؟ لا أفهم
ـ : أنا من روابي القدس
وطن السنى والشمس
ـ : يا ، يا ، عرفت ، اذن يهوديه
يا طعنة أهوت على كبدي
صماء وحشيّه

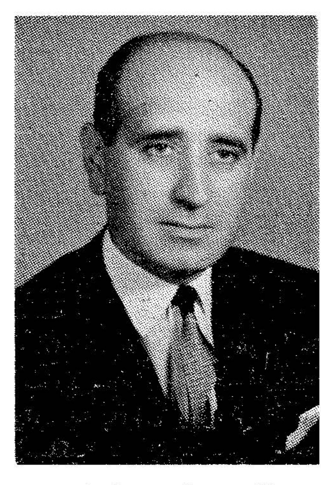
(٢)

تسأل عن سحابه
مرت على جبيني
وظللت عينيّ بالكآبه
وانت يا جار الرضى من فتّح الجراح
ذكرتني
اني من الارض التي تمزقت
اني من القوم الذين
من الجذور اقتلعوا ، من الجذور
واصبحوا على مدارج الرياح
مبعثرين ها هنا وها هنا ، لا ينتمون
الى وطن
حقيقة فيها نغالط النفوس ندعي
انّا كباقي الآخرين
قوم لنا وطن

***

لا لوم ، كيف تعلم
هنا الضباب والدخان في بلادكم
يلفف الاشياء ، يطمس الضياء
فلا ترى العيون غير ما
يراد للعيون أن ترى

فدوى طوقان



متى تحارب اسرائيل ؟

بقلم هيثم كيلاني

— ١ —

لا بد للناظر الى خريطة اسرائيل من ان يدهش من شكلها الجغرافي ، ووضعها السياسي ضمن بلاد تحيط بها وترفض استمرار وجودها العدواني . وقد استطاعت اسرائيل بعد هدنة عام ١٩٤٩ ان توسع حدودها حتى بلغت مساحتها نحو ٢٠٠٠٠ كلم مربع ، نصفها في صحراء النقب . وتلتقي مع الارض العربية بحدود طولها ١٠٨٠ كلم ، تنهمك في الدفاع عنها . ومن الملاحظ ان الجزء المفيد من اسرائيل ، حيث تقطن الاغلبية العظمى من السكان ، يتمثل في شريط طوله ١٩٠ كلم على شاطىء البحر الابيض المتوسط . وتنفتح ارض اسرائيل وتتوسع شمالي حيفا وجنوبي تل ابيب ، وما بين هذين البلدين تضيق الارض حتى تغدو ممرا محصورا بين البحر والحدود بمسافات تتراوح بين ١٢ و ٢٠ كلم . اما السكان فيبلغ عددهم ٢٬٢٤١٬٠٠٠ نسمة حسب اخر احصاء لعام ١٩٦٣ .

— ٢ —

واذا كانت اسرائيل قد استنفدت طاقتها اليوم في تقبل سكان جدد ، وانجزت بذلك المرحلة الاولى من قضية « ايجاد ذاتها » ، فان خطتها العشرية التي أقرتها حكومة بن غوريون عام ١٩٥٩ ترسم المرحلة الثانية من هذه القضية . وتهدف هذه الخطة ، القائمة على اساس تنفيذ مشروع تحويل نهر الاردن ، الى تحقيق الاغراض التالية :

— وضع قاعدة ارضية متسعة وعميقة لاسرائيل ، وهو شيء تفتقده الان في الاشرطة الارضية الضيقة التي يتراكم فيها السكان ، مما يعرضها لان تكون مزقا متناثرة في أي لحظة .

— اقامة قاعدة اقتصادية ، فهي الان لا تعيش حياة طبيعية ، بل اصطناعية بالامداد الخارجي . ولذا فهي معرضة لان تهلك من ذاتها في اي وضع يؤدي الى قطع الامداد الخارجي عنها .

— انشاء قاعدة بشرية واسعة ، وما يستتبع ذلك من انشاء جيش ضخم يبلغ مليون جندي ، وذلك حسب ما ورد في الخطة المذكورة .

— ٣ —

ومن هذه الاغراض القريبة ، ومن الاغراض البعيدة للصهيونية ، تستمد اسرائيل اسس ستراتيجيتها التي تخضع في الوقت الحاضر لعاملين رئيسيين :

— ايمان اسرائيل بحتمية الحرب . اذ تقدر ان الحرب بينها وبين العرب لا محالة واقعة في يوم من الايام ، مهما بعد زمن اللقاء في ميدان المعركة .

— هشاشة كيان اسرائيل ، فصغر حجمها ، وقلة عدد سكانها ، وضعف مواردها ، ووقوعها ضمن حدود لا تمثل فواصل طبيعية تساعدها على الدفاع عن نفسها — كل ذلك يجعل كيانها هشا هزيلا ، حتى يكاد في منتصفه يختنق ، وتتقطع أوصاله وشرايينه لدى أول ضربة تنزل في ذلك الممر الضيق .

وبتأثير هذين العاملين وغيرهما من العوامل الاخرى، أقامت اسرائيل ستراتيجيتها على الاسس الرئيسية التالية :

— تلافي الاخطار الناتجة عن نقص العمق في أراضيها ، ففي ذلك الممر الضيق ، تمر شرايين المواصلات، وتتوضح المدن الرئيسية ، التي تقع تحت مرمى المدفعية المتمركزة عبر الحدود في الاردن . اذ تستطيع هذه المدفعية ان تقطع اسرائيل الى جزأين ، وتنال من المدن ومن بينها تل ابيب .

— عدم التنازل عن اي شبر من الارض . اذ أن اي انسحاب او تراجع لا يعني سوى ازدياد احتمالات الهزيمة الكاملة .

— نقل المعركة من ارض اسرائيل عبر حدودها الى الارض العربية . وهذا هو الاساس الذي بنيت عليه الفكرة الهجومية التي يتميز بها المذهب العسكري الاسرائيلي .

— تبني فكرة « الحرب الصاعقة » ، اذ ان اسرائيل لا قبل لها بحرب طويلة الامد . فالحرب الصاعقة توافق ظروفها وامكاناتها .

— الامر الواقع ، الذي يتضمن عنصر المفاجأة . وقد حققت اسرائيل لنفسها بعض المكاسب من تطبيق سياسة الامر الواقع .

— ٤ —

واستنادا الى هذه الستراتيجية ذات المفهوم الهجومي ، تسعى اسرائيل الى انشاء جيش تريده ان يكون اقوى وأسرع جيش في الشرق الاوسط . وذلك لانها لا تود ان تنتظر عدوها وهي قابعة في حصونها وراء الحدود ، وانما تهدف الى ضربه بعيدا عن ارضها . ولهذا نراها تكثف قوتها الضاربة ، وتمركزها في مكان يساعدها على الانزلاق الى أي قطاع من قطاعات الحدود ، أما محاور الهجوم الاسرائيلي على الجبهات العربية ، فانها مقيدة بشكل ارض اسرائيل الطولاني . وبذلك يتحدد

هجـــومها بمحورين طولانيين ، احدهما نحو الجبهـــة السورية — اللبنانية في الشمال ، وثانيهما نحو الجمهورية العربية المتحدة وغزة وسيناء في الجنوب .

ونتيجة لاضطرار اسرائيل الى الاحتفاظ بقوتهــا الحربية ابلضاربة بعيـــدة عـن الجبهات قدر المستطاع ، والتستر في تعبئة قواها وسوقهـــا ، لجأت الى تغطية حدودها بسور أحاطت به ذاتها ، يتمثل بشبكة القـرى الدفاعية الامامية .

وتتألف هذه الشبكة من نحو الف مستعمرة وقريـة منظمة ، اسست بمحاذاة خطوط الهدنة ، تصل بينها طرق متشابكة ، وتصلها بالمدن ومراكز القيادة وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية . والمستعمرة قلعة صغيرة محصنة ، محاطة بالالغام والاسلاك والخنادق ، ومهيأة للدفاع عـن نفسها من جميع الجهات ، ومكتفية بذاتها من حيث الطعام والماء والمؤن والـــذخائر والمحروقات ومواد التحصـين والاسعاف الطبي ، وكل ما يساعدها على الدفاع عن نفسها بنفسها . وتشبه فكرة المستعمرات اليهودية هذه ، مع اختلاف الزمان والمكان ، فكرة الحصون التي أسسهـــا اليهود في « خيبر » في الحجاز .

ولهذه القرى أهمية كبيرة من الناحية العسكريـة ، فهي تؤلف مواقع دفاعية لصـــد الجيش المهاجم ، وكسر حدة الهجوم . وتعتـــبر قواعد يستنـــد اليها الجيش الاسرائيلي في حال شنه هجوما خارج حـدود ارضه ، تحمي خطوط امداده وتدعم مؤخرته .

وقد اقيمت هذه القرى حسب خطة مزدوجـــة الهدف : زراعية وستراتيجية . وسكانها فلاحون جنود. وهم — رجالا ونساء — مهيأون لهـذه المهمة الثنائيـــة ، بدراسة زراعية عسكرية مشتركة . ويقومون في مخافرهم الامامية بواجبات المراقبة وجرس الانذار .

وتبدو هذه الشبكة في الشمال والوسط ، عـــلى الحدود السورية واللبنانية والاردنية ، متماسكة قويـــة كثيفة ، ولكنها في الجنوب ، في منطقة النقب ، رخـوة مهلهلة . وعلى الرغم مـــن ندرة الماء في هذه المنطقـــة الصحراوية ، فقد أقـــام اليهود عددا من هذه القـرى ، وبخاصة بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

وتواجه اسرائيل اليوم مشكلة تنظيم الدفاع عـن أرضها . وتتلخص معطيات هذه المشكلة في السؤال التالي:

« كيف يمكن تنظيم الدفاع عن ارض يبلغ عرضهــا في بعض الامكنة ١٢ كلم ، وبرلمانها يقع ضمن مدى اسلحة المشاة الخفيفة ، ومدنها الكبرى تنالها قنابل المدفعيـــة المتوسطة المدى ، ومحاطة بجبهات تربطها بها هدن موقتة، وشعبها أقل من مليونين وربع المليون ، وتقع في خضـم بحر عربي يزخر بسكان يبلغ عددهم نحـــو مائة مليون ، يحيط بها منهم اكثر من ٤٥ مليونا — كيف يمكن تنظيم الدفاع عن مثل هذه الارض ، وماذا يجب ان تكون عليـه ستراتيجيتها وجيشها ؟ » .

لقد جابهت اسرائيل هذه المشكلة ، بأن رسمـت خطوط ستراتيجيتها بشكل ينسجم مع هذه المعطيـات ، فغدت متميزة بعدة صفات خاصة بها :

— فنظام دفاعها المحلي ، المتمثل بشبكة القـــرى الامامية ، يشكل دفاعا مستمرا موحدا .

— ومذهبها في السوق والحرب الصاعقة ، يعتبر ضرورة حيوية في بلاد لا عمق لها ، وليس لديها فسحـة من الارض تتنازل عنها في سبيل التناور .

— وطموحها لتحقيق السيطرة الجوية المطلقة يوفر لها حرية العمل . وذلك لان ارضها المكشوفة ، وفقـدان الغابات والجبال الكثيفة ، يفرضان عليها السعي لتحقيق تلك السيطرة .

وسعيها لطبع الجيش بطابع الليونة والمرونة ، ليغدو قادرا على الحركة السريعـــة ، والاستجابة لمتطلبـــات الحرب الصاعقة .

— ٥ —

وانطلاقا من هذه الستراتيجية المرسومة ، انشأت اسرائيل لنفسها مذهبا عسكريا (١) خاصا بها ، مستندة في ذلك الى موقعها وجغرافيتها العسكرية وتاريخ وجودها وامكاناتها البشرية والاقتصادية . وتأتي مبادىء الحرب في مقدمة هذا المذهب . واذا كانت كل دولة قد انتقت لنفسها عددا من هذه المبادىء ، ورتبتها وفق اجتهادها ، فقد انتقت اسرائيل لنفسها المبادىء التالية ، ورتبتهـا بالشكل الآتي :

— المنـــاورة .
— والمرونـــة .
— والسرعة : في الادراك والقرار والتنفيذ .

ويتضح من هذا الانتقاء والترتيب أن عامل المفاجأة يختبىء وراءها . ولكي يتمكن الجيش الاسرائيلي مـــن تطبيق هذه المبادىء ، فان جميع ضباطه يتلقون التدريبات الخاصة بالمغاوير والمظليين ، كما يتدربون على القتـــال الليلي ، ويعتبرونه النوع المفضل ، لانه يقلب نسبة القوى بين المهاجم والمدافع .

ويتميز المذهب العسكري الاسرائيلي عن معظـــم المذاهب العسكرية الاخرى ، بتبنيه لتعاليم الدين اليهودي فيما يتعلق بشؤون القتال والامور المعنوية . واذا كـــان المذهب الاسرائيلي لا يلقن رجاله هذه التعاليم لغاية دينية فحسب ، فانه ينشرها بين رجاله لكي يعرفوا منها الاجابة

(١) ما يقابل بالفرنسية DOCTRINE

على السؤال الازلي الذي يطرحه الجنود على انفسهم في كل زمان ومكان : لماذا نقاتل ؟ ولقد وجد اليهود الاجابة على هذا السؤال في ثوراتهم ، التي اقتبسوا منها ايضا النظام الاخلاقي الذي يطبق اليوم في الجيش .

واذا كانت معظم المذاهب قد تضمنت تعاليم في الدفاع والهجوم ، فان المذهب الاسرائيلي يعلم رجاله ان شعارهم يجب ان يكون : النصر او الموت ، وان اسرائيل لن تحارب الا مرة واحدة . فاذا كانت الهزيمة في دولة ما من الدول تؤدي الى ضياع جزء من اراضيها ، او الى انهيار نظام حكمها ، او خضوعها لتنازلات محدودة ، فان الهزيمة في اسرائيل لا تعني سوى الزوال من الوجود .

— ٦ —

وتقف على طول حدود اسرائيل، وفي مراكز التحشد والتدريب ، قوى عسكرية تتألف من الجيش والمنظمات العسكرية التي تردفه . ولا بد لنا من القاء نظرة عابرة على هذه القوى ، لنتعرف نواحي القوة ونواحي الضعف فيها .

وأول مظهر من مظاهر التنظيم والقوة في اسرائيل ، يتمثل في النفير والتعبئة العامة . فلقد أوجدت اسرائيل طريقة جديدة للنفير أسمتها « الحرب الصاعقة » . ففي خلال ٢٤ ساعة تستطيع اسرائيل ان تسوق الى مراكز التجنيد والحشد جميع قواتها الاحتياطية . وفي خلال ٤٨ ساعة يكون جيشها البالغ ... ٣٠٠ ثلاثمائة الف مقاتل جاهزا للقتال . وبذلك تجند اسرائيل ١٨ ٪ من سكانها ، وهي نسبة عالية تفوق نسب التجنيد في كثير من بلدان العالم . ولا بد من الاشارة هنا الى ان الجيش النظامي لا يتجاوز في الاحوال العادية ثلاثين الف مقاتل معظمهم من الضباط والفنيين ، ومن المجندين الذين يدعون لخدمة العلم ، ومدة هذه الخدمة سنتان ونصف السنة للذكور وسنتان للاناث .

ولا نستطيع في هذه الدراسة الموضوعية ان ننكر ان للجيش الاسرائيلي عدة تجارب حربية ، فهو قد تصدى لجيش الانقاذ ، وللجيوش العربية عام ١٩٤٨ ، واشترك في حرب العدوان الثلاثي ، وشن عدة اعتداءات محلية على الجبهات السورية والاردنية والمصرية .

والمظهر الثالث من مظاهر القوة في اسرائيل ، هو تهيؤها الدائم للحرب ، فكل شيء فيها مسخر لغرض الحرب ، وموجه لخلق امة محاربة : القوانين ، والاحزاب ، والمدارس ، والصحافة ، والمؤسسات الاجتماعية والثقافية ، والادب ، والفكر ، وبطاقات التموين . ويسهم جميع المفكرين والمسؤولين في اسرائيل في التخطيط والتوجيه لخلق دولة عسكرية . ويدعم هذه العقلية العسكرية ، وهذا الاستعداد الحربي ، جهاز الصهيونية العالمية الذي يمد اسرائيل بنبع لا ينضب من العون المادي والمعنوي ، معبئا لذلك امكانات جميع اليهود في مختلف انحاء الارض . ويرافق ذلك كله تقدم علمي مطرد . فلقد أدركت الصهيونية اهمية التفوق العلمي لحياتها وبخاصة في منطقة كالشرق الاوسط . فأسست لذلك « المجلس العلمي » ، الذي يرأسه اليوم العالم الذري المشهور « دوستروفسكي » ، والجامعة العبرية بالقدس ، ومعهد وايزمن في « راهبوت » ، ومعهد « تكنيون » في حيفا . وكلها مؤسسات مهمتها القيام بالدراسات والبحوث العلمية ، بغية تطوير الاقتصاد الوطني ووسائل الدفاع تطويرا فنيا وكميا وكيفيا . وقد جندت اسرائيل لهذه النهضة العلماء والخبراء في الداخل والخارج . اذ لا يخفى ان العلماء اليهود المنبثين في انحاء كثيرة من العالم يؤلفون نسبة عددية لا يستهان بها ، وقد استطاع قسم منهم ان يغزو المؤسسات العلمية ومجالس الابحاث والمختبرات في الدول الكبرى ، وان يحتل مراكز هامة في منظمات علمية ودولية .

هذا عن نواحي القوة ، اما عن نواحي الضعف من الوجهة العسكرية ، فان صغر حجم اسرائيل وشكلها الجغرافي يؤلفان نقطة الضعف الاولى في دفاعها . فقد رأينا كيف ان اندفاعا سريعا نحو وسطها يقسمها الى جزأين ويهدد قلب اسرائيل في تل أبيب التي لا تبعد عن المواقع العربية بأكثر من عشرين كلم . كما ان محاصرة القدس تفصلها عما حولها . يضاف الى ذلك ان ميناء « ايلات » المنعزل معرض للشلل والانسلاخ عن ارض اسرائيل .

وفي دولة ذات شكل جغرافي كاسرائيل ، يبدو الدفاع الجوي بالطائرات غير ذي فائدة ، وذلك لان ضعف عمقها وصغر مساحتها لا يسمحان لها بانشاء سلسلة من المطارات التبادلية . كما ان أرضها كلها تقع ضمن نطاق امدية الطائرات العربية التي تستطيع ان تنال اي بقعة او هدف فيها ، خلال دقائق قليلة ، يبدو فيها جهاز الدفاع الجوي الارضي عاجزا عن ملاحقة الطائرات او اصابتها بشكل مجد مفيد .

وهناك ناحيتان اخريان يتجلى فيهما ضعف الكيان العسكري الاسرائيلي ، وهما قلة عدد السكان بالنسبة للدول العربية ، ثم قلة امكاناتها المادية وثرواتها الطبيعية .

— التتمة على الصفحة ١٢٦

شهادة فيلسوف أمريكي حول القضية الفلسطينية

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

ليس اسم وليم أرنست هوكنج W. E. Hocking غريبا على المشتغلين بالفلسفة السياسية ، فقد شغل هذا المفكر الاميركي الكبير منصب استاذ الاخلاق والسياسة بجامعة هارفارد أكثر من ثلاثين عاما ، كما حاضر في عدد كبير من جامعات اميركا ، واوروبا ، واسيا، بدعوة من جامعاتها ، فقدم للمهتمين بقضايا الفكر المعاصر آراء فلسفية ناضجة ، كانت في معظمها ثمرة لخبراته الروحية الطويلة ، وتأملاته الفكرية العميقة . ولئن كان الكثيرون منا في الشرق العربي قد جهلوا الجهد الفلسفي الضخم الذي قام به هذا المفكر الاميركي الممتاز ، الا ان هوكنج نفسه لم يأل جهدا في سبيل الدفاع عن الحضارة العربية ، ومناصرة قضية العرب في الاوساط السياسية الاميركية . وقد أعترف بقيمة الانتاج الفكري الذي قدمه لنا هذا الفيلسوف كثير من مفكري الغرب ، فنوه بكتبه المؤرخ الانكليزي توينبي ، وأشاد بنزعته الميتافيزيقية جبرييل مارسل، كما حرص الاستاذ جان فال Jean Vall (بالسوربون) على ابراز الجوانب الاصيلة في التفكير الديني والميتافيزيقي الذي قدمه لنا هوكنج . ولا زال كاتب هذه السطور يذكر كيف رحب استاذنا المرحوم شفيق غربال (وكان يومئذ وكيلا لوزارة التربية والتعليم) بفكرة كتابة رسالة عن « فلسفة هوكنج السياسية » ، وان كانت الظروف قد حالت دون تنفيذ هذه الفكرة بالصورة التي كان يريدها المؤرخ العربي الكبير .

ولعل من اهم الكتب التي قدمها هوكنج للمشتغلين بالدراسات السياسية مؤلفه الضخم المسمى باسم « الانسان والدولة » Man and the State سنة ١٩٢٦ ، ثم كتابه المشهور : « روح السياسة العالمية » The Spirit of World-Politics سنة ١٩٣٢ ، ثم محاضراته الموسومة باسم : « العناصر الدائمة في النزعة الفردية » Lasting Elements of Individualism سنة ١٩٣٧ ، ثم كتابه الصغير : « حرية الصحافة » Freedom of the Press سنة ١٩٤٧ ، واخيرا كتابه الناضج : « المدنية العالمية القادمة » The Coming-World Civilization سنة ١٩٥٦ ، وهو الكتاب الذي سجل فيه هوكنج رأيه في مستقبل العالم بحكمة شيخ محنك جاوز الثالثة والثمانين من عمره . ولا زال هوكنج يواصل الكتابة والتأليف حتى في هذه السن المتقدمة ...!

وقد اتيحت الفرصة لهوكنج سنة ١٩٢٨ ـ بتكليف من مكتب البحوث العالمية التابع لجامعة هارفارد ـ لزيارة الكثير من بلدان الشرق الادنى والاقصى ، فقام بدراسات سياسية دقيقة للاحتلال الانكليزي في مصر ، والانتداب الفرنسي في سوريا ، والوصاية الانكليزية في فلسطين ، كما اهتم بالبحث في النظم الاستعمارية بصفة عامة ، ومشاكل الصهيونية العالمية ، ومصير الحضارة الاسلامية، وغير ذلك من القضايا السياسية . وقد كانت ثمرة هذه الدراسات كتابه الضخم في « روح السياسة العالمية » ، وهو الكتاب الذي ضمنه آراءه السياسية في قضايا الشرق الاوسط ، كما عرض فيه لدراسة امكانية قيام « اخلاق سياسية » Political ethics

ولسنا نريد ـ في هذه العجالة القصيرة ـ ان نتعرض لمناقشة آراء هوكنج في صلة الاخلاق بالسياسة ، أو نظرياته في تحديد مظاهر التخلف السياسي ، وانما حسبنا ان نتوقف عند الدراسة النزيهة التي قام بها للقضية الفلسطينية ، لكي ندرك الى اي حد استطاع هذا المفكر السياسي المحايد ان يتنبأ بخطر قيام دولة يهودية في فلسطين .

ولا بد لنا من ان نتذكر ـ باديء ذي بدء ـ أن هوكنج زار فلسطين في وقت لم يكن فيه عدد اليهود يتجاوز ١٦٠،٠٠٠ نسمة ، اي ما لا يزيد عن سدس تعداد السكان (وكانوا يبلغون تقريبا حوالي ٩٥٠،٠٠٠ نسمة) . وقد استطاع هوكنج خلال زيارته لارض فلسطين ان يرى بعيني رأسه كيف كان اليهود يحاولون الاستئثار بالاماكن الخصبة من فلسطين ، من اجل طرد العرب نحو المناطق الصحراوية الفقيرة . ولكن هوكنج قد لاحظ ايضا ان الوعي العربي في فلسطين قد وقف بالمرصاد لاي مالك عربي يحاول ان يبيع ارضه لليهود ، على الرغم من العروض المغرية التي كانوا يقدمونها للملاك العرب . ويمضي هوكنج في تصويره للوضع الاسرائيلي في فلسطين ، فيقول ان الاقلية اليهودية تحاول بكافة الطرق تقوية وضعها في الاراضي المقدسة ، فهي تشجع الهجرة الى فلسطين من شتى بقاع اوروبا ، كما انها تقوم بدعاية واسعة في معظم بلاد اوروبا واميركا، فضلا عن انها تنادي بضرورة قيام « بعث اسرائيلي جديد » في ارض الميعاد ، حتى تصبح فلسطين يهودية لحما ودما، كما ان انكلترا انكليزية لحما ودما ! والحجة الرئيسية التي يتعلل بها اليهود من اجل اقامة وطن قومي لهم في فلسطين هي ان الارادة الالهية التي شاءت لهم ان يتبددوا ويتشتتوا في اقاصي العالم هي بعينها التي منتهم بالعودة

الى فلسطين من اجل اقامة « اسرائيل الجديدة » . ولكن هذه الحجة التاريخية التي يتعلل بها اليهود من اجل المطالبة بفلسطين هي في رأي هوكنج دعوى ساقطة لا قيمة لها ، اللهم الا اذا سلمنا ايضا للعرب بحق مماثل في المطالبة باسترداد بلاد الاندلس ! (١)

واما الحجة الثانية التي يتذرع بها الصهيونيون من اجل المطالبة بفلسطين فهي حجة ثقافية تستند الى مقارنة تقدم اليهود ثقافيا بتخلف العرب في فلسطين اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا ، مما يبرر — في زعمهم — اسناد مقاليد الامور — في هذه المنطقة المتخلفة — الى جماعة « الصفوة المتازين من اليهود » ! وهذه الدعوى الصهيونية تصور لنا عرب فلسطين بصورة حفنة من المزارعين الاميين الجهلاء الذين يمثلون « التخلف » في كل فن من فنون الحياة ، كما انها تنص في الوقت نفسه على انه قد يكون من مصلحة عرب فلسطين انفسهم ان يستسلموا لقادتهم من اليهود المثقفين الذين يمثلون أسمى ما وصلت اليه الحضارة الغربية ! « وهل يعقل — فيما يقول الصهيونيون — ان نضحي بآمال خمسة عشر مليونا من اليهود الذين يمثلون أرقى جنس من اجناس العالم ، في سبيل نصف مليون من الفلاحين العرب الاميين الذين لا يملكون اية حضارة ؟ » ! ورد هوكنج على هذه الحجة انه ليس بصحيح اولا ما يزعمه اليهود من ان كل عرب فلسطين انما هم حفنة من الفلاحين الاميين ، فان من بين سكان فلسطين عربا مدنيين ، وشخصيات مثقفة ، واصحاب عقليات حرة ، وجماعة غير قليلة من المفكرين المتازين . وهوكنج يحدثنا في هذا الصدد عن مفتي فلسطين الاكبر السيد امين الحسيني ، كما انه يروي لنا نموذجا لتصرفاته الحكيمة التي تشهد له بالتسامح ، والفطنة ، وسعة الافق . وكذلك يشير المفكر الأميركي الكبير الى ما لمسه بنفسه في فلسطين من تقدم عربي في ميادين الفلسفة والفن والصناعة وشتى مظاهر الحضارة . حقا ان بين عرب فلسطين جماعات متأخرة من الفلاحين ، ولكنهم لا يختلفون كثيرا عن غيرهم من أهل الجماعات الزراعية الاخرى في معظم بلاد العالم ، وان كنا نشعر بأنهم على وعي تام بالوضع السيء الذي يرزحون تحته ، مما يدلنا على رغبتهم الشديدة في الخروج من هذه الضائقة الاقتصادية . وليس المهم — من اجل الحكم على أية جماعة من الجماعات — ان نقف على وضعها الراهن ، بل المهم ان نقف على الاتجاه الذي تسير فيه ، والغاية التي تهدف اليها ...

واما فيما يتعلق بما يزعمه الصهيونيون من ان عرب فلسطين لا يملكون أي وعي سياسي ، فان هوكنج يرد على هذا الزعم بقوله ان كل من يتجاهل وجود « القومية العربية » في فلسطين انما يتعامى عن واقعة ملموسة يلمسها كل من زار الاراضي المقدسة . والواقع ان كل عربي انما يشعر بنفسه كجزء لا يتجزأ من تلك الوحدة العربية الكبرى التي تكمن فيما وراء شتى الفوارق الاقليمية ، فهو يقاسمها آلامها وآمالها ، وهو يتفاعل معها في عثراتها وانتصاراتها . وليس من شك في انك اذا أضفت الى الانسان الفرد حركة قومية يشارك فيها ، فقد جعلت منه قوة انسانية كبرى وقيمة حضارية لا يستهان بها ! هذا الى ان شعب فلسطين يتمتع فعلا بمقدرة ذهنية وفنية هائلة ، فليس أمعن في الخطأ من ان نحكم عليه بالاستناد الى المظاهر السطحية الخارجية لحضارته ، خصوصا وان عوامل الاستبداد والطغيان التي رزح تحتها حينا من الدهر قد أسهمت الى حد غير قليل في وقف حركاته التقدمية وتعطيل امكانياته الحضارية ...

ثم يستطرد هوكنج فيعرض بالبحث لدراسة موقف بريطانيا من المزاعم الصهيونية ، ويقرر بكل صراحة ان السياسة الانكليزية قد خدمت بالفعل شتى المصالح الصهيونية في فلسطين . وآية ذلك ان بريطانيا قد عملت على وضع المستقبل الاقتصادي لفلسطين بين ايدي اليهود ، كما انها قد ساعدت على هجرة الكثير من اليهود الاجانب الى الاراضي المقدسة . ولم تكن دعوى المحافظة على الامن والاستقرار في البلاد سوى مجرد ذريعة اتخذتها بريطانيا من اجل العمل على اتاحة الفرصة امام الامكانيات الاسرائيلية الضخمة من اجل التسلل الى فلسطين . ولا شك ان « وعد بلفور » انما كان يعني استعداد بريطانيا « لعمل شيء » من اجل اليهود على حساب العرب . وفات هؤلاء الساسة البريطانيين الذين تورطوا مع اليهود في تأييد قضية « الوطن القومي اليهودي » ان فلسطين لا تمثل — بالنسبة الى العرب — مجرد « وطن » ، بل هي ايضا « ارض مقدسة » . فليست فلسطين — في نظر العربي — مجرد مقاطعة منفصلة ، بل هي جزء لا يتجزأ من بلاد الشام ، ان لم نقل بأنها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير ... وعلى الرغم من ان هوكنج قد كتب هذه الكلمات في سنة ١٩٣١ — اي منذ حوالي ثلاثة وثلاثين عاما — فقد استطاع هذا المفكر السياسي المنصف ان يفهم حقيقة الموقف في فلسطين ، وان يدرك قوة « القومية العربية » بوصفها حركة روحية فعالة ، لا مجرد نزعة وطنية حماسية .

وليم ارنست هوكنج

وأما الزعم بأن سيادة اليهود على فلسطين سوف تجلب لهذه المنطقة المتخلفة اقتصاديا شتى أسباب الرخاء والرفاهية والانتعاش الاقتصادي ، فان هوكنج يرد عليه بقوله أن العرب قد عاشوا في هذه المنطقة قرابة ١٣٠٠ سنة ، كانوا يزرعون فيها حقولهم ، ويرعون أغنامهم ، ويمارسون صناعاتهم اليدوية ، ويبيعون محصولاتهم الزراعية ، فهم ليسوا دخلاء على هذه المنطقة ، بل هم أبناؤها الطيبون الذين تكيفوا معها ، فصاروا قطعة منها ، وأصبحوا ينتمون — بحق — لها . وليس من حق اية قوة سياسية — كائنة ما كانت — ان تضرب عرض الحائط بحقوق هذا الشعب الذي ارتبط مصيره بمصير أرض فلسطين منذ هذا الامد الطويل من الزمن . واما اذا اريد لهذا الشعب ان يغير من عاداته أو أساليبه في المعيشة ، فانه لا بد لامثال هذه التغيرات من ان تنبع من صميم تراث هذا الشعب ، لا عن طريق أي احتلال اجنبي .

— التتمة على الصفحة ١٢٣ —

---

(١) W. E. Hocking : «Spirit of World-Politics», New-York, The Macmillan Company, 1932, pp. 348-349.



الصهيونية وراء انهيار الحضارة الغربية

بقلم عبد اللطيف شراره

كان انقيـــاد اوروبا ، في منتصف القرن الماضي ، لمطامعها الاستعمارية ، وعبادتها للمال ، وسعيها الارعن في طلب السيطرة – كانت هذه الهنات الثلاث سببا في انهيارها الذي بدأت اليوم ، أي بعد نحو من قرن كامل ، تراه رأي العين ، وتلمسه لمس اليد . وقد اخذت تنحدر نحو الهاوية التي تسير اليها ، ولما تبلغ قرارتها بعد ، منذ نفذ اليهود الى مكامن القوة فيها ، أي الى التأثير في ثقافتها ، وتوجيه الحياة الفكرية في حياتها العامة .

أما قصة « التغلغل الفكري اليهودي » في اوروبا ، ومن بعد في اميركا ، فانها من أطرف وأدق ما شهـد التاريـــخ الحضاري من قصص ، اذ لا يزال الاوروبيون يعتقدون أنهم استغلوا اليهود ، وأفادوا من «عبقريتهم» ، وانتصروا بمعونتهم على كثير من المتاعب التي ما كان لهم ان يتغلبوا عليها لو لم يساندهم اليهود ، ويأخذوا بيدهم في احتلال هذه المنطقة من الشرق ...

والحقيقة التي لا يأتيها الباطل من جهـة ، هي ان اليهود هم الذين استغلوا الغرب ، وسخروه لاغراضهم ، ووجهوه نحو العـذاب الذي يرسف الآن فيه ، والبلاء الذي لا طاقة له بدفعه ، وكأن ان « ورطوه » وارتطم ، ولم يبق في أيديهم ان ينقذوه مما سيق اليه ، كما لـم يبق في يده أن يخلص ويخلصهم .

ذلك هو المـوقف في أبسط صوره ، وأوضـح مظاهره .

– ١ –

عندما ثارت فرنسا عام ١٧٨٩ على الظلم ، والاقطاع ، والفساد ، لم يكن في أذهان الثائرين الا ان تتحقق فـي حياتهم على الاقل ، بعض المعاني التي دعا اليها الكتـاب والمفكرون امثال فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، والتي تلخصت يومذاك في هـذه الكلمات الثلاث « حريـة . مساواة . اخاء » ، وتمثلت في اعلان « حقوق الانسان » .

وكان اليهود يعانون في بلدان اوروبا كلها ، مـن اقصاها الى اقصاها ، حياة هي الرق والهوان ، ويكابدون من ضيق الناس بهم ، وبأخلاقهم ، وتصرفاتهم ما لا قبل لغير اليهود بحمله ، وهم الذين تعودوا على مر الاجيال ، مثل هذه المعاملة ، وتكيفوا معها ، وكيفوا حياتهم علـى أساس منها ، فلما ظهرت مبادىء الثورة الفرنسيـة ، ونشرتها جيوش نابليون في الخافقين ، تلقفها يهـود اوروبا ، واقبلوا على تشييعها في الامم ، وبذلوا قصارى جهدهم في التحمس لها ، وحمل الاخرين على الاخذ بها ، لا لانهم جادون في حماستهم ، او صادقون في ايمانهم ، بل لان من شأنها وحدها ان تحل « مشكلتهم » – وهي الانفصالية الاجتماعية – وتمكنهم من التغلب على ازدراء الاخرين اياهم ، وتتيح لهم اخيرا ، أن يتساووا مع غيرهم ويتآخوا ، ويتحرروا من شتى العبوديات التي كانت تشل نشاطهم ، وتمحو وجودهم السياسي .

ولم يكن هذا كل ما جاءت به الثورة الفرنسية من نعَم لليهود ، فهناك ما هو أكبر من ذلك واظهر : لقـد جاءتهم بالفكرة القومية ، بأن لكل شعب الحق في كيـان سياسي . وعندما هُزم نابليون في عكا ، وعز النصير ، تلفّت نحو اليهود ، وأثار نخوتهم وحفزهم على «العودة» الى مواطن آبائهم وأجدادهم ، وكل ما كان قائما في ذهنه ، ان يستثمرهم كقوة سياسية يستطيع ان يقاوم بهـا الانكليز الذين كانوا يناصبونه العـداء ، ويؤلبون عليـه الدول ، ويحفرون له الحفر ...

وهكذا ... افاق اليهود شيئا فشيئا على مواطـن الضعف في الدول الاوروبية ، وراحوا يعملون بوحي من احقاد تراكمت في نفوسهم منذ بختنصر ، مرورا بطيطس وهادريان الرومانيين ، الى ديوان التفتيش في اسبانيا ، الى الاضطهادات التي قذفتهم بها روسيا واوروبا الشرقية .

غير ان كيانهم القومي الذي بدأوا يفكرون فيه على طريقتهم اليهودية الخالصة ، يحتاج اكثر ما يحتاج الـى قوة اقتصادية ونفوذ في الاوساط السياسية وجو فكري عام ، كما يحتاج الى اعداد اليهود المشتتين في انحاء العالم لتقبل فكرة واحدة ، والتشبع بشعور واحد .

وبدأ الاعداد ... وكان أول ما صدر كتاب فـي صيغة « رسائل » بالالمانية – وهو القالب الذي اعتمده غوته في « آلام فرتر » من قبـل – عام ١٨٦٢ عنوانـه « روما والقدس » ومؤلفه موزس هس الذي اعتبر من بعد نبي الحركة القومية اليهودية .

لم يكن لدى هس من وقائع ، وحقائق ، وأرقـام ، سوى تطلعات وخيالات وأوهام وأفكار وأحقاد ، فاليهود الذين يريد أن يجعل منهم « أمة » تتوزعهم شتى الامم ، وليس لهم بلاد ، ولا لغة ، ولا اثر في الحياة السياسيـة العامة ، ولا قيمة اجتماعية معترف بها . فما العمل ؟

– هناك أفراد ، أو أسماء تاريخية مثل اسبينـوزا في التاريخ الحديث ، وداود وسليمان في القديم ، عاد اليها ، ومنها استقى فلسفة صور بها « التاريخ » كمـا يحلو له ، واذا هو – أي التاريخ – يشمل الجانب الاجتماعي من الحياة ، ولا يخضع للطبيعة ، وانما يتساوى معهـا ، وتسيطر عليه القوانين نفسها التي تسيطر عليها ، وتسري

في ثناياه القوة المبدعة الموحدة نفسها . والله يكشف عن نفسه في التاريخ كما يكشف عـــن نفسه في الطبيعة ، وهناك « خطة الهية » مرسومة في الشؤون الانسانيـــة ، تنجلي رويـــدا رويـــدا للعقل البشري مع مر الايـــام وكر الاعوام .

تلك فكرة قديمة ، وكان هيغل قد روج لها في زمن هس ، وتأثر هذا بها ، ولكنه أضاف اليها بوحي من واقعه اليهودي فكرة حول المجتمع ، اذ اعتبر المجتمع « ركـــام أفراد » وليس كـلا عضويا مرتبطا بأرض وسماء وثقافة ولغة وتاريخ ، ثم خلص من ذلك كله الى تقسيم المجتمعات البشرية الى « أعراق » أو « عناصر » ، وكل عرق منهـــا يتميز بوراثات عقلية ، وعلامات جسميـــة لا تتبدل ولا تتغير . وهذا هو مصدر « العنصرية » والتمييز العنصري الذي نشأت عنه الصهيونية ، وقامت النازية كرد فعل لها.

ثم راح موزس هس يبين بعد ذلك ــ وهو يفكر في اليهود ــ ان لكل عرق بشري وظيفة او « رسالة » فـــي الخطة الالهية المرسومة ، عليه ان يؤديها . وانتهى بـــه اعجابه بنفسه وأتباع دينه الى هذا التقرير العجيب» وهو ان أهم المقامات وأعلاها في الخطة الالهية التي يعتبـــر التاريخ تنفيذا لها وكشفا عنها ، انما خصصت لامتيـــن متضادتين : الاغريق واليهود . فالعالم في نظر الاغريـــق تنوع وتعدد ، وفي نظر اليهود وحدة . الاغريق يفهمـــون الطبيعة والحياة « كونا » متحققا ، قائما بذاته . واليهود يرون فيهمـــا « صيرورة » أي شيئا يخلق على الدوام . وقد بلغ الاغريق هدفهم في الحياة كالطبيعة التي يمثلونها وانتهى دورهم ، وتواروا بالتالي عن مسرح العالم . امـــا اليهود الذين يمثلون التاريخ ، فلا يزالون في الوجـــود يكافحون من أجل بلوغ هدفهم ، ليحققوا في اطار الحياة الاجتماعية « السَّبَت » التاريخي ، اي الانسجام بيـــن كل القوى الاجتماعية .

ولكن هذه الوظيفة التي وكل الى اليهود أداؤها ، لا يمكن ان تتأدى في أيـــة بقعة من بقاع الارض ، غـــير فلسطين . فلسطين هي الشرط الاساسي لجعل اليهـــود أمة ذات أرض تستطيع ان تعيش فوقها حياة اجتماعية طبيعية ، وتؤدي من على منبرها وظيفتها التاريخية .

تلك هي الصهيونية كما وضعها في صيغتها الفلسفية موزس هس عام ١٨٦٢ .

ــ ٢ ــ

الواقع ان هس كان يصدر في كل ما نسج مـــن فلسفة وآراء وأفكار ، عن النداء الذي وجهه نابليون الـــى اليهود يوم ارتطم في عكا ، لا أقل ولا أكثر ... وليست هذه « الحكايات » كلها عن التاريخ ، والخطة الالهيـــة ، والاغريق ، وهيغل ، واسبينوزا ، سوى كلام اريد بـــه تضليل المثقفين في ذلك الزمن ، وكان أن ضلوا ، وانطلت عليهم الخدعة ، ولا تزال منطلية على الاميركان ، وقاصري العقول من أبناء الشعوب الاخرى الذين لا يعرفون شيئا عن التاريخ القديم ، الا ما يصوره لهم اليهود ومن هم على شاكلتهم من ذوي الاغراض والمطامع الرخيصة .

وعندما نشأت الصهيونية كانت أوروبا تجتاز وضعا سياسيا سقيما ، مهلهلا ، اذ خلقت حروب نابليون فـــي المانيا خاصة ، وأوروبا الشرقية بما فيها روسيا ، عامـــة ، ضروبا من الاحقاد والضغائن ، لا تزال آثارها الى اليـــوم ، وراح الالمان يحاربون على الصعيد الثقافي كل من ينـــاصر الثورة الفرنسية او يدين بمبادئها ، وعمد الفرنسيون من جانبهم ، الى تأييد اليهود في مناوأتهم للعنجهية الالمانية . والكل من المان وفرنسيين وروس وانكليز ، ينشدون غاية واحدة ، ويطمحون الى نقطة واحـــدة : الاستيلاء علـــى الامبراطورية العثمانية واحتلال مواقعها الاستراتيجيـــة والتجارية .

غير ان هذه الشعوب الاوروبية كانت متنازعة فيما بينها ، واستثمر اليهود تنازعها ليكون لهم من بعد حصة في تلك الامبراطورية ، وتقرر في اذهـــان الجميع ان « حصة اليهود » من أسلاب السلطنة المحتضرة ، انما هي فلسطين . وكانت كل دولة اوروبية ــ باستثناء ايطاليـــا واسبانيا ــ تغري اليهود باعطائهم ما يطمحون اليه، وتحاول اكتسابهم الى جانبها ، واليهـــود يتقربون من كل دولـــة يجدونها قوية ، ويبذلون لها المال الذي أحسنوا جمعـــه ، شريطة ان تساعدهم على بلوغ أهدافهم .

واكبر دليل على ان الصهيونية « بدعة » استعمارية خالصة ، ليس لليهود أنفسهم فيها أدنى ظل من « فكر » هو ان موزس هس نفسه يستشهد بكتاب وضعه فرنسي يدعى ارنست لاهاران Ernest Laharanne عنوانه « المسألة الشرقية الجديدة » La nouvelle question d'Orient وعنه ينقل العبارات الآتية : « لقـــد أفردنا في بحثنـــا التعقيدات الشرقية الجديدة مكانا خاصا لفلسطين ، بغية لفت انتباه العالم الى هذه المسألة المهمة ، وهي ما اذا كان في امكان يهوذا القديمة ان تستعيد مرة اخرى مكانهـــا السابق تحت الشمس ، وليست هذه هي المرة الاولـــى التي تثار بها تلك القضية ، فخلاص فلسطين ــ اما علـــى يد الجهود التي يبذلها أصحاب المصارف الدولية اليهودية، واما على يد اسلوب أنبل ، أي باكتتاب عام يشترك فيه اليهود جميعهم ــ موضوع كان قد نوقش مرارا . فلم لم يتحقق بعد هذا المشروع الوطني ؟ الاكيد ان الذنب فـــي حبوط تلك الخطة لا يقع على عاتق اليهود الاتقياء ، لان قلوبهم تخفق لها بقوة ، وعيونهم تمتلىء دموعا من الفرح عند الافتكار بالعودة الى أورشليم . واذا كـــان المشروع لم يتحقق بعد ، فلا أيسر مـــن معرفة السبب ، وهو ان اليهود لا يملكون حتى الجرأة على التفكير في امـــكان امتلاكهم ثانية أرض أجدادهم ... » (1)

وعلق المؤلف « الفيلسوف » على هذه العبـــارات المنقولة ، بذكر حديث جرى له مع احد اصدقائه ، وكـــان هذا قد جاب عدة سنوات بلدان الدانوب ، وشاهد العذاب الذي يلقاه اليهود فيها ، وقـــد أخبرهم ان العودة الى فلسطين قريبت ، وسألوه : « ما هي عـــلامات اقتراب العودة ؟ » فأجـــاب : « علاماتها ان السلطات التركيـــة والباباوية على وشك الانهيار » .

وبهذا يتضح الخط السياسي الذي أمسك الصهاينة به ، في فجر نشوئهم ، وهو : ١) مقاومة الكثلكة ، وتعزيز البروتستانتية. ٢) توجيـــه الجهود نحو تفسيـــخ الامبراطورية العثمانية. ٣) تمكين اليهود من التغلغـــل الى ذروة الحياة الثقافية في اوروبا .

وعندما وقعت حرب السبعين بين فرنسا والمانيا ، وانهزمت فرنسا ، تحقق أول بند من هذه البنود الثلاثة، بتغلب دولة بروتستانتية على دولة كاثوليكية ، ووقفت

Rome and Jerusalem, by Masess Hess, translated from the German by Meyer Woxman, (New-York, Block Publishing Co., 1954) p. 133

انكلترا في تلك الحرب على الحياد ، واستطاع آل روتشيلد بما لديهم من ثروات وأموال ان يكسبوا عطف الامبراطور غليوم الظافر ، ثم ان يمدوا الحكومة الفرنسية المغلوبة يومذاك بالغرامة التي فرضها عليهم الغالب وقدرها خمسة مليارات ... وخرجت المانيا راضية من اليهود ، وفرنسا مدينة لهم .

— ٣ —

وجاء هرتسل المفكر السياسي ، بعد هس الفيلسوف ، يواجه وضع صيغة عملية لنداء نابليون ، وقناة لافكار هس تجري فيها جميع الجهود اليهودية ، وكانت بريطانيا قد خطت خطوات واسعة في طريق « التهود » السياسي ، فقد دفع لها آل روتشيلد الاموال التي اشترت بها أسهم قناة السويس من الخديوي ، واستطاع دزرائيلي بما أحدث من علاقات اجتماعية في لندن — مع النساء خاصة — ان يرتفع الى أعلى ذروة ، وهي رئاسة الوزارة البريطانية وقد عرف أول ما عرف بتآليفه الادبية .

كان بسمارك في تلك الفترة سيد اوروبا ، فلما تولى دزرائيلي سدة الاحكام في لندن ، ومهد لبريطانيا السبيل لولوج الشرق الادنى والسيطرة على مصر ، أخذ نفوذ المانيا يتضاءل ، وبدأت الدسائس تحاك حول السلطنة العثمانية . وعندما انتخب هرتسل مؤلف « الدولة اليهودية » رئيسا للمنظمة الصهيونية التي ظهرت الى عالم الوجود ، ذهب في تشرين الاول عام ١٨٩٨ الى الاستانة حيث قابل العاهل الالماني غليوم الثاني ، واقترح عليه انشاء شركة لتنمية الارض في فلسطين يتعهدها الصهاينة بحماية الالمان ، فلم يلق اذنا صاغية ، وكرر مقابلته للعاهل الالماني نفسه في الشهر التالي ، وعلى أرض فلسطين نفسها ، فرده غليوم معتذرا ان هذا التدخل في الشؤون العثمانية يثير غضب فرنسا وروسيا وبريطانيا . وهنا ، رجع هرتسل الى السلطان العثماني نفسه (أيار ١٩٠١) ، فرده السلطان ، وصرح له انه لن يسمح بأية هجرة جماعية الى فلسطين .

لم يبق أمام الصهيونية سوى بريطانيا ، فهي التربة الصالحة لنمو بذور العدوان فيها ، القابلة للاصغاء الى الدسائس والمكائد والمغريات ، فعقدت الصهيونية عزمها على جعل الزعامة السياسية في العالم لبريطانيا ، ومقاومة المانيا ، والافادة من فرنسا وروسيا قدر المستطاع ، لقاء خدمات مالية وجاسوسيات ودعايات ... وهذا هو ما كان ووقع في سلسلة الحوادث التي أفضت الى الحرب العالمية الاولى ، وجرت بعد الى الحرب الثانية .

مرت الفترة بين الحربين ، والصهيونية أنشط حركة سياسية في العالم كله ، وزادها قوة ونشاطا ما وفقت الى تحقيقه في وعد بلفور ، وتركيز بريطانيا في قمة الاستعمار ، واجتذاب الاميركان شيئا فشيئا لمناصرتها على نحو ما فعلت بالانكليز قبل الحرب الاولى . وكان يضايقها من فرنسا أنها وقفت عن تأييدها ، وفترت حماستها في الوقوف الى جانبها ، كما أقلقها من روسيا انصرافها عن المشاكل الاوروبية ، واشتغالها بتقوية نفسها في ظل البلاشفة .

هنا ، اخذت تعمل على « تهويد » فرنسا من الناحيتين : الاجتماعية والثقافية ، يساعدها في ذلك الانكليز انفسهم والاميركان ، بالاضافة الى العوامل السياسية الاخرى التي كانت تضعف فرنسا كمناوأة المانيا الهتلرية لها ، وثورات مستعمراتها ، واضطراب الحكم وتقلقله في باريس نفسها . وما زالت الصهيونية وانصارها في انكلترا واميركا تعمل في فرنسا وتعمل على تفتيت الروح الفرنسية السليمة والتغلغل الى صميم الفكر الفرنسي (برغسن ، اندره مورا ، اندره سواريس) حتى أوصلت ليون بلوم الى رئاسة الحكومة الفرنسية عام ١٩٣٦ .

كانت الاسرة في فرنسا ، شأنها في أقطار العرب ، أساس كل حياة اجتماعية متزنة ، ومصدر المعاني النبيلة والمروءات الرفيعة ، ولكن الصهيونية سعت الى تحطيم هذا الاساس ، هذا العماد الذي تستند اليه عبقرية الامة الفرنسية في بناء مفكريها وأقطابها ودعاة الانسانية الحقة من أبنائها ، فلما تولى بلوم رئاسة الوزارة فيها ، كان أول ما قام به اعادة طبع كتابه « في الزواج » Du Mariage وهذا بعض ما جاء فيه : « لتنفق المرأة قبل الزواج كل ما في غريزتها من ضرام وحرارة ، كل ما في نزواتها من محركات ، ولتستنفد نشاطها في عدد لا يحد من المغامرات ، ولتستعمل ما شاءت قلقها العاطفي وتجربتها النهمة الساعية أبدا وراء التجدد ، ولتستهلك هذه الفترة من الحياة التي تبدو بها الحياة أثمن شيء وأقصر شيء ، وتكون فيها كل ساعة لم توهب لاحاسيس قوية وكأنها تسبق الموت ، ويزيد الخيال فيها ما لا يقدر من قوة في تونب الحواس ... وانه ليبدو من الضروري اذن ، ان تعيش المرأة نفسها ايضا حياة صبي تائه ، حياة مفعمة بالشهوات والمغامرات ... أريد للاوانس ان يسترسلن بصراحة مع الغريزة ، ان يذهبن الى أقصى ما تبلغ الرغبة ، ان يسلمن انفسهن لدى كل ساعة يروقهن ذلك ... ما كان لي قط ان افهم بوضوح اي شيء منفر في نكاح المحرمات «inceste» ولا بحثت قط عن السبب الذي تتسامح من اجله بعض المجتمعات بهذا النوع من النكاح ، وتحرمه المجتمعات الاخرى ، ولا عن العوامل التي حملت مجتمعنا على النفرة منه ، وعدم التعرض له . وأنا هنا ، انما اشير ببساطة الى أنه شيء طبيعي ... »

تلك هي نظرة ليون بلوم اليهودي الى علاقة الجنسين ، وهذه هي فلسفته في شؤون الزواج والاسرة والحياة الغرامية . وقد جاء قبله فرويد ونشر في اوروبا كلها جوا من الاباحية الجنسية باسم الطب ، والعلم ، والتحليل النفسي . وفرويد ايضا يهودي .

أما عبادة الذهب ، وتقديس الثراء ، وجعل المال هو القيمة العليا والغرض الاسمى في الحياة الشخصية ، ثم في الحياة العامة ، فتلك من الامور المعروفة في طباع اليهود ، ولا يحتاج الباحث معها الى عرض التاريخ والاستشهاد بحوادثه ، وحسبنا ان نذكر الناس بمسرحية شكسبير « تاجر البندقية » التي وصف بها حقد اليهود على البشر ، وتعلقهم بالمال ، وتشددهم في اختزانه ، وشحهم به ، وحرصهم عليه .

وتمكنت الصهيونية من نشر هذه العادات والطباع في فرنسا ، خلال فترة ما بين الحربين ، فما أقدم هتلر على غزو « ماريان » حتى انهارت مقاومتها خلال ايام معدودات ، ولجأت تطلب العون الى اميركا وانكلترا ، وهي مشتتة ، موزعة بين الف تيار وتيار ...

— ٤ —

وهكذا انهارت الكثلكة في شخص فرنسا ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، ولم يبق الا ان تتسلم البروتستانتية مقاليد الزعامة في العالم ، وعن طريقها

يعود اليهود الى فلسطين ، ولكن المانيا لا تزال تقاوم الصهيونيه ، والمعركة الضخمة الهائلة التي تخوضها في شرق اوروبا ، هي التي ستقرر مصيرها .

ولا جدال ان هتلر هو الذي اعتدى على الاراضي الروسيه ، ومن الصعب ان يظفر المعتدي ، لا سيما اذا كان قد تعهد بعدم الاعتداء ...

كانت هذه هي نقطة الضعف الكبرى في سلوك هتلر ، وقد تمكنت الصهيونية من استغلالها الى اقصى حد ، ولا يبعد ان تكون انكلترا – وكان هتلر قد ارسل اليها رجلا يدعى « رودولف هس » واسمه يشير الى قرابة مع موزس هس فيلسوف الصهيونية – قد وجهت هتلر هذه الوجهة ، بايعاز من اليهود . وهذه احدى النقاط المهمة التي لا تزال غامضة في تطور الحرب الثانية العالمية .

وكيف دار الامر ، فان غزوة هتلر روسيا أضعفت المانيا وروسيا معا ، بعد انهيار فرنسا وتخاذل بريطانيا من الاساس .

وكانت الحركة الصهيونية تواجه منذ تولى هتلر مقاليد الحكم ، ان تلقي بثقلها كله الى جانب الولايات المتحدة ، وقد أبصرت ان متاعب بريطانيا الكثيرة في شتى انحاء المعمورة ، ولا سيما في اوروبا ، ستميل بها يوما ما الى التخلي عن سياستها ، وجاءت ثورة العرب عام ١٩٣٦ في فلسطين ، تؤيد الصهاينة الاميركان فيما حسبوه ، اذ أرغمت بريطانيا قبل اندلاع الحرب بقليل ، على اصدار الكتاب الابيض الذي توافق به على تمديد الهجرة الى الديار المقدسة من قبل اليهود ، وأخذت تراوغ العرب في مطالبهم العادلة المشروعة ، بعد ان كانت تضعهم فيما مضى أمام الامر الواقع .

وانتهت الحرب العالمية الثانية هكذا : المانيا مغلوبة، فرنسا منهكة ، بريطانيا مضعضعة، روسيا متعبة ، واميركا هي الدولة الوحيدة التي استطاعت ان تقف على قدميها من الناحيتين : العسكرية والاقتصادية . فمن كان الظافر ؟

الظاهر ان روسيا السوفياتية وأميركا هما اللتان خرجتا ظافرتين . والحقيقة ان الصهيونية وحدها هي التي كسبت الجولة الاخيرة ، وحققت النصر الاكبر في عراكها مع الجميع ، لان « اللاسامية » نشأت في اطار الحضارة الغربية بعد انكفاء الموجة العربية عن جنوب اوروبا ، وقامت الصهيونية ردا على اللاسامية ، من صميم الحضارة الاوروبية – الاميركية ايضا ، وانتهى العراك باندحار الغرب وحضارته امام العقل الصهيوني .

وذلك لان النازية – وهي المذهب الغربي الذي نشأ عن اللاسامية – اصطنعت افكار الصهاينة ، وسلكت أساليبهم في العنجهية والغطرسة ، ووافقتهم على الاخذ بمبدأ العنصرية في تركيز العلاقات بين الشعوب والامم .

– ٥ –

والان ؟..

الان انقضى العصر الذهبي للصهيونية الذي بلغ أعلى ذروة استطاع تسلقها عام ١٩٤٨ بعد أن دام أكثر من قرن ، وسبقته قرون وقرون من البلاء والعذاب ...

لقد كان في الامكان ترقب نشوء حضارة غربية جديدة على يد اميركا ، ولكن انتقال النشاط الصهيوني اليها ، جعل كل مسالكها الحضارية تدور في الحلقة التي دارت بها اوروبا من عبادة للمال ، وإباحية اخلاقية ، وتمييز عنصري ، وسعي وراء السيطرة ، وتعصب في الراي ، وتهالك اخيرا على الرفاهية المادية من غير احترام للقيم الانسانية الصحيحة .

هذه العيوب التي خلقتها الصهيونية في اميركا على غرار ما نشرتها في اوروبا ، جعل تلك امتدادا لهذه في حضارتها الراهنة .

ولن يكون مصير اميركا افضل من مصير اوروبا اذا هي استمرت خاضعة للجو الروحي والثقافي الذي تجهد الصهيونية في نشره وتعميمه ، فالصحافة في اميركا ، شأنها شأن دور السينما ، شأن الاسماء الادبية اللامعة ، كلها تذعن تقريبا لتوجيهات الصهيونية ، ولن يمر وقت طويل حتى تجد أي مأزق وقعت فيه .

والاكيد ان الصهيونية لن توفق في الشرق ، لانها لن تتوصل الى بلوغ السدة سده الحكم التي بلغتها في كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

والشرقيون – في آسيا وافريقيا على السواء – يعرفون طباع اليهود وأخلاقهم معرفة صحيحة ، وقد مارسوهم قبل أن تعرفهم اوروبا نفسها ، فضلا عن اميركا ، واستطاعوا ان يكشفوا الزائف من مبادئهم .

الشرقيون يعرفون بالتجربة ان الصهيونية لا يمكن ان تكون انسانية النزعة ، وما دام فيلسوفها « هس » قد نفى الجانب الانساني عن الشعوب كلها ، وحصره في اليهود ، فهذا معناه ان تطبيقاتها العملية لفلسفة مؤسسها لن تكون شيئا غير الاغتصاب والعدوان والمذابح .

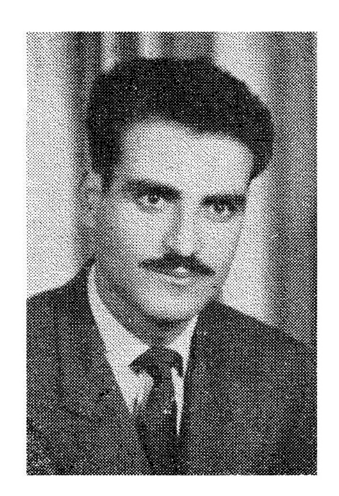
لقد عرف الشرقيون « انسانية » اليهود اخيرا في مذابح دير ياسين ، ونحالين ، وقبية وقرى لبنان الجنوبي ، كما عرفوها في حملة قناة السويس ، فلن ينطلي عليهم بعد شيء مما انطلى على الاميركان وغير الاميركان ممن يجهلون تاريخ اليهود في هذه البلاد قبل ولادة المسيح ، وبعدها ...

عبد اللطيف شراره

شمشون

الى شهداء العودة ...

الليل والقدر العجوز وقهقهات الشامتين
الليل .. لا يدري
والشوك ، واللبلاب .. لا يدري
وبنات آوى في رحاب كرومنا
بشمت .. ولم تدر !
وغدا كأني بالدم الموار في صلبي
وبكبرياء الله في شعبي
تنهال طوفانا من النار
وتعود تلك الدار عامرة
بالغار ، بالليمون ، بالحب
ونعود احرارا الى الدار
فالرمل صاد ، موجع الاحشاء ، للثار
والشمس تكتم بسمة نشوى بأفراح
الغد الزهر
وهناك .. خلف الصحو ، في افق
الدموع
خلف ابتسامات الاسى الصفر
ووراء هذا الازرق المتبلد العاري
أفكارنا تحبو .. فتلتهب السمـــاء
بحقدنا الضاري
وتكاد تنفجر الحروف بألفاعصار
واعصار
مهلا .. سينحسر العجاج ويصخب
الاطفال بالسر !
الريح في الوادي تولول ، والعنادل
حطت — وأين الظل ؟! — تشكـو
للردى مأساتها :
« الفجر كان لنـــا .. وميعـــاد
النسيمات الصديقه
كانت لنا تلك الحديقه :
يافا .. وأشرعة يضاحكها المدى
فتئن ذاهلة كأن وراء أنتها الفدا
خضراء او بيضاء او حمراء خافقة السنا
كانت لنا ..
كانت لنا ..
كانت بما فيها ، وكان لنا
في ظلها الندبان أجنحة طليقه
تشدو فيصحو برعم غنج حريري الغلائل
وتفوح زنبقة رقيقه
ويبيت عملاق الذرى في كل عرس ،
كل محنه
سهران يرعانا بـــلا أجر ، بلا منه
فتسيل في أندى حناجرنا محبتــه
العميقه



وبصدره يتشوف النسر الاغر الــى
كوى الجنه

. . .

كانت ، أجل كانت .. وما زالت
ولكن آه .. من يقوى على ذكر الحقيقه ؟!»

المعبد الهمجي : كهان ، قرابين ذليله
غزو يهوذي وحاشية بلا عدد وغانية
لعوب
وثنية النهدين والعينين والخطوات ،
صهباء الجديله
شهق المصلون السكارى باسمها
فتنهد المحراب وانتفضت شرايـيـن
الغيــوب :
« أي ، أي .. دليله ! »
وفتى خرافي السمات يلوكهم بلحاظه
ويدور محرور الضغينة وهو يــرزح
بالسلاسل :
« لو لم يكن سري لديها
لو لم أنم والباب ، مد الليل ، مفتوح لها
لو لم أثق بأبوة التجار تدفعنـــي ،
بلا ثمن ، اليها
لم يهو راعي القمة الشماء فرخـــا
في يديها ! »

. . .

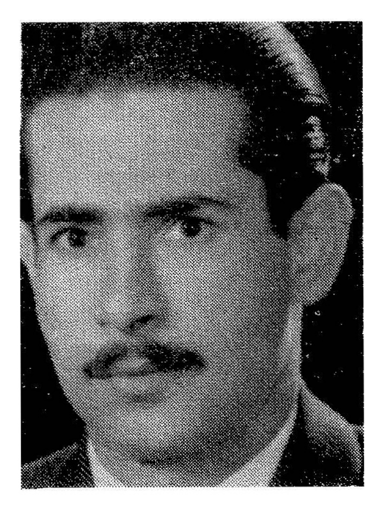
وتفتقت شفتاه في ريب
وتراقصت أرجوحة القلب :
« شعري يعود الى مداه الاول
هبني رضاك وعونك الابوي يا ربي
وصمودك العربي يا شعبي
كي تنجلي
هذي الغيوم السود عن مستقبلي »
وتلفت الاوغاد في رعب :
« شم .. شو .. ن ! »
اين المفر ؟ وكيف ؟ غلق كل باب
وخبت على يده المجامر ، يا لقطعان
الذئاب
من نقمة الراعي ومن هول الحساب
« خذهم بما اقترفوه من ذنب
أعداؤنا عطشى فصب لهم
حمما من السحب
وعليهمو .. وعلي يا ربي ! »

الريح في الابواب ، في الساحات ،
عبر الاوديه
خيل تحمحم .. يا لها غرثى جريحه
ويهيجها ، سحرا ، دوي الانفجار
فتغير خاطفة سنابكها خصيـــلات
من الشهب
لكأن خولة في الطريق الى ضرار
لكأن سيف الله في الركب
القادسية تستفيق وتهدر اليرمـوك
في دربي
فالمعبد الجبار لا يقوى على ستـر
الفضيحه .
تتر وخصيان وغانية كصل المعصيه
كل تلقى ، تحت نعليه ، ضريحه !

الريح تنضو ثوبها الدامي ، تحـور
الى نسيم
خطرت ومعبدهم كمقبرة
تركت بلا عسس ، بلا سور
وركام طغيان عدائي لئيم
كوم من الآجر ، آلهة مشوهة
وألواح معفرة الرسوم
أعقاب أعمدة رخاميه
وسلاسل مرفضة الحلقات ، مرميه
وصدى أنين غائر في القاع ، مطمور

وتدب في الانقاض .. كالنبض
حمى مخاض يستفز كوامن الارض
وحفيف روح
— من سماء غير تلك القبة البلهاء —
منقض
شمشون ينفض عنه أكداس التراب
فنهب في فرح طفولي عنيف
نبكي ، نلفلف جرحه بشفاهنا
وبما تبقى من تجلدنا النزيف
فيعـود أقوى ما يكون مجنحـــا
برؤى الشباب
ثمل الفخار بحبنا المتورد الغض
والطير تشدو حوله مزهوة
وترف تنثر من أغانيها العذاب
في لهفة الغرباء للاوطان ،
في ظمأ الاجنة للوجود
أسطورة من موطني سكرت بهــا
روح الخلود
أسطورة البطل الذي ضحى ..
ويبعث كالنبوءة من جديد !

دمشق — **علي كنعان**



حصاد المعركة في الفكر

بقلم عبد الجليل حسن

في عام ١٩٣٧ وبعد الثورة الفلسطينية الشاملة ١٩٣٦ ، صدر عن دار « مجلتي » للطبع والنشر ، مجلد أنيق عنوانه « في الفكر اليهودي » جمع مادته ونسقها ج. ه. هرتس وترجمه الى العربية الفريد يلوز ، رئيس قلم الترجمه بوزارة الزراعه ورئيس جمعية الشبان اليهود المصريين ، والكتاب في ٤٤٥ صفحة وعبارة عن مجموعة من المقتطفات التي تشيد باليهود ... وأعجب ما فيه الكلمات التي ضمها عن الصهيونية « فالحركة الصهيونية اليوم هي أعظم بل وأشهر حركة يعرفها التاريخ اليهودي منذ اقدم الازمنة » (ص ١٥٨) ، وكذلك اشاده بالتصريح البريطاني الخاص بفلسطين (ص ١٥٩ – ١٦٠) ، وستجد قصائد عربية تدعو اليهود الى الجهاد لانقاذ فلسطين من يد الاعداء ! وانهم سيحطون رحالهم عند ضفاف الاردن ، والاغرب من هذا ان تجد اشارة الى ما يشبه وعد بلفور، صادرة عن تيودور هرتسل ، داعية الصهيونية الاول ، قالها عام ١٩٠٠ : « ستفهم انكلترا أغراض الصهيونية وأمانيها بل وستعطف عليها » (ص ١٥٦) ، وقد صدرت في البلاد العربية كتب اخرى تحمل دعاية سافرة او غير مباشرة للصهيونية ... وليس ذلك بمستغرب فقد كانت انكلترا ، حاميه الصهيونية بل وخادمتها ، تحتل معظم البلاد العربية .

ولكن هل كان الفكر العربي غافلا الى هذا الحد عن الاخطار التي تتهدد كيان العرب ؟ بالطبع لم يكن ذلك صحيحا تماما ، فلقد اخذ المثقفون العرب يتحملون مسؤوليتهم ، وينبهون الى الخطر ، ولكن ليس بصوت عال الى حد يتجاوب مع خطورة المعركة .

ففي يافا في العام نفسه ، صدر كتاب من تأليف عيسى السفري بعنوان « فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية » وهو سجل عام لقضية فلسطين في مدة عشرين سنة ، أي منذ وعد بلفور الى ١٩٣٧ ، والذي دفع المؤلف الى كتابة كتابه انه لم يجد في العربية كتابا يشمل تفصيلات قضية فلسطين ، ولما كان هو احد المتتبعين لهذه القضية وتطوراتها ، ألف كتابه ليكون سجلا عاما لها متوخيا السهولة ، ووفرة المادة ، وتنسيق الحوادث ، والكتاب عبارة عن مجلد واحد (٤٦٢ صفحة) يحوي كتابين ، الاول عن تاريخ القضية العربية الفلسطينية منذ الاحتلال البريطاني ، الى نشوب ثورة ابريل ١٩٣٦ ، ذكر فيه أهم التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وجعل منه سجلا وافيا لاحداث القضية في مدى ثمانية عشر عاما ، والثاني يشمل تاريخ الثورة العربية الكبرى في فلسطين منذ ١٩ ابريل ١٩٣٦ الى ابريل ١٩٣٧ ، وهو يعرض في هذا الجزء لاهم معارك الثورة ، والمظاهرات وهدم الجسور وتخريب الخطوط الحديدية وقلب القطارات وقطع اسلاك البرق والتليفون ونسف البيوت وغير ذلك من مظاهر ثورة ١٩٣٦ ... والكاتب قريب من هذه الاحداث ، يصورها بصورة مفصلة .

***

واذا نظرنا الى هذه الفترة وما سبقها حتى بداية الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩ ، نتتبع النتاج الفكري حول قضية فلسطين ، لوجدنا اهمالا وعدم انتباه كاف في هذه الفترة على طول ما يزيد عن عشرين سنة ، بالرغم من خطورة هده الفترة ، وانها كانت الارض الخصبة لنمو جدور الاخطبوط الصهيوني في الارض العربية ، فهي فترة التحضير العملي لانشاء دولة اسرائيل ، فالكتب التي تنبه على الخطر في هذه الفترة ضئيلة ... وبعد الانفجارات والاضطرابات العنيفة التي شهدتها ارض فلسطين ، وبعد ازدياد موجات الهجرة وتنبه الجماهير العربية لها ، وبعد اتحاد الاحزاب في فلسطين واجتماع بلودان وتكرر عقد المؤتمرات ، بعد هذا كله وفي اثنائه ابتدأت بعض الكتب تظهر حول القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، ولكنها قليلة جدا ولا تتناسب بأي حال مع خطورة المشكلة ، ولا تصل الى مستوى الرؤية الواضحة للخطر المنتظر .

● فمنذ زمن بعيد ظهر كتاب عن تاريخ اليهود بعنوان « تاريخ الاسرائيليين » من تأليف شاهين مكاريوس طبع بالقاهرة في مطبعة المقتطف سنة ١٩٠٤ – ٢٧٥ صفحة.

● وأسرار اليهود تأليف نسيم ملول سنة ١٩١١ – ١٤ صفحة .

● اليهود وفلسطين ، اليهود والاسلام قديما وحديثا ، صفحة تاريخية من بيان مؤامرات اليهود وعداوتهم للاسلام مؤيدة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والنصوص الاثرية تأليف أحد علماء الازهر الشريف . طبع بالقاهرة ١٩٢٨ – ٣١ صفحة .

● الثورة الفلسطينية الدامية والقضيتان الصهيونية والعربية ، تأليف صبحي أباظة – صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٠ – ٦٤ صفحة .

● في العالم اليهودي ، استعراض مجمل لتاريخ اليهود وبحث مفصل في الصهيونية وأحزابها مع شرح

الاتجاهات اليهودية ، تأليف جبرا نقولا . القدس ، مطبعة بيت المقدس ، ١٩٢٥ — ٨١ صفحة .

● جهاد فلسطين العربية ، فصول تبحث في تاريخ القضية الفلسطينية ، ما طرأ عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الاول حتى الثورة الحاضرة ، تأليف عمر ابو النصر وابراهيم نجم وأمين عقل ، يافا ١٩٣٦ — ٣٦٨ صفحة .

● قضية فلسطين العربية تأليف الدكتور كنعان. القدس ، ١٩٣٦ .

● عن ثورة فلسطين ١٩٣٦ أصدره مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي للجنة الفلسطينية العليا. القاهرة ، ١٩٣٦ — ٨٠ صفحة .

● اليهود والاسلام قديما وحديثا ، اليهود وفلسطين وآيات الجهاد والاحاديث عنه ، رسالة مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي بالقاهرة الى العالم الاسلامي . اصدار اللجنة الفلسطينية العربية . القاهرة، سنة ١٩٣٧ — ٣١ صفحة .

● بيان وذكرى عن فلسطين المصابة الى لبنان المعافى ، اصدرته اللجنه العليا العربية — بيروت ، مطبعة الكشاف ١٩٣٧ — ١٦ صفحة .

● من المتنعم في فلسطين ؟ بقلم مقيم بريطاني سنة ١٩٣٧ .

● فلسطين الدامية . سجل خالد عن الحركة الوطنيه العربيه في فلسطين وتطوراتها وآراء كبار المفكرين والزعماء في الصهيونية والانتداب . أصدرته جريدة الجزيرة — دمشق ، مطبعة الاعتدال ١٩٣٧ — ١٦٤ صفحة .

● خطب حفلة الافتتاح الكبرى للمؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والاسلامية للدفاع عن فلسطين المنعقدة في القاهرة في ٧ من اكتوبر ١٩٣٨ وقرارات المؤتمر وأعضاء الوفود . القاهرة ، مطبعه عباس ١٩٣٨ — ١٥٠ صفحة .

● الشهادات العربية امام اللجنة الملكية في فلسطين وخلاصة قرار اللجنة الملكية . الطبعة الثانية ، طبع بمطبعة الشعب ١٩٣٨ — ٧٥٦ صفحة .

● النظام الاقتصادي في فلسطين ، تأليف سعيد حمادة ، ١٩٣٩ .

● قضية فلسطين ، رأي المرأة المصرية في الكتاب الابيض الانكليزي ، تأليف منيرة ثابت . القاهرة ، رابطة التضامن الادبي ١٩٣٩ — ١٤ صفحة ، وهو يحتوي كذلك على ترجمة للبيان باللغة الفرنسية في سبع عشرة صفحة.

● وكذلك هناك تقرير لجنة شو (١٩٢٩) ، ولجنة سمبسون (١٩٣٠) ، ولجنة بيل (١٩٣٧) ، وتقرير لجنة التقسيم (وودهيد) في ١٩٣٨ ، وفلسطين ، بيان الخطة السياسية (الكتاب الابيض) في ١٩٣٩ .

***

وكنا نود ان يكون لدينا مسح لما نشر من موضوعات تتصل بالقضية الفلسطينية في الصحف والمجلات ، ولا يتيسر ذلك الا اذا كان لدينا كشافات تحليلية للصحف والجرائد ، حيث يرتب ما نشر فيها من مقالات وابحاث ودراسات وغير ذلك بحسب موضوعاتها مجمعة تحت مداخل لرؤوس موضوعات محددة ، مما ييسر مهمة الباحث ، ولكن للاسف ليس عندنا في اللغة العربية شيء من هذا القبيل ، الا محاولة متواضعة محدودة وقريبة جدا لفهرسة بعض المجلات والجرائد المصرية ... وقد تكون الصحف والمجلات اهم من الكتب في قياس شدة اهتمام الراي العام بهذه القضيه ، التي كانت السبب المباشر في تفجير الطاقه الثوريه العربيه في أعقاب الحرب الثانيه . وفي تصدع وانهيار مظاهر كثير من الاوضاع المتخلفه في كثير من اجزاء الوطن العربي ، وهي كذلك التي ابرزت في وعي الجماهير العربيه بشكل حاد أزمة الكيان العربي الواحد ، وحتميه الوحده العربية . وفي عرضنا لحصاد المعركه من نتاج الفكر المتمثل في الكتب التي صدرت ، لن نتناول المجلات ، بالرغم من وجود أبحاث هامه بها ، ولذلك لن نتعرض الا للكتب المؤلفه ، وان كان مما يكمل الصورة الاهتمام بالكتب المترجمه ، لدلالتها على الراي العام في البلاد الاخرى ولكن لا يمكننا الحكم في هذه الناحيه باطمئنان ، لاننا في هذه الحاله نحتاج الى مقارنة هذه الكتب التي ترجمت بغيرها في لغاتها مما لم يترجم حتى يمكن ان تعرف مكانها الحقيقي في التأثير على الراي العام في لغاتها . وان كان يحسن فعلا التعرف على هذه الكتب التي ترجمت لانها نظرا لعنصر الاختيار تكشف كذلك عن مظاهر اتجاه الفكر نحو هذه القضية ، ولكننا لن نتعرض لها فقط لتحديد نطاق الموضوع .

وهناك جانب اخر وهو جانب الوثائق والشهادات حول قضية فلسطين ، والحاجه ماسه الى انشاء معهد يجمع هذه الوثائق وينظمها وييسرها للباحثين ، ومن اجدر بذلك من الجامعه العربيه . وان كانت الجامعة العربيه قد أدركت اخيرا بعض مظاهر النقص في هذه الناحيه ، فانشأت اعتبارا من هذا العام ، بالمعهد العالي للدراسات العربية العليا « قسم الدراسات الفلسطينية » ، ليهتم بدراسه القضيه الفلسطينية والصهيونية ، وهذا لا يغني عن انشاء معهد خاص لهذه الدراسة ملحق به مركز علمي للوثائق والمراجع المتعلقة بأهم قضية عربية .

***

ولدراسة حصاد المعركه في الفكر ، كان يجب ان نعنى بدراسة مظاهر الاهتمام بالقضية الفلسطينية كما ينعكس في الكتب التعليمية ، مما يقتضي دراسة البرامج والكتب الدراسية في مراحل التعليم المختلفة في مختلف الدول العربية ، ومقارنه مدى ما توليه لهذه القضية من عناية ، وبالرغم من يقيننا بأهمية هذه الدراسة التربوية وحيويتها ونتائجها العملية ... الا اننا نشير فقط الى ضرورة مثل هذه الدراسة ، عل باحثا اخر ان يقوم بها .

***

ونكتفي باستعراض سريع جدا واشارات موجزة ، تقتصر أحيانا على مجرد السرد ، الى أهم الكتب التي ألفت حول القضية الفلسطينية بمختلف نواحيها ، حتى يمكن ان نتبين حصاد معركة العرب الاولى في الفكر العربي الحديث ... وقد تفوتنا كتب كثيرة ، وقد نغفل عن كثير مما نشر خارج مصر ... وعلى كل لسنا في مجال الاحصاء الشامل أو السرد الكامل ، وانما نقدم محاولة اولى لما ألف من كتب حول الموضوع مما يمكن ان يهدي الباحثين عند التعرف على ما صدر في اللغة العربية من كتب حول القضية الفلسطينية .

***

رأينا ان صوت الفكر لم يكن عاليا او عميقا بما فيه الكفاية في الفترة السابقة ... ولننظر الان في الفترة التي تمتد من ١٩٤٠ الى ١٩٤٧ ، حيث ظهر الخطر

الصهيوني بشكله البشع وابتدأت الجريمة تأخذ طريقها على المسرح ، وكان الامر يتطلب تعبئة الجهود العربية لدفع هذه الجريمة قبل ان تتم .

وقد حدثت أحداث هامة في هذه الفترة وخاصة في أواخرها ، وكانت بدايتها مهادنة من جانب القوى العربية الحاكمة وأملا في وعود بريطانيا التي قطعتها على نفسها في الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ... وحدثت فيها تطورات خطيرة ، فقد اخذت الصهيونية تخطط لجعل الاستعمار الاميركي الجديد يساندها بعنف بدلا من الاستعمار البريطاني الذي يبدو انه قد استنفد دوره في تمهيد الارض لها ، فالمؤتمر الصهيوني بأميركا يطالب روزفلت بتبني القضية الفلسطينية ، وجمع من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب العملاء يعلنون في ٢ نوفمبر ١٩٤٢ في ذكرى وعد بلفور « وحين تنتهي الحرب يجب ان يكون هدف العالم المتمدن التمهيد لجماهير اليهودية العودة الى وطنهم » ... والاجتماع الصهيوني في فندق بلتيمور سنة ١٩٤٢ ، وظهور عصابات الهاغانا الارهابية ... ثم تطور الوعي الشعبي ومحاولات الجماهير العربية للتصدي للخطر الصهيوني... ثم تبني ترومان الدفاع عن الصهيونية علنا وبشكل أحمق أملا في أصواتهم ... وظهور الجامعة العربية الى المسرح وتقريرها مقاطعة اليهود اقتصاديا في فلسطين سنة ١٩٤٥ ، واللجنة الانكلو اميركية ... ونقض الكتاب الابيض ... وتوالي اضرابات العرب ومؤتمر انشاص للملوك والرؤساء العرب في ١٩٤٦ ، ولعبة المفاوضات بين بريطانيا والعرب ... واللجان ، وقرار التقسيم ... وتدفق جيش الانقاذ الى فلسطين .

والملاحظ أنه لم يكد يصدر شيء من الكتب في السنوات الاولى من الحرب العالمية ، وهي فترة المهادنة.. ولكن عندما استبان الخطر الصهيوني الماثل ، اخذت بعض الكتب تظهر في فترة الغليان التي عاشتها القضية الفلسطينية ، وتنبه الى الخطر الوشيك الحدوث ، والى الانفجار القريب ... ولكن ، للاسف ، لا يمكن ان نلمح توازنا كاملا بين المستوى الفكري في معالجة القضية وبين ما كانت تتطلبه القضية من توعية كاملة شاملة لمؤازرة الحركات الشعبية وفضح القيادات الحكومية التي لم تدرك خطورة القضية فواجهتها غير موحدة ، بل واجهتها بالمفاوضات حينا والانفعال والحماس الاجوف حينا اخر وحين واجهتها بالسلاح ، كان القائد الاعلى للجيوش العربية ، في حقيقة الامر وواقعه ، قائدا انكليزيا !!

ولكن مهما يكن من امر فان الكتاب أخذ يتجاوب فعلا مع المعركة التي يخوضها العرب ويعبر عنها ، وقد صدر عدد لا بأس به من الكتب بعد الحرب العالمية الثانية .

***

ومن بين هذه الكتب ، كتاب صغير بعنوان « فلسطين بين مخالب الاستعمار » من تأليف صادق سعد ، وصدر الكتاب في سنة ١٩٤٦ عن لجنة القاهرة للتأليف والنشر (١٢٠ صفحة) .

والمؤلف يعتذر في مقدمة كتابه عن كتابته عن مشكلة فلسطين ، بينما مصر كلها مشغولة بمفاوضات صدقي – بيفن ... ولكنه يرى – بوعي – أن قضية فلسطين ليست مختلفة في جوهرها عن القضية المصرية ، « فهي ايضا قضية التحرر من الاستعمار الاجنبي ، وهي ايضا قضية التحرر من الحكم الرجعي المفروض على الشعب فرضا » ، والكتاب على درجة كبيرة من الوعي والنضج ، وهو يربط بشدة بين الاستعمار والصهيونيه . « الصهيونية شريكة للاستعمار البريطاني في فلسطين و « ربيبته » ، يتبادل كلاهما المساعدة ، ويتقاسم المنفعة » ، ويحاول الاستعمار البريطاني ان يصور مساعدته للصهيونية تصويرا أخلاقيا ومثاليا باسم مساعدة اليهود المضطهدين الفقراء » .

وما الحل ؟.. يقول : « ان التجارب علمتنا ان الكفاح الشعبي هو الوحيد الذي في استطاعته ان ينقذ فلسطين » (ص ٣) ، والعدو الحقيقي الذي يجدر بالكفاح الشعبي ان يعرفه معرفة كاملة هو الاستعمار البريطاني والصهيونية ... « ان الاستعمار البريطاني يحاول ان يجعل من فلسطين قاعة لمناوراته الرجعية العالمية» (ص١١٢)

وقد أدرك الكاتب بوعي ان « قضية فلسطين هي عين قضية المستعمرات الاخرى جميعا » ... والمشكلة الرئيسية في القضية الفلسطينية لم تكن في المسائل الفرعية او الثانوية مثل الهجرة اليهودية او مشكلة الارض، ولكنها هي وقوع فلسطين في مخالب الاستعمار الاجنبي» (ص ١١٣) ، ويبين الكاتب أن الاستعمار حاول صرف العداء نحوه وتحويله الى العداء الديني او العنصري لليهود ... وهو يأمل في حل القضية عن طريق الكفاح الشعبي الذي ظهرت بوادره في تطوع عرب من بلاد مختلفة في المنظمات الثورية المسلحة التي ناضلت ضد الاستعمار البريطاني » ويرى ان حل « قضية اليهود لا يختلف اساسا عن قضية الزنوج في اميركا ولا عن قضية الهنود في جنوب أفريقيا » (ص ١١٧) .

وفي الكتاب ملاحظات ذكية متعددة ، مع التركيز المستمر على الاستعمار ، فهو يرى ان الصهيونية – في اساسها – حركة عنصرية ، وان الصهيونيين لا يواجهون العنصرية مواجهة مباشرة ، بل هم يرتاحون اليها في بعض الاحيان ، لان الاضطهادات العنصرية هي التي تمون الصهيونية بالمهاجرين اليهود الى فلسطين ، ويؤكد ذلك بنصوص يستشهد بها (ص ١٣) .

ويلتفت الكاتب الى العداء المستحكم بين الصهيونية والديمقراطية ، والى الحقيقة الغريبة والصادقة معا وهي التعاون الوثيق بين النازي والصهيونية ، التي هي حركة متطرفة لصغار الرأسماليين من اليهود ، ويدلل الكاتب على قوله بنص ينقله عن دارسي كوبر (ص ١٨) ، يوضح ان الحزب النازي هو الذي نظم هجرة اليهود الالمان الى فلسطين بمعونة المؤسسات الصهيونية نفسها التي بقيت في المانيا ، تحت حكم النازي ، ويبين ان النازية اضطهدت فقط اليهود الفقراء والمتوسطين ، ولكنها لم تمس كبار الماليين والصناعيين اليهود بسوء ... وسيلتفت الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الصهيونية العالمية » سنة ١٩٥٦ اي بعد هذا الكتاب بعشر سنوات ، الى مثل هذه الملاحظة ويؤكدها ، فكأن تضخيم النزعة ضد السامية واذكاء التفرقة العنصرية ... ابتكار صهيوني ، يستفيد منه الصهيونيون في استدرار العطف عليهم ، وهو يبين كذلك ان الصهيونية حركة عنصرية ايضا ، ففي داخل المجموعة اليهودية في فلسطين – لم تكن دولة اسرائيل قد ظهرت بعد – توجد تفرقة عنصرية بشعة بين اليهود الشرقيين والغربيين وبينهم وبين العرب من ناحية اخرى.

ويلاحظ المؤلف كذلك في دراسته لتطور المجتمع الفلسطيني والحركة الوطنية عدة ملاحظات صادقة ،

وخاصة فيما يتصل بتحليله لدور القيادات الوطنية التي تصدت قيادة النضال الوطني ، وانها لم تكن تمثل مصالح الشعب ومصالح الاكثرية بل مصالح فئة صغيرة من الشعب العربي الفلسطيني ، وهو يتحدث عن دور العائلات نصف الاقطاعية (ص ٨٩) والاحزاب التي تمثل مصالح الرأسمالية العربية ... وموقف الرجعية العربية المخدوعة التي تنتظر « صداقة » بريطانيا ... راجع شهادة المطران غريغوريوس الحجار امام لجنة بيل « ان ولاء العرب للامبراطورية البريطانية سياسة ثابتة ... » في جميع بلادهم (ص ٩١) ، ويهاجم المؤلف كتاب الدكتور يوسف هيكل عن « القضية الفلسطينية » باعتباره يريد ان يؤكد بأن بريطانيا تحفظ التوازن بين العرب واليهود ، وأن المستفيد من ترويج هذه الفكرة هم الانكليز والصهيونيون والرجعية العربية ، والمؤلف يشجب موقف اللجنة التنفيذية العربية التي كانت تحت نفوذ العائلات الكبيرة ، وموقف من سماهم الاستعمار بالمعتدلين ، ونداء ملوك العرب سنة ١٩٣٦ الى الثوار « ليخلدوا الى السكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية » ! وقد اعطى وقف الاضراب والثورة « فرصة للرجعيين المعتدلين من الزعماء العرب ان يجعلوا الحركة الوطنية تتقهقر » (ص ٩٨) — ويذكر ان الذي قام بمحاولات التوسط هذه ، الامير عبد الله ثم نوري السعيد (ص ٩٨ — ٩٩) ، وحين فشلت الوساطات والمفاوضات مع « صديقة العرب » ... أرادت اللجنة العربية ان تواصل الكفاح الوطني ، ولكنها لم تستطع ، بعد ان استجابت لنداء الملوك ، لانها تقهقرت باعلانها ايقاف الاضراب والثورة وأدت بذلك الى سلب الجماهير ثوريتها وفشلت في قيادة الحركة الوطنية ، لتتسلمها القيادة الشعبية (راجع الفصل الثالث والرابع) .

والذي يلاحظ هنا ، ان الكاتب ، يعتمد في تحليلاته وتفسيراته على فهم ووعي اشتراكي ... وأنه يستنكر ، خلال كتابه الصهيونية كأداة للاستعمار ، ويفضحها ويدينها باعتبارها وجها آخر من وجوه الاستعمار ، ولكنه ينظر الى اليهود — وخاصة الطبقة العاملة منهم — بنوع من العطف ، وانها هي الاخرى ضحية الاستغلال الصهيوني ، أو الرأسمالية الصهيونية والرأسمالية الغربية (ف ١) .. ولكنه كان متفائلا الى حد السذاجة حين يقول (ص ٢٥ — ٢٦) « ... ان على الصهيونية أن تكون حذرة جدا ، اذ ان الطبقات الشعبية اليهودية التي تستقبلها الصهيونية قد تفهم اللعبة وتتحد مع الطبقات الشعبية العربية ضد الاستعمارين الصهيوني والبريطاني ، ولذلك تقوم الصهيونية بدعاية واسعة النطاق لتدفع باليهود الى كره العرب ، والنضال ضدهم واضطهادهم » .

وكذلك لم يلتفت الكاتب ، بما فيه الكفاية ، الى ان هناك استعمارا جديدا هو الاستعمار الاميركي ، هو الذي سيتولى وزر انشاء وخلق اسرائيل لتكون قاعدة تحفظ مصالحه ، في أمله وفي تصوره وفي حسبانه ... ولكن آمال الاستعمار دائما الى فشل ، ان فلسطين اريد لها فعلا ان تكون قاعدة لمناورات الرجعية العالمية » ، أرادت ان تخلق فيه مخلوقا صناعيا مجلوبا ، متسلحا بالوهم وتزييف التاريخ ، لاصطناع مثل اعلى للخداع والتمويه... ولم تصل رؤية الكاتب ، رغم وضوح الطريق امامه ، في كثير من نقاط بحثه — لم تصل رؤيته الى انه بعد سنتين فقط ستوجد « دولة أسرائيل » ، قاعدة للاستعمار ، وللصهيونية العالمية ... ولكنه كتاب في وقته سنة ١٩٤٦ كان يستحق اكثر من الالتفات ، وخاصة ان المؤلف استطاع ان ينظر الى هناك عبر سيناء ، في وقت تتفجر فيه الثورة في القاهرة والاسكندرية ضد بريطانيا ، مفاوضات صدقي — بيفن ... وهو يرى ان التأمل في قضية فلسطين يفيد الوطن المصري ... ان الاستعمار واحد .

***

والان ما هي الكتب التي ظهرت في هذه الفترة ، من ١٩٤٠ الى ١٩٤٧ ؟

يمكن تبين فترة المهادنة في السنوات الاربع الاولى ، حيث لم يصدر شيء تقريبا ، ثم لاحظ عناوين الكتب فهي تكشف عن اهتماماتها الى حد ، ولكنها لن توضح اتجاهاتها الحقيقية ... سنجد في هذه الفترة الكتب التالية :

- بيان المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى في فلسطين عن السنوات ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ هـ الموافقة لسني ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ م . القدس ، مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية — ١٩ ص ، به جداول احصائية .
- تقرير بعثة الجمعية الزراعية الى فلسطين عن مشاهداتها أثناء رحلتها ٢٥ مايو لغاية ٤ يونيه ١٩٤٤ — من وضع محمد زكي الابراشي واحمد محمود ، القاهرة ، مطبعة عناني ١٩٤٤ — ١٢٠ صفحة ، به خريطة وصور .
- الصهيونية تأليف انور كامل ، الاتحاد ، ١٩٤٤ — ٦٢ صفحة .
- القضية الفلسطينية — تحليل ونقد — تأليف يوسف هيكل ، وللكتاب مقدمة كتبها محمد حسين هيكل « باشا » — وللمؤلف كتاب آخر هو « مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره » وقد كان المؤلف عضو مجلس التعليم العالي في فلسطين ، وله اهتمام واضح بالقضية العربية ، وقضية الوحدة ، وقد ألف كتابا عن « الوحدة العربية » في سنة ١٩٤٢ .
- وقد نشر كذلك كتيب صغير في سنة ١٩٤٤ بعنوان « وثائق للتاريخ — دفاع الدكتور فيليب حتي عن قضية فلسطين العربية » وهو عبارة عن تقرير القاه فيليب حتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس ، وكذلك رد فيليب حتي على محامي الصهيونية نيومن وكذلك رده على اينشتين ... وقد كان مثل هذا الكتيب يمكن ان يثير الانتباه الى حد بعيد ، الى مؤامرات الصهيونية في اميركا ... ولكن للاسف لم يلتفت الى ذلك رغم الثقل الذي كان يحتمل ان تثيره هذه المناقشة فقد كانت مع اينشتين .

***

- الخطر الصهيوني لواضعه ابن العراق — طبع الكتاب بمطبعة شركة الشرق للطباعة بمصر ، في حدود ١٩٤٥ — ١٠٠ صفحة .

وقد كان مؤلف الكتاب يأمل في الصداقة البريطانية الاميركية ! لمساعدة العرب على التخلص من الخطر الصهيوني ... ومثل هذا الاتجاه تلمحه في كثير من الكتب في هذا الوقت .

- الصهيونية ، نقد وتحليل ، تأليف سعدي بسيسو . القدس ، المطبعة التجارية عام ١٩٤٥ — ٢٧٩ صفحة ، وقد كتب مقدمة الكتاب احمد حلمي .
- فلسطين العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها : تأليف وديع تلحوق ، ١٩٤٥ — ١١٢ صفحة .

— التتمة على الصفحة ٨٥ —



عندما تشرق الشمس من المغيب

قصة بقلم احمد سويد

لم تكن أم جابر لتتوقع عندما خرجت من المخيم بعد الظهيرة ان يصفو خاطر شباط ، وان يمسح عن وجهه المتلون سحب الانفعال والغضب وان يتساهل على غير عادته ، فيطلق الشمس من اسرها الطويل ، لتشيع بعض الدفء في الخيام المقرورة ، وفي أعصاب اولئك الذين لا يعرفون الدفء الا حين تمنحهم اياه حرارة الشمس .

وأغرت « الصحوة » ام جابر باستراحة قصيرة فهرعت الى جدار هرم الحجارة ، تعودت ان تتذرى به ، كلما قادها التحنان الى هذا المرتفع المشرف على النعيم المفقود .

وامام الجدار ، جلست على حجر رطب ، ثم ركزت سلتها بين رجليها الموحلتين ، وألقت نظرة جانبية على ما جمعته فيها من نبات بري ، وراحت تغمغم بشيء من الطمأنينة الحزينة :

ـ لسوف نتعشى ونشبع هذه الليلة .

وكالنحلة المشتاقة الى الترحال ، بدأت هي رحلتها :

هذه سهول الحولة مبسوطة امامها كالكف ، وهذه هي بحيرتها ، انها ترى هذه البحيرة تتضاءل وتنكمش ، وقد سألت أبا جاسم مدير المخيم عن سر ذلك ، فأدهشها جوابه وحيرها . لقد قال لها انه قرأ في الجرائد ان « الخنازير » يحاولون تجفيفها ليحولوا أرضها الى حقول علها تشبع سيول جرادهم المتدفقة ، وأدهشها اكثر ، عندما قال لها أن تلك البقع حول البحيرة ليست مستنقعات ، وانما هي مزارع للاسماك .

ـ ول ، هل تزرع الاسماك كما يزرع القمح والشعير ام انها تنبت هكذا عفوا كما ينبت الجرجير على ضفاف الانهار ؟

ولماذا يرضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ان يأكل اليهود السمك حتى يتخموا ، وان نأكل نحن العار والجليد وحشائش الارض ؟

وصرّت ام جابر على اسنانها بشدة حتى كادت تطحنها وبلعت دفعة شحيحة من ريقها المر ، ثم سمحت لبصرها ان يكر من جديد :

ـ هذه هي جبال الجليل ، الضباب الخفيف يلفها بغلالة شفافة . وأعمدة هزيلة من الدخان الابيض تتصاعد متهالكة ، من قراها المتكاثرة كأنها شكايات المظلومين ، وغيمة صغيرة من الضباب تركض كالحمل الوليد نحو الجنوب ، نحو صفد .

ـ نحو صفد ؟ واحسرتاه على صفد .

وتنتفض ام جابر كأن يدا عابثة قد نكزت رقبتها بدبوس :

ـ يا ليتني معها . مع الغيمة . بيت اختي على الطريق ، على يمين الطريق ، في مدخل البلدة ، امامه سروة شاهقة القامة لكنها ابدا حزينة ، ووراءه شجرة تين أسود ، كانت تعشقها العصافير فهل ما زالت تعيش وراء بيت اختي شجرة التين ؟

وأختي سميحة ، ماذا تراها الان تفعل ؟

هل يسمح لها « الكفار » ان تفتح شبابيكها للشمس ؟ هل يسمحون لها ان تخرج الى باحة الدار لتتشمس ؟ لتتذكر في الضوء أبناءها المشردين وتبكي دونما ضجيج ، وترفو ثوبها الممزق ؟

ماذا تقولين يا سميحة ؟ ارفعي صوتك قليلا لاسمعك ؟ لقد شنقوه ؟ شنقوا من ؟ « طحبيش » الوفي ؟ وماذا فعل المسكين حتى استحق هذا العقاب ؟ نبح في وجه دورية منهم ؟ يا لهم من كلاب قذرة ، ان طحبيش لم يتعود ان ينبح الا في وجه اللصوص وهم من أجل ذلك شنقوه .

... وتتابع الغيمة الخفيفة جريها البطيء ، وفي أعقابها تنثال خواطر ام جابر :

ـ ها هو بيتنا فوق التلة الخضراء على الطرف الاخر من صفد . انه الان تحت الغيمة تماما ، احجاره دكناء عابسة كأنها هي الاخرى تبكي ، وفي شباكه الغربي شقراء غريبة تلقي غزلها الماجن لشاب يعبر الطريق ، ما أوقحها ، الشاب يبتسم لها ، ثم يرتد ، فيدخل للحظات، يخرج بعدها مسرعا ، ولا يكاد يخفيه منعطف الدرب حتى توجه دعوتها الخليعة الى شاب اخر خليع مثلها ، وأبوها وكلبها في الدار يتشمسان ويجتران تحت العريشة العارية ، لعنة الله عليها وعليه ، لقد حولا بيتنا الى ماخور ، وأجلسا كلبهما على سجادة الصلاة .

وتجهش ام جابر وهي تلتقط دموعها :

ـ لن تحمل العريشة بعد اليوم عنبا ، ولن تتدلى منها العناقيد . وصورة جابر لم تعد معلقة في مكانها من الجدار الشرقي . لقد مزقها اللصوص حتما وداسوها بأرجلهم ، مرغوا خدوده الوردية بنعالهم ، لانهم لا يطيقون النظر الى وجهه الطافح بالشهامة والرجولة ، لا يطيقون نظراته الصارمة ، ونظرات بندقيته التي تغفو على ركبتيه، فلقد أذاقتهم هذه البندقية الهزيمة والويل في معركة القسطل ، يا لوعتي على جابر ، لقد قال لنا يومذاك وهو

يودعنا على عتبة البيت : « لسوف اعود » ... ولكنه لم يعد . لم يف بوعده لنا ، وماتت زوجته بعده بشهرين ، ومزقه اللئام مرتين ، مرة في ساحة المعركة ... ومرة على جدار البيت .

وتمد ام جابر يدها الى زنارها وهي تشهق :

– البيت بيتنا وهذا مفتاحه ، فلماذا يسلبونه منا ؟ لماذا لماذا يغتصبونه ؟ لقد أقفلته بيدي هذه فمن انتهك حرمته وشرع لهم ابوابه ؟ اغفر لنا يا بيتنا الحبيب ، وسامحنا . فنحن ما هجرناك جبنا ، نحن لم ننهزم . لم نهرب ، ولكنهم خدعونا ، أي والله خدعونا . فقد جاء القائد ذات صباح وجمعنا في الساحة ، وقال لنا بلهجة الآمر :

– اخرجوا غدا .

ورد الرجال بهدوء :

– لن نخرج .

وزغردنا نحن للرجال .

وعاد القائد يهدر :

– هي بضعة ايام ثم تعودون .

ولكن الرجال صاحوا في وجهه :

– لن نخرج .

وصفقنا بحرارة للرجال وصحنا معهم :

– لن نخرج ، لن نخرج .

وخفت صوت القائد هذه المرة كأنه يوشوشنا بسر :

– يا جماعة افهموا ، اخلوا الميدان للجيوش السبعة ، ولا تفسدوا علينا خططنا .

وتبادلنا النظرات نحن والرجال ، ثم أذعنا على مضض كيلا نفسد عليهم خططهم .

ونكس الرجال أبصارهم وبنادقهم .

وشككنا نحن مفاتيح الديار في الزنابير وخرجنا .

وتركنا الخبز طريا في المعاجن ، والخزائن حبلى بالخيرات ، والخوابي متخمة بالدبس والزيت .

وقبل ان نخرج سقيت بيدي هاتين القرنفلة في شباكنا الغربي ، ولثمت بشفتي هاتين ذيل هرتنا منثورة التي صارت تدور حولي وتموء فيقطع مواءها نياط قلبي . وحضنت وردة الدار أودعها باكية فلكزني ابو جابر :

– مالك يا ام جابر ، هل جننت ؟

ومسحت دموعي ، وزينت ثغري ببسمة صفراء مزيفة وأجبته والشك يأكلني :

– قلبي يقول لي يا أبا جابر اننا لن نعود .

فرجمني بنظرة يمتزج فيها اللهب بالعتب ، ونهرني :

– ألا تؤمنين بالله يا فطمة ؟ أما سمعت ما قاله القائد ؟ انها أيام ونعود .

وسرنا ، وكان الفجر ما يزال مختبئا ، وراء الجبال الشرقية ، فجرت وراءنا منثورة وهي تنوح ، واعلن حمارنا العصيان لا يريد ان يتحرك فعالجه عكاز أبي جابر بضربتين ، وصاح ديكنا مذعورا فأحدث صياحه المرعوب ، هرجا ومرجا في القن ، وسأل زياد وهو يسحب يده من يد جده ليفرك بها عينيه الناعستين :

– الى أين نحن ذاهبون يا جدي ؟

وسأل جهاد وهو يكاد يغفو على ظهر الحمار :

– هل جاء اليهود يا جدتي ؟ لماذا لا نختبىء انا وجدي في الحديقة ، ونقتلهم كلهم كما قتلوا أبي ؟

وغصصت وغص ابو جابر ، وصمت الطفلان .

... وأشرقت الشمس علينا في سهل الجاعونة ، لتبصق بازدراء على القافلة الطويلة التي كنا فيها ، والتي كانت تحمل هزيمتها بمرارة وتدب ببلاهة وعمى نحو مصيرها الاسود ، نحو العار والبؤس والعفن والضياع .

وعند العصر كانت قافلة الصمت تجتاز البرزخ الاخضر بين « المطلة » و « المنارة » . وكانت الرشاشات الغادرة تنتظر صيدها الهين الوفير عند مشارف المستعمرين .

... وزغرد الرصاص في اللحظة المواتية .

وبدأت الاجساد التعبى تتساقط .

وكان موسم القطاف رائعا وسخيا .

وجذبت الطفلين الي ، واحتضنت بهما الارض فلصقا بها كالارنبين الخائفين ، وكنت أرفع رأسي بين الفينة والفينة لاتفقد أبا جابر ، فأراه ما يزال يعدو ذات اليمين وذات الشمال كالثور الهائج ، يلتقط التراب والحصى والحجارة ويقذف بها الهواء والفضاء حولنا ويزعق كالمجنون :

– يا كلاب . يا سفاكين . يا جبناء . لو كانت بندقيتي معي ، لعلمتكم كيف تكون الشجاعة .

وصحت به ، وصاح به الاخرون :

– انبطح يا ابا جابر .

ولكن أبا جابر لم يسمعنا ، كان مشغولا عنا بمبارزة اليهود ، بتسديد قذائفه الكلامية الى مستعمرتيهما الغادرتين .

وتململ زياد تحت صدري :

– لماذا لم نبق في صفد يا جدتي ؟

وبكى جهاد :

– لماذا لا نهرب الى بيتنا يا جدتي ؟

وحدثت نفسي بتمزق :

– لماذا أطعنا القائد ذا النجوم الصفراء ؟ لماذا أطعناه وخرجنا ؟

... ولم أكد أكمل ، حتى سمعت صرخة حادة :

– آخ . لقد قتلت .

والتفت ، فاذا البرج الذي اسمه ابو جابر يهوي على بضعة امتار مني . وزحفت اليه أهزه ، أتحسس صدره وجنبيه . أناديه ، وأضمه بيأس قاتل :

– أبا جابر . أبا جابر .

ولكنه لم يجبني ، بل مد يده فغرس اصابعها الغليظة في شعر الطفلين ، اللذين كانا ينتحبان فوق صدره ، ثم ابتسم لهما والدم يسيل من فمه :

– لقد خبأت لكما البندقية في حديقة البيت ولسوف تجدانها عندما تكبران .

... وانطفأ السراج بهدوء . وغرسنا ابا جابر على عجل في ظل شجيرة قندول ، ما زال شوكها الطويل حتى الان يدمي قلبي ويدي ويطفىء الشمس والطريق في عيني .

وسقطت دمعة كاوية على يد ام جابر فأجفلتها وردتها من التيه في الماضي ، لتربطها من جديد الى الغيمة التي ما زالت تحوم فوق صفد .

***

الغيمة تهبط حتى لتكاد تلامس رأس المئذنة .

المئذنة مهشمة مهجورة ، هجرتها روعة الآذان عند الفجر وجلاله عند المغيب ، وعششت فيها قبيلة كاملة من البوم ، والمسجد تحتها وكر كبير للوحشة ، للسنونو

الكئيب ، وعصافير الدوري وأسراب اليمام .

والله لم يعد يعرف في صفد ، لقد رحل هو ايضا عنها منذ اليوم الذي تخافت فيه صوت القائد حتى صار اشبه بالوشوشة :

ــ يا جماعة اخرجوا . هي بضعة أيام ثم تعودون .

... وكرت السنون ، ولم تنقض بضعةالايام تلك.

وصارت عظام أبي جابر ورفات جابر ترابا يطـأه اليهود وتبول عليه كلابهم كل يوم .

ويبست الوردة في صحـون دارنا ، وذرت الريح أوراقها في وجه المجهول . ونبتت مكان القرنفلة فـي شباكنا الغربي رذيلة شقراء توجه لكل عابر ، وفي كـل لحظة ، دعواتها الوقحة .

ومنثورة المسكينة لا يدري أحد متى وكيف ماتت . ربما تكون قد ماتت تحت عجـلات مصفحة او جـرارة فامتزجت ذراتها الى الابد بتراب الارض التي ظلت وفية لها اكثر منا . وربما كانت نهايتها على يد علج رماها فـي مساء خريفي متوهمـا انها عربي جاء يجـوس الديار متجسسا بعد ان تحول الى قطة .

وزياد ابن السادسة ، صارّ رجلا لا يحلم الا بصورة أبيه التي كانت معلقة في صدر الجدار الشرقي .

وجهاد ابن الرابعة . كبر ، وطلع له شاربان اسودان كقلب الليل .

والغيمـة ما فتئت ، طـوال خمسة عشر عاما ، تجرجرني بلا رحمة في الطريق الى صفد .

وبضعة الايام التي وعدنا بها جناب القائد لم تنته بعـد .

والخيمة التي تصدقت بها علينا وكالة الغوث بليت ورقعناها بأكياس الورق والخيش مئات المرات ، فـلم ينفع الترقيع وظلت العاصفة تعيش في خيمتنا والمطـر والريح والعقارب والموت والذباب وحر الصيف .

والمخيم لم يعد كما وعدونا ، مرحلة موقتة ، بـل صار وطنا وصار لهذا الوطن البائس مقبرة تبتلع منا كل يوم عشرات ، بعضهم يفنيه طول الانتظار ، وبعضهم يرديه الجوع والمرض ، وبعضهم يمزقه الحقد على الذات وعلى الناس وحتى على الله .

وفي المذياع أسمعهم يسخرون منا برطانتهم الثقيلة ويقولون ان الرعب أخرجنا من منازلنا كالفيران .

ويقهقهون باستفزاز وتحد ولؤم ، فتصطك عظامي ، ويلكم زياد المذياع الوقح بقبضته فيخرسه ، ويبصق جهاد في وجوههم بعصبية وتمزق :

ــ كذابون وأبناء كلاب .

ويصالح غنوم الكهربائي المذياع فيعود ابناء الكـلاب الى السخرية بنا من جديد ، او يمدون لسانهم لنا مـن مذياع الجيران ، وما زالت سخريتهم هذه تتكرر في كل لحظة ، وطوال خمسة عشر عاما ، ومع ذلك فبضعة الايام التي وعدنا بها حضرة القـائد ذي النجوم الصفراء لـم تنته بعـد .

***

وعاد شباط فجأة الى تجهمه وعبوسه .

وصفرت الريح كأنها تعوي في العراء .

وابتلعت الغيمة البيضاء غيمة اخرى كبيرة ، راحت تكبر وتمتد وتغطي بسوادها السماء فلا تبقي منها ، حتى ولو كوة صغيرة زرقاء .

واخذ المطر يتساقط خفيفا ، وبدأ المساء يـزحف بحزن وكآبة ليلف الكائنات بالصمت والظلام .

وانتشر الضباب كثيفا ، فسد المـدى امام عينـي ام جابر وأغرق أحلامها وقطع الطريق بينها وبين صفد ، فداهمها من اجل ذلك حزن شديد أذهلها عن نفسهـا ، وجمّدها في مكانها كتمثال من جليد ولكن طرفها ظـل رغم ذلك مشدودا نحو البعيد البعيد يحاول بيأس مر ، ان يخترق جدار المستحيل .

ثم انطوت سهول الحولة .

وغابت بحيرتها .

وذابت جبال الجليل .

وامتد ساعد قوي فهز تمثال الجليد :

ــ جدتي ، ما بك يا جـدتي ؟ هل أنت مريضة ؟ لقد أقلقنا تأخرك فخرجت أبحث عنك منذ ساعة .

وتمتمت أم جابر كأنها تهذي :

ــ أهذا أنت يا جهـاد ؟ أنا بخير يا بني فاطمئن . انني منهكة بعض الشيء ، لاني عائدة لتوي من صفد .

ــ ماذا تقولين ؟ عائدة من صفد ؟

ــ نعم ولقد شهدت هناك مغيب الشمس فرجعت مسرعة لاعدو الى مغيبي ولاوصيك أنت وزياد ان تسرعـا لتشرقا غدا مع الشمس الجديدة ، على صفد .

ومضى الشبحان صامتين يدبان في غبش المساء نحو المخيم الذي كان ما يزال يصارع الريح والجليد والمـوت والظـلام .

احمد سويد

فلسطين في الشعر العربي قبل النكبة

بقلم سميرة أبو غزالة

لما وضعت الحرب العالمية أوزارها وقعت البلاد العربية في نطاق من السيطرة الاجنبية المقنعة بأسماء الحماية والوصاية والانتداب .

فقد أسفر اجتماع سان ريمو عام ١٩٢٠ عن احتلال الانكليز والفرنسيين للشام ومصر والعراق ، وخوفا من ان تتكرر التجمعات العربية ثانية وضع الاستعمار خطة لخلق مشاكل اقليمية متعددة حتى يستقل كل جزء بمشاكله ، فتقوى التجزئة وتضعف روابط الوحدة وتتجزأ القوى النضالية .

فخلق من الشام دولا أربع ، دولة دمشق وحلب وجبل الدروز والعلويين ، وذلك ليفصل القوى الثورية عن دمشق ، واقتطع من سوريا بيروت وصيدا وصور وطرابلس وضمها الى لبنان ، ليخلق الحزازات النفسية ، ويضعف العقيدة القومية في النفوس ، وأخرج لواء الاسكندرون عن حلب وضمه الى الاتراك عام ١٩٣٩ .

اما الاردن فقد قسمها الى اربع ادارات : عجلون والكرك والسلط وعمان ، كل جزء له نطاق اداري وقضائي يختلف عن الاخر . ولما عجزت انكلترا عن المحافظة على الحدود التي اصطنعتها بين الاردن والشام وضعت الامير عبد الله اميرا عليها على ان يتعهد بالمحافظة على الحدود من البدو والحضر ، كل ذلك مقابل ان تبذل الحكومة البريطانية المساعي لتحسين العلاقات بين الامير والسلطات الفرنسية في سوريا على تعديل حدود الامارة الاردنية لتلحق منطقتا حوران وجبل الدروز بشرقي الاردن ، واما مصر فلم تجد طريقة تمتص فيها القوى النضالية الا باعلان الحماية عليها وحرمانها من حق قيام حكومة وطنية ، وأثارت في طريق كفاحها عقبات متعددة لتنفي عنها اي شعور بالاستقرار ولتشغل قوى البلاد بالكفاح الداخلي فتبعدها عن التفكير في البلاد العربية الشقيقة ، فأثارت في طريق استقلالها حماية المصالح الاجنبية ، ومشاكل الري مع السودان ، وامتيازات الدولة البريطانية كما جعلت من القصر ستارا تسخره لتحقيق ما تعده من مؤامرات .

وسلكت الحكومة البريطانية في فلسطين مسلكا آخر لتضرب البلاد العربية كلها اذا ما فكت عنها قيودها وتحررت أرضها ، وذلك بوعد بلفور الذي جعلت له في نظرها حرمته بادخاله في صك الانتداب ، فأنشأت الوكالة اليهودية كحكومة ثابتة في البلاد ، وجعلت اللغة العبرية لغة رسمية كما جعلت لليهود حق التشاور مباشرة مع لندن في كل شأن من شؤونهم . فهل وقفت كل هذه العقبات امام المشاعر العربية الموحدة في كل بلد عربي ؟؟ وهل منعت هذه المشاكل الداخلية على كثرتها وتعددها دون تجاوب البلد العربي الواحد نحو البلاد العربية كلها ؟؟.. ودون التجاوب الفكري والعاطفي ؟؟

لا اريد ان أتحدث عن التجمعات العربية بين الحربين الاولى والثانية فانها كثيرة متشعبة ، ولا اريد ان اتحدث عن موقف البلد العربي الواحد امام اخوته من البلاد العربية الاخرى ، فالمواقف كثيرة تؤكد قوة الصلة وأصالة القوميين ، ولكنني أتناول في حديثي قضية فلسطين . القضية الاولى التي وقف عندها الادب العربي في كل جزء من اجزاء هذا الوطن الممزق ، والشعر بنوع خاص ، فأولاها من عاطفته وأحاسيسه الجزء الاكبر منها رغم مشاكل كل جزء ، فكانت فلسطين النداء الاول الذي ارتفع ينبه العرب جميعهم الى ما ينتظرنا من هزائم نتيجة هذه التجزئة وهذا التقسيم ، وكانت فلسطين الصوت الاول الذي ارتفع يدعو الى الوحدة ويستنجد بها لان التجزئة فرضت ليسهل سرقة البلاد واقتطاع ارزاقها والتصرف في ارضها ، ذلك لان الجرثومة التي زرعت في تلك الارض المقدسة تختلف عن غيرها من الجراثيم لانها فيها حركة النمو والتطور والتشعب .

فمنذ وعد بلفور الى النكبة وناقوس فلسطين ترتفع دقاته منذرا ومحذرا ..

ومنذ وعد بلفور والعرب في فلسطين يحاولون جهدهم تحقيق الوحدة العربية كلما ظهر في الافق بوادر لها .. التفوا حول الحسين فخابت آمالهم ، وتعلقوا بفيصل وباعلان الدولة العربية في سورية فطعنت احلامهم ، فلم ييأسوا او يستسلموا بل ثابروا وجاهدوا وتحملوا صنوف التعذيب ودخلوا مختلف المعارك وأضاعوا آلاف الشهداء الى ان كانت الكارثة وحلت النكبة .

وكان دور الادب كبيرا في قيادة هذه المعركة ورفع تلك الشعارات وتنبيه الامة وتحذيرها مما يدبر لها ويعد للايقاع بها ، فكان عامل تذكير واثارة كما كان عامل تجميع للمشاعر العربية في اطارها الادبي ، فلم يخل ديوان من دواوين الشعراء دون ذكرها ، بل لم تمض سنة من السنوات دون ان تذكر على السنة الشعراء وفي المحافل الادبية ، فكانت القضية القومية الاولى التي بدت في افق الفجر العربي الجديد وفي مجال الشعر القومي .

ففي عام ١٩٢١ قدم الوفد الفلسطيني الى مصر فبالغ الشعراء في تكريم هذا الوفد والاحتفال به ، وفي ذلك يقول الكاظمي شاعر العرب في المجموعة الثانية لديوان الكاظمي ص ٢٣٤ :

يرى العرب فرضا رعى رد حليفها	اذا جد في رد الحقوق تشرشل
وان لم يكن حكم اليراع بعادل	فان رجوع السيف في الناس اعدل
بني المجد ان شد الزمان عليكم	فشدوا واما يجهل الدهر فاجهلوا

وأثناء زيارة الوفد الفلسطيني للنجف اقيمت له حفلات كثيرة ترددت فيها قضية فلسطين وغدر الحلفاء بالعرب ، وتنبأ الشعراء أثناءها بوحدة عربية تكون فلسطين هي السبب في تحقيقها ، وفي ذلك يقول محمد علي اليعقوبي في مجموعة « الفلسطينيات » ص ٥٥ مطبعة العربي في النجف :

عسى وحدة للعرب انتم دعاتها	يلم بكم عما قريب شتاتها
حدادا لما قاست فلسطين انها	عليها الرزيات التقت حلقاتها



محمد علي الحوماني



ابراهيم طوقان



بشاره الخوري

اذا اليوم لا يطفى شرار لهيبها فهيهات تطفى في غد جذواتها
تئن فيبكي العالمين أنينهـــــا وتشكو فتشجي العالمين شكاتها

الى ان يقـــول :

وما موتنا بين الورى وحياتنــا مدى الدهر الا موتها وحياتها

وكان وعد بلفور وصهيون والحديث عنهما مادةلكثير من شعرائنا ومثارا للمآسي في نفوسهم ، فيقول رشيد سليم الخوري يذكر الانكليز أن الله اكبر من وعـودهم ، كما يذكر العرب بالحروب الصليبية وصلاح الدين ، وذلك في قصيدة مطلعها :

الحق منك ومن وعودك اكبـر فاحسب حساب الحق يا متجبر

ويقول فيها :

تعد الوعود وتقتضي انجازهـا مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من اهل المكارم لم تكن من جيب غيرك محسنا يا بلفر

ويقول :

يدعوك شعبك يا صلاح الدين قم تأبى المروءة ان تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علمتهـم قبل الرحيل فعد اليهم يذكروا

وفي أستنكار وعد بلفور يقول الحوماني أثنــــاء المظاهرات التي اقيمت في الشام تعبيرا عن سخطهم لهذا الوعد واستنكارهم له :

لفلسطيـن في الشــام يـد لا يغفـــل عنهـــا لبنــــان
ان فرقهـــا بلفور فقــــد وحـدها قبـل عدنــــان
هتفــوا والحرب تهـددهم لنمــت ولتحي الاوطـــان

ونسمع ابراهيم هاشم فلالي يقول :

صهيــون نـــال برجســه ما لم ينـــله بفوســــه
خـــدع الورى بفجـــوره وبراحـــــه وبكأســـــه
جمـــع الجناة بـــداره ودعـــا البغاة لعرســـه
وأتـــى يؤسس موطنـــا بيـــن الابـــاة لجنســه

وكانت كل حادثة تجري وقائعها في فلسطين تجد لها صدى في البلاد العربية ، ففي صيف ١٩٢٩ حــاول اليهود الخروج عن التقاليد الثابتة المتعلقة بصلاتهم فــي موقع البراق ، فهاج العرب وثاروا لانهم فطنوا لما يضمره اليهود من وراء هذه المحاولة من الاعتداء على الاماكــن الاسلامية المقدسة ، فنشبت اضطرابات عنيفة في مــدن الخليل وصفد ويافا وقع فيها عدد كبير من القتلى اليهود ، وحاولت السلطات الاستعمارية مساعدة اليهود كعادتهــا دائما كلما نشبت أضطرابات وظهر ضعف اليهود ، فألقت القبض على ثلاثة من المناضلين العرب أعدمتهم على مرأى من الشعب ، وفي ذلك يقول ابراهيم طوقان في ديـوانه « ص ١٨ دار الشرق الجديد بيروت » :

لما تعرض نجمك المنحـــــوس وترنحـت بعرى الجبال رؤوس
ناح الاذان وأعول الناقـــوس فالليـل أكدر والنهـار عبوس
طفقت تثــور عــواصف وعواطف
والموت حينــا طائف أو خــاطف
والمعول الابدي يمعن في الثرى ليردهم فــي قلبها المتحجـــر

ويقول امين ناصر الدين في هذه الحادثة في ديوانه « الالهام » ص ١٩٢ الصفاء ـ لبنان :

هذي فلسطين فاصمد جرحها الدامي وانضح ثرى قدسها بالمدمع الهامي
وقـل لابطالها المستشهدين كـــذا يموت كل أبي النفس مقــــدام
جدتم بأرواحكم دون البراق ومن أعزه البأس يأبــى ذل احجام

وكذلك يقول عبد الرحيم مصطفى قليلات فــــي حوادث المبكى :

أيها السكناج ما الحق الــذي فيه أثبتم لصهيون الوجـــودا
أبفضـــل والمعالي مــا رات فيكم الا حســودا او حقــودا
أم بأصل وفلسطيــن بكــم ما حــوت الا شريدا او طريدا

اما ثورة ١٩٣٦ ، تلك الثورة التي دارت رحـــى معاركها الطاحنة بين العرب والانكليز ، واشترك فيهـــا العرب السوريون والعراقيون والاردنيون مما جعلها بحق ثورة عربية كبرى ، فقد قيل فيها الكثير من الشعر نذكر منها قصيدة بشارة الخوري بعنوان « يا جهادا صفـــق المجد له » من ديوان الهوى والشباب ص ١٦٥ :

سائل العليــــاء عنا والزمـــانا هل خفرنا ذمــة مذ عرفانـــا
المروءات التي عــــاشت بنـــا لم تزل تجري سعيرا في دمانا

وقد اهتزت البلاد العربية جميعها لاعمال القمــــع والبطش والارهاب التي قــــام بها الانكليز ضد السكـــان العرب وحرق قراهم وتشريدهم ، فاحتجت جماعـــات

المفكرين وثار الشعب العربي مطالبا الدفاع عن اخوانهم المجاهدين ، ودام اضراب العرب في فلسطين ستة شهور توقفت فيها الحياة بكل الوانها ، وقدم الفلسطيني أثناءها أروع البطولات في الصبر على الجهاد واحتمال صنوف العذاب حتى اصبحت مضرب الامثال في تاريخ الكفاح العربي ، الى ان توجه غازي العراق ويحيى اليمن وابن سعود وعبد الله بنداء لايقاف القتال ، وانتهى بقرار التقسيم الذي وضعته لجنة بيل فرفضه العرب بينما وجد فيه عبد الله الحل العملي لهذه القضية ليصبح ملكا على رقعة أوسع من الارض العربية ، ويقول وديع البستاني في ذلك :

نادى الملوك فلبينا نداءهم ان الرغائب ما شاءوا وما رغبوا
سبعون يوما توالت بعدها مائة وسبعة والضحايا فوق ما حسبوا
في ذمة الله قتلانا وذمتهم دين الى اجل يقضى ولا طلب

وبدأنا نسمع صيحات شعرائنا العرب في مصر تردد ما يقع من المآسي في فلسطين ، فبعد ابرام المعاهدة البريطانية المصرية نسمع الدكتور محمد حسين هيكل باشا يصرح اثناء نقده لمعاهدة ١٩٣٦ « كانت الحكومة المصرية تعمل جهدها لمنع نشر انباء فلسطين في الصحف او العطف عليها باسم الحرص على المفاوضات المصرية البريطانية » .

فنسمع صوت احمد محرم يقول عام ١٩٣٨ قصيدة بعنوان « وطن يعذب في الجحيم » :

لبيك يا وطن الجهاد ومرحبا لبيك من داع أهاب وثوبا

ويصرح في قصيدته ان الهدف من هذا العمل هو اصابة العروبة جميعها بنكبة وان كفاح أبناء فلسطين هو كفاح العروبة جميعا :

انا لنعلم ان آكل لحمهم سيخوض منا في الدماء ليشربا
الى أن يقول :
يا آل يعرب من يريني خالدا يزجي الخميس ويستحث القنيا

وفي المؤتمر الثقافي في لبنان الذي عقد عام ١٩٤٧ ينتقل علي الجارم من التغني بلبنان الى ذكر فلسطين وما يحدث ذكرها في نفسه من الالم فيقول في الجزء الاول من ديوانه ـ مطبعة المعارف ص ١٧٨ :

بني العروبة ان الله يجمعنا فلا يفرقنا في الارض انسان
لنا بها وطن حر نلوذ به اذا تناءت مسافات واوطان
قلبي وفيض دموعي كلما خطرت ذكرى فلسطين خفاق وهينان
لقد أعاد بها التاريخ أندلسا أخرى وطاف بها للشر طوفان
ميراثنا في فتى حطين اين مضى وهل نهايتنا يتم وحرمان ؟
ردوا تراث أبينا ما لكم صلة به ولا لكم في امرنا شان
بني فلسطين كونوا امة ويدا قد يختفي في ظلال الورد ثعبان
وكيف يأمن رعيان وان جهدوا اذا تردى ثياب الشاة سرحان

وقد وضعت بعض الهيئات دواوين ضمت قصائد عن فلسطين نذكر منها جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف ، فقد جمعت مجموعة من الشعر الذي نظمه شعراؤها في مختلف المناسبات عن فلسطين أطلقوا عليه اسم « الفلسطينيات » كما وضع ايضا الشاعر وديع البستاني ديوانا آخر اطلق عليه ايضا «ديوان الفلسطينيات»

وهكذا توالى الشعر العربي في الالتفاف حول أولى القضايا القومية يوليها الكثير من أحاسيسه ومشاعره ، ولست بصدد نقد هذا الشعر او تقييمه ، فهذا موضوع يخرج عن نطاق بحثي ، وانما قدمته لاعرض اصالة مشاعرنا في زمن لم ينقصنا فيه الا التنظيم والوعي الكامل بطرق المستعمر ومكائده ودسائسه وأساليبه المختلفة مما تتكشف لنا الان واضحة جلية ، وبقي تجاوب الشعراء قائما الى ان حلت النكبة وحدثت المأساة التي كان اول من تنبأ لها هم الشعراء أنفسهم .

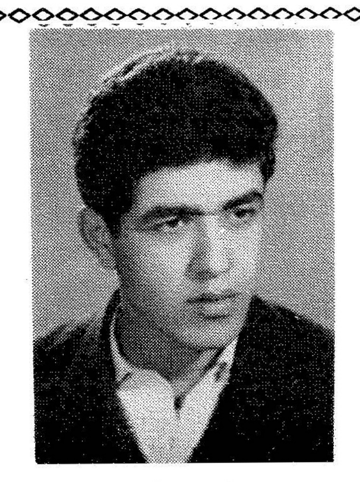
ودخلت البلاد العربية في طور جديد واسلوب جديد من أساليب تحقيق الوجود ، وابراز الشخصية العربية بكل مفاهيمها ومقوماتها ، فكانت نكبتنا في فلسطين الناقوس الذي دق ليعلن انتهاء نظم الحكم الفاسدة التي سببت النكبة وأضاعت الارض ، فنتج عن ذلك ثورة مصر والتخلص من الفئة الباغية وانتهاء الحكم الملكي حكم القصور واعلان الجمهورية العربية المتحدة لتأخذ طريقها القيادي في معركة التحرر العربية ، وبدأت موجات التحرر العربي تشق طريقها فاذا بثورة الجزائر تتفجر بقوة واندفاع جماهيري لتحقق شخصية الجزائر العربية وتثبت وجودها العربي .

ولم يقف الامر عند ذلك بل امتد الى ثورات مد وجزر مستمرة في سوريا والعراق ، والى ثورة أبادت الحكم الفاسد في اليمن والى تحقيق الوحدة بين الجمهورية العربية وسوريا ، وجولات متواصلة في سبيل تحطيم العهد البائد أدوات عهد ما قبل النكبة .

كل هذه الانفجارات الشعبية كانت قضية فلسطين هي المحرك لها والمؤجج لنيرانها ، فقد نما الوعي ، واتضحت طريق الوحدة العربية التي تحمي مكاسبنا وتحمي حقوقنا وتحقق وجودنا ، ولن تكون الايام القادمة ببعيدة حينما يتخلص الوطن العربي من ذيول الانتهازية والرجعية والانفصالية ليدفع بقوته الكامنة في حنايا أبنائه الى عهد جديد وأمل جديد في وحدة عربية مرتقبة لاستعادة الوطن السليب .

سميرة ابو غزالة

الكلدان في المنفى



« على الفرات والدجلة كانت تنهض رماح الكلدان من تلال الشفق المشرق .. لتستقبل بابل في المساء جـواد فارسها « بختنصر » ومركبات السبايا ونمال الاسرى عملة الاسوار . يقف التاريخ القديم هنا .. ويبدأ الحديث حين يغمر الاسرى وجـه بابل ، ويطعمون الكلدان لكل افق » .

ـ ١ ـ حنين في المنفى

محارب جريح :

ـ ابابل يا منابع فضة كسلى على الافق
أيا ذكرى رماديه
تصب الريح فيك .. وأنت ساهمـة !
كأنك بابل غير التي شردت مـع النهر !
كأنك بابل أخرى !
وتحت الليل أنت سبية للريح مغلوله
وخابية لعرس الغول تحت ضفيرتي غوله
وأنت بخاطر الامس الطري.. بخاطري.. طفله
تفيض مع الفرات .. تسابق الدجله
« أيا ذكرى رماديه »
وأسرى «بختنصر» ينبهون الريح من ابراجك العليا
ويختطفون من شرف البيوت نعاس السنة القناديل
ونهرك بات مقتولا.. حصانا يحمل الموتى.. الى المنفى
وتدفن بابل في الرمل عينيها .. فلا تدري
أتحت النهر نامت بابل في الليل.. أم في ضفة النهر

***

لعل بنيك قد ضلوا على بوابة الفجر
لعل حداءهم في الليل مر على حصى النهر
فلم تسمع به بابل !
أصبك ـ والنجوم بعيدة ـ خمرا بمائدتي
وأهذي « بابل بلدي » .. فأظمأ كلما ناديت ..
أنسى ان طيفك مر في شفتي
« أيا ذكرى رماديه » .
وأسهر حين تنطفىء الدروب اليك .. يشرق وجهك الانقى من الدمعه
يظل وراء أسوار الغروب .. وراء أسواري
قرارا عائما بالموت .. يحلم باليباب ..
ويحلم الكلدان في المنفى بأوسمة الحديد..
وأذرع النار

***

الشاعر :

ـ ببابي انت واقفة..كنهر الريح فوق فتيل مصباحي
مكب وجهك الدامي بنافذتي
فأين الحبر ؟ أين دواتي الحبلى ؟ اجرعـي مثلي..
فقد ترويك محبرتي
ونامي ـ ان تعبت ـ على الوساد بجانبي.. عندي..
ليرعى من دمي ما تكتمين ..
وتنهل العتمات من سنتـي
وغطي جانجيك بكل ريح مومس عبرت
اغسلي الآفاق لي بيضاء .. لا .. لا تغسلي ..
نامي هنا
كانت جراح فيَّ .. وانطمرت .

***

عيونك صرتا كسل مكحلتان بالخرز
ووردة غبطة حمراء ـ وجهك في يد السمار ـ
يرشح ريقها خمرا
ويترع أكؤس الكلدان .. للاسرى .
مغمَّسة عيون بنيك بالاسفار والحمى
كحمى الريح والمطر
وليس سوى الغناء سوى سلال الحزن والصبار..
للسفر .

٢ ـ الشبح

بختنصر
عـاد حيـا
عاد مجنونا وشاعر
سامريـات رأينـه
كان فوق البرج منصوبا كرمح من ضياء
يقبض الريح .. ويختـال على سـور المساء
وتطلعن اليه !
واقفا في منفذ الليل .. مليحـا بيديه
ينهر الريح اذا هبت .. فترتـد اليه
وتطلعن اليه !
ـ « ألف طوبى للصغار
لا تخافوا
لست ربا حاقدا .. لست الها من غبار
أنا سيف كان مدفونا وعاد
كنت في المنفى حبيسا .. ورجعت

***

لم أمت .. نمت قرونا .. وبعثت . »
وتطلعن اليه !
أزهر العلّيق والتف حول أعمدة الليل الرطيبه
وترامت في قرار النهر أصوات رهيبه :
« الف طوبى للصغار
الف طوبى للمصلين على ضوء النهار » .

٣ ـ أراجيف في بابل

باقات النار على الابراج

فصل من رواية

سيناء بلا حدود

بقلم سميرة عزام

فاته (★) أن يستوضح سائق التاكسي حين وضعه في رأس الشارع قائلا له بأن السيارة لا يمكن ان تقف به لصق المصرف ، عن سبب وقوفها بعيدا هكذا ، اذ مد يده بالاجرة ، ثم أطبق الباب ، وحاول ان ينعطف يمينا باتجاه ساحة النجمة حيث تقوم تلك الساعة التي بدا له انها الشيء الوحيد الذي لم يتغير في المدينة وان عقاربها لم تكد تتحول ، فلعلها كانت ايضا في العاشرة والنصف حين مر بها لآخر مرة قبل عشر سنوات ليركب سيارة الشركة التي ستحمله الى المطار ، ولكنه بعد ان خطا بضع خطوات لاحظ ان الناس يمشون في شبه هرولة ، وان بعض الحوانيت اغلقت مصاريعها نصف اغلاقة ، وان انفار الشرطة تبدو متحفزة بشكل غير مألوف ، وان الناس قد رسموا وجوههم بطريقة تتراوح بين ان تكون قلقا او ضيقا او انفعالا .. واذ بلغ تقاطع الشارع فوجىء بأعداد من الشبان لعلهم ان يكونوا طلبة او اعضاء منظمات يمشون صفوفا غير منتظمة ويهتفون هتافات مترنحة متقطعة يعوزها التماسك لتعبر عن شيء ، ثم ينعطفون يمينا ايضا باتجاه الساعة حيث تتحشد الصفوف في كتلة تتسع وتتلاز وهي تتلقف مزيدا من هؤلاء الشبان والشابات انحدروا اليها من تشعبات شارع المعرض ، ومن الشارع الاخر الذي ينحدر نحو الساعة من طريق مبنى البريد . ثم يكبر الحشد ويكبر ، ويلوح مزيد من هذه الرايات التي تخفق بمختلف الاسماء والشعارات ، والتي اتسخت او كادت لكثرة ما رفعت في مناسبات ، وأخذت الاصوات المتفرقة الناشزة تجتمع وتعرض ، ثم تغدو صخّابة هادرة وهي تردد نداءات موقعة صب فيها هؤلاء المتظاهرون كل انفعالاتهم التي ازدادت حرارة مع شمس بدأت تتسلق تلك الرقعة الظاهرة من السماء ، ومع حركات الايدي التي ترتفع وتهبط في ايقاع يساوق الهتاف « الجزائر عربية ، الجزائر عربية » .

وحين استدار وقد جبهته المظاهرة لم يجد لنفسه موطىء قدم فقد كان الهتافة من ورائه ومن امامه وعن جانبيه ، وكان فمه الفم الوحيد المطبق بينها ، وقد امتدت يده بحركة غريزية ليطمئن الى وجود المحفظة التي استقر فيها التشيك ، في حين ارتفعت يده الاخرى تدفع قطرات العرق عن جبهته الباردة اذ وجد نفسه محاصرا من كل الجهات بل ومدفوعا الى ان ينقل خطواته باتجاه الساعة ، وان يبدو واحدا من هؤلاء المتظاهرين دون أن يدرك مناسبة التظاهر تماما . وتتوقف المظاهرة فيما حول الساعة وتلتفت الرؤوس المحمرة الآذان في هدنة من الهتاف لتصغي الى واحد من المتظاهرين اعتلى درجات البرلمان وأخذ يصيح بكلام غطى عليه لهاث اللاهثين ودمدمات المتدافعين بالمناكب وصياح واحد من هنا او هناك « الجزائر عربية » « يسقط الاستعمار » « عربية عربية » وينتهي الخطيب ، او لا بد انه انتهى ، اذ ارتفع التصفيق وعاد زعماء الهتافة يتقافزون فوق الاكتاف وعادت الكتلة المتلازة تتململ واللافتات تتحول الى وجهة جديدة ، وتتمدد المظاهرة وتتشعب في الشارعين الصغيرين اللذين يؤديان بها الى شارع رياض الصلح . ثم تلتقي تلك التفرعات في كتلة واحدة كبرى تمتد على عرض الشارع سورا من الاجساد المنفعلة اشتد بها الهيجان ، فعادت تصرخ وتقيم جدارا من الاصوات يعلو الرؤوس ويظل معلقا في الهواء لا يسقط الى الارض اذ لا فرجة بين الاجساد المتلاحمة .

وفجأة اصبح واحدا منهم ، شبك متظاهر ذراعه بذراعه ، ودفعه هؤلاء الذين كانوا خلفه ، وبدأت الصفوف تتعرج وتلتوي في شيء من التصعيد بدت معه مقدمة التظاهرة اكثر طولا واختالت شعاراتها فوق هامة اللافتات الاخرى في طريق لا يمكن لسائر ان يرقاه الا لاهثا ، فهو ممعن في تصعيده حتى يمر بالبوابة الجنوبية للسراي وقد ربض امامها جنديان انتقلا بضع خطوات الى الداخل اذ مرت بهما التظاهرة .

وانتهى التصعيد لتستدير الطليعة يمينا ، ثم يسارا

(★) مشهد من الفصل الاول من رواية « سيناء بلا حدود » التي تصدر قريبا .

ونسـاء في شرف الـدور
أبواق نحاس راكضة خلف الظلمات
أقدام طبول وحشيه : « تم .. تم .. تت .. تم »
« عاد الكلدان من المنفى »
ـ عادوا ؟!
ـ عادوا ؟!
الليل مزاريب تشقع
ريح وعيون تتطلع .
تتلفت بابل كالحبلى
« عاد الكلدان من المنفى » !!
الرمح .. السيف .. الترس .. عصا
باقات النار على الابراج

ونساء في شرف الدور .
. . . .
. . . .
ـ لا شيء .. أراجيف قيلت .
في المنفى مات الكلدان
نهشتهم ريح مجنونه
صرعتهم حمى ملعونه »

★★★

أقدام طبول وحشيه
ـ « ها .. ها .. عادوا »
تتلفت بابل كالحبلى

دمشق

فواز عيد

دعوة الى أدب صادق للمأساة...

بقلم غالب هلسا

الملاحظ أن مأساة فلسطين لم تنتج أدبا عظيما يرقى الى مستوى المأساة حتى بالقياس الى الموضوعات الاخرى التي تناولها الادب العربي الحديث . هذه حقيقة غريبة وتحتاج الى تفسير .

كما اننا لا نجد الا صدى خافتا لهذه المأساة في الفولكلور الشعبي بألوانه المختلفة . فالاحساس العام الذي تركته الفاجعة في بلد كالاردن ، مثلا ، في الوجدان الشعبي ، كان في بدايته اتجاها نحو خلق البطولات الاسطورية . (كالمسدس الذي أهداه الملك الى أحد المحاربين ويستطيع اذا صوبه من أريحا أن يصيب رأس شاريت في تل ابيب) . ولكن هذا الاتجاه توقف وأعقبه احساس ان ما حدث في فلسطين هو نوع من العقاب الالهي ، يرافق ذلك شعور يمكن وصفه باللامبالاة المأساوية .

واذا حاولنا ان نقارن ذلك بما أعقب مأساة الحرب الاهليه الاسبانية ، تبين لنا الفارق الكبير . فهذه الحرب ادت الى انتاج ادب عظيم في العالم الغربي كله ، كما اعطت تلك الفترة احد ملامحها النفسية والسياسية التي لا يمكن فهم التاريخ الاوروبي الحديث بدونها .

فكيف نفسر القصور الذي أعقب فاجعة فلسطين ؟

اننا نعود الى بدايه المأساه . عندما اندفعت الجيوش العربية معلنه العزم على تطهير فلسطين من العصابات الصهيونية . لقد قيل انذاك انها ليست حربا حقيقية ، وانما عملية سريعة ، تكاد تكون نزهة ثم ينزاح الكابوس الصهيوني .

ليس هذا بالمجال الذي نناقش فيه التطورات المؤسفه التي تلت ذلك ، ولكن المهم ان اهالي فلسطين صدقوا الاكذوبة ، وأغلقوا بيوتهم ، وغادروا أوطانهم بانتظار عودة قريبة . وقد شارك الارهاب الصهيوني في عملية التهجير السريع بأعمال الوحشية والعنف التي ارتكبها .

منذ تلك اللحظة نشأ وضع ما زال — بشكل عام — قائما حتى الان . ان أهالي فلسطين قد أودعوا قضيتهم في أيدي الجيوش العربية ، وبالتالي ، في ايدي الحكومات العربية وخرجت نهائيا من أيدي اصحابها الحقيقيين .

وما يزال الافتراض قائما حتى الان ان الحكومات العربية تسعى لحل مشكلة فلسطين باعادة اهاليها الى ديارهم . اما مدى المشاركة الشعبية العربية في القتال فقد كان ضئيلا ، اذ اقتصرت على اعمال شبه انتحارية قام بها بعض المثقفين . كما كان هنالك مشاركة اخرى الاجدر بنا ان نمتنع عن ذكرها . اما بالنسبة للوضع العام فقد استعملت الحرب الفلسطينية لكبت الحريات ، ومصادرة جميع اشكال الاحتجاج الشعبي ، حتى ان بعض الدول العربيه لم تقرر الاشتراك في الحرب الفلسطينية الا في آخر لحظه لضرورات الامن الداخلي ، أي لاستعمال جو الحرب لقمع الحريه ولتقويه مركز الفئات الحاكمة .

واصبح الموقف العملي السائد نحو اللاجئين هو ان هنالك ايديا امينة تسعى لحل قضيتهم وان عليهم ألا يثيروا أيه متاعب . كما يوجه اليهم النصح — العنيف أحيانا — باستمرار انهم كلما ابتعدوا عن التدخل فيما لا يعنيهم — وما لا يعنيهم هنا هو قضيتهم هم — اصبحت الامور اقل تعقيدا وأصبح الحل اقرب متناولا .

بل اننا نشاهد حقيقة أشد غرابة وهي ان توزيع اللاجئين في مختلف مناطق فلسطين العربيه وفي البلدان العربيه المجاورة يشير الى انه لا يعترف بأن هنالك قضية واحدة تجمعهم . كما انه — فيما عدا بعض الاستثناءات — يحرم عليهم أي شكل من أشكال التنظيم السياسي والعسكري الذي يجعلهم قادرين على أن يباشروا حل قضيتهم بانفسهم .

واذا حاولنا ان نحلل الايديولوجية التي يعبر عنها الادب الذي كتب عن قضية فلسطين لوجدنا انه يحمل سمات الموقف الرسمي نفسها . ان نظره هذا الادب نحو قضية الشعب العربي الفلسطيني هي نظرته لقضية تتجه نحو الحل ولا يعبر بأية حال عن التجربة الحية التي عاشها المشرد الذي طرد من ارضه ووضع داخل معسكرات الموت الرهيبة . واذا اردنا ان نقدم مثالا واحدا يعبر عن هذه الايديولوجية لقلنا ان هذا الادب لا يعتبر عارنا الاكبر هذه الحياة الفظيعة واللاانسانية التي يعيشها اللاجىء في أوضاع تسحق انسانيته ، ولكنه يعتبر العار الاكبر انهزام الجيوش العربية في فلسطين عام ١٩٤٨ ، هذه الجيوش التي دخلت لتنهزم عن وعي وتصميم .

وكما تصلبت النظرة الرسمية — في الغالب — بالنسبة لنظرتها الى هذه القضية ولاسلوب علاجها ، اصبحت كذلك — في هذا الادب الذي كتب عن المأساة — اصبحت كل ملامح اللاجىء تقليدية وثابتة : انه فقير وقد كان غنيا ، يحن للحدائق الغناء ، وبيارات البرتقال التي كان يملكها ، تذكره اصوات العصافير باختلاف انواعها ببلده ، كانت له قصة حب فقتلت حبيبته ، كما يتحرق شوقا الى الفداء والتضحية . يضاف الى ذلك بعض الرتوش التي أصبحت معادة ومكرورة .

وهي صورة تذكرنا بالروس البيض الذين غادروا

حياتهم الصاخبة وضياعهم بعد ثورة اكتوبر ، وليس لها اية علاقة بحقيقة اللاجىء الذي يسكن في معسكرات الجذام ويعيش على الاحسان المشبوه .

وربما كان أغرب ملامح هذا الادب تلخيص اللاجىء في قضية بالغة البساطة والسذاجة وهي انه باحث عن الثأر .

ان النتيجة التي توصل اليها الادباء الذين يكتبون عن قضية فلسطين لهي منطقية تماما : اننا ما دمنا قد تخطينا اللاجىء في حل قضيته ، فهو ، بالتالي ، لا يمكن ان يبدو لنا حقيقيا. انه هنا الفلسطيني وحسب، اللاجىء ذو الشكلة المعروفة والحنين المفترض مسبقا . انه جزء من كتلة غامضة متجانسة نشكلها من بعيد ونفرض عليها قضيتها وملامحها .

قد يقول البعض ان هنالك عددا كبيرا من الادباء الفلسطينيين الذين يكتبون عن هذه القضية بل تكاد تكون كل شغلهم الشاغل . ولكن علينا ان نقول بصراحة ان معظم هؤلاء قد خرجوا من بيوتهم ليجدوا بيوتا اخرى تؤويهم ومجتمعا يقبلهم ، وانهم لم يعيشوا تجربة اللاجىء الذي يعيش في المخيمات والذي يضرب حوله سور من اللامبالاة ويدفع الى عزلة من يعيش في مستعمرات الجذام .

ان التعبير الحقيقي عن وجهة نظر اللاجىء — صاحب القضية بشكل اساسي — يجب أن تنبع من داخل مخيمات اللاجئين . تلك التي حولها بعض الادباء السذج الى مسارح رومانسية للحب على ضوء القمر والحنين الارستقراطي الى الحدائق الغناء . ولو اتيح لهذا التعبير الحقيقي ان يأخذ اطاره الفني لالتقينا في داخل هذه المخيمات ، وجها لوجه ، بهيمنغواي ، واكسوبري ، وبول ايلوار ، وبيكاسو .

عندما حدثت المجاعة في ولاية اوكلاهوما الاميركية التي سببها القحط والاجراءات الوحشية التي اتخذتها البنوك الدائنة ضد الفلاحين صدر كتاب عن هذه المجاعة هز الضمير الاميركي ، وكان أحد الاسباب التي جعلت الحكومة تتخذ اجراءات واسعة النطاق للتخفيف من حدة هذه الازمة ، إسم ذلك الكتاب « عناقيد الغضب » وقد عرف بالكتاب الذي هز العالم . كتبه شتاينبك كما ينبغي للكاتب المخلص ان يكتب ، بأن عاش مهاجرا بين المهاجرين، مرافقا لهم من بداية مسيرتهم حتى انتهائها في كولومبيا.

وكذلك كتب هيمنغواي روايته الرائعة « لمن تدق الاجراس » بعد ان شارك مشاركة فعلية في الحرب الاهلية الاسبانية . وكذلك اكسوبري الذي عمل مراسلا حربيا هناك .

ان ادبا عظيما في مستوى مأساة فلسطين لن يكتبه اناس يمرون وسط بؤس اللاجئين كزائرين يضعون مناديلهم على انوفهم ، لانهم انما ينتجون هذا الادب الذي يعبر عن وجهة نظر طبقية اذ يعتبر قضية فلسطين قضية أصحاب الاقطاعيات . ولعله من اسهل الامور ان ينزلق الانسان الى هذا الموقف ، اذ ان اللاجىء ليس طبقة مضطهدة بالمعنى المعروف ولكنه يمثل وضعا في السلم الاجتماعي أدنى من مستوى اي طبقة ، ولذا فهو اشد ثورية من جميع الفئات .

ان اللاجئين يكونون طاقة ثورية هائلة ، تستطيع ان تعطي المنطقة العربية حيوية وتدفقا جديدا يمكنهما ان يغيرا جميع علاقات القوى السياسية في العالم العربي ، وسيكون الادب الذي يعبر عن هذه الطاقة اروع ما عرفنا من ادب لانه يمثل اكثر الطبقات ثورية ورغبة في التغيير واعنفها احتجاجا .

وكما ان قضية فلسطين هي بشكل رئيسي قضية اللاجئين ، فكذلك يجب ان يكون ادب المأساة ناقلا لوجهة نظرهم . انه لمن غير المعقول أن تكون هنالك قضية لاهالي فلسطين ولا يسمح لهم بأن يتدخلوا فيها بشكل فعال . ولن يكون للاجئين بالضرورة وجهة نظر مختلفة بما يتعلق بحل القضية ولكن التناول والتعبير عن هذه القضية سيكون مختلفا دون شك .

فاشراكهم في قضيتهم سيرفع القضية من مستوى الكلاشيهات المتحجرة والشعارات التي يستغلها الديماغوجيون لخدمة اغراضهم الخاصة ، الى مستوى العمل اليومي الذي تتحدد المواقف على أساسه .

ان تحقيق وضع كهذا سيفجر طاقات فنية رائعة ، لاننا بهذا سنتيح للانسان صاحب القضية ان يعبر عن نفسه ، ونحن بهذا لا نرفع عنه الوصاية السياسية فحسب ولكننا نرفع عنه الوصاية الايديولوجية ونوقف التعسف الذهني الضيق الذي يحجر شخصية اللاجىء وينتزع أروع أبعادها .

ان الفنان الذي يقطع صلته بالمخيمات التي يحيا فيها المليون لاجىء معرض للضياع ، ولفقدان أصالته وحرارته . وهذه ليست دعوة للادباء الفلسطينيين فقط لان يعودوا الى أرضهم الحقيقية ، وانما هي موجهة لكل فنان عربي يؤرق ضميره تشريد شعب بأكمله ، والتهديد الرهيب الذي تشكله هذه الترسانة الحربية التي خلقها الاستعمار في قلب الوطن العربي .

ستظل مخيمات اللاجئين وظروف حياتهم التعسة الخطيئة الاصلية المورثة للندم ، ما دامت مشكلة ساكنيها لم تحل . وستظل ، ابدا ، الشاهد الرهيب على عدالة مضحكة :

ان يتعذب ويهان بشكل مستمر مليون انسان تكفيرا عن جرائم اللاسامية ، التي لم يشارك فيها هذا الشعب قط ، بل المضحك ان خالقي وموجهي جرائم اللاسامية هم الذين توصلوا الى مثل هذا الحل .

غالب هلسا

كلمات للعار

لانه عاري ..
عاري المذلى فوق أقداري
أخفيه حتى لا يمر الزمان
يوما على انقاض تذكاري
كي لا تحييني طويلا يدان
قد ناءتا من رحلة الثار
ملقى به نسيا وراء الرمال
حتى تعود الخيل بالغار !
يطفو عليه من أسانا ظلال ..
وصفحة شوهاء كالقار
لانه عاري الذي ما يزال
جرحا سديميا بأغواري ..
وعاركم .. يا جامعين الغلال
من كل حلقوم ومنقار
يا طاعمين - الدهر - غب الزوال ..
بعض انسكاب الوهم .. بعض الخيال ..
من صاخب التيار .. هدار
يا حاملين الامنيات الثقال
عبئا توارى خلف أستار
وجها ذليلا واجما .. مستعار
لم يختلج من لفح اعصار
الافق كاب .. يا شذا البرتقال ..
أزهر وأمرع فوق أشجاري ..
وانشر جناحي نضرة .. وازدهار
على روابي حلمنا العاري ..
الموسم المخبوء .. أثقاله ..
تنعي دواليه .. وتبكي الرجال
والهفتا والهدب عار كسيح
والموسم الداني خضيب التلال
والهفتا .. والحزن ثاو طريح ..
وقبضتاه تنشدان المحال ..
وبارق طفنا به فاستحال ..
بقيا رماد .. لم يعد فيه روح ..
لا نبض في عروقه .. لا جروح ..
يافا .. وما زالت عيون الصغار
مشدودة للشمس كفيّ مسيح ..
تستطلع السر الذي لا يبوح
أخفيه في أعماق أسراري ..
لانه .. واخجلتي .. عاري

***

من لي بمن يستوقف الحائرين
يوما اذا ضلوا فلم يعبروا ..
من لي بمن يوقف زحف السنين
تراكمت ثكلى .. فلا أبصر ..
الا خطايا .. عششت في جبين
جاث على الاعتاب يستغفر
من لي بمن يفضح زيف الحنين
الى ديار من المدى تخطر ..
لما نسينا اننا عائدون ..
وان يوما قادما يثأر !

***

يا شيخنا ... في خيمة الشتاء
ذبالة تهتز .. كارتعاشة المساء
يوما حملناها ، وسار واحد
منا .. يدق أرض كبرياء
ولم نكن ندري بأن زيتها
معلق بلفحة الهواء
تنداح منها للطريق شعلة
مخنوقة كشهقة البكاء
يموج ألف فارس وفارس
على دوالي نورها الظماء
ويستفيق غافل وهاجع
يعانقان صحوة النداء
ولم نكن ندري بأن دربنا
تقودنا .. للامس .. للوراء
تعيدنا لساحة مهجورة
أنكرت من شعابها دمائي
تعيدنا للحظة ممرورة
فقدت عند بابها رجائي
حتى صحونا .. فاكتست رؤوسنا
لما أشرأبت .. ومضة العزاء
ذبالة كانت لنا .. ولم تزل
يا شيخنا .. في خيمة الشتاء

***

قوافل الحجيج في العراء ما تزال
عارا مبعثرا على الرمال ..
عارا ملحا .. كاسف الجبين
يسألني .. يسأل عن رجال ..
أكفهم تغوص في بيارق «اليرموك»
نجيعهم كم خضب التلال
وسال يسقي « الكرمل » الامين ..
لكنما آثارهم تسوخ في « تبوك » ..
يا عارنا .. يا عارنا الحزين
أنا وأنت والكروم والظلال
بقية من السؤال !

فاروق شوشه



في أصول المسألة الفلسطينية

بقلم صلاح عيسى

المسألة الفلسطينية (**) هي اهم قضايا العالم العربي المعاصر الحاحا للمعاجة .. واكثرها اثارة للفكر السياسي العربي ، وهي حجر الزاوية في حركة النظم السياسية للدول العربية .

وفي خلال السنوات الخمس عشرة التي مضت على تحول المسألة الفلسطينية من قضية مثاره الى واقع سياسي حاد ، وبعد ان اصبحت « اسرائيل المزعومة » ـ دولة وعضوا في الامم المتحدة ، واجهت النظم السياسية ـ في كل ثم بعض ـ الدول العربية ، هذه القضية بكل ما في نظمها من تناقض وتأزم فاتخذتها ورقة رابحة في الصراع بينها وبين الجماهير العربية ، واذا كان تعداد اشكال العهر السياسي الذي واجهت به النظم السياسية في العالم العربي المسألة الفلسطينية ليس قضيتنا، فان انعكاس هذه الاشكال على الفكر السياسي العربي قد ابعد كثيرا من معالجاته للمسألة عن الرؤية الصحيحة لها ، فاصبحت غير قادرة على تكوين رأي عام يتحرك تحركا حقيقيا تجاهها ، بل ويتحرك احيانا ضد ما هو صحيح وحقيقي .

ونحن نوافق على « ان الكتابة في القضية الفلسطينية ، وتكرار الكلام عنها لا ضرر فيهما البته » (١) وايضا فانه « اذا كان تكرار القول والكتابة ضارا ومؤذيا في اي موضوع فان ذلك التكرار مفيد وضروري في القضية الفلسطينية ، حتى تظل الكارثة حية في نفوس الامة » . (٢)

ولكن طبيعة التكرار واتجاهه هي المسألة الاساسية امامنا ، فالكتابة في المسألة الفلسطينية ينبغي ان يكون هدفها الاساسي تكوين جماهير عربية ، وفلسطينية قادرة على فهم قضيتها ، والمطالبة بحل سليم لها ، دون انحراف يبعد بحركة الجماهير العربية عن مطالبها ويمنع الوصول الى حل حقيقي لها .

ان المسألة الفلسطينية واحدة من اهم قضايا النضال العربي المعاصر ، وفيها تتكثف بصورة واضحة نكبة العالم العربي بالاستعمار .. وهي بوجودها الحاد تشكل واقعا استفزازيا للقوى المناضلة ضد الاستعمار العالمي ،ومن هنا فان فهمها خارج اطارها ضياع لطاقات يمكن تجميعها لاداء دور ثوري على المستوى التاريخي .

***

ازمة فكر
انعكاس
لازمة واقع

كان وقوع الفكر السياسي في خطأ « الفهم الديني » هو النتيجة الطبيعية للاوضاع الاقطاعية للعالم العربي عقب الحرب الاولى ، ومع بداية ظهور المسألة الفلسطينية على مسرح الاحداث .

ان محاولة تفسير المسألة باعتبارها « مسألة اسلامية » هو اول واقرب التصورات التي وضحت وقد ساعد على هذا ان الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها قد وقعت تحت قيادة دينية لفترة طويلة وحاولت هذه القيادة ، وما وراءها من مصالح اقطاعية ، صبغ القضية بالصبغة المذهبية فتعددت المؤتمرات التي تحاول ان تجعل من القضية قضية المسلمين في جميع انحاء العالم .

والخطورة العامة لعدم فهم المسألة الفلسطينية ، تتولد من ان عدم الفهم ـ حتى مع الفرض المستحيل بعدم توافرنية استغلاله ـ لا يكون جماهير قادرة على فهم القضية والتحرك تحركا حقيقيا تجاهها .

الا ان خطر الفهم الديني يتأكد في :

● ان الفهم الديني يخلق للشعوب العربية ، وللشعب الفلسطيني بالذات ، حلفاء وهميين فهو يضع في صفة ٤٠٠ مليون مسلم ، في حين ان الخيانات التي منى بها الشعب الفلسطيني قد نبعت من مسلمين، بل ان القيادة الدينية التي كانت تقود حركة التحرر القومي العربي خلال الحرب الاولى وبعدها قد وافقت على خيانة الشعب الفلسطيني فقد (كتب الامير فيصل ابن الشريف حسين وملك العراق فيما بعد ـ بيانا في جريدة جويش كرونيكل « بتاريخ ١٤ اكتوبر ١٩١٩ وهذه الجريدة لسان حال الجمعية الصهيونية في انجلترا » يقول : نحن نسعى لننشيء امبراطورية عربية تتألف على الاقل من العراق وسوريا وفلسطين ، فأناشد اليهود ، وهم ساميون قبل العرب طالبا معونتهم في انشاء المملكة العربية حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين يتيسر لنا ان نجعلها ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية) . (٣)

● كذلك يعزل هذا الفهم قوى الشعب الفلسطيني غير المسلم عن النضال ، وقد استغل الاستعمار هذا القصور في الفهم ، وحاولت مشروعاته منذ صدور وعد بلفور حتى قرار التقسيم ان تضرب الوطنية الفلسطينية بتقسيم طائفي ، وفي الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ ـ وضع الانكليز نصا بتشكيل مجلس تشريعي من ٢٢ عضوا منهم ١٠ من الموظفين الانكليز ، و٨ من المسلمين ، و٣ من المسيحيين ، و٢ من اليهود .. بل « فقد بلغ من امر المستعمرين أن بذلوا جهودا جبارة لاثارة روح الطائفية والخلاف الديني بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين لدرجة ان بعض رجال الاستخبارات من المستعمرين اخرجوا من السجون بعض المجرمين والفوا منهم عصابات زودوها بالسلاح ، وخصصوا لها المرتبات والنفقات واطلقوها للاعتداء على القرى المسيحية واغتيال المسيحيين ، اثارة لروح الفتنة وللايقاع بين ابناء الوطن الواحد » . (٤)

وفي نفس الوقت يعزل هذا الفهم القوى المعادية للاستعمار سواء أكانت دولا او قوى اجتماعية داخل دول ـ عن المعركة ، فالفهم الديني لا يضع هذه القوى وضعها كحليف فقد تكون مسيحية او بوذية او لا تؤمن بالله .

وكان الفهم الديني هو المسؤول عن عدم تحويل المسألة الفلسطينية الى مسألة ممكنة الحل في بعض الظروف ، فقد استغل هذا الفهم التعصب الديني لدى المسلمين ولدى اليهود لخلق حرب دينية رهيبة خلال الفترة من الانتداب حتى حرب فلسطين ، الامر الذي منع القوى الديمقراطية في فلسطين والبلاد العربية من فرض رأيها بوجوب انهاء الانتداب البريطاني وانشاء دولة ديمقراطية في فلسطين كما استغل الاستعمار البريطاني هذا التعصب في تحويل « الحركة الوطنية من حركة سياسية ضد الاستعمار الى حركة دينية وعنصرية ضد اليهود »(٥)

وينطلق الفهم الديني ايضا ليناقش قضية صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة بشأن عودة اليهود الى فلسطين ، ويحاول باستمرار ان ينكر صحة هذه الوعود ، وهذا في الواقع ابتعاد بالقضية

عن اصولها ، فالكتب الدينية تحفل بمناقضات بينها وبين بعضها ـ من وجهة النظر المجردة ـ ففي الوقت الذي ينكر فيه الموسويون الشريعة العيسوية ، والشريعة المحمدية ، ينكر فيه العيسويون شريعة محمد ، وتعترف الشريعة المحمدية بعيسى وموسى ولكنها تنسخهما ، وعلى هذا فاثبات صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة ، يدل على سذاجة فكرية ، فالصهيونيون يستغلون وعود التوراة لاخفاء رغبتهم في تصدير رساميل الى فلسطين .. ومن الحمق ان نعتقد ان اقناعهم بزيف الوعود ، يجعلهم ينفضون عن الاستعمار ، ويضاف الى هذا كله ان اي عقل بسيط يدرك انه اذا كان الله قد اعطى الصهيونية العالمية حق استعمار فلسطين فهو بلا شك اله مزيف !!

والهجوم الديني على اليهودية يعطي فرصة للدعاية الصهيونية لكي تثير قضية الاضطهاد التي تعتمد عليها ..

... ليس هذا فقط ما يعطي الفكر الصهيوني فرصة لتأكيد ذاته فالفكر السياسي العربي يخرج من الفهم الديني ليقع فريسة للفهم القومي المتعصب ..

***

تضع الرؤية الشوفينية المسألة الفلسطينية باعتبارها صراعا بين قوميتين ، وبهذا تقع في خطأ اعتبار « المسألة اليهودية » مسألة قومية ، وهو ما تنفيه احيانا ، وانطلاقا من هذا المفهوم تحاول اثارة البغضاء ضد اليهود متناسية ان اليهودية شيء ، والصهيونية شيء اخر ، ف «النظرية الصهيونية القائلة بان اليهود بصفتهم اليهودية ينتمون الى قومية قائمة بذاتها وعلى ذلك فيجب ان تكون لهم دولة يهودية » (٦) تختلف عن اليهودية نفسها ، فاليهودية دين ، واليهود في أي دولة مواطنون بها « وليسوا اعضاء لجالية يهودية قائمة بذاتها تتميز بمصالحها الدنيوية التي تختلف عن المصالح الدنيوية لرفقائهم الذين يدينون بعقائد اخرى»(٧)

ويحاول هذا الفكر تقديم صورة وراثية لليهودي ، وصفات خلقية خاصة به ، فاليهودية عنده هي « ذلك الخلق الغميم الذي تأصل في طائفة من العبريين منذ اقدم العصور وجعلهم بغضاء منبوذين في كل مكان اقاموا فيه او دخلوه (٨) « و » خلق العدوان والادعاء والانانية هو داء قديم في هؤلاء القوم لم يفارقهم قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك انه كان ملازما لهم زمنا طويلا قبل ظهورهم على مسرح التاريخ»(٩)

واليهودية ايضا « بغيضة الى كل الناس ، بغيضة في كل بلد ، بغيضة في كل زمن ، بغيضة في الزمن الحديث ، لا يحبها ولا يعطف عليها احد » . (١٠)

وينكر هذا الفكر الحقائق التاريخية عن اضطهاد اليهود ويقرر ان اليهودية « هي المسؤولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى ابناء دينها » (١١) لانها « لو وجدت في عالم الملائكة لما كان لها فيه نصيب اكرم من هذا النصيب » . (١٢)

ويحاول الشوفينيون استغلال العداء للصهيونية ـ باعتبارها حركة عميلة للاستعمار لاخفاء عدائهم للفكر التقدمي ، ففي تحليلهم ان الصهيونية (قد اشتركت في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، وآخر ما اشتركت فيه ولا تزال مشتركة فيه ـ حركة الشيوعية في العصر الحديث .. وربما كان الصهيوني من اصحاب الملايين ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ويواليها بالدسائس والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية ولا حاجة الى اكثر من سرد الاسماء لاظهار الايدي الخفية من وراء هذه الحركة في ابانها وليست هذه الايدي الا ايدي الصهيونية العالمية ـ في كل مكان ، كان رئيس الدولة الشيوعية الاولى في العالم كله زينوفييف وكان رئيس البوليس السياسي ياجودا ، وكان وزير الخارجية ليتفينوف ، وكان ترتسكي وكابنيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفيش على رأس الدولة السوفياتية ، ولينين كان نصف يهودي يسمى ايليانوفتش ومن المعلوم قبل هذا كله ان امام الشيوعية الاول هو كارل ماركس اليهودي) . (١٣)

وليس الشيوعية فقط هي حركة التدمير الوحيدة التي خلقها الصهاينة فالاستاذ العقاد يرى انه « لن تفهم المدارس الحديثة في اوروبة ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي ان اصبعا من الاصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية وترمي الى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الازمان فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان واليهودي دوركيم ور ء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالاوضاع المصطنعة ويحاول ان يبطل اثارها في تطور الفضائل والاداب واليهودي او نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية فجنح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجماعات بآفات السقوط والانحلال » ولا يسلم من تحليل العقاد فرويد او انيشتين !!. (١٤)

الفكر الشوفيني يقع ايضا في محاباة الاتجاهات اليمينية التعصبية فهو يرى ان « جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع ان تقهرها وتمحو اثرها ولو لم تبلغ مليونا واحدا يحاربون خمسة ملايين ، ولقد وجدت الجماعة التي تكافح الصهيونية فعلا اثناء الحرب العالمية الاولى ـ وهي الجماعة التي اطلقت على نفسها اسم كوكلكس ـ كلان ku — klux — klane وعاشت بضع سنوات » (١٥)

ويتأسى لان « هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشنت الغارة على اعداء اربعة بدلا من عدو واحد ، فجعلت في همها محاربة الزنوج ومحاربة التابعين للكنيسة الرومانية ، ويحاربون الاشتراكيين والشيوعيين ومحاربة اليهود ، ولو انها قصرت محاربتها على الصهيونية لقضت عليها عنوة »(١٦)

والواقع ان الفكر الشوفيني بمنهجه ذاك يقع في عدة خطايا .

● فهو يقع في خطيئة الموافقة على ان اليهودية قومية رغم انكاره لذلك احيانا ، وهو يسلم بموقفه ذلك للحركة الصهيونية الاستعمارية باقوى حججها واقلها ثباتا امام النقاش العلمي.

● وهو بهجومه على اليهودية يعطي دليلا على الاضطهاد العنصري من ناحية ويفقد عطف اليهود المناوئين للصهيونية من ناحية اخرى ، يقول المجلس الاميركي لليهودية « لم يعتبر اليهود جنسا ما في يوم من الايام . وقد كان من الممكن في اي عصر غير عصرنا هذا ، وفي اي بلد غير الولايات المتحدة ان يختاروا شيئا يختلف الى حد ما عن مناصري ديانة معينة فربما كانوا امة او اقلية من المثقفين او جماعة سلالية ، ونحن هنا في الولايات المتحدة وفي القرن العشرين لا نقبل أي تعريفات اخرى لليهودية او لليهود ، فاليهودية دين والمجموعة التي تعرف باليهود يجب ان تكون ويجب ان تتعرف كجماعة تتمتع بحرية يفرضها الاختيار الفردي ، فاليهودية بصفتها عقيدة اخلاقية على مستوى عال يجب ان تسمو على الحدود القبلية والقومية ويجب ان تقوم على اساس مبدأ الاختيار غير المفروض » . (١٧) .

وبهذا يقع الفكر الشوفيني في خطيئة استبعاد حلفاء حقيقيين للدفاع ضد الصهيونية في الوقت الذي يتوهم فيه الفكر الديني ملايين الحلفاء الخياليين .

● واستبعاد اليهود الحلفاء من المناوئين للصهيونية يستبعد ايضا القوى التقدمية العالمية والقول بان الصهيونية هي القوة الدافعة للحركة الشيوعية لمجرد وجود بعض اليهود في قيادتها ، قول ناضح بالجهل ، فضلا عن انه ليس مثالا يؤكد روح الهدم عند اليهود ، والشيوعية قد بنت بلادا يبلغ تعداد سانها اكثر من نصف سكان العالم ، والمثال هنا ينقلب لصالح الصهيونية فالحركة الصهيونية اذا كانت قوة دافعة للشيوعية العالمية فهي اذن حركة بانية وتقدمية الى اخر مدى .

لقد اعلن الفكر الماركسي موقفه من قضية القومية اليهودية منذ بدء ظهوره فكتب ماركس كتابه « المسألة اليهودية » وقال لينين « ان الحركة الصهيونية في جوهرها حركة خاطئة ورجعية بصورة مطلقة ، وان فكرة القومية اليهودية ذات صبغة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكار الاشتراكية » . وقال خروشوف « من غير الصحيح اتهام الشيوعيين بانهم يعملون ضد مصالح الشعوب الضربية الوطنية ومن السذاجة ايضا وضع الشيوعية والصهيونية على صعيد واحد . فمعلوم تماما ان الشيوعيين ومنهم شيوعيو اسرائيل يناضلون ضد الصهيونية » . (١٨)

● والفكر التعصبي في يمينيته المنحرفة يتجاهل باستمرار الاعداء الحقيقيين ، بل ويتحالف مع اشد الاعداء ضراوة ، وهذا ما حدث عندما حاولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التحالف مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية لمجرد ان النازية تضطهد اليهود . وبينما يشن العقاد الحرب على اليهود ينسى البيوتات المالية الضخمة التي تحرك سياسة الولايات المتحدة لتأييد الحركة الصهيونية ويرى انها تزج بالدولة الامريكية في ((مأزق)) ! كأن المصلحة الصهيونية ليست هي مصلحة الرأسمالية الاحتكارية في امريكا ..

● ومع افلاس هذا الفكر يحاول ان يناقش قضية عنصرية اليهود، ليحاول دراسة ما اذا كان يهود العالم المعاصر هم سلالة يعقوب حقا ، أم انهم اصبحوا سلالة مختلطة لا ترتبط بيعقوب بسبب ومحاولة نفي صله اليهود بيعقوب محاولة عقيمة ، لانها رغم ظهورها في دعاية الصهيونية تبعد بنا عن جوهر المسألة الصهيونية الاصيل ... الاستعمار العالمي ، ولان العرق او السلالة لم يعودا من مقومات القومية .

***

وليس من الصعب على اي حال ادراك السبب في انتهازية الفكر السياسي العربي بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، فهي انعكاس طبيعي لوضعية المسألة بين قضايا الصراع في مرحلة ظهورها واهتمام الفكر السياسي بها ، وهو ما سنعالجه بالتفصيل عند حديثنا عن تناقضات الواقع العربي المتحركة في مواجهة المسألة .

***

والمسألة الفلسطينية هي مسألة فلسطين بكيانها الجغرافي والتاريخي ، وهي مسألة حقوق اللاجئين الفلسطينيين وحقوق الشعب الفلسطيني ، وهي مسألة الدولة الاسرائيلية ، وهي ايضا واساسا مسألة الاستعمار العالمي ..

ولربما كان الاغراق في تقديم تفصيلات المسألة جزءا من محاولة القضاء على اصولها ونحن هنا – بعيدا عن التفصيلات الا الضروري منها - نحاول الانطلاق لفهم ((اصول القضية)) وبمعنى آخر ، جذورها التي صنعتها التطورات التاريخية ، والاجتماعية ومن الطبيعي ان نفسير هذا الوضع هو الاساس الذي ينبغي – في رأينا – حل القضية في اطاره ..

ونحن امام ثلاث قوم متفاعلة فيما بينها ، وقد شكلت الجذور الاصيلة للمسألة .. فنحن امام الصهيونية العالمية كحركة تعصبية رومانسية عن حلم الاقلية اليهودية في الحصول على عدالة فقدوها في الاضطهادات المتوالية ونحن امام الاستعمار العالمي في مرحلة الامبريالية اي في مرحلة الازمة الحقيقية لوجوده ومحاولة البحث عن فرص جديدة تمكنه من البقاء وتتيح له التغلب على مشاكله ، ونحن اخيرا امام الواقع الفلسطيني في مرحلة النمو الرأسمالي والانفلات من اسر الاقطاعية ، يتحرك معه الواقع العربي في مرحلة من ادق المراحل التطورية في حياته .

في داخل هذه القوى ، تصخب الحركة ، وتخفت ، تسير هادئة احيانا مجللة بأحزان الوداع والصمت والضياع ، وتنفجر احيانا اخرى بالغضب الثائر .. والانطلاق الهادر بغير حد .

***

رومانتيكية عصر الامبريالية

كان ((الحلم)) هو المواكبة المستمرة لحركة التاريخ البشري ، وعندما عجز العلم – في بداية التاريخ – عن تفسير الاشياء ، تكفلت الاحلام بتفسير غامض ، وظل الحلم بعد ذلك يؤدي وظيفته ، فاصبح سلاحا رائعا للذين لا يعرفون ارضية ازمتهم ، وللذين يحرصون على عدم معرفة الاخرين لاسباب الازمة .

وكان اليهود بعض ضحايا ((الحلم)) . وعندما دارت محاريث الرومان في بيت المقدس تزيل ارض الشعائر الدينية لليهود .. وتحطم احلامهم البدائية الساذجة ، ثم تطردهم مشردين ، هائمين على وجوههم ، التقط العقل البشري الحائم قصة اليهودي التائه كتعبير ممتد عن الضياع والتشرد ، واللاامل .. واختلطت الحقائق بالاساطير بالاكاذيب تتخلق ميراثا كاملا من الاحزان .

وهكذا عاشت الاقلية اليهودية في حلم طويل ان تجد العدل في مجتمع يضطهدها – في مكان اشبه بالخرافة هو فلسطين ارض الميعاد والعدل والسلام وحلمهم هو نفس الحلم الذي يراود المسلم والمسيحي لمكة او لبيت المقدس ، الحلم القديم الذي يلجأ اليه الذين لا يعرفون ارضية ازمتهم ..

امتلأت مزامير دواود بترانيم العودة .. وغنى لورد بيرون الشاعر الانكليزي الكبير ، ((ان للحمامة البيضاء عشا صغيرا وللثعلب وكرا ، ولكل انسان وطنه ، الا اليهود فلهم القبور)) .

وفي عيد الفصح .. ومع انتهاء فترة التوبات يتبادل اليهود في جميع انحاء العالم التحية فيما بينهم قائلين : ((الى اللقاء في اورشليم العام القادم)) . (١٩)

رومانتيكية الحلم .. هي التي حولت اليهودية الى وطن بعدما كانت دينا !..

***

وتحفل اسفار العهد القديم .. وهي الكتب الدينية التي يعتمد عليها اليهود في اثبات دعواهم بان عودتهم الى فلسطين احد الحقوق التي كفلها لهم ((يهوه)) او الدب – بالعديد من هذه الوعود ! يقول الاصحاح الاول من سفر يشوع ((وكان بعد موت موسى عبد الرب ان الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدي قد مات فالان قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انا معطيها لهم اي لبني اسرائيل كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم)) .

وثمة ملاحظة هامه لمحمد عزه دروزة فهو يرى ان الاسفار تحفل بالغلو والمناقضات والمفاوتات الكثيرة وان احداث موسى وما بعده قد دونت في ظروف مقاربة لحدوثها ويصح ان تكون محل اعتماد وتحفظ ، فتداول الروايات شفويا ردحا من الزمن والخيال والتعصب وظروف التدوين كلها كانت ذات تاثير قوي فأدى ذلك الى الكثير من المناقضات والمفارقات والغلو ...)) . (٢٠)

ان احداث الاضطهادات الدينية المتوالية قد ملأت اسفار العهد القديم بادعاءات ووعود خرافية .. وصنعت اخطر من هذا .. حولت اليهودية من دين الى قومية والخطورة الحقيقية لازمة الاقليات الدينية والعنصرية هو هذا الخلط بين الدين والقومية ذلك ان الاضطهاد الذي تلقاه الاقليات ، والذي ينجم تماما – في الاقليات الدينية – من ربط المسجد او الكنيسة بالدولة ، ينعكس هذا الارتباط على التشريع وحماية حق العبادة والضرائب ، وحق توليه المناصب الرئيسية ، هذا الاضطهاد يتحول الى خلط في الفهم يقلب الدين الى قومية ، خاصة وان القيادات التي تتقدم للدفاع عن حقوق الاقليات كثيرا ما تقع بين براثن فكريات البرجوازية الصغيرة .

***

واذا كنا لا ننكر الاضطهاد الديني الذي تعرض له اليهود فاننا لا نستطيع ايضا ان ننكر ((انهم تمتعوا في فترات مختلفة من تاريخ اوروبا بتأييد بعض الحكومات ونفر من الحكام كما ان الاضطهاد الذي لقيه اليهود في الفترات التاريخية المضطربة لم يكن ذا لون واحد لا يتغير : ان رجال الكنيسة الاقطاعية كانوا يوجهون تهما دينية الى اليهود في العصور الوسطى في حين ان الفريد روزنبرج دعا الى كرههم عنصريا)) . (٢١)

كذلك يعترف المؤرخون ((ان البلاد الاسلامية كانت من التسامح نحو اليهود حتى انهم لم يضطروا كما فعلوا بين غير المسلمين في اغلب

مدن اوروبا من ان يعيشوا في حي خاص مظلم قذر غير صحي » . (٢٢)
وينبغي هنا ايضا ان نشير الى ملاحظتين هامتين :

● ان التحليل القائل بان اضطهاد اليهود ناتج اساسا وبلا اي اسباب اخرى « لنفسية اليهودي » و « لروح التدمير الكامنة فيه » تحليل غير علمي ، فانعزال اليهود في احياء خاصة مظلمة قذرة كان احدى نتائج الاضطهاد الديني وليس سببا فيه ، واشتراك اليهود في المجتمع كان ينتهي بسرعة في حمى اضطهاد جديد يقول هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » ان اليهود يمكن ان يندمجوا في الشعوب التي يحيون بين ظهرانيها لو انهم تركوا في سلام مدى جيلين كاملين ولكن الفرص لا تتوفر لهم .. ، كذلك فان اشتراك اليهود في الثورات كان دليلا على حيويتهم ، ودليلا ايضا على مدى تطرف الاضطهاد الذي كانوا يعانونه ، وكانت هذه الثورات كما كان السكن في احياء خاصة ـ سببا ونتيجة للاضطهاد .. وفي التاريخ الاسلامي اشترك اليهود في ثورة القرامطة في العصر العباسي الثاني وفي ثورة الزنج وهما ثورتان تحريريتان قادهما الفلاحون ضد اقطاع الدولة العباسية .

● ان القول بان اضطهاد اليهود كان بسبب الدين فقط قول مغالى فيه ، صحيح ان الدين اليهودي كان موضع اضطهاد في بعض العصور وخاصة من الدين المسيحي الذي يعتقد اتباعه ان اليهود هم قتلة السيد المسيح وان عليهم يقع دمه ففي الانجيل (فلما رأى بيلاطس انه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب اخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا ، اني بريء من دم هذا العار . ابصروا انتم فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى اولادنا ، حينئذ اطلق لهم باراباس ، واما يسوع فجلده واسلمه ليصلب) وفي صلاة الجمعة الحزينة يتردد قول « فلنصل من اجل اليهود الغدارين « فالقاضي الروماني الذي حاكم المسيح قد برأه من التهم الموجهة له من اليهود . وقال انني بريء من دم هذا البار ، وعلى هذا لا يمكن تحميل غير اليهود المسؤولية . واذا كان القاضي لم يملك الا ان يسلم المسيح للغوغاء فلانه لم يستطع تحمل مسؤولية قتله ظلما ، ورد اليهود على القاضي كان حاسما بتحميل انفسهم وابنائهم هذه المسؤولية التاريخية بقولهم « دم علينا وعلى اولادنا » كما ان اضطهاد اليهود للمسيح امر لا يمكن انكاره بحال من الاحوال ويكفي ما صوره الانجيل في قوله ، فعروه والبسوه رداء قرمزيا وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه ، وكان يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه واخذوا القصبة وضربوه على رأسه . (٢٣)

واذا كانت الجمهرة المسيحية قد وقعت ضحية هذا الوهم فان حملات اضطهاد اليهود التي كانت تمارسها اجهزة الدولة كانت تتستر بستار ديني ، مخفية وراءها اسبابا اخرى ، هي التناقضات الحادة التي تعيشها هذه النظم ، ومحاولتها الدائبة لالهاء جماهيرها .

وتاريخ اليهود المعروف يدل على ان القبائل اليهودية عاشت معيشة قبلية متنقلة في الفترة التي كان فيه تطور المجتمعات لا يسمح بوجود فئة تجار خاصة في كل منها ، فبرعت القبائل العبرانية في التجارة ، حتى استقرت في فلسطين ، وكان موقعها الجغرافي اذ ذاك يجعل منها مركزا تجاريا ناميا ، وفيها نمت تجارة العبريين (٢٤) وازدهرت والتصقت بهم التجارة كوظيفة خاصة بهم وانتشر كبار تجارهم عقب الغزوات المتتالية التي مرت على هذه المنطقة من بلاد العالم ، وبقي صغار التجار فيها ، وفي المراكز التجارية التي هاجروا اليها اتى اليهود « بشكل ارقى من اشكال الاقتصاد المالي والتجاري بسبب خبرتهم الطويلة وعلاقتهم بعضهم ببعض تلك العلاقات الاقتصادية التي كانت ترسخها العقيدة الدينية ، فاليهود مثلا هم الذين اخترعوا النظام الذي يسمح لشخص معين بأن يأمر شخصا اخر بدفع مبلغ ما الى شخص ثالث وهو النظام الذي يطبق يوميا الى الان في العلاقات التجارية والمالية » (٢٥)

وبانتقال المجتمع الاوروبي من نظام الاقتصاد العبودي الى النظام الاقطاعي مر اليهود بمرحلتين :

● في المرحلة الاولى حتى القرن الثالث عشر وهي المرحلة التي تطور فيها شكل الملكية في المجتمع واعيد توزيع الاراضي التي استولى عليها الغزاة ، كما تمت عمليات التقسيم داخل الدولة بتحول السيد الاقطاعي الى شخصية مستقلة عمليا «فاصبح يقيم في املاكه على اقتصاده المغلق ويتمتع بحق وجود اتباع يعملون تحت امرته وهو يعيش على عمل فلاحين » (٢٦) . كان هذا اساس اقامة اليهود في احياء خاصة « وليس هذا بغريب بالنسبة للحياة الاقطاعية فقد كان تقليدا هاما ان يستأثر الاجانب بأحياء خاصة فللطليان حي وللهولانديين حي ايضا ، وللبرتغاليين حي ثالث وهكذا » (٢٧)

وقد ظل الحي الخاص أو « الغيتو » هو رمز المجتمع اليهودي بفعل الاضطهادات المتوالية ..!

في هذه المرحلة ايضا نمت التجارة ، فقد كانت العملة تنقص التجارة ، ثم خلقت الحاجة انواعا من العملة ، ولم تكن هذه الانواع كلها كاملة القيمة اي انه كثيرا ما كانت كمية النحاس او القصدير اكبر من المعدن الثمين ، ونظرا لاختلاف العملات فقد عادت مهنة الصرف من جديد ثم تحول الصرافون الى اصحاب بنوك بطريقة مماثلة . (٢٨)

« وبتطور الاقتصاد الاقطاعي انتقلت المراكز الاقتصادية من شواطىء البحر الابيض الى بلاد اوروبا الغربية فانتقل اليهود بانتقالها ، وظهروا في باقي المدن الفرنسية وفي انجلترا والمانيا وهولاندا يأتون اليها بخبرتهم التجارية الواسعة التي يتوارثونها جيلا بعد جيل وعلينا ان نتصور التاجر اليهودي في هذه العصور بشكل تاجر صغير وسيط او مراب ، كما نتصوره الان في الغالب ، فقد كان اليهود في ذلك الوقت ذوي اتصال مباشر بالانتاج وبنقل البضائع وتخزينها » . (٢٩)

وفي نهاية هذه المرحلة ، بدأ المجتمع ينتقل تدريجيا الى الرأسمالية، وبدأ التناقض في العلاقات الاجتماعية بين الاقطاع والبرجوازية يأخذ شكل الازمة ، فقد كانت التجارة تحتاج الى الائتمان « ولكن الكنيسة كانت تدين الاقتراض بفائدة باعتباره نوعا من انواع الربا ، وكانت هذه الادانة تستند الى اعتبارات دينية وخلقية غير انها كانت في الواقع دفاعا عن الملكية العقارية التي تهددها سلطان النقد المتزايد ، وتماما كما ناهضت الكنيسة بشدة حركة تحرير المدن التي تهدد سلطة الاساقفة اعترضت ايضا على المؤسسات التجارية اذ رأت فيها وبحق عنصرا متحركا ثوريا ، ولكن المقتضيات الاقتصادية اقوى من القواعد الاخلاقية فاستخدمت مختلف الوسائل للتحايل على المحظورات الدينية : ومن المظاهر الغريبة لهذا الكفاح من اجل التقدم التجاري الدور الذي قام به اليهود ، اذ كان من حقهم الا يتقيدوا بهذه المحظورات الدينية بسبب دينهم ، وهكذا اصبحت ـ القروض بفائدة مسموحا بها » . (٣٠)

وهكذا اضطهدت الكنيسة المسيحية اليهود دفاعا عن مصلحة كبار الملاكين العقاريين .. وحاربتهم ، واخرجت من الكهوف الاقوال القديمة للانجيل !!

وفي القرون الثلاثة الاخيرة من عصر الاقطاع ،وهي القرون التي شهدت « تطور المجتمع الاقطاعي حيث ظهرت بوادر العلاقات الرأسمالية، هذه الفترة من العهد الاقطاعي رأت نشوء طبقة التجار غير اليهود ، طبقة فرنسية في فرنسا ، وهولاندية في هولاندا واسبانية في اسبانيا ... الخ وكان طبيعيا ان تصطدم هذه الطبقة الناشئة بالفئة اليهودية الخاصة التي تنافسها ، لذلك اشتهرت هذه الفترة بالحركات الواسعة النطاق التي كانت ترمي الى ابعادهم من تداول السلع وفصلهم عن عمليات الانتاج المباشرة .

وهنا بدأ بؤس اليهود وتحولهم من تجار وماليين ميسورين الى وسطاء صغار لا يكادون يعيشون الا عن طريق المهن الصغيرة ، وهنا ايضا بدأت تنقلات اليهود القلقة من اقصى اوروبا الى اقصاها لا يمكثون في بلد من البلاد فترة وجيزة الا وتقوم ضدهم القومات الدموية فيرحلون الى بلد اخر وهكذا . »

لقد تحولت البرجوازية في فترة نموها الى سرقة صريحة تهدف الى « انتزاع كل ما حققه اليهود تدريجيا من ارباح بضربة واحدة ، وهذه

الروح الخبيثة تجاه العمليات التجارية التي كان اليهود يقومون بها في العصور الوسطى ، تعتبر احد المصادر الرئيسية التي نبع منها التعصب ضد اليهود ، ويقر كالميت ذلك اذ يقول « ان خوف الرأي العام في العصور الوسطى من اقتراض المال ، ذلك الخوف غير المعقول هو الذي خلق في وقت واحد ميل اليهود للشؤون الاقتصادية والشعور العدائي نحوهم » (٣١)

ثم كان تطور المجتمع في المرحلة الرأسمالية ، عندما استطاعت البرجوازية ان تحقق ثورتها ، ونما فكرها ، وارتفعت صيحات فولتير وديدرو وروسو تنادي بالحرية ، وكانت تلك بداية « الفترة التي هضم المجتمع فيها اليهود ، فلم يعودوا يكونون فئة اجتماعية خاصة منفصلة عن بقية الطبقات الاجتماعية ، وبهذا الشكل اصبح التاجر اليهودي والمصرفي اليهودي لا يختلفان في شيء عن التاجر او المصرفي الكاثوليكي او البروتستانتي بعد ان اقرت الثورات المختلفة في انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا مساواة الاديان امام القانون . وبتحرير اليهود وجد منهم لوردات « مونيفيوري » ورؤساء وزارات يهود «دزرائيلي» «بلوم» وبذلك اندمجوا في اوروبا الغربية وامريكا بسائر الفئات البشرية » . (٣٢)

وظهرت في القرن التاسع عشر ، محاولات لفهم المسألة اليهودية في ضوء جديد وكان بعضها بطبيعة المرحلة بعيدا عن الرؤية المنطلقة للمسألة بأكملها ، وعندما طالب اليهود الالمان بالتحرر السياسي ، كانوا يعبرون - كما يرى بوير - عن اصلب شكل من اشكال التعارض بين اليهودي والمسيحي وهو التعارض الديني . وهتف بوير : ان علينا حل التعارض بجعله مستحيلا وعندما لا يرى اليهودي والمسيحي في الدين الخاص بكل منهما الا درجات مختلفة من تطور العقل البشري والا جلود افاع تتجرد منها الافعى التي هي الانسان فلن يجدا نفسيهما من بعد في تعارض ديني ، وانما في علاقة نقدية بحتة ، علاقة علمية بشرية .

ويلاحظ ماركس - بفكر مضيء - ان بوير خلط بين الدين والدولة وان الاساس في الاضطهاد الديني لليهود هو اساس دنيوي بحت ، وان التحرر اليهودي جزء من التحرر الاجتماعي للمجتمع البشري بأكمله وان الغاء الدين ليس هو الحل الذي يقضي على بقية التناقضات التي تخلق اضطهاد اليهود .

هكذا استطاعت الثورة البرجوازية في اوروبا ان تقضي على احد اشكال اضطهاد - اليهود مؤقتا فسقطت جدران الغيتو الكئيبة الى الابد وبالرغم من رد الفعل الذي حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فان الرجعية لم تشمل على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق في الحرية والمساواة ، اذ خرج اليهود من احيائهم وخرجوا كذلك من ازيائهم التقليدية فأصبحوا يلبسون اللبس الاوروبي العادي » (٣٣) الا ان هذا لم يستمر على اطلاقه ، فقد كانت الرأسمالية تتحول تدريجيا الى عدو مقيت ، طفيلي الى اقصى حد ، اناني الى حد الموت ، كانت الامبريالية في الطريق ، وكانت العفونة تنشع من علاقات الانتاج في بعض الدول ، وكان تقسيم الاسواق يظهر كمشكلة والضغط يزداد على الجماهير .... عنيفا قاتلا ...

***

ان تطور المجتمع الى الامبريالية خلق الحاجة الى حلم قديم يبعث من جديد ، يحول ابصار الشعوب ، ويخلق حلا وهميا للازمة ... ازمة الامبريالية مع شعوبها .

وبعث الحلم الرومانتيكي القديم ... الذي كان يمكن ان ينسى لولا ان الاضطهاد لم ينته . كانت الحركة الصهيونية الحديثة هي رومانتيكية عصر الامبريالية !

تبلورت الصهيونية في القرن التاسع عشر كدعوة سياسية منظمة تتحرك بقوة ... وبتنظيم وبحركة قادرة على استفزاز جماهير اليهود ..

كان « تيودور هرتزل » الصحفي النمسوي هو اول من اعطى اشارة البدء كان هرتزل مواطنا نمسويا يهوديا ، وهو كغيره من مثقفي اليهود يعتبر تلك الوعود التي تمتلىء بها التوراة مجرد احلام مستحيلة التحقيق، حتى وقعت قضية دريفوس وهو ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وصدر عليه حكم بالاشغال الشاقة المؤبدة وتجريده من رتبته العسكرية وقد اتهم ظلما وقيل ان يهوديته هي التي تحكمت في ضمير القضاة - ودل تحليل هذه القضية عند هرتزل على ان هناك حركة رجعية في فرنسا توشك ان تقضي على تمتع اليهود بالحقوق المدنية التي حصلوا عليها تطبيقا لشعارات الثورة البرجوازية واصدر هرتزل كتابه « دولة اليهود » ..

وكتاب هرتزل تعبير عن الرؤية الضبابية التي لم تستطيع فهم ابعاد المسألة اليهودية ، فهو قد افترض ان اليهود قومية وبني قضية على هذا الاساس الواهي كما انه لم يستطع ان يفسر اضطهاد اليهود ..

الا ان كتاب هرتزل قد رفع القضية الى المستوى السياسي ، خاصة وحركات - الاضطهاد كانت قد بدأت ترفع رأسها من جديد ، وكانت ثمة حركات حاولت قبل ذلك ان تمهد لاستعمار فلسطين كان اهمها حركة عشاق صهيون . ونجح هرتزل في عقد اول مؤتمر صهيوني في بال خلال عام ١٨٩٧ ، لمدة ثلاثة ايام شهده اكثر من مائتي مندوب يمثلون الهيئات اليهودية العالمية .

ولم يرد ذكر فلسطين كارض محددة في كتاب هرتزل ولكن المؤتمر قرر ان يحدد هدفه بوضوح . كانت الحركة الصهيونية ، وقمتها مقررات بال ، هي « رد اليهود في القرن التاسع عشر والقرن العشرين على ما اصابهم من اضطهاد على ايدي امبراطورية النمسا والمجر والمانيا وفرنسا وروسيا » (٣٤) وكانت ايضا انعكاسا « للوطنية السياسية التي قويت في جميع دول اوروبا اثناء القرن التاسع عشر وجعلت كل امة تصبو الى الوحدة القومية والى السيادة على افرادها في حدود دولة مستقلة » . (٣٥)

كانت اساسا « حركة الهروب النفساني للطبقات المتوسطة من اليهود ، وهي حركة استلزمها - من ناحية زيادة تنظيم الرأسمالية العالمية واندماج الرأسماليين اليهود فيها ، كما استلزمها من ناحية اخرى ، زيادة التنظيم العمالي واندماج العمال اليهود فيه. فلقد قضت الثورة الصناعية على اغلبية الطبقة المتوسطة ومنهم اصحاب الحرف وصغار المولين اليهود ، بينما قضت الثورة الاشتراكية على احلام تلك الطبقة في الاستقلال او الاستغلال ، وبين مطرقة الرأسمالية الاحتكارية وسندان الاشتراكية احسست الطبقة المتوسطة اليهودية - كما احست جميع الطبقات المتوسطة الناشئة بضرورة ايجاد مهرب لها ما لبث ان اتخذ الطابع القومي والمطالبة بالنسبة لليهود - بوطن قومي - بعيدا عن الرأسمالية المنظمة وبعيدا عن الاشتراكية المنتصرة » . (٣٦)

لقد انتهت الصهيونية في القرن التاسع عشر الى صورة جديدة .. صورة القومية !

***

والحركة الصهيونية عندما تعتبر اليهودية قومية تقع في خطأ فهم ساذج لمعنى القومية ولكنها اليوم ، تؤكد هذا الخطأ بمعونة الاستعمار العالمي ، الذي راى في خرافية الحلم الصهيوني وسيلة تتيح له استعمار منطقة الشرق العربي ، واقامة قاعدة في هذه المنطقة من العالم .

واذا كان هناك ما يسمى « قومية يهودية » فان هناك بالتالي بما يسمى « امة يهودية » ! والامة « جماعة ثابتة من الناس ، تألفت تاريخيا، ونشأت على اساس اربع علائم اساسية مجتمعة هي : اللغة ، والارض ،

الحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يتجلى في خصائص الثقافة الوطنية . ووجود جميع العلائم المشار اليها آنفا مأخوذة معا يعطي وحدة تعريف الامة ، لان اية علامة من هذه العلائم ، اذا اخذت بمفردها لا تكفي لتعريف الامة » . (٣٧)

وهذا التعريف للامة يتضمن شرطا اساسيا هو « جماعة ثابتة من الناس » لها علائم اربع محددة ومرتبطة بعضها ببعض ، اولها الارض فهي التي يمكن ان تخلق حالة الثبات للجماعة ووجود جماعة ثابتة على ارض محددة ، يخلق لغة واحدة وحياة اقتصادية ، وتكوين نفسي ويلاحظ ان العلائم الاربع ينبغي ان تتوفر بأكملها ..

وثبوت الجماعة هو الاساس « فالامة ليست اوزاعا عرضية ولا سريعة الزوال ، بل جامعة اناس ثابتة » ولا ينطبق ثبوت الجماعة على اي « اوزاع جموع عرضية ضعيفة الترابط فيما بينها تنفرط وتلتئم تبعا لنجاحات او هزائم هذا الفاتح او ذاك » (٣٨)

والارض هي الرابط الذي يجمع الجماعة ويخلق حالة الوحدة لدى افرادها . اما « الحياة الاقتصادية المشتركة فتفترض وجود علاقة اقتصادية تجمع مختلف اقسام الامة في كل واحد ، وتنشأ هذه العلاقة بفضل انقسام العمل ، وتطور التبادل وخلق سوق وطنية وتطور طرق المواصلات » (٣٩) ، واللغة هي وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم في المجتمع « ولغة امة ما او شعب ما هي شكل من اشكال الثقافة الوطنية تظهر في خصائصها الميزة خصائص التكوين النفسي لامة معينة ، وتتميز الامم بعضها عن بعض لا بشروط حياتها وحسب ولكن بمظهرها الروحي . ان الخصائص التي تميز مظهر الامم الروحي وتكوينها النفسي ونعني بها خصائص الطابع القومي تتكون في الامم خلال اجيال » . (٤٠)

والقومية بمعناها هذا قد ظهرت كحركة قوية في مرحلة التطور الرأسمالي في « عهد تنهار فيه الاقطاعية ونظم الاستبداد المطلق ، وهو العهد الذي ينشأ فيه مجتمع ودولة ديمقراطيان برجوازيان ، وتصبح فيه الحركات الوطنية لاول مرة حركات جماهيرية يدفع تيارها جميع سكانها نحو السياسة بمختلف اشكالها « فما يميز هذا العهد في كل دولة هو » انطلاق الحركات الوطنية التي يجرف تيارها طبقة الفلاحين ـ اي الطبقة التي تضم أكبر عدد من السكان والتي يصعب دفعها الى الحركة ـ وبشكل يتفاعل معه النضال في سبيل الحرية السياسية بصفة عامة وفي سبيل حقوق القومية بصورة خاصة » (٤١) « فالدولة القومية هي القاعدة والنموذج في النظام الرأسمالي » (٤٢) لان « الدولة القومية بالنظر اليها من ناحية العلاقات بين الامم تخلق افضل الشروط
القومية بالنظر اليها من ناحية العلاقات بين الامم تخلق افضل الشروط
التجزئة الاقطاعية وعلى يد الدولة البرجوازية والتي خلقت الوحدة الوطنية ، ومن المهم هنا ان نشير الى امرين :

١ ـ ان الامة غير الدولة ، فالدولة لا تمثل مطلقا « قوة مفروضة من الخارج على المجتمع كما انها ليست البتة « واقع الفكرة الاخلاقية » او « صورة العقل وواقعه » كما يدعى هيجل الدولة نتاج للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره وهي تشكل الاقرار بان هذا المجتمع قد تعثر في تناقض مع نفسه ممتنع على الحل ، انه انقسم الى متضادات لا يمكن مصالحتها ، متضادات يعجز عن التخلص منها ، ولكنه اصبح من الضروري ـ كيلا تلتهم هذه المتناقضات هذه الطبقات المتناقضة المصالح ، بعضها بعضا ، وتلتهم المجتمع في صراع مجدب ـ وجود قوة تخفف من حدة النزاع باقامة نفسها فوق المجتمع ظاهريا وتحفظه في حدود « النظام » هذه القوة المنبثقة عن المجتمع ، لكن الواضعة نفسها فوق المجتمع ، المبتعدة أكثر فاكثر عنه ، هي الدولة « حقيقة الدولة اذن » جهاز طبقي للسيطرة ، جهاز اضطهاد طبقة لطبقة أخرى ، هي خلق « نظام » يعطي هذا الاضطهاد صفة المشروعية ويثبت اركانه مخففا اثناء ذلك من حدة الصراع الطبقي » (٤٤) ، اما حقيقة الامة فهي عدة طبقات متصارعة تتحد في علائم اربع ذكرناها . ومن البديهي ان الدولة لا تنشأ قبل نشوء الامة . والدولة البرجوازية عند نشوئها كانت البشير باظهار القومية وبتجميع الامة .

٢ ـ ان ظهور شروط وعلائم القومية في الامة من الامم ، يعني حق هذه الامة في تقرير مصيرها « وليس هناك من الوجهتين التاريخية والاقتصادية سوى معنى واحد هو حرية تقرير المصير السياسي ، اي الاستقلال كدولة اي انشاء دولة قومية » (٤٥) ، « فالمقصود بحرية الامم في تقرير مصيرها ، هو انفصالها كدول عن مجموعات قومية اجنبية ، هو تأليفها دولا قومية مستقلة » . (٤٦)

وعلى ضوء هذا فان التسليم بأن اليهود قومية يستلزم التسليم بحق اصحاب هذه القومية في انشاء امة مستقلة سياسيا لهم ، ولكن هذا الحق اذا طبق ينبغي ان يطبق في اطار التقسيمات الجغرافية الموجودة في العالم ، فاذا كان يهود امريكا يشكلون قومية ، فمن حقهم ان ينفصلوا عن امريكا بقطعة الارض التي يقيمون عليها ويشكلوا دولة ، وبهذا يكون عندنا « دولة يهودية امريكية » ودولة يهودية فرنسية ... وثالثة اسبانية، ..... الخ اما ان يتكتل يهود العالم للاستيلاء على امة لها سكانها ـ فلسطين ـ فان هذا يتنافى بلا شك مع حق تقرير المصير .

وعلى اي الاحوال ، فان التسليم بان اليهود قومية ، تسليم بقضية يعوزها الدليل العلمي ..

● فاليهود لم يكونوا ابدا جماعة ثابتة من الناس ، فمنذ قوض الرومان الدولة التي انشأوها في فلسطين تشردوا في انحاء العالم، صحيح انهم في بعض الدول التي هاجروا اليها قد اقاموا في احياء خاصة بهم ، ربما اخذت نوعا من الثبات ، ولكنهم كمجموعة بشرية منتشرة في العالم لم يكونوا ابدا في شكل الجماعة الثابتة .

● واليهود كذلك ليس لهم لغة مشتركة ، والعبرية ، لغة ميتة لم يكن يستخدمها منهم سوى رجال الدين ، ولولا ان حركة بعث العبرية قد اقترنت بالدعوة الصهيونية لاندثرت هذه اللغة تماما ، وقد استخدم اليهود لغات الدول التي اقاموا بها واتقنوها . وما زالت مشكلة ازدواج اللغة هي احدى مشاكل اسرائيل اليوم . ويضاف الى هذا ان بعد اللغة العبرية عن الاستخدام قد بعد بها عن ان تكون لغة اجتماعقية معبرة تعبيرا تاريخيا عن كل احتياجات المجتمع النفسية والفكرية والاقتصادية ، فهي لغة ميتة كالهيروغليفية واللاتينية القديمة .

وصحيح ان اليهود لهم سمات اقتصادية مشتركة ، فهم يعملون كمصرفيين او مرابين او غيرها من انشطة المجهع الاقتصادية ، لكن هذا لا يعني وجود حياة اقتصادية مشتركة ، فالحياة الاقتصادية المشتركة هي علاقات انتاجية تظهر في انتاج واستهلاك طيبات المجتمع ، وليست طابعا خاصا ..

● وحرص اليهود على الاحتفاظ بتقاليد معينة ، هو حرص على تقاليد دينية ، وهو ما نجده عند المسلمين في انحاء الدنيا مثلا ـ وليس طابعا نفسيا مشتركا ، فموت العبرية كلغة قد امات ثقافتها ، وهي الاساس في تكوين الطابع النفسي المشترك .

● كذلك فان الاحتجاج بوعود سلالية او الهبة ، احتجاج سقط تاريخيا ، ولم يعد يجدي الرد عليه !

ان اليهود قد فقدوا الرؤية الحقيقية لمشكلتهم عندما حولوها الى قومية .

***

« ان قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال» (٤٧) ، فالحركة الصهيونية قد وقعت فريسة لامنيات الرأسمال الاحتكاري، وليس من الجدي ان نبحث عن سر اليهودي في دينه ، فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي ، ما هو الاساس الدنيوي لليهودية المصلحة العملية ، والمنفعة الشخصية ، اذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية ، انما يحرر نفسه ايضا ـ والتنظيم الاجتماعي الذي يلغى الشروط الضرورية للمتاجرة ، وبالتالي يلغي امكانية المتاجرة سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلا . والضمير الديني اليهودي سوف يتلاشى مثل بخار تافه في جو المجتمع الحقيقي ومن جهة اخرى فاليهودي منذ ان يقر ببطلان جوهره العملي ويبذل جهده لالغاء هذا الجوهر ، يحاول الخروج مما كان تطوره حتى ذلك الحين

ويعمل للتحرر البشري العام، ويتحول نحو اسمى تعبير عملي عن التخلي البشري عن الجوهر». (٤٨)

ان الحل الحقيقي لمشكلة اليهود «يستوجب ان يشترك اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها مع قوى هذه المجتمعات التي تناضل للقضاء على الرجعية ذلك «ان القضاء على الاضطهاد العنصري والديني لا يمكن ان يتم بدعوة عنصرية ودينية ولكن فقط بنضال ضد النظام الذي يقوم على اسس الاضطهاد العنصري والديني». (٤٩)

ان القيادة الصهيونية لم تفهم هذه الحقيقة واندفعت كمخلب قط للاستعمار العالمي لكي تستعمر فلسطين!

***

منذ مؤتمر بال وحتى اعلان قيام دولة اسرائيل - كتحقيق للمخطط الصهيوني - بدأت الحركة الصهيونية - بمعونة القوى الاستعمارية، تنفذ مخططها لاحتلال فلسطين.

١ - بدأت بتصدير الرساميل الى هناك، وهي الحركة التي بدأها المليونير اليهودي روتشيلد بتشجيعه جمعية «احباب صهيون» وشراؤه الاراضي الزراعية لها، وبين عام ١٩٢٠ - ١٩٤١ هاجر الى فلسطين ٣٢٥٠٠ يهودي ادخلوا معهم ١١٥ مليون جنيه، وقد ارتبطت هذه الرساميل المصدرة بالمؤسسات الصهيونية الكبرى التي انشأها الرأسمال اليهودي في فلسطين مثل الكارن كايمت أو «الصندوق القومي لشراء الاراضي ووقفها على الشعب اليهودي» وقد تأسس كشركة في عام ١٩٠١ وبلغت الاراضي التي يملكها في سنة ١٩٣٧ ما يقرب من ٣٨٥ الف دونم اي حوالي ٣٠٪ من الاراضي التي يمتلكها اليهود. واسس هرتزل سنة ١٨٩٨ - في المؤتمر الصهيوني الثاني - «الترست الاستعماري اليهودي» برأسمال يبلغ مليونين من الجنيهات لتقديم الاعتمادات اللازمة للحركة الصهيونية على اساس تجاري. وقد انشأ هذا الترست بنك الانجلو - فلسطين في عام ١٩٠٠ برأسمال ١٠٠ الف جنيه، وعند اعلان الحرب الاولى بلغت ودائعه ٢٥٠ الف جنيه، وارتفع مجموع عملياته الى خمسة ملايين جنيه، وساهمت الوكالة اليهودية في مشروعات انجليزية في فلسطين مثل الاتحاد الكهربائي لفلسطين، وفي مشروعات امريكية مثل الاتحاد الاقتصادي لفلسطين في نيويورك. والاتحاد الكهربائي فرع من الترست الانجليزي العالمي جنرال اليكريك، وهو من اغنى المؤسسات الاحتكارية.

وقد ساعدت سلطات الانتداب هذا الرأسمال الوافد على انتزاع الاراضي من الفلاحين العرب في فلسطين، كان الفلاحون مدينين للبنك العثماني الزراعي بالعديد من الضرائب والقروض، فالغت سلطات الانتداب البنك وطالبت الفلاحين بتسديد ما عليهم، وارهقتهم، وكان الرأسمال اليهودي بالمرصاد لدفع الديون وشراء ارض الميعاد، كما ان صك الانتداب نفسه قد اباح للسلطة المنتدبة حق بيع اراضي الدولة لليهود.

٢ - كذلك تضمنت الخطة الصهيونية انتزاع اقصى ربح من فلسطين، ولما كان العمال العرب في فلسطين ارخص اجرا بطبيعة التخلف الذي كانت تمر به فلسطين، فقد حاول رأس المال الوافد استغلالهم، ولكنهم رفضوا التعامل مع اليهود، يقول دولشين رئيس الشعبة الاقتصادية في الوكالة اليهودية «لقد اعتادت الوكالة اليهودية ان تهجر الى اسرائيل اليهود الفقراء حتى تستطيع ان تقذف بهم الى الصحراء والى مستعمرات الحدود، وكذلك اعتادت ان تهجر اليهود الاثرياء الذين يستطيعون استثمار اموالهم ويستطيعون العيش من الربا وما يحصلون عليه من فوائد وعائد هذه الاموال». (٥٠)

ولقد كانت الحركة الصهيونية تدرك منذ البداية ان تصدير الرساميل وحده لا يكفي لتحويل فلسطين الى امة يهودية، فحرصت على ان تدعم وجودها في فلسطين بشعب ومن هنا بدأ تصدير الشعب اليهودي الى فلسطين، وارتفع شعار ان فلسطين «وطن بلا سكان فيجب ان تعطى لشعب بلا وطن»، وبمعاونة سلطات الانتداب بدأ تصدير الشعب، ففي الفترة من ١٨٨٢ الى ١٩٣٠ كان عدد المهاجرين اليهود حوالي ٣٠،٠٠٠ نسمة، ارتفعوا من (١٩٠٤ - ١٩١٤) الى ٤٠،٠٠٠، بينما بلغوا في الفترة (١٩١٩ - ١٩٤٩) حوالي ٤٥٢ الف نسمة.

٣ - ولحماية نفسها بدأت القوى الوافدة تشكل جيشها، كانت تدرك انها قد تقع في تناقض مع الاستعمار، فضلا عن انها قدمت بطريقة وحشية من اصحاب الارض الحقيقين وبدأ الجيش بداية متواضعة من خفراء المستعمرات اليهودية المنعزلة الذين كونوا «الهاجانا» او قوة الدفاع»، ونمت قوتها بنمو الوافدين حتى تحولت الى منظمة عسكرية كبيرة اصبح لها مصانعها الحربية وقواعدها المجهزة، وفروعها في دول العالم - امريكا واوروبا - تشتري منها الاسلحة، وانشق من الهاجانا وهي الجيش الام قوى اليمين المتطرف في عام ١٩٣٧ لتنشىء المنظمة العسكرية الوطنية لاسرائيل - ارجون زفائي لقومي لاسرائيل - ثم انفصل عنها اليمينيون الاكثر تطرفا لينشئوا في عام ١٩٤٠ منظمة المدافعين عن حرية اسرائيل وهي المعروفة باسم عصابة «شتيرن».

واتحدت هذه القوى خلال الحرب الثانية، ثم تحولت بعد ذلك وعند اعلان مولد اسرائيل الى جيش اسرائيل النظامي.

٤ - وكان خلف هذا كله .. الاستعمار العالمي بقواه الرهيبة، فهو الذي اصدر صك الانتداب، وهو الذي سهل لليهود انشاء وطنهم القومي، وهو الذي حرص على ان تظل الحركة الصهيونية تحت حمايته حتى بعد انشاء اسرائيل، وهو - متعاونا مع الرجعية العربية - الذي خلق ضبابا حول المسألة بأكملها بحيث نفخ باستمرار في نار التعصب القومي والديني فمنع حلولا، وحال دون الوصول الى بوارق آمال، ولم يكن في هذا يعمل لحساب الرجعية العربية او الرجعية الصهيونية .. كان يعمل لحسابه .. وحسابه فقط.

***

الحائط الامريكي والايلون للسقوط

منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحتى العقود الاولى من القرن العشرين، اتضحت طبيعة التطور الذي لحق بالرأسمالية، فزاد تركز المؤسسات الصناعية، وتمركز الانتاج، وكشف النظام الرأسمالي عن وجهه الاحتكاري، وكانت المنافسة - شعار البرجوازية الكلاسيكي - قد بدأت تلفظ انفاسها، والشركات الضعيفة تعاني مرارة الخوف تحت جبروت السيطرة المصرفية على الانتاج، وكان هذا التطور يشكل ازمة كيانية للنظام الرأسمالي .. انفجرت في شكل ازمات اقتصادية تعرضت لها الدول الامبريالية، وقد كشفت النظرية النازية بوضوح وبلا اي التواء عن طبيعة هذا النظام، فرغم ما يحمله كتاب كفاحي لهتلر من طنطنة حول التفوق الاري والسلالة الجرمانية التي ينبغي ان تصان من كل خلط، فان نظرية المجال الحيوي، كانت تعبر عن ازمة النظام باكمله في معناها الهادىء البسيط والمجرد: «لكل امة الحق في ان تحصل من ثروات العالم ومواده الاولية على قسط يناسب سكانها وحاجاتها وعلى حيز من الفضاء الحيوي او الاراضي يتفق مع هذه النسبة وهذه الحاجات»!!

وكان عصر الامبريالية ايضا هو قمة التطفل على قوة العمل، فهو السرقة الجريئة واللاانسانية الى اخر مدى، ومن هنا انتشرت البطالة والجوع وانتشر معهما الثورة والسخط وفي نفس الوقت الذي كانت الدول تحاول اعادة تقسيم «الفضاء الحيوي» كانت هناك مستعمرات تطالب بالاستقلال .. كانت هناك دول تبحث عن مستعمرات، ومستعمرات تطالب بالتحرر .. كانت ازمة الامبريالية ذات عدة روافد.

- فمن ناحية كانت هناك الازمة الداخلية لكل حكم استغلالي، بين الذين يشترون قوة العمل وبين الذين يبيعون قوة العمل .. وفي معسكر المشترين انفسهم كانت هناك ازمات اكثر عمقا، فالاحتكار بطبعه يسحب الارض التي تقف فوقها مشروعات الفئات الوسطى النامية، ومن هنا كانت الثورة تنتشر .... وتنتشر!
- وكانت هناك الازمة بين الدول الرأسمالية نفسها حول تقسيم

المجالات الحيوية ، فبينما كانت هناك دول رأسمالية راسخة القدم وزعت الاسواق بينها كانت هناك دول اخرى ناشئة تطالب بنصيبها من الفضاءات الحيوية ، من الاراضي البكر والمواد الخام وقوة العمل الرخيصة .

● وكانت الدول المستعمرة ، قد بدأت تنمو برجوازيتها بضعف بمساعدة رأس المال الاجنبي الوافد ، وبدأت الحركات الوطنية تطالب بالاستقلال في مصر وولايات الامبراطورية العثمانية والهند وكثير من مستعمرات العالم !

● وكانت هناك حاجة لاتخاذ وسيلتين لمواجهة هذه الازمة :

١ ـ ان تدخل الدول الاستعمارية في حرب بينها وبين بعضها لتقسيم الاسواق من جديد .

٢ ـ ان يوجد مبرر يمكن تقديمه لجماهير الشعب حول هذه الحرب، لالهائها عن مطالبها من ناحية ، ولضمان الحصول على موافقتها على انتزاع مكاسبها ورجالها وشبابها لتذهب جميعا ضحية الحرب !!

***

وفي هذا الاطار كانت الحركة الصهيونية تشكل فريسة سهلة للدول القديمة ـ انجلترا وامريكا وفرنسا ـ

١ ـ فهي حركة تعبر (عن ازمة الطبقات المتوسطة اليهودية التي اخذت تبحث بحثا جنونيا عن مخرج من مأزقها فوجدته في المذاهب الوطنية المتطرفة فالتقت بذلك مع مصالح كبار المستعمرين الذين كانوا يبحثون من جانبهم عن طريقة يجرون بها الشعب في الحروب الاستعمارية تحت ستار المثل العليا ومنها المثل العليا الوطنية) . (٥١)

٢ ـ وساعد على هذا ان التركيب الاجتماعي لليهود ، كان يحتوي على نسبة عالية من التجار والماليين والوسطاء الصغار ، كما انضم الى الحركة من ناحية اخرى كبار اليهود الماليين في الغرب الذين رأوا فيها فرصة كبيرة لزيادة ارباحهم باستغلالهم افراد الطبقات الشعبية اليهودية المنتمين الى شرق اوروبا ، علاوة على استغلالهم الطبقات الشعبية في بلاد اوروبا الغربية فكان مشروع الدولة اليهودية الذي يرمي الى جمع الشعب اليهودي واحياء تاريخه ولغته واسكانه في وطن ملائم وانشاء دولة على النظم العصرية وقد كان للرأسماليين اليهود في هذا المشروع ما ارادوا اذ جاء يحمل لهم من الفوائد والارباح ما لا يوجد في الحركات القومية الاخرى . (٥٢)

٣ ـ « كان من مصلحة الرأسمالية العالمية دائما ان توجه السخط الاجتماعي بعيدا عن اسبابه الجذرية ومن اهمها النظام الرأسمالي نفسه، فلقد استغل الرأسماليون الاحتكاريون والاستعماريون الحركة الصهيونية في تضليل الطبقة المتوسطة اليهودية عن سر ازمتها كما استغلها في تضليل الاقسام غير المنظمة من الطبقة العاملة اليهودية وكما قام الاستعمار الالماني بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال الالمان بوسيلة اعتبار ذوي الديانة اليهودية مسؤولين عن الازمة في المانيا ، قام الاستعمار الانجلو امريكي بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال بوسيلة اعتبار العودة الى فلسطين الحل الوحيد لازمتهم » .

٤ ـ وكان الاستعمار العالمي يحاول الحصول على مجالات حيوية ، دولة عميلة تستطيع ان تكون قاعدة له في منطقة من اغنى المناطق واوفرها ادرارا للربح للرأسمال العالمي !

***

ولا يستطيع ان ينكر ذلك الارتباط بين القوى الاستعمارية وبين الصهيونية العالمية وبالذات الاستعمار الانجليزي والاستعمار الامريكي ، فهو ارتباط لا تؤكده وقائع التاريخ فحسب ، ولكن تعترف به الاطراف الثلاثة ايضا ، فليس الاستعمار الانجليزي والامريكي هو الذي ساهم وصنع اسرائيل فقط ، ولكنه ايضا هو الذي حماها واكد وجودها ، وحرص على ان يفرض الوضع الحاد الحالي لفلسطين .

الا أن الصهيونية العالمية قد حرصت لتحقيق مصالحها الخاصة ، على الاستفادة من التناقضات الاستعمارية ، فالاستعمار الامريكي ، الذي مكنته ظروفه الخاصة ، وخروجه من الحرب الاولى باقل الخسائر ، وكان مبشرا بسقوط الاستعمار القديم ، وتواريه وقد استطاع ان ينتزع المعسكر الاستعماري ، ومن هنا استفادت الحركة الصهيونية منه بعدما وجدت ان الاستعمار البريطاني وقد اكتشف ضعفه فحاول ان يحول دون انشاء الوطن القومي اليهودي بمقررات ١٩٣٩ ، فحولت جهدها للاستفادة من الاستعمار الجديد .. القوى .. امريكا ..

***

كان اول مظهر من مظاهر التأييد البريطاني للفكرة الصهيونية وعد بلفور ، الذي وجهه آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا يومئذ في رسالة الى اللورد روتشيلد رئيس المنظمة الصهيونية الانجليزية .

وبناء على هذا الوعد صدر صك الانتداب عقب انتهاء الحرب ، والانتداب هو فكرة الاستعمار الجديد ، او امريكا ، الذي كان يرى ان اقتسام الغنائم ينبغي ان يتم بالطرق الكلاسيكية التي لم تعد تصلح للتعامل مع الشعوب ، وانما على عصبة الامم ان تنتدب من قبلها دولة كبرى تكل اليهم مهمة تثقيف الشعوب المتحررة حديثا من نير الاستعمار التركي والالماني ، وهكذا صدر ميثاق عصبة الامم المتحدة متضمنا النص على تطبيق نظام الانتداب على البلاد المنتزعة من المانيا وحلفائها ، وان الانتداب رسالة تمدينية مقدسة تراقب عصبة الامم اداء الدول المنتدبة لهذه الرسالة .

والواقع ان المساعدة التي قدمتها سلطات الانتداب ، مساعدة يشكوها اليهود حتى اليوم ، ذلك ان هذه المساعدات قد جرت في جو من المقاومة الباسلة التي خاضتها جماهير الشعب الفلسطيني حفاظا على وطنها من التدفق العميل ...

وكان واضحا امام سلطات الانتداب ان هدفها الاساسي ان يكون اليهود اغلبية في فلسطين حتى يستطيعوا اعلان دولتهم فيها .. ومن هنا بذلت هذه السلطات جهدها في تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كما ساعدت ايضا على تنظيم القوات العسكرية اليهودية حتى ان المنظمات الارهابية اليهودية استطاعت بسرعة ان تتحول الى جيش منظم دخل الحرب ضد سبع دول عربية في مايو سنة ١٩٤٨ وانتصر عليها . ولعل اكبر المساعدات التي قدمتها سلطات الانتداب البريطاني هو انها ـ وهي المكلفة بحفظ الامن والنظام في فلسطين ـ قد انسحبت الى معسكراتها في الفترة من صدور قرار التقسيم في نوفمبر سنة ١٩٤٧ حتى انتهاء الانتداب وبداية الحرب اليهودية العربية في مايو ١٩٤٨ ـ وتركت اليهود والعرب في معركة ضارية ، تاركة ابواب معسكراتها لافراد العصابات الصهيونية لكي يسرقوا السلاح .

***

كان للاستعمار الانجليزي فضل احتضان الحركة الصهيونية وهي وليد يحبو ، الا ان الصهيونية كانت قد انتقلت بمركز نقلها الى الميدان الامريكي منذ ثلاثينيات هذا القرن فبعد انهيار ستار العزلة الامريكية ، خرج الاستعمار الامريكي من الحرب الاولى وقد دخلها في نهايتها كما فعل في الحرب الثانية ـ قويا فتيا ، في الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار البريطاني يتوارى في السفح ، وبدأ البحث عن قاعدة في الشرق الاوسط.

فقد حملت هذه العقود من القرن انتصارات الشعب السوفياتي بقيادة الطبقة العاملة مما دفع ، « الدول الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية الى تأييد الصهيونية بكل قوتها كوسيلة لتحويل يهود اوروبا عن الشيوعية وابعادهم عن الحركات المناصرة لها التي اخذت تشتد في جميع دول اوروبا بعد انتصارها في روسيا . » (٥٤)

وفي نفس الوقت كانت رغبة الولايات المتحدة في الحصول على قاعدة لها في المنطقة قد بلغت اوجها ، خاصة ان شعوب المنطقة نفسها كانت تعيش في ظل ظروف استقلالية بشعة مما كان يهدد باستمرار بحدوث ثورات وانتفاضات شعبية لو توفرت القيادة المنظمة .

يضاف الى هذا كله ان النفوذ الصهيوني في امريكا غير مشكور فالامبريالية الامريكية تعتمد على احتكارات اليهود الصناعية والتجارية والزراعية ، ومن بين ٧٤ شركة صناعية كبيرة في هول ستريت توجد عشرون شركة يملكها كبار الرأسماليين اليهود ملكية تامة .

وكان الامريكيون يرون ان بريطانيا لم تعد قادرة على تنفيذ مخطط

الصهيونية خاصة ان الانجليز قد ادركوا ضعفهم وادركوا الاطماع الامريكية فحاولوا في الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ ان يتراجعوا ، ولم يكن هذا التراجع الا نتيجة لعنف الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ ، واملا في ان تؤلف دولة ترتبط بحلف مع بريطانيا ، وقد اعترفت بريطانيا في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ بتعارض الالتزامات التي اخذتها على عاتقها نحو اليهود والعرب وغموض معنى الوطن القومي اليهودي ومداه واعترفت بانها قد ساعدت على انشاء الوطن القومي اليهودي مساعدة فعالة بحيث صار من الصواب ان يتمتع اهل فلسطين بما امكن من السرعة بحقوق الحكم الذاتي التي يمارسها اهالي البلاد المجاورة ، وقررت تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ترتبط معها بمعاهدة وينتهي الانتداب وعلى ضوء هذا فانها ستسمح لاخر مرة لخمسة وسبعين الف مهاجر خلال خمس سنوات ثم لا يسمح بعد ذلك بهجرة يهودية اخرى الا اذا قبل بها عرب فلسطين .

لقد كان معنى هذا في نظر الصهيونية ان الحائط البريطاني قد سقط !

فقامت حرب اليهود ضد سلطات الانتداب ، وقتل عدد من الشخصيات البريطانية اللامعة وحاولت بريطانيا التنازل عن وعود عام ١٩٣٩ ، وفي نفس الوقت كان مركز الثقل ينتقل الى نيويورك وواشنطن.

***

وجه اليهود نداء الى الرئيس ترومان عام ١٩٤٧ قالوا فيه « ان قيام دولة يهودية في فلسطين ضروري لاستقلال الملايين الذين لا يزالون في مراكز التجمع بالمانيا واوروبا حتى يبني منهم حائط امريكي في الشرق الاوسط ، ان امريكا لا يمكنها الاعتماد في الايام القادمة على حليف حازم خير من دولة يهودية في ذلك الجزء من العالم ... » .

وصرح روزفلت في انتخابات الرئاسة « ان الشعب الامريكي يؤيد امل اليهود في قيام كومنولث ديمقراطي في فلسطين وسوف اساعد على تحقيق هذا الامل » .

وهتف ترومان « على عرب فلسطين ان يتركوها لليهود » .

وفي انتخابات عام ١٩٤٤ صرح الديمقراطيون في برنامج حزبهم « اننا نؤيد فتح ابواب فلسطين للهجرة والاستعمار اليهودي دون قيد او شرط ، ونؤكد كذلك كل سياسة من شانها ان تسفر عن تكوين دولة يهودية ديمقراطية حرة » .

وطالب الجمهوريون « بفتح فلسطين للهجرة غير المقيدة وامتلاك الاراضي حتى يمكن ان تنشأ في فلسطين دولة ديمقراطية حرة ، واننا نحمل بشدة على سياسة الرئيس ترومان بفشله في ان يجبر السلطة صاحبة الانتداب على تنفيذ نصوص وعد بلفور ، وذلك في الوقت الذي يتظاهر فيه بمساعدتهم .

لقد استطاعت الدبلوماسية الامريكية اتباع اساليب التهديد بقطع المعونات الامريكية والضغط السياسي البالغ العنف حتى حملت الدول على تأييد قرار التقسيم ، وعلى الرغم من ان التقسيم كان في ذلك الوقت هو الحل الممكن ، او احسن الحلول السيئة فان الدول كانت ترى فيه اجحافا بحق العرب ، ولولا الضغط الامريكي لما استطاعت الصهيونية العالمية الحصول على قرار من الجمعية العامة بتأييد التقسيم .

***

ان خطورة اسرائيل اليوم لا تكمن في انها دولة في وسط المنطقة قامت على اساس استعماري فقط ، ولا تختفي خطورتها ايضا في انها استولت على الاراضي التي هي من حق الشعب الفلسطيني فحسب ، ان خطورتها الحقيقية ، انها قاعدة استعمارية ، تمثل الفكريات السائدة فيها امنيات الاستعمار العالمي في التوسع على حساب المنطقة ، وعلى الرغم من ان دعوى الاضطهاد قد انتهت من زمن ، فما زالت اسرائيل تصر على انها وطن اليهود في العالم اجمع ، وانها لكي تستوعب هذا العدد ، لا بد من ان تمد حدودها من الفرات الى النيل !

الخطورة الحقيقية لاسرائيل انها دولة عميلة للاستعمار العالمي الذي يعيش في شبه مأزم باحثا عن اسواق !! .

وانتقال الصهيونية من العمالة للاستعمار الانجليزي للعمل لحساب الاستعمار الامريكي هو انتقال من العمل لحساب استعمار مهدوم ، الى العمل لحساب استعمار قوي ... عنيف وحاد الى اخر مدى مع قمة الاستعمار الحديث ... امريكا !!.

***

واقع يتحرك بتناقضاته

ظهرت المسألة الفلسطينية على مسرح الواقع العربي ، في مرحلة من ادق مراحله وليس جديدا ان يقال ان الاوضاع العربية هي المسؤولة عن تطور هذه المسألة بشكلها الحالي ، ولكن المهم هنا ان ندرك طبيعة هذه المسؤولية وان نصل الى تحليل موضوعي لها ، وينبغي هنا ان نلتفت الى ملاحظة جديرة بالاعتبار ... تلك ان الواقع العربي عندما تحرك في مواجهة المسألة الفلسطينية قد تحرك بتناقضاته ، في محاولة للحصول على عمل لهذه المتناقضات كهدف اساسي ، ومن هنا فان موقفه لا يمكن ان يوصم بالخيانة او التردد من وجهة نظره هو ، فطبيعة التطور اليوم هي التي تحدد هذا الموقف في لحظته وليس المهم ان نصم طبقة او فئة بالخيانة ، ولكن الاهم ان نصل الى القول ان هناك فئات اجتماعية ، ترى حلا للقضية الفلسطينية يتجاوب مع امنيات الجماهير في السلام والامن الاجتماعي ، وان انتصار هذه الفئات يحمل حلا جديدا للقضية !

***

كانت محاولات الشعب الفلسطيني للحصول على استقلاله الوطني مواكبة لغيرها من الحركات المماثلة في الوطن العربي ، وقد بدات جميعا في الفترة التي شهدت انهيار الاحتلال العثماني .

كان هذا الاحتلال مسؤولا عن بقاء هذه المنطقة من العالم في اسر الاقطاعية بما فرضه من عزله ، وبتصديره عددا من الحرفيين الى عاصمة ملكه ، وفي الوقت الذي كان النظام الاقطاعي يتهاوى في اوروبا تحت ضربات البرجوازية الزاحفة ، كانت هذه المنطقة تعيش ملتفة بالدين الاسلامي تحت حكم الامبراطورية العثمانية في تأخر ، وتخلف لا مثيل لهما.

وفي محاولة البرجوازية الاوروبية المنتصرة الحصول على الاسواق، ضمت اليها بعض الدول الواقعة تحت النفوذ العثماني ، اما ضما فعليا كما حدث في مصر ، او بتسلل رؤوس الاموال تدريجيا كما حدث في الكثير من الدول التابعة للامبراطورية العثمانية ومنها فلسطين .

وقد شهدت الولايات العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى بداية الحركات الوطنية فتأسس عديد من الجمعيات العربية هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية ، وكانت هذه الحركات تكشف عن طبيعة التطور الذي لحق باجزاء الامبراطورية العثمانية المتهاوية . (٥٥)

فقد كان النظام الاقطاعي في هذه الولايات في مرحلة التخلخل ، نتيجة لاستقرار الملكية الفردية من ناحية ، ثم بالاستفادة من شبكات المواصلات العديدة التي انشأها رأس المال الوافد لحماية مصالحه ، في نمو الحركة التجارية ، خاصة وقد ظهرت المزارع الكبيرة التي تنتج المنتجات الزراعية بهدف التصدير ، يضاف الى هذا حركة جنينية لانشاء الصناعات الوطنية وحركة اخرى ترتبط بالرأسمال الاحتكاري الوافد وتشكل طابورا خامسا له في الجبهة الوطنية .

ومن هنا فقد كان النمو الجديد في المجتمع ، يحمل من ناحية طابع الاستغلال الرأسمالي للارض ويحمل ايضا طابع الرأسمالية الصناعية الضعيفة من ناحية اخرى . هذا الطابع المزدوج كان عليه ان يواجه مقاومة البرجوازية الاوروبية في اعلى مراحلها ، الاحتكار ، ومن هنا اتخذ طابعه الخاص ، طابع المقاومة الضئيلة المتهادنة .. وبصفة اساسية محاولته الساذجة لاستغلال التناقضات بين المعسكر الاستعماري ..

وكان الشريف حسين شريف مكه ، هو الممثل لهذه الطبقة ، فقد حاول الاستفادة من المتناقضات الاستعمارية عقب انضمام تركيا للالمان

التتمة على الصفحة ١١٣

لقد اخترنا



لقد اخترنا ...
قد اخترنا الطريق الوعر مرقى لخطانا
والتمسنا القمة الشماء مغني لرؤانا !
كم رأينا الخضرة الحسناء فوق السفح احراشا وظلا
ورأينا الزهر الخلاب ألوانا وفنا
ولمحنا الماء يغوي بالخرير العذب اذنا
ويزيغ العين بالأضواء اغراء وحلما
غير أنّا
ولهيب الجذوة الحمراء في الصدر استكنّا
قد رفضنا السفح ...
عفنا الخضرة الخداعة الالوان والظل المملا
ورحيق الماء مسموما وصفو اللحن ختلا
لقد اخترنا ...
قد اخترنا الطريق الوعر مجتازا ومرقى
وشققنا الصخر لا نشفق ان نسقط صرعى
ثم شمنا القمة الشماء محرابا ومرمى !

كلما الشمس قست في صلبنا
اشربت أصلابنا ريا عتيا
لهب النار جرى في دمنا
دفعة دفاقة ثوري الحميه .
كلما الشوك برى أقدامنا
كلما ازددنا على السير مضيا
صلبت أقدامنا واستحصدت
ثابتات الخطو لا تعرف غيا
قاسيات الوقع في وطأتها
كبرياء العزم والسعي حفيا .

ربما زاغت بنا أبصارنا
تنثني للسفح للسهل الندي
فغوينا لحظة بارقة ...
وهفونا ...
للظلال الخضر والزهر الشذي
ثم عجنا شامخا هاماتنا
الطريق الوعر لا نألو مضيا
لقد اخترنا ...
قد اخترنا الطريق الوعر مجتازا ومرقى
لم نزل نهفو الى القمة لا نشفق ان نسقط صرعى
فمع الجهد نحس الفورة الحية فينا والفتوه
ونحس النصر والسلطان قوه
لقد اخترنا ...
وما أروع أن تختار حرا !
قد ملكنا القمة الشماء والوعر العتيا
وانفساح الافق ، والنور اذا الفجر أطلا
سيطل الفجر ، منداحا على كل ثنيّه
نحن أبدعناه ، صغناه لنا عيدا بهيا
للغد المشرق ، للاجيال تزهو فيه حره
فقد اخترنا ...
قد اخترنا الطريق الوعر مجتازا ومرقى .

القاهرة — **ملك عبد العزيز**



المصلوب

قصة بقلم نجيب كيلاني

القى « عاهد الشاكر » بجسده على المقعد الوثير وتنهد ، ثم دار بنظراته القلقة في أرجاء غرفة الاستقبال البسيطة الاثاث ، ولم يكترث لبعض الصور الشمسية ذات الاطارات المذهبة ولا اللوحات الفنية المعلقة بعناية وفن .. لقد وقع بصره على الساعة الكبيرة المثبتة في الحائط ... لشد ما يزعجه انها تدق ، وان عقربها يتحرك، انها تجعله يشعر بمرور الوقت .. معنى ذلك ان عمره يتناقص ، والدقيقة التي تذهب لن ترجع ابدا .. مستحيل ان ترجع .. فالزمن لا يسير الى وراء ... وشرد بذهنه الى بعيد .. الى الجبل والكهوف الصغيرة.. وبحر الرمال الاصفر .. هناك لا شيء اسمه الزمن ، ليس لديهم ساعات كبيرة تدق ، ولو تصادف ونظر احدهم الى ساعته لما شغل عقله سوى موعد هام .. خطير لا يقترن بالعمر او الثواني .. في الجبل يعملون ، يفكرون بحذر ، الكلام قليل .. والحركة دائبة ليل نهار والزمن متصل لا يلفت النظر .. لا يذكرون الطعام الا اذا صرخت معداتهم ، ولا يغفون الا اذا ثقلت جفونهم على الرغم منهم..

ودخلت « وديعة » ، كانت اشراقتها كبسمة الفجر، وهمست وهي تضع اقداح الشاي :

ــ دائما تأتيني بملابس الميدان .

قال ، وهو يغتصب ابتسامة قصيرة :

ــ لأنه ليس لدي غيرها .

ــ المهم ان تأتي .. لكنك متوتر دائما .

ــ أيبدو ذلك علي حقيقة ؟..

ــ شيء طبيعي .. ان حياتكم معلقة بخيط رفيع .

ــ حياتنا ؟!

ــ أجل ...

لكم يحب خطيبته « وديعة » ، الحياة معها أغنية حالمة ، والنظر الى وجهها يروي ظمأه الخالد ، لكن الحب بلا سلام مأساة ، واشباح الماضي تعذبه ، ورؤيته لدم الضحايا بالامس القريب تؤرق عليه سعادته .. وتمتم :

ــ أتعرفين لماذا أنا متوتر ؟؟

ــ قلت لك ..

ــ كلا .. السبب هو عجزي ..

ــ لكنك أشجع الرجال .. أنهم يحنون رؤوسهم لبطولتك في قداسة ..

قال بعد ان جرع من القدح جرعة ساخنة :

ــ هذا وهم .. لعل بطولتي وليدة عجزي .. كنت وأنا صغير انظر الى الجبل ، وتنتابني رغبة شاذة في ان ازحزحه من مكانه .. تصوري !! وحاولت ذات مرة ان أقتلع شجرة ضخمة .. كان الناس يضحكون من غبائي.. ولن انسى يوم ان ذهبت الى حائط المبكى « في القدس » واخذت اضغط عليه بذراعي النحيلتين . كان الصبية ايضا يسخرون من سذاجتي .. وعندما كبرت ورأيت اشياء كثيرة في الحياة ملأت نفسي بالغيظ ، كنت احاول سحقها .. ولكن عجزي كان يقيدني ..

قالت « وديعة » وهي تداري ابتسامة فاتنة :

ــ لانك تفكر بيدك .. هذا سر عذابك وعجزك ..

ــ بل عقلي هو مصدر شقائي .. أن تمزيق فلسطين « حماقة » ..

ــ لعلك تريد ان تؤدب العالم كله ..

ــ يا ليت ..

ثم اقتربت منه ، واخذت تمسح على شعره الغزير الاسود ، وتنفض عن سترته الصفراء بعض الغبار والشوائب وهمست في اذنه وأنفاسها الحارة تبعث القشعريرة في جسده :

ــ يا حبيبي .. لست الها ..

ــ أجل .. انسان ذليل .. عاجز ..

ــ هذا لانك تريد ان تزحزح الجبل ، وتهدم حائط المبكى ، وتؤدب العالم .. أليس هذا مضحكا ؟ يكفي ان تخوض المعركة كرجل ..

وشعر بيدها تلامس ساعده الكثيف الشعر ، كانت تتطلع اليه في نشوة ، لكن ملامح وجهه لم تزل متقبضة متوترة دائما .. وانبعث في قلبه خاطر مزعج « انها الليلة الاخيرة يا عاهد .. قد لا تلتقيان بعدها .. لتدع هذا الهم والجمود .. وعاملها كشريكة للمستقبل .. » وطوقها بذراعيه ، وضمها الى صدره ، وضغط على ثغرها الدقيق بشفتين مرتعشتين وعندما افاق نظر اليها وهو يغالب دموعه :

ــ انت رائعة .. لكم أحبك !!

ــ كلماتك تسكرني : ان طعمها غريب .. لذيذ .. ما كانت بهذه الحرارة يوما ما ..

ــ لانها .. لانها ...

ولم يستطع ان يكمل ، كان يريد ان يقول لانها الاخيرة ، وانها ليلة الوداع .. ربما .. لا يعود ثانية . ولم تتركه ، بل همست وعيناها تتوهجان :

ــ أكمل حديثك .. قل .. وحياتي عندك .

ــ اعني . لانها نابعة من قلبي ..

وساد الصمت لحظات ، كانت « وديعة » تسبح في احلام وردية ، وكان « عاهد » يحترق بعذاب الصراع الفكري الرهيب ، وذهلت وهي تسمعه يقول :

ــ اني افكر .. ما دمت عاجزا عن قهر كل شيء .. فلأسخر من كل عقبة تتصدى لي .. السخرية تخفف العذاب ، وتحقق انتصارا جزئيا .. ثم انها لا تحتاج الى عضلات قوية ..

وقالت في حيرة :

ـ ما معنى ذلك ؟؟
ـ الموت مثلا ..
ـ اوه .. لا تذكره .
ـ الموت قدر يا عزيزتي ، لا مفر منه .. انظري الرجال يموتون في الميدان وهم يتمنون الحياة .. الاطفال الصغار يفقدون انفاسهم وهم يصارعون .. مستحيل ان نقهر الموت .. ولهذا ترينني اسخر من الموت لا اكترث له كثيرا .. أن اعظم انتصار على الموت هو ان نموت دون اكترات ، وخوف .. لماذا ؟.. لماذا نخاف ؟؟
واتسعت ابتسامتها وهي تقول :
ـ هذه بطولة خارقة .
ثم أردفت محذرة :
ـ لكن ليس معنى ذلك ان تتهور .. لن يكون الموت عند ذاك الا انتحارا ولن يسمى استشهادا بأي حال من الاحوال .
ـ انت تغالطين ..
ووثبت وديعة وجلست فوق جانب مقعده وقالت وهي تلتصق به وتحيطه بذراعيها :
ـ سمعت ان اليهود رصدوا جائزة ثلاثة الاف جنيه استرليني لمن يقبض عليك .
قال دون اكتراث :
ـ آه لو تعلمين ؟؟
ـ ماذا ؟؟
ـ نحن في حاجة ماسة الى المال والسلاح .
وظهر على ملامحه وفي عينيه التوتر والقلق من جديد ، وعادت نظراته الى الساعة الكبيرة المثبتة في الحائط ، انها لم تزل تدق ، وعقاربها تتحرك في بطء .. لكنها تتحرك .. مضى من عمره منذ جاء الى هنا ساعة كاملة .. آه .. الزمن .. ذلك الشبح المخيف .. انه خالد .. لكنه بالنسبة لنا نحن البشر . المخلوقات التعسة .. يفنى .. له نهاية ..
وقالت وديعة :
ـ والتبرعات ؟
ـ تكفي لشراء قرب الماء ..
ـ لكن لا بد من استمرار المعركة ..
قال في حدة :
ـ اجل .. لا بد .. وبأي ثمن .. ولو بعنا حياتنا .. أتعرفين ان ...
ثم سكت ، كانت نظراتها متعلقة بشفتيه ، وعندما صمت هتفت :
ـ أعرف ماذا ؟؟
قال في اقتضاب :
ـ لا شيء .
ـ اتخفي امرا ؟؟
ـ ربما ..
ـ عن حبيبتك يا عاهد ؟؟
ـ اجل .. لاني احبها .. ولا أطيق ان ارى الدموع تبلل هذه الاهداب الجميلة .. يا .. ياحياتي .
ثم مال وقبلها من جديد لعلها تنسى سؤالها ، فهو لا يريد ان يتكلم اكثر من ذلك ولا يريد ان يخبرها بالحقيقة كلها ، لو علمت لاصابتها لوثة من الجنون ، بل ربما وضعت حدا لحياتها بنفسها .. وقال :
ـ اعذريني ..
قالت وهي مطرقة في الم :
ـ أعلم أن هناك خيانات ..
ـ اجل ..
ـ وأن الغد مخيف ..
ـ والموت يجب ان نهزمه بالسخرية .. بأن نموت عندما يجب ان نفعل ذلك ..
التفتت اليه وقد اتسعت حدقتاها :
ـ انك تخيفني ..
ـ لماذا ؟؟
ـ هذه فلسفة مفزعة .. لا مجال للفلسفات في الميدان .. حارب بشجاعة وبحرص : هذا هو كل ما يجب ان تفعله ..
وعاد ينظر الى الساعة من جديد ثم هب واقفا وقال :
ـ لقد آن الرحيل ..
وبدت نذر الدموع في عينيها وتمتمت :
ـ أتسافر الليلة ؟؟
ـ بعد منتصف الليل بساعة واحدة ..
ـ ومتى تعود ؟؟
قال في نبرات حالمة ذاهلة :
ـ كل مساء ..
ـ أتسخر مني ؟؟
ـ كل مساء يا عزيزتي .. فالارواح لا تعرف الزمن ولا المسافات ..
ـ أنت تبعث الرعب في قلبي ..
قال وعيناه مسمرتان على العقارب :
ـ وستصلك رسالتي قريبا ..
ـ هذا يبهجني ..
ـ الى اللقاء ..
ولم تستطع ان تتكلم . كانت الدموع المتدفقة في عينيها وقلبها تسد مسالك صوتها .
عندما بلغ رفاقه في الجبل هتف في حزم :
ـ كل شيء جاهز ؟؟
قال الملازم المتطوع «عدنان» وهو مساعده في القيادة :
ـ اجل .. لكن الرفاق يرفضون .
ـ هذا لا يهم .. لقد دبرت كل شيء .. انا مقتنع تماما .. لا أنكر انه تصرف غريب بعض الشيء لكن رغبة جامحة تدفعني اليه .. ثم لا تنس اننا في حاجة الى ثلاثة الاف جنيه استرليني .. مثل هذا المبلغ سيطيل أمد المعركة ويجعلنا نحتل بعض المواقع .. حسنا .. انهم يريدونني حيا .. ومن يشي بي ، او يسلمني اليهم سيأخذ هذا المبلغ .. انت الذي سوف تشي بي .. ستسلمني لهم يا عدنان .. معذرة انك ستمثل دور الخيانة وستأخذ

آلاف الجنيهات لتشتري السلاح لرجالنا .. وحياتي لا تهم .. انا واحد من آلاف عديدة يعيشون المعركة وجحيمها وكثيرون يموتون .. لافرض اني قتلت في احدى المعارك .. سأستشهد فحسب . اما الان فسأموت وستقبضون ثلاثة الاف جنيه .. اني مقتنع تماما .. وسأنفذ خطتي سواء اعترضتم او وافقتم .. قل هذا للرفاق .. أنا القائد وأوامري لا تقبل المعارضة .

وأطرق « عاهد » برهة ثم رفع رأسه ليقول :

ــ ثم لا تنس الامل في النجاة .. ألم نتفق على خطفي وأنا في طريقي الى السجن او الهروب من السجن ذاتـه ؟؟

ــ قد نفشل في انقاذك ..

ــ كل شيء جائز يا عزيزي .. قلت لك عشرات المرات يجب ان نسخر من الموت ، الموت هو الزمن وقد اقسمت .. والله معنا ..

ولم تنس « عاهد » في تلك الليلة ان يكتب الى « وديعة » خطابا طويلا شرح لها فيه كل شيء ، ولم تنس ايضا ان يذكر اللحظات الحلوة التي قضياها معا مؤكدا لها ان هذه اللحظات فوق الزمان والموت . انها الوجود بلا نهاية . واعتذر لها من كتمانه لهذا الامر وأنهى خطابه بقوله : « عندما يصلك خطابي هذا سيكون كل شيء قد انتهى . .لكن الصراع من اجل ترابنا الغالي ومقدساتنا لن ينتهي ابدا والسلام . » .

في الليلة التالية كان الرجال رابضين في موقعهم العنيد ، والظلام يصبغ كل شيء ويكاد القلق يقتلهم .. كانوا ينتظرون .. متى يعود القائد ؟؟ « أحقا يعود عاهد .. آه .. الشرفاء الاصلاء الذين يصعدون الى القمة لا يعودون الى السفح .. مستحيل .. مستحيل » .

هكذا غمغم أحد الرجال ، وفي قلب الظلام الاسود برزت كتلة تتحرك أشد سوادا ، وصرخ احد الرابضين :

ــ من القادم ؟؟

ــ عدنان ..

لقد عادوا ، ولهثت دقات القلوب ، وارتعشت الايدي وحملقت العيون عبر الظلام باحثة عن الرجل .. عن القائد .. عاهد الشاكر .. وحينما توقف الركب صرخ رجل آخر من المنتظرين :

ــ اين هو ؟؟

قال الملازم المتطوع عدنان :

ــ هناك .. في الميدان الكبير بالمدينة .. لقد صلبوه .. ورفعوه على قوس خشبي عال .. كانت جثته معلقة في الهواء كعلامة النصر الخالد ..

ثم انفجر باكيا ، وأمسك برزمة من أوراق البنكنوت ورمى بها في عصبية وهو يقول :

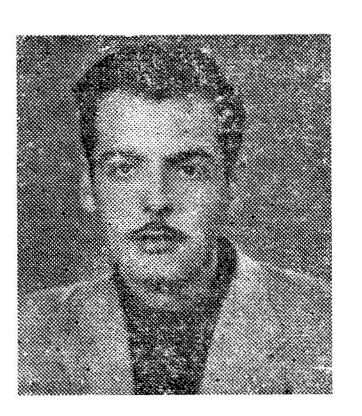
ــ « الثمن .. »

القاهرة — نجيب الكيلاني



اغنية فلسطينية

(الى نصفنا الافضل .. الى اولئك الذين فضلوا الاستشهاد كل يوم على الهجرة واللجوء .. اليهم هناك هذه الاغنية ..)

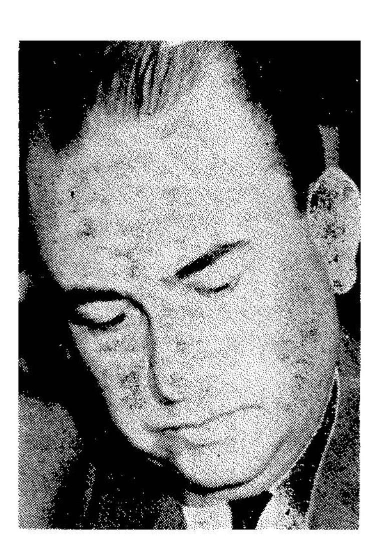


عربيه
هذه الرايات تحت الشمس
في قلبي
ها قد عاد لي وجهي القديم العربي
غربتي ماتت وكفر الامس ،
لن أغشى بيوت الريح
والعراف .
أدري ما تقول الريح
لن يكذب الهام نبي :
انه وجهي القديم العربي
شهوة الفتح التي ظلت بعمقي
غضبا يعصف ، نارا في القرار
افسحي الدرب أمام الخالق العائد
من غربته بوابة القدس
وعربد يا هوى مزقه الاسر
ويا دار اسكري
صبري اخضرار ..
حدث يا دارنا في جبهة الكرمل
عود الخالق المنفي
يمحو موسما غاب ولحظات بوار ..
حدث يا خيمتي في السفح ،
تكوين ، واسفار بطولات وغار
عودة الرايات تحت الشمس ،
في القلب والهام النبي ..
كيف لا يصدق الهام النبي ؟!
هو ذا في غمرة الزوبع وجهي
يتحدى
هو ذا وجهي أنا ـ
وجهي القديم العربي .

قطر ـ دخان

حسن النجمي

حروفي الجديدة



أنا طلقت حروفي المخمليّه
كلماتي الكرزيات النديه !
وقوافي التي كانت رنينا
والتياعا ... وحنينا
وشفائف
اصبحت شارات تحرير
وأنوارا لايقاظ النيام
وقذائف !

***

كان للحرف باشعاري عبير وضياء
وظلال ... وزغب !
فغدا ثورة شعب مستضام
ولهب
والتماعا في خناجر
ظامئات للدماء
وهتافا ثورويا في حناجر
مزقت صرخاتها وجه السماء !

***

أأغني الصحو في تلك العيون الساحره
ودموع البؤس في عين الفقير
جامدات حائره !
والجياع
وجنات وأكف ذاويه
مص منها الذل والحرمان لون العافيه!

***

أأغني وجموع اللاجئين
في مدى السهل خيام باكيه
يعبث الريح بها والمطر
والصقيع
رف في أجوائها ينتشر
وحشة ينثرها الليل .. وسلا وسعال
تختفي أصداؤها الخرساء في صمت الرمال !
بعد ذاك الشط في حيفا
و « بيارات » يافا
وزمان العز في ارض فلسطين الحبيبه
أصبحوا في غربة التشريد
يستجدون خيمه
ورداء ولحافا
بعد عيش الرغد في حيفا
و « بيارات » يافا
وعبير الصعتر الفواح في جو صفد
سألوا الايدي الغريبه
لقمة العيش ... حليب الذل
تشريد الابد !

***

أأغني وبأنحاء بلادي
عملاء خائنون
وملوك خلف اسوار القصور
وحريم ... وعبيد
وباوروبا ... بجوف الارض
عمال المناجم
يطمرون
بركام الفحم ... في قبر شقي اسود
ضاع في ظلماته فجر « الغد » !

***

أأغني والجياع الشاحبون
يعملون
في اراضي الصين ... في حقل الارز الرطب
في الماء الموحل
وبأرض النور والذرّة زنجي يهان
يحرم النور .. ويركل
بحذاء الابيض الوحشي ...
مسود الضمير
فارغ القلب .. بليد الحس
ثلجي الشعور !

***

غابة الزيتون في ارض شويفـاتي الجميله
ومظلات الصنوبر
في السفوح الشاعريات الظليله
في عروس المتن ... في «قرنايل»
وعبير يملأ النفس حنين
من سوار الياسمين
حول ذاك المعصم البض الثمين
أصبحت ذكرى بأعماق السنين !
لم أعد شاعر حب وغزل
وطبيعه
فعلى الارض مآسيها الكثيرات الفظيعه!
أأغني نار حبي
واخلي همّ شعبي
ووجوها مات في سمرتها لون الامل
صار شعري شعر أيمان بارضي..
وقضيه
أنا طلقت حروفي المخمليه
كلماتي الشاعريات النديه
ومشيت الان ناريء الجبين
ناذرا للحق روحي ودمائي
حاملا للناس قلبي !

فؤاد الخشن

مأساة فلسطين

مصدر وحي والهام في الشعر الحديث

بقلم كامل السوافيري

كانت مأساة فلسطين التي وقعت قبل ستة عشر عاما مصدر وحي ونبع الهام في الشعر العربي الحديث وجد فيها الشعراء ارحب الميادين . واخصب المجالات فاستوحوا منها كل مظهر ، واستلهموا كل جانب . لقد أوجدت فلسطين قبل المأساة موضوعات جديدة تناولها الشعر مثل وعد بلفور الذي لا نكاد نجد شاعرا عربيا لم يثر عليه وعلى مبرمه . والهجرة اليهودية او بالاحرى الغزوة الصهيونية التي غزيت بها فلسطين وقد استوحاها معظم الشعراء . ولكن المأساة التي حدثت سنة ١٩٤٨ أوجدت موضوعات ، وأحدثت جوانب لم تكن موجودة في الشعر الحديث من قبل . فقرار التقسيم الظالم لاقى من الشعر السخط والغضب والثورة ، وهيئة الامم ووسيطها ومجلس امنها وضمائر أعضائها تعرضت لالسنة لهيب الشعر ، وضرام نيرانه لانها نأت عن الحق ، وجانبت العدل ، وانحازت الى الباطل .

واسرائيل ثار الشعر على مولدها ، وأماط اللثام عن اخلاق ابنائها ، وما جبلوا عليه من عبادة للمال ، وتنكر للقيم والمبادىء ، وندد الشعر بالوحشية التي ظهرت من اليهود في قريتي دير ياسين وناصر الدين ، وكيف اتضح تعطشهم للدماء ، وفتكهم بالابرياء .

واللاجئون وبؤسهم وتشردهم في المهامه والقفار وخيامهم السود وحنينهم للوطن ، وأملهم في العودة — موضوعات شعرية جديدة أوجدتها المأساة . والشعراء الذين هزتهم المأساة ، وفجرت فيهم ينابيع الشعر ، وأذابوا عواطفهم في أهوالها عبروا بأساليب جديدة ، وابتكروا من ضروب الخيال صورا جديدة تتفق مع فداحة المأساة ، وضخامة فواجعها . ويصدق هذا على الشعراء من ابناء فلسطين والشعراء من ابناء الاقطار العربية والمهاجر الاميركية . وقد وضحت في كتابي « الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين » اثر المأساة في الشعر في الموضوعات والاساليب اي ما يشمل الافكار والالفاظ والعواطف والصور وما فيها من طرافة وجدة وأصالة وابداع . ولا ريب في ان تأثر ابناء فلسطين بالمأساة كان أقوى وأشد لانهم أبناؤها الذين احترقوا بنارها ، وتقلبوا على جمرها ، وتناثروا كالشظايا ، وتطايروا كالشرر ، ومن مظاهر هذه القوة ان المأساة خلقت منهم شواعر وشعراء صنعتهم فواجعها ، وأنطقتهم أهوالها فاستلهموها في مئات القصائد الباكية وعشرات الدواوين المطبوعة وكلها من الشعر الملتزم البعيد عن الذاتية . فمن الشواعر دعد الكيالي التي اعتصرها الاسى حزنا على وطنها الضائع فبكته في قصائد كثيرة . ومن الشعراء معين بسيسو وهارون هاشم رشيد ومحمد العدناني ويوسف الخطيب ورجا سمرين وخليل زفطان وكلهم صنعته المأساة ، وفجرت في قلبه ينابيع الشعر ، ولبعضهم ديوانان وثلاثة واربعة . والى جانب ذلك حولت المأساة بعض شعراء فلسطين من التيار الرومانسي الحالم الى التيار القومي ، وبتعبير أدق حولت اتجاههم الشعري اليها . وبحسبنا ان نمثل بالشاعر ابي سلمى



الذي كان قبل المأساة شاعرا وجدانيا يعشق الحسن ، ويعبد الجمال ، ويناجي القمر ، ويغازل الزهر . والشاعرة فدوى طوقان التي كانت قبل المأساة ايضا تشدو بأحلام قلبها ، وتهوم في روح الوجود ، وتحلق في سماء التأمل .

وفي الاقطار العربية كانت جوانب المأساة وأهوالها ومظاهرها مصدر الوحي والالهام لدى أعلام الشعراء وكواكبهم المتألقة في سماء الشعر ، ولا حاجة بنا الى سرد الاسماء . كما كانت هذه المظاهر مصدر الوحي والالهام في شعر الشعراء العرب في المهاجر الاميركية ولن نذكر الاسماء ايضا . وكنت أود ان اسوق الشواهد ، وأقدم الامثلة ولكني اكتفي بعرض صورتين الاولى رسمها خيال الشاعرة فدوى طوقان لاشلاء قومها ابناء فلسطين الذين بعثرتهم المأساة ومزقتهم شر ممزق :

رأيت الحمى خربة ماحله ... خلال دخان علا واستدار
وتعبر قافلة قافلة ... على العتبات تدب هوام

وبين الزوايا عناكب تحبو وتمعن في زحفها واغله
وأبصرت اشلاء قومي هنا وهناك على طرق السابله
عيون مفقأة بعثرت على الارض حباتها السائلة
وأيد مقطعة ووجوه غذا التراب ألوانها الحائلة

ولست في مجال شرح هذه اللوحة الفنية الرائعة والثانية للشاعر العراقي ابراهيم الوائلي عن زمر اللاجئين :

زمر باتت على مسغبة تحصد الشوك وتقتات الغثاء
فيتيم أفلت اليتم به من وحوش ملأوا الليل عواء
وفتاة أسندت راحتها طفلة تبكي وأما نفساء
ورضيع كلما اشتد به ألم الجوع احتسى الدمع غذاء
لم يجد في الثدي اذ يلمسه بيد واهنة الا دماء

والصورة الكلية او اللوحة الفنية واضحة لا تحتاج لشرح . ونترك الشعر الغنائي وما ظهر منه من دواوين استوحت معظم قصائدها المأساة وأربى عددها على الخمسين الى الشعر القصصي لنجد ان المأساة أوجدت شعرا قصصيا أو ملاحم قصت أحداثها ، وسردت جوانبها الدامية وصورت مظاهر البؤس والوان الشقاء ، ومجدت البطولات . وبحسبنا ان نشير الى « المهزلة العربية » للشاعر محمود الحوت ، و « رسالة الشعر القومي » للشاعر محمود محمد صادق ، و « ارض الشهداء » للشاعر ابراهيم العريض ، و « النازحة » للشاعر محمد شمس الدين (1) .

وكما أوجدت المأساة الدامية شعرا غنائيا وقصصيا أوجدت ايضا شعرا مسرحيا ، وبحسبي أن أقدم مسرحية « شبح الاندلس » للشاعر برهان الدين العبوشي التي تقع في ثلاثة فصول وتتناول أحداث المأساة منذ زحف الجيوش العربية الى فلسطين في اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨ الى توقيع اتفاقية الهدنة في سنة ١٩٤٩ .

واذا كانت المأساة مصدر وحي ونبع الهام في الفترة التي مضت فانها لا تزال بعد مرور ستة عشر عاما على المأساة ــ وستظل ــ مصدرا ثرا من مصادر الوحي ، ونبعا من منابع الالهام يستوحيها الشعراء من ابناء فلسطين وابناء الاقطار العربية على اعتبار انها مأساة عربية قومية عامة لا مأساة خاصة . مأساة العرب في القرن العشرين التي أيقظت الوعي ، ونبهت الفكر ، وكشفت عن الاخطاء وأحدثت في دنيا العرب أعظم انقلاب في السياسة والشؤون الحربية والفكر والادب .

مصر الجديدة

كامل السوافيري
ماجستير في الادب العربي

١ ــ درسنا كل ملحمة من هذه الملاحم دراسة مفصلة في كتابنا الذي أشرنا اليه .



الغُرَبَاء

قصة بقلم حسين قاسم

رأيته اكثر من مرة .. ولكن اين ؟

في شوارع « سان باولو » ؟.. كان يبتاع بعض القمصان .. في دروب قرية ؟.. رأيته يسير واهنا مع حقيبة صفراء اللون باهتــة ..

في مطعم ؟.. كان يمضغ رغيفا مع كوب ماء ..

في « كامبوسي » (١) التقيت به وجها لوجه .. كان ذاهبـا اليها ، في حين كنت قادما منها ..

ـ الاخ من فلسطين ؟

سألته وأنا ارمي حقيبتي الى الارض .

ـ نعم .. ومن مدينة « رام الله » .

أجابني وهو يزفر من التعب .

ـ رأيتك اكثر من مرة ، ولكنني لم أشأ ان احادثك ..

فهز رأسه قائلا :

ـ اشعر بذلك ..

ـ كيف ؟! كيف تشعر بذلك ؟

سألته وقد أحسست بوخز يؤلم فؤادي .

ـ انكم لا ترغبون الاختلاط بنا فتبتعدون عنا .. ونحــن ازاء ذلك نبتعد عنكم .. انني فلسطيني .. وكوني فلسطينيا أشعر انني ارتكبت اثما ما في حياتي ..

ـ أرجوك .. انني لا اقصد اهانتــك .. انه سؤال زلق بــه لسانــي .

ـ سامحك الله ..

ـ كيف وجدت الغربة ؟..

ـ لقد مارستها بعد ان شردنا الصهاينة من بلادنا .. فلسطيــن يا أخي كانت كل شيء بالنسبة لنا .. ولكنها ضاعت .

ـ فلسطين لن تضيع .. سيأتي يوم تعودون فيه اليها ..

ـ سيأتي يوم ..

وتملكته ضحكة هستيرية .. واستطرد :

سيأتي يوم نعود فيه الى فلسطين !! اوهام يا صاحبي .. اوهام نخدر بها أعصابنا ..

ثم حملق في وجهي كالمجنون ، قائلا :

ـ اين نحن من فلسطين اليوم .. انا في « البرازيل » مــع آلاف غيري . ولي ابناء عم في « فنزويلا » مع الاف غيرهم . وفـي « الارغواي » .. وفي « الارجنتين » .. وفي « كولومبيا » .. وحتى في « اميركا الشمالية » .. ارادوا ضياعنا فمنحونا « باسبــورا » دوليـــا ..

وبحثت يداه في جيوبه تبحث عن « جواز السفر » واذ وجـده هتــف :

ـ اقرأ .

وقرأت .. كان يحمل تأشيرة دولية ويحق لحامله السفر الــى اي بلد يشاء ، وان له من الحقوق والواجبات ما للمواطن مــن حقــوق وواجبات ..

ـ مواطن دولي ؟!..

ـ نعم .. وهذه هي مأساتنا « مواطن دولي » ..

ـ ذنبكم .. لقد تخاذلتم في حربكم مع اليهود ..

ـ نحن .. نحن تخاذلنا مع اليهود ؟

وبانت على وجهه امارات الغضب .. واستطرد :

ـ اظن انك تقصد « اليهود العرب » .. نعم يا صــاحبي لقد تخاذلنا معهم بعد ان باعوا أرضنا وقرانا الى اليهود .. لقد عانينــا ارهابا وعدوانا ، مشينا بعد سقــوط « لواء الجليل » في ايــدي الصهاينة .. سبع دول حاربت من اجل فلسطين .. والسبع الدول نفسها هزمت في حرب فلسطين .. كنا نحارب اليهود ، وكانت سبـع دول تحاربنا من اجل اليهود .. أتعرف من كان القائد العام للجيوش العربية يومذاك ؟..

ـ اعرف .. انه « غلوب باشا » قائد الجيش الاردني ..

ضحك قائلا :

ـ نعم .. « غلوب باشا » . ونحن نطلق عليه اسم « ابو حنيك » .. جاسوس انكليزي . مهد له الانكليز الالمام بعاداتنا وعوائدنــا .. كان يعرف من فلسطين كل دروبها ومسالكها .. كان يعرف الشوارع المظلمة ، والمدن البعيدة ، وحتى القرى النائية الضائعة في سفــوح الجبال .. كانت فلسطين يا صاحبي مرسومة في بؤبؤي عينيه رسمـا واضحا .. فلذلك حين صدر المرسوم الملكي بتعيينه قائدا لجيــوش سبع دول ، أظهر بما له من دهاء ، عدم مبالاة ، في حين كانت شفتاه تتلمظان سطور المرسوم .. انا ابن فلسطين . وقد عشت في خضـم المأساة شهورا طويلة . لقد اختفت المعدات والذخائر بعد صــدور

(١) « كامبوسي » : قرية برازيلية تقع في ولاية « سان باولو »

المرسوم ، واقتصرت المساعدات العسكرية على الطعام والشراب .. أيحارب « ابو حنيك » أبناء عمه ؟.. كانت سلطته تنهي وتامر في مصير الجيوش العربية ..

ـ حتى في مصير الجيوش العربية امتدت سلطته ؟..

ـ نعم .. وبعد صدور المرسوم ، ظلت الجيوش العربية حيث هي ، لم تتقدم خطوة .. كانت الاوامر تأتينا مشوهة غير واضحة ، فنتقدم حيث لا يكون امامنا عدو . او ننزلق في كمين أعد لنا سابقا..

ـ افهم من حديثك انك كنت جنديا في المعركة ؟..

ـ لقد التحقت باحدى الكتائب التي تمركزت في ضواحي « رام الله » . وقد حدث ان امرني قائد الكتيبة ان انسف الجسر الذي يفصل « رام الله » عن فرقتنا ..

ـ وهل قمت بنسفه ؟

ـ مهمة امرت بانجازها ..

ثم ضحك كالمجنون ، وأردف :

ـ لقد كان الجسر المنفذ الوحيد الذي يوصلنا الى قرانا .. وكان علي ان اقوم بنسفه .. حملت المهمة ، وسرت مع خيوط الفجر باتجاه الجسر . كانت المهمة سهلة .. فالجسر محاط بأسلاك شائكة ، وعلي ان اعبر الاسلاك ليصبح الجسر مع دعائمه الاربعة في متناول يدي .. ولا شيء بعد ذلك . فكل شيء عند قائد الكتيبة معد .. لقد مرت على الجسر كتائب وقوافل عديدة ، ولكن احدا لم يفكر في ازالته ، اللهم الا القائد الكتيبة التي التحقت بها .. وقد عبرت الجسر يوم التحاقي بالكتيبة ، ولكنني لم افكر وانا اعبره في نسفه . ولعلني لم احصر فكري .. اذ كان الممر الوحيد الذي يوصل الكتائب العربية بالقرى الغربية . وقد سمعت ، كما سمع غيري باستعداد الدول العربية يوم ذاك ، لهجوم اسرائيل ، ورغم ان الاستعداد لم يكن مفاجاة لليهود، فقد شعرت ان النصر سيكون دون ريب حليفنا .. وبان لي الجسر . ظلالا سوداء ارتسمت في عيني ، وانقشعت هذه الظلال حين لم يعد يفصلني عنه سوى بضع خطوات .. وأدركت لحظتذاك ان الخطوات القادمة ستكون اشد خطرا . فالانوار الكاشفة كانت تمر كل عشرين ثانية .. وحسبت الزمن الذي سيستغرقه وصولي الى احدى القناطر الاربع .. مئة ثانية وامسي تحت احداها . ولولا الاسلاك الممتدة امامي لاستطعت ان اعبر بسهولة .. مئة ثانية . ما قيمة المئة ثانية في حياة انسان ؟ لحظات تمر . ومرت فوق راسي هذه اللحظات .. وأعقبتها اخرى .. واخرى .. وانا مكاني . كنت لا اعرف ما اريد ، وقد ندمت على قبولي المهمة .. كانت الاسلاك تخيفني . احس فيها موتي .. مئة ثانية مرت . ما أقصر الزمن اذا بدا الانسان في تعداده .. « هل اتحمل الموت » ؟!.. سالت نفسي حين بدأت بقطع الاسلاك . ومرت مئة اخرى .. صدقني انني لم أتمرس على البطولات ، فللبطولات رجال تصمد في وجه العقبات . لقد جبنت لحظتذاك .. وسالت نفسي وانا في لحظة جبن : « اي نصر سنحققه في نسفنا الجسر ؟.. » لا شيء ، سوى اننا سنمسي بعيدين عن « رام الله » وعن القرى المجاورة لها . فاذا ما قمت بنسفه ، فالقرى ستحرم مع غيرها من المساعدات العسكرية وقد تمسي فريسة لاي عدوان يهودي . وعدت أدراجي الى الكتيبة ، فوصلتها قبل بزوغ الشمس .. واتجهت حال وصولي الى خيمة القائد ، فاستغرب عودتي ، وبادرني بلهفة :

ـ « هل نسف الجسر ؟! »

فأجبته بهدوء :

ـ نحن بحاجة اليه .. انه الممر الوحيد الذي يوصلنا الى القرى الغربية ..

ـ « انها اوامر .. انك في ترددك تحملني مسؤولية كبرى .. »

ـ انني احمل عنك هذه المسؤولية ..

ـ « انت ؟ »

ثم رمقني بغضب ، وأمرني ان اغادر خيمته . ولقد خشيت غضبه .. انت تدرك معنى عدم التقيد بالاوامر في ساعة الحرب .. وأدركنا ، ولكن بعد فوات الاوان ، خيانة القائد لنا .. ولم نصح الا في اليوم التالي بعد ان نسف الجسر ليلا .. اذ افتقدنا القائد فلم نعثر له على اثر ..

ـ سامحك الله يا صاحبي .. كان عليك ان تكاشف افراد الفرقة حال وصولك ..

ـ لقد كتمت عنهم الامر .. اذ كانت المهمة التي امرت بها سرية ، ولكنني ندمت حين بانت لي خديعة القائد . كنا يومها في الثلاثين من تشرين الاول .. لا زلت اذكر هذا التاريخ . وفي اليوم نفسه سقط « لواء الجليل » .. وبسقوط « الجليل » انهارت المدن وعمت المذابح انحاء فلسطين .

وتنهد صاحبي ، وهمس بصوت مبحوح :

ـ فلسطين كانت كل شيء لنا ..

ـ ولكنها ستعود اليكم ..

ـ لا تخدر اعصابي من جديد ..

ثم ضحك في بلاهة .. ورأيته ينحني بجسمه ويتناول حقيبته مودعا .

وابتعد في دروب « كامبوسي » .

بيروت — **حسين قاسم**

الطريق المسدودة

قصة بقلم سمر العطار

وحوّط خصرها النحيل بيديه القويتين .. كانتا حلوتين يكسوهما شعر كثيف فاحم ، وقد لوحتهما الشمس . وذابت بين يديه كعصفور صغير .. كانت تحب رائحته ، رائحة الجندي الذي عاد من الجبهة .. تحب زيه العسكري ، والنجمة الصغيرة التي تلمع على كتفه .. وراحت تفك أزرار قميصه ، وتتحسس بشفتيها المتشققتين صدره الوردي .

ورفع راسها بيده ، وراح ينظر في عينيها السوداوين ، ويتحسس باصبعه النحيلة شفتيها المتشققتين ..

— لم تكونا هكذا عندما رحلت .

ووشوشها بأسى .

وكادت الدموع تفر من عينيها .. ربما لم يعد يحب شفتيها الصغيرتين .. لم يعد يحب رائحتها التي تشبه رائحة الحشائش في الربيع ..

والتصقت بصدره كطفلة صغيرة .. كانت تحب رائحته ، رائحة الجندي فيه .. وأمال راسه ، وراح يدغدغ نحرها بشفتيه الدافئتين ..

— منذ عام وأنا وحيدة يا احمد .

واختنقت الكلمات في حلقها ..

كان يلعق أذنيها الصغيرتين ، ويتمتم لاهثا :

— لا .. لن أعود .. لن اعود للجبهة .

— أحقا ما تقول ؟..

وتمسكت بياقة قميصه .. وراحت تشدها كالصغار ..

— أجل لن أعود .

وقفز صبي صغير من الفراش . كان نائما .. لعل ملاكا وشوشه أن بابا هنا ..

— أعطني نجمة يا بابا .. أريد ان أكون ضابطا ..

تمتم الصبي .. فحملته امه .. كانت تشعر بحزن عميق يتسلل خفية الى صدرها ..

— أتدري يا عامر ما الذي خبأ لك بابا في الصندوق الخشبي ؟ هدية لعيد ميلادك !.. انها بدلة ضابط صغير، بدلة توشيها النجوم ..

وضحك الصبي وراح يصفق بيديه المكتنزتين .. وقفز الى الارض بخفة وحذر . كان عاري القدمين .. واندفع الى الصندوق عله يسرق النجوم ، ويعلقها على كتفه ، ويروح يزهو بها أمام اخته الصغيرة ..

كان احمد يغير ثيابه ويهم بالرحيل ..

— هل انت ذاهب ؟..

واندفعت اليه زوجته الصغيرة ، وتمسكت بياقة معطفه ..

— لم أر زياد منذ سنين .. ولكن لماذا تخافين ؟.. الم أقل لك اني لن اعود للجبهة وسأبقى هنا الى جانب الصغار ؟..

وضمها الى صدره .. كانت تنشج بالبكاء ..

— أنا جد شقية يا أحمد .. جد شقية ..

ووشوشها :

— أتدرين اني طلبت اجازة ؟.. وغدا نضيع أنا وأنت على الشاطىء البعيد نتمرغ في رماله ، نجمع الاصداف الحلوة وعرائس الشطآن التائهة .. سأعلمك السباحة ، وسنذهب للضفة الثانية فنرتمي على الشاطىء الاخضر لاهثين متعبين ، وسألهو بخصلات شعرك الحلوة ، وأمسح بشفتي المرتعشتين قطرات الماء التي تدغدغ نحرك .

كانت وحيدة مع الصغيرين .. وفي ليالي الشتاء الباردة كانت تنتظر زوجها خلف الشباك الاخضر ، والحطب يطقطق في الموقد .. والصغيران يلعبان لاهيين . وعندما يعصف بها الشوق كانت تبلل رسائله الرقيقة بدمعها وتروح تحملق في الظلام بلا معنى عله يلوح لها من بعيد .. من وراء الغيم .. كانت رائحته .. رائحة الجندي تذيبها .. لكن بيتها كان فارغا .. كان قبرا مبهما لا رائحة فيه ..

وضاع في دهاليز البيت .. وعندما لحقت به كان قد اختفى .

لم ير صديقه زياد منذ عامين . لقد تخرجا معا من الكلية العسكرية ، وأمضيا سنوات طويلة على الحدود نائمين في خندق صغير ، ويداهما على الزناد تترقبان.. كانت المستعمرات اليهودية تلوح لهما من بعيد .. وفي ليلة حالكة السواد كانا مختبئين في الخندق ، ولمحا من بعيد قاربا يشق الماء ويقترب من الشاطىء ..

وعلى طول خط الحدود كان الرصاص يلعلع في الفضاء .. وفر الزورق وانطفأت المصابيح في المستعمرات البعيدة ، وسادت فترة صمت رهيبة .. كانت اصبع احمد على الزناد .. وربت أحدهم على كتفه ، وصاح في وجهه : لماذا تطلق النار ؟..

كانت المستعمرات تحترق من بعيد .. ولمح زياد دموعا في عينيه ولم يجرؤ على ان يسأله ..

كانت القرية ايضا تحترق عندما حملته امه .. ومر احد الفلاحين بعربته الخشبية العتيقة التي يجرها حصان لاهث .. فتمسكت أمه الصغيرة بدولابها ورمته هو فوق الخضار العفنة .. وعندما حاولت أن تصعد اليه زلت قدمها ، وابتلعتها النيران .. ونشأ أحمد غريبا لا يعرف له أما ولا وطنا .. قتل أبوه في معركة مع اليهود .. وبقي هو وحيدا ينتقل من قرية الى قرية كغجري مهاجر .. لكن الفلاح الذي انتشله شعر بغربته وصيره له ابنا ..

كان الاطفال في المدرسة يشيرون اليه بأصابعهم الصغيرة ويهمسون : انه فلسطيني .. ولم يكن يدري ماذا تعني هذه الكلمة .. وعندما انتسب للكلية العسكرية كان يسمع بعضهم يقول : أنه فلسطيني .. وفي كل العهود التي مرت كان الاشخاص يتغيرون لكنهم يرددون الكلمة نفسها .. ربما لم يجرؤوا على ان يقولوا في وجهه : لقد خلف قريته الصغيرة دون مقاومة ..

كان يحس بمهانته وبأنه غريب غريب .. وتذكر ما قال له صديقه في احدى الامسيات الحزينة : لا شك انك سعيد يا أحمد .. أن الآخرين يحسدونك على مكانتك الاجتماعية ..

وفكر بأسى .. دائما الاخرون .. الاخرون يحسدونه لانه بلا وطن !..

— أتبكي يا أحمد ؟.. وما بال اصبعك على الزناد ؟

وشوشه زياد ..

وضاعت عيناه في المستعمرة التي تحترق ..

— آه !.. ما زالت تحترق .. كانوا يقولون لي : خذ راتبك في آخر الشهر ولا تفكر بشيء .. وحاولت أن أكون لا مباليا لكنني لم أستطع يا صديقي .. بالامس قرأت في صحيفة يومية ان منظمة الامم المتحدة بحاجة الى مترجمين .. وفكرت : لماذا لا أرحل ؟.. لماذا لا أهرب من العيون التي تلاحقني أينما كنت وتشير الي ، ولعلها تهزأ بي وتجأر في وجهي : أنت فلسطيني .. أنت فلسطيني .. كنت واثقا من نفسي .. واثقا من نجاحي ، لكنهم ردوا لي طلبي .. وعلى طرفه كتبوا بضع كلمات .. أتدري يا زياد انهم لم يرسلوا لي حتى رسالة بل كتبوا على طرف الطلب : نعتذر .. كأنهم كانوا يقولون : انت بلا وطن .. ووطنك هذا الذي تدعيه لا وجود له في الامم المتحدة ..

كان يحس بأن زياد يفهمه ، وكان هو بحاجة لمن يفهمه لا لمن يشفق عليه .

وضاعت دمشق في عينيه ولم يعد يرى شيئا .. كان يقطع الطريق ذاهلا عن كل شيء .. ولعله كان يتساءل في سره : هل تغير زياد ؟.. كانا معا في الخندق على الحدود .. كانا معا في أيلول عندما سمعا ان سورية ضاعت من جديد .. وان ضباطا صغارا يمجدون الكيان المصطنع يتحكمون في مقاديرها .. كانت زوارق الصيد الاسرائيلية تروح وتغدو أمام ناظريهما .. وضغط أحمد باصبعه على الزناد .. فارتعش ماء البحيرة ، وترنحت الزوارق سكرى ثم غرقت وضاعت عن عينيه .. واندفع ضابط صغير اليه .. وراح يهزه بعنف ويجأر في وجهه : لماذا تطلق النار ؟..

كان يعاني حمى شديدة .. وعاد الضابط يهزه بعنف : هل جننت يا أحمد ؟..

— لا !.. القوارب .. لقد غرقت .. القوارب ..

وضحك الضابط ساخرا : أنت تحلم يا أحمد .. أنت تتوهم .. وسمع بعض الصغار يهمسون : أنه فلسطيني ..

وفي تلك الامسية أبعدوه عن الجبهة لانه لم يكن يمجد الكيان المصطنع وذنبه الوحيد انه خلق فلسطينيا.. وقبل ان يغادر الحدود نظر في عيني زياد .. كان يعرف ان القضية واحدة مهما تجزأت .. وكان هذا هو أمله الوحيد ..

وراح يغذ السير تائها في شوارع المدينة .. كان يخاف ان يرى صديقه ، اصبح كالبقية ، وانه تخاذل عن النضال في سبيل القضية .. لكنه كان يطرد هذه الافكار السود من مخيلته .. ان الطريق لن تغدو مسدودة ابدا.. والصديق لن يقتل الصديق .. والعربي لن يقتل العربي مهما تجزأت القضية ، ومهما تفرعت السبل ..

وكاد يدخل الخيمة الصغيرة المرمية في الساحة البعيدة لكن أحدهم من بعيد جأر في وجهه : قف ..

كان أحمد يفكر بقضيته .. وبأن العربي لا يقتل العربي مهما تجزأت القضية .. ولم يسمع النداء ..

وعلى باب الخيمـــة تساقط كمشمشة عجوز .. وشقرة عائمة على جبينه تصيره نبيا ..

ومن بعيد كانت البساتين تحترق .. وفي مسمعيه تصر عربة خشبية عتيقة .. عربة يقودها فلاح عجوز .. وبين الخضار العفنة كان ثمة صبي صغير ينشج بالبكاء ..

كان زياد قرب الخيمة منبطحا على الارض يعطـي تعاليمه للجنود .. ولعله لمح الشقرة العائمـة على جبين رفيقه .. فاقترب منه .. كانت ثمة دمعة جامدة فـي عينيه وخيط من الدم قد جمد على جبينه ..

وشهق زياد .. لم يكن يصدق ان يرى رفيقـه ميتا على باب خيمته .. لقد قتله أحد الجنود .. وعندما راح يجر جثة احمد الى الخيمة أطلقوا عليه الرصاص .. كانوا مختبئين في البساتين البعيدة ـ. ولعلهم لمحـوا زيه العسكري ..

كان ثمة صبي صغير يجر عربة خشبية في آخـر الشارع وينادي بصوته الحـزين : ألاسكا .. ألاسكا .. وعندما سمع الرصاص ترك العربة ،وراح يباري الريح.. واندفعت العربة الصغيرة في جريها الى الساحة البعيدة ثم توقفت عنـد الخيمة .. عند بقعـة من الدم بعد ان مزقها الرصاص ..

لقد غدت الطريق مسدودة .. سدتها عربة بائـع صغير يبيع الالاسكا .. غدت مسدودة .. وراح الذباب يحوم حول العربة ، ويحك أطرافه الصغيرة المنتصبة بقطع الالاسكا المتناثرة ..

ومر أحد الجنود .. ولمح قطعة نقود صغيرة تلمـع قرب العربة .. ربما نسيها الصغير في داخل العربـة عندما باع آخر جندي في الساحة .. وصفر الجندي .. وتناول قطعة النقود وخبأها في جيبه .. كانت خمسـة قروش فقط .. وعلىوجه النسر جمدت نقطة من الدم..

عندما حملوا أحمد على محفة الى بيته كانت زوجته الصغيرة تنتظره خلف الشباك الاخضر وتفكر بأنه لن يعود للجبهة .. كانت تحـلم بالشاطىء .. بزندي أحمـد يذيبانها ، بصدره الوردي .. بشفتيه الدافئتين علـى نحرها ، تحلم بالحشائش الخضر المرمية على الشطآن .. وبالاصداف الصغيرة الملونة ..

وفي زاوية الغرفة كان عامر غارقا في ثياب العيد.. في بزته العسكرية الصغيرة والنجوم تلمع على كتفه البض الطري وثمة شقرة عائمة على جبينه ..

ربما كان يحلم ببندقية حلوة صغيرة .. وهناك على المائدة العتيقة كانت تحترق ثلاث شمعات ببطء .. كان عمره بعمر هذه الشموع الحلوة .. لكن الشمع كان يذوب نقطـة نقطـة .. وأبوه لم يأت بعـــد .. لعله نسي يوم الميلاد .. لعله نسي ..

وعندما حملوا جثة أبيه ووضعوها في ركن قصي من الغرفة كانت الشموع تنطفىء وسمـع أحدهم يهمس بخفوت : كان فلسطينيا ..

دمشق **سمر العطار**

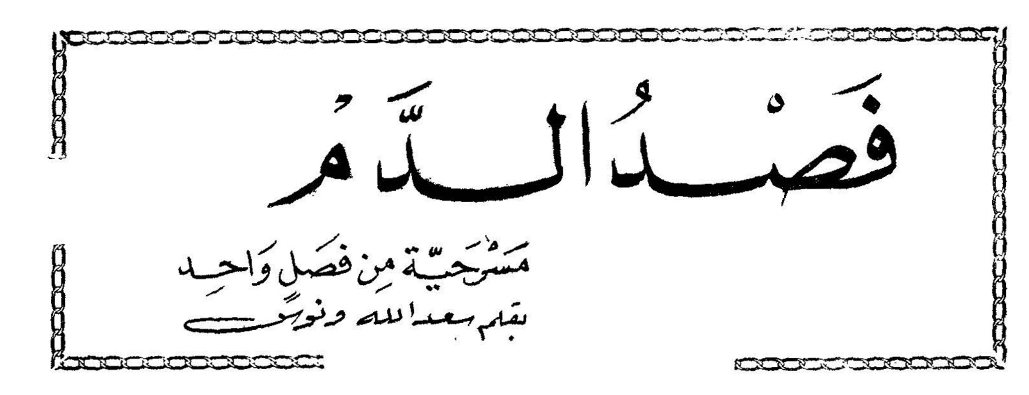
شرف الحرف لن يموت

يا فلسطين .. انما انت جرح ومصاب على النفوس أليم !!
كل جرح له شفاء ولكن جرحك اليوم غائر وجسيم
لا تلومي ، ولا تراعي .. وصبرا ان صبرا على العظيم ، عظيم !!
لا تلومي فالقلب دوما لمأساة بنيك ، معذب .. وكليم
لا تلومي ، فالحر ان يذكر الخطب ، حقودا على الاعادي كظيم
ود ، لو يشعل الاديم ليمحو كل عار ، ويستفيق الرميم
فلقد طال نومه .. ويد البغي تعيث ، بأرضه .. وتضيم
ود ، لو يزرع الجباه اباء ومضاء يرتاع منه الزنيم

**

يا فلسطين .. كاذب كل من قال ، بأني على هواك مقيم !!
ما استعاد الحقوق يوما ضعيف أو تصدى لصون حق هشيم
كيف يحمي الحقوق ، سيف كليل أو يخيف العدو ، وهو اثيم ؟؟
فالاماني مجرحات بحديه .. وسيف الخلاص منه ثليم !!
لا تقولي أين الطريق ؟! ففي الا فق ، ضياء ، ونفحة ، ونسيم !!
شرف الحرف .. لن يموت وفي العرق دماء ، وفي الربوع كريم
لن تضيع الحقوق مهما تلهى بقضاياك .. تاجر ولئيم
لا تراعي ، فان في صلب قومي نفحات ، ولن يكون العقيم
هو فيض من المروءات والمجد وطود من الاباء صميم
منه هبت طلائع تشجب البغي قديما ، وثار منه يتيم !!
منه ثارت جحافل تشعل الحرف فشعبي ، بين الشعوب الزعيم
من صحاراهمو اطل على الكون ضياء يخضر منه الاديم
حطموا بالسيوف نيرا من الظلم بناه مستكبر .. وزنيم
جرحوا جبهة الشموس ، وأدموا كل هام فالتاج منه حطيم
لا تقولي ضاع الرجاء فان الفيض باق ، وان دهته سموم
ان جيش الضياع حتما سيهديه ، طريق الى الخلاص قويم !!

جده — **مقبل العيسى**



المسرح عبـــارة عن ارض دائرية تتناثر عليها كومات الرمـــاد ، والعيدان اليابسة ، وأوراق ناضبة الالوان ، ونفايات . في اليســار جدار واطىء .. متعرج قليلا ، ومهدم في المقدمة حيث تتبعثر أحجاره تاركة فجوة عبور الى الخارج .

وتعطي دائرية المسرح مـع توالي الاحداث الرتيبة المتواتـرة الاحساس بحلبة دائرة مديخة ...

(عندما يرتفع الستار ، نرى جماعة من شيوخ ونساء وأطفـال يقتعدون الارض قرب الجدار .. سحنهم متداعية ، وعيونهم جاحظـة مطفأة .. وفي جلستهم انسجام خاص ينيح لهم تمثيل التعبير الجمعي المتماثل . الاطفال لا يحطمون الانسجام ، بل يزيدونه شدة من خلال اللمحات الشائخة التي تتوسد وجوههم . ورغم انهـم ينكتون الارض بأصابعهم ، الا ان ذلك لا يشابه عبث الاطفال ، ولا يعدو بعدا عميقـا للوجوم الذي يسيطر عليهم .

.. بعد رفع الستار بفترة وجيزة يدخل عليـوة من اليمين .. وهو رجل في حوالي السابعة والعشرين . متهدل ، يوحي منظـره بشيخوخة حقيقية ، وينم وجهـه المتغضن وذقنه الطويلة وعينـاه الذكيتان عن انهيار ساخر ومدرك . ثيـابه مشعثة مهترئة كالمزق . وفي مشيته بعض ترنح ، ويحمل في يده اليمنى زجاجة خمر رخيص مليئة تقريبا .

.. ويتقدم عليوة .. يتلكأ .. يدور بمزيج من الحيرة والخوف وانتشاء الخدر . وفي الجو تطوف موسيقى جنائزية حزينة كترنمات الحادي المتوحد في بهيم الليل الصحراوي .

بعد لحظات يكرع جرعة خمر ، ثم يخرج من اليسار مختفيا .

... يهز مسن رأسه ، يتلوه آخر ، فآخر ، فامرأة ، ففتـاة ، فطفل ، فطفل ثان ... تتم الحركة بتتابع متناسق موحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

ويمر وقت قصير ، ثم يدخل علي من اليمين .. وهو شاب فـي حوالي السابعة والعشرين ، متماسك ، يوحي منظره بصلابة حقيقيـة لا تفسدها سمة التردد التي تغالب قساوة وجهه ، وصرامة عينيـه الحازمتين .. في خطواته الواثقة نسغ انتفاض كاليقظة . اما نظراتـه فانها الالحاح الصارم ذاته . وثيابه المهترئة نسخة مطابقة لثياب عليوة.

يتقدم علي ، يدور باحثا بالحاح ، ثم يخرج من اليسار .

.. يهز مسن رأسه ، يتلوه آخر ، فآخر ، فامرأة ، ففتـاة ، فطفل ، فطفل ثان ... تتم الحركة بتتابع متناسق ، موحية بأقسـى أنواع الخواء المتبلد ...

وبعد فترة تكفي لتعبئة الحس بالوحشة .. يدخل عليوة مـن اليمين جارا هيئته الذكية .. المتساقطة .

عليوة : من يعلم ماذا أصابه ؟ (يمط شفتـه السفلى بحيـرة وازدراء . ثم يرفع الزجاجة الى فمه فيحتسي جرعة كبيرة . يمسـح ذقنه وشفتيه بظاهر كفه اليسرى متنفخا بانتشاء) يا له مـن غبي مأفون ! ان اقتلاع الجبال أسهل من اقتلاع غبائه . مسألة وراثية بحتة (يضحك) يبدو ان الامراض لا تنقرض . تلك حقيقة ضخمة لكارثتنا (تسهم عيناه فيما يردد بخـوائية متنامية) كارثتنا .. كارثتنا .. كارثتنـا ..

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد)

(يدور عليوة في مـكانه .. يحدق الى الجماعة المركومـة جوار الحائط)

: (بدون اكتراث) آه .. انتم .. ماذا تفعلون ؟ (تفغر الجماعة عيونها المتآكلة ، ولا ينطق أحد بحرف) سؤال تافه أليس كذلك ؟ حقا. فماذا يمكن للمسرحين من الوجود ان يصنعوا ؟ (تبرق عيناه) .. لا .. ربما كان ذلك صحيحا في بعض اللحظات . لكن ما ان تلسع هذه النار المقدسة لسان المرء وحلقه حتى يشعر فجأة ان الوجود كـله يتصاخب في داخله . (يحزن صوته) ويبتعد كل شيء . ينزلق الـى فجوة عتم ، وكأنه الكابوس البعيد . (يتمايل) أتجربون ؟

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد)

أأنتم مثله ؟ (يقفز في المكان) يا للشيطان ! انه يبحث عنـي الان . اسمعوا .. كان يتلامح في عينيه لمعان غريب متوحش .. وكان ينتشر على قسماته تصميم أربد . لا اعرف ما الذي ركبه ؟ فات وقت طويل .. آه .. يا لعذابي . دائما في مواجهتي . صامت كالسهـول الواسعة . وعيناه القنفذيتان مغروزتان في صميمي . (يقشعر وجهه) ليس بوسع أي منكم ان يدعي القدرة على احتمال تلك النظرة الواجمة كسلك الزمان .. كلمة غامضة ؟ لعلها .. النار المقدسة يا صحاب .. النار المقدسة . ماذا كنت أقول ؟ (يحك جبينه مفكرا) نعم .. نعم .. تلك النظرة .. السلك الذي يتزحلق عليه زماننا كله . زمان فاسق ؟ من لا يدرك ذلك . بيد ان الاتهام الصامت ، هذا التعذيب المستمـر الذي ينفجر في الداخل ، عينا هابيل تحاصر قابيل .. أف (يظهر على وجهه تعبير عذاب حقيقي ، فيتوقف محتسيا من زجاجته .. بعـد لحظة صمت ، بهدوء عميق) قابيل اغتال هابيل . أما أنا فالذكاء هـو ادانتي الوحيدة .

(تسمع وقع اقدام خـارج المسرح فيرتجف عليوة مذعـورا)

ها هو .. انه قادم . (يندفع بحركة غريزية الى الفرار ، لكنه يتوقف فجأة ، ويتفرس بالجماعة) اياكم ان تفوهوا بكلمة واحدة .. الكلمة مصير (يردد العبارة الاخيرة بينما يجري متجاوزا حائط الشمال) الكلمة مصير .. الكلمة مصير .

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحيـة بأقسـى أنواع الخواء المتبلد) .. يدخل علي مهرولا من اليسار . يتـوقف ناظرا الى الجماعة ...

علي : (بتصميم) أين يختبىء ؟ (صمت) أسألكم اين يختبىء ؟

(صمت ـ متظاهرا بالهدوء) اللامبـالاة تستنزف القضية ووعـد الوجود . (صمت)

علي : (محاصرا) ريح الجنوب الرصاصية تحمل صفير الارواح التي تصدأ بالانتظار . ولا فرار .. اننا موثقون الى الارواح الصافرة .

هذا ما يجب والا كنا اكذوبة ينبغي ان تتبدد . (بعنف) الم تلاحظوا ؟ انه عثة تنخر جذع الامل .. كل امل . (برهة) لا نستطيع ان نسلم أليس كذلك ؟ (صمت ـ باشمئزاز) الى الجحيم .. اختياركم لـن يفت عضدي ، أو يوهن عزمي . لقد نضج القرار ، وانتهت الحيرة . (بالحاح) لا يمكن ان يستمر ذلك . انه جرسنا يرن . لا تصدقون ؟ ليس كجرسهم . الكذب لا يرن .. انه يفح فحسب .. جرسنـا .. جرسنا . (صمت) آ .. (يخرج من اليسار مشمئزا)

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد ، وتحر الموسيقى الجنائزية نصوع السكون فترة)

.. يدخل عليوة من اليمين مسترق الخطى . ينقب بعينيه يمينا وشمالا ، فيزفر بارتيـــاح ، ويحتسي من زجاجته التي تتنـــاقص محتوياتهـــا ..

عليوة : أرأيتموه ؟ ما قولكم ؟ (يهز رأسه ، ويترنح) انســـان يضيع حتى امكانية العزاء . ان للغباء ألاعيبه (يتوقف .. تتـــورم عيناه .. يتأخر قليلا نحو يسار المسرح ، ثم يهمهم هامسا) عـــلى ان الاب .. الاب التعيس كان أشد غباء . (يمسح بكفه جبينـــه الذي يتعرق)

(تنفجر موسيقى كالعصف . بينما يسقط ضوء باهر عـــلى مؤخرة اليمين حيث يحملق عليوة .. فنرى بيتا صغيرا من غرفتين ، وردهة واسعة تفضي الى الصالون .. تحيط بـــه من اليمين والخلف حديقة مزدهرة تجتاحها جموع متتالية من الاطفـــال والنساء وبعض الرجال .. وثمة صرخات ، وثمة كلمات جماعية تتكرر طيلة المنظـــر مبحوحة ، ممعوسة المخارج كالاصداء :

ـ الرحيل .. الرحيل . المرأة تسبى .. يلغ في طهرها التنيـــن الميت والكلاب .. المرأة العفة صارت للكســـلاب .. جريا .. جريا . يا تعس التراب والانسان .! لرصاص . يا رب . يا بصير .. جريا.. جريا . الرحيل .. الرعب والغيلان .

بعد قصير وقت يلوح في الردهة رجل في الاربعين بيده بندقية صيد ، ويدفع امامه امرأة تولول ، يتمسح بها صبي صغير ..

المرأة : (خلال ولولتها المستمرة) لن أبرح بيتي ما لم تكن معي..

(ترعب الصبي أصوات الجمهور ، وتراكضه .. فيزعق متشبثـــا بتلابيب امه)

الرجل : كفى جنونا .. ينبغي ان ترحلي مع الاخرين .

المرأة : وأنت ؟.. آه .. أين أذهب بدونك ؟

الرجل : تمضين كسواك الى بيوت الاقرباء .

(يزداد الهرج ، وتشتد الحركة كان نبضا مفاجئا قد تدفـــق فيهما . الرجل والمرأة يتكلمان دون ان نفهم كلامهما . يستمر ذلـــك لفترة قصيرة .. ثم يتضح صوتاهما كرة اخرى)

المرأة : ولكن ماذا يمكنك ان تفعل ؟ انظر .. ها أنا أرى ابا محمد يجري هناك مع الناس .

ابو محمد : (بينما يجري صارخا) ماذا تنتظرون ؟

الرجل : (مشمئزا) أنت يا أبا محمـــد .. تهرب كالخرفان ؟

(يختفي ابو محمد ملوحا بيده دون ان يبالي بالرد) جبن .. حقارة.. ستصيبنا لعنة الارض ، وستنبذنا الارض . كلا .. أسرعي . لـــن أدعهم يدنسونه .

المرأة : (ولولتها تتفاقم) لن يدنسوه .. وسنعود . اما الان فماذا تستطيع ان تفعل . لا يصد الغيلان رجل بمفرده (برهـــة) ثم هل فكرت في ابننا ؟

الرجل : بلى . لا تحاولي تثبيطي . فمن اجل ابننا أبقـــى . سأصون له البيت . (ينظر الى الجدران بحنان متهدج) .. بيتنـــا الذي شيدناه بنزف العياة .. آه .. تأملي كيف خرب الخائفـــون حديقتنا . تأملي ما حل بأزهار البنفسج الغالية . البنفسج رمز بيتنا السعيد في البدء وعبر السنين .

المرأة : (عيناها زائغتان) نعم .. البنفســـــج .. وسلام الاسر الاليفة ، وبهجة الحياة في دفء الاصيل .

صوت امرأة : هلموا .. هلموا .. انهم يقتربون .

الرجل : واذن لا تتلكأي .

المرأة : سأبقى معك .

الرجل : (يدفعها) يا للشيطان ! لا تكوني عنيدة . يجب الا يروع الصبي . سأنتظركما هنا (باخلاص) اقسم انني لن اترك الاوســـاخ تفترس غبطة البيت . سأكنسه كل يوم . سأغسل حجراته .. ولــن يقتربوا منه ابدا .. حتى انفاسهم الوخمة سأدفع هباتها . (حازما) سيبقى البيت . ينبغي ان يبقى البيت يا عزيزتي والا ....

المرأة : سنبني آخر . أتضرع اليك ..

الرجل : لن نكون جديرين بالاخر ما لم نحم هذا ..

(تعلو الجلبة ، وتقوى الاضواء المتساقطة على الجمهور . يستمر ذلك لفترة طويلة نسبيا)

صوت امرأة : (تستحثهم) يا حفيظ .. ألا تسمعون الرصاص ؟ اتركوا كل شيء والمهم النجاة .

(يتحشرج صوتها بسبب البعد والجلبة)

الرجل : (لاكزا زوجته) امشي يا امرأة . وكفى ثرثرة .

المرأة : (ناحبة) زوجي ..

الرجل : لن يكون زوجك اذا لم يثبت اخلاصه للامانة .

المرأة : أية امانة ؟!

الرجل : أمانة الارض والبيت . أسرعي .. اسرعي . (يدفرهـــا على الدرجات .. تهبط مترددة) قلت اسرعي من اجل الطفل ..

(تمشي المرأة وهي تلتفت الى الخلف . يتبعها الصبي مذعـــورا لا يفهم شيئا . وكلما التفتت امه .. التفت معها .

يلوح الرجل بيده ، ويسمهم بنظرة قاسية حوله ، ثم يدخـــل موصدا الباب .

(تختفي الانوار .. ويغيب المنظر بضجيجه) .

عليوة : (ناحضا رأسه) واذن .. انها الامانة البلهاء . (قهقهة اسيانة مختلطة بشهق غريب) .. عم أسفرت المعركة في تقـــديركم ؟ لستم فضوليين . وهذا مريح كالاغفاءة بعد الغداء . الا انني لا اخفي السر . فيما بعد ذاع النبأ . وكانت الام ضحية . (هنيهة) انـــدر البيت .. وغرس مكانه على اشلاء الامانة والبنفسج ملهى ليلي .. راعف الاضواء .. محموم الهواء . وفي الردهات ترقص نخولات العالم بعري تكهربه الامانة البطلة . (تلتم قسمات وجهه في تقزز) العظمة الانسانية . (يصرخ) في عالم جيفة لا يعيش الا المتجيفون . هـــذه حصيلة عمر لعين عاشني .. وغشني . (فترة) يا اله محمـــد .. (يضحك) انني أتحول فجاة الى ممث (تسمع وقع اقدام ، فيرتعد) ثانية .. ثانية . الغبي ضحية غبائه . والذكي ضحية ذكائه . ليس الا الضحايا ..

(يقول العبارة الاخيرة وهو يخرج من المسرح مترنحا ..)

(تكرر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة ، الموحية بأقســـى انواع الخواء المتبلد ، فيما تنبعث الموسيقى الجنائزية)

(يدخل من اليمين شاب أسمر . وجهه مألوف يحمل التقاطيـــع النموذجية لسكان المنطقة . العينان العميقتان المنطويتان على ضيـــاع قديم ، متجدد . والشارب الطويل ، والشفاه الممتلئة قليلا ، والذقن المدببة .. يحمل راديو ترانزيستور ، وتطبع مشيته الحيرة والقلق .

عندما يصـــل منتصف المسرح يفتح الراديو ، فينبعث صـــوت المذيـــع :

ـ زيفوا الوحدة ودعوتها . اما ثورتنا .. فهي المنطلق السليم .. المنطق العقائدي لوحدة أصيلة راسـ ..

(تتجمع عضلات وجهه متقلصة حول أنفه في امتعاض . يغيـــر مؤشر الراديو :

ـ البيان رقم ١٠٠١ من الحاكم العسكـ ..

(تتجمع عضلات وجهه متقلصة حول انفه في امتعاض . يغير مؤشر الراديو :

— « يا كركدن لا تحسبن تاتقبضن .. امشي عا ضو عا .. »

(تتجمع عضلات وجهه متقلصة حول انفه في امتعاض . يغير مؤشر الراديو :

— قالوا الوحدة ، وكانوا يكذبون . وقالوا الاشتراكية وكانوا ينافقون .

(تتجمع عضلات وجهه متقلصة حول انفه في امتعاض . يغير مؤشر الراديو :

— راجعون .. راجعون ..

(تتجمع عضلات وجهه متقلصة حول انفه . يقفل الراديو)

الشاب : أف (يهز رأسه) الفخ ! عبوديتنا التاريخية لبصاق أجهزة اديسون الملوثة . ما نكاد ندير الزر حتى تنبق في نفينا رغائب الاستفراغ . ونخنق الصوت المتوحش . (فترة) لكن لا تلبث الاصابع المريضة ان تعود باحثة عن أفيونها والمعجزة (بمنتهى الاشمئزاز المتأفف) المعجزة حلم حشاش تافه . لا معجزة . لا حقيقة . لا شيء الا البصاق .

(يدخل علي من اليمين بخطى سريعة لهفى)

علي : (للشاب) أين هو ؟

الشاب : (يباغت ، ثم يهدأ بعد ان يقايسه بنظرة هامشية) ماذا تظنني افعل هنا . اني ابحث عنه . هل وجدته ؟

علي : (مندهشا) أنت ؟ من ؟

الشاب : ألا تعرفه ؟ كلنا — باستثناء المخدوعين والنائمين — نبحث عنه .

علي (اكثر اندهاشا) من ؟ هو ؟

الشاب : نعم . ملجأ خارج حدود الارض . وبعيدا عن دوامة التاريخ الرهيبة .

علي : (يشيله بنظرة خائبة ، ثم يسقطه محتقرا) انهزامي اخر..

الشاب : (ابتسامة صفراء) : هه .. واذن .. خطيب (يضحك) كمية من صنف تجاري كاسد رايج . (يضحك) أم لعلك تحلم باذاعة بيان رقم « ١ » . ظظ . وما الجديد في ذلك ؟ كل اسبوع تبصق لنا اجهزة اديسون الفاسدة بيان الرقم « ١ » فما الذي تبدل ؟

علي : الى الجحيم . لذة علك الزمان بتافه الكلام لم تعد تثيرني . لن أتلكأ في تضرعاتكم المغشوشة . لي قضيتي التي لا تفهمها . اوه (يلتفت الى الجماعة) أين هو ؟ (صمت) . أقول اين هو ؟ اني اشم رائحته (صمت) . أنا اعرف كم تغري احاديثه الثملة بالتساهل . انه موهوب بقلب الوقائع لصالحه . (برهة) التساهل ضد القضية كالتواكل .. كالنسيان .. كالصفح . (صمت — محزون النبرة) .. يا الهي . في البدء ظننت ان شرارة واحدة تبصرونها كافية لتكونوا عوني الضروري . والان . لا . ينبغي ان يتم كل شيء في الهجر .. في برودة الوحدة والقلق . (متماسكا) لا بأس . هذا وحده لا ريب سيشحن الاحداث بتطرفها النهائي الواعد . (يخرج من اليسار)

الشاب : (ماطا شفتيه ، هازا راسه) أما مفوه ! أهي الوزارة تغزل فكره أم السجن ؟ على كل ليس أرخص من هاتين البضاعتين لدينا.

(يضحك ، وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة ، الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد .

تسيل الموسيقى الجنائزية التي تستمر حتى نهاية المنظر .

يمشي الشاب على المسرح شارد البال .. ثم تفتح اصابعه بشرود واعتياد زر الراديو فينبعث صوت المذيع :

— لقد أثبتت المؤسسات الدستورية برسوخ مبناها التاريخي انها الاقدر على قيادة حركة التقدم .

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويغير المؤشر :

— بلدنا الصغير . صوت السلام ، وتناغم الجمال ، ومعجزة الاله على الارض لا يعمره الا الحياد ، وترسيخ الحدود حتى نواة الارض .. حتى السماء .

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويغير المؤشر :

— « عايزين ياكلوك ، ومش عارفه ياكلوك منين .. ياكلوك منين.. أكلك منين يا بطة » .

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويغير المؤشر :

— بيان رقم ١٠٠٢ من الحاكم العسكري ..

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويغير المؤشر :

— الوحدة لدينا قضية ومبدأ . أما في أجهزتهم ، فان الوحدة شعار فارغ لخداع الجماهير ..

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويغير المؤشر :

— سنرجع خبرني العند ..

(يكشر الشاب عن اسنان متضاغطة تتساحق ، ويقفل الراديو .

ينهمر في هذه اللحظة من كل صوب ، صدى غميق كلهاث أعمق الوديان يردد نفس العبارة الاولى ، معطيا الاحساس بكورس غائب ينشد من بعيد ، ومن شتى الاتجاهات ..)

— الفخ ! عبوديتنا التاريخية لاجهزة اديسون الملوثة . ما نكاد ندير الزر حتى تنبق في نفينا رغائب الاستفراغ ، ونخنق الصوت المتوحش ... لكن لا تلبث الاصابع المريضة ان تعود باحثة عن افيونها والمعجزة . المعجزة حلم حشاش تافه . لا معجزة . لا حقيقة . لا شيء الا البصاق .

(يدخل عليوة مع الكلمات الاخيرة من اليمين . يلمح الشاب ، فيتوقف لحظة ، ويهم بالتراجع . غير انه حين يسف النظر جيدا يعدل عن ذلك)

عليوة : (الثمل يوالي اصطياد اتزانه سواء في الحركات أو الكلمات) آه .. أخفتني يا رجل .

الشاب : (دهشا) سامحك الله . أيخيف التائه الخائف ؟

عليوة : حسبتك الثاني .

الشاب : أتعني الخطيب الذي مر منذ قليل ؟

عليوة : (مرحا) خطيب ! نعم .. نعم . وحق الرب انك بارع (فترة) يا للفصل السخيف الذي نلعبه . ألم تر كم هو مسئم ؟

الشاب : ليس المسئم نادرا حولنا يا صديق . (ينتبه للزجاجة) ولكن ، ما الذي أراه في يدك ؟ خمرا ؟

عليوة : (رافعا الزجاجة) بل حافزا لبقاء . (في تهلل) أتشرب؟

الشاب : (بعد تردد وجيز) ولم لا ؟.. ينبغي ان نجرب كل مقويات الاحتمال .

عليوة : (مصفقا على الزجاجة بفرح) أنت حقيقي وأصيل يا رجل . هكذا .. حدسي لا يخطيء . لقد أدركت مذ رأيتك انك حقيقي وأصيل .

الشاب : (يشرب بشراهة ثم يتنهد) مباركة خمرك . ولكنها تكاد تنضب .

عليوة : (بغمزة باسمة) ثمة احتياطي صغير . (يخرج من جيب سترته الداخلي زجاجة صغيرة . نصفها مليء بالخمر) انني مجهز جيدا كما تلاحظ .

الشاب : حقا . وكذا يفعل من يقرر البقاء في الجحيم .

عليوة : (صاحيا) يقرر ؟ لهي دعابة دون ريب (يتمايل يمينا وشمالا) أقول .. اني اكره المداهنات البلهاء .. فمن الذي يقرر ؟ (ينفعل وجهه) ان الفرائس لا تملك تقريرا . ونحن . آه يا رفيق . ما نحن الا هوام سقط في شرك القرارات المجنونة العاتية (يقفز ممثلا) صيادون في غاب افريقيا أطبقوا على الطريدة ، وأخذوا ينهشون وجودها بصرخات عاشقي القتل ، والجنون والتعذيب . صرخة من فوق . صرخة من خلف . صرخة من خارج .. ويتخلع الكيان .. يتفكك ويتناثر في طين الوخم الشامل . (يصمت برهة ، وكأنه يستيقظ) المرة الثانية .. حين يتخلع الانسان يبحث عن نفسه في تادية الادوار والتمثيل ، ويقينا لا يسرني ذلك . (بازدراء) النار لكل شيء .. اشرب .. اشرب .

الشاب : (بعد ان يتناول الزجـــاجة . في سهوم) والله انك فهيم . (كما لو كان يحدث نفسه) فعلا .. ماذا نملك نحن ؟ دوامـة فائرة تدوخ القش وتطحنه فيما تلوك نفسها . (يعلو صوته) قش .. قش نفاية تتلاعب به رياح الدوامة الوضيعة . لا القش يملك نفســه ، ولا الدوامة تخون بلاهة مجراها . أوه .. أوه .. (يغمض عينيــه . يجرع كل محتويات الزجاجة)

عليوة : (جزلا) طيب

(يرمقه الشاب بنظرة ذات معنى مومئا الى الزجاجة)

عليـوة : انت ..

الشاب : لا .. أنت .

عليـوة : لعلني لا احب ذلك .

الشاب : حسن (يلقي الزجاجة بكل قواه على حجارة الحائط ، فتتهشم مدوية)

عليـوة : (راقصا) طيب .

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انــواع الخواء المتبلد)

الشاب : (وجوم مباغت) زجاجة فارغة تحطم . ما الفائدة ؟

عليـوة : لا شيء . (صمت قصير ، ينساق فيه مع جو الوجوم) ما أعذب ان يتقن المرء معرفة المستحيل . ولربما كان ذلك هو امتيازي (يرتفع صوته) صاح . ألم تسمع بحكاية تلك المرأة المسكينة ؟

الشاب : اية امرأة ؟

عليـوة : (تكسو الدعابة المحرورة صوته) ولو يا رجل ، المرأة التي تسمون قضيتها العار والتهديد والنكبة .

الشاب : أتعني ؟

عليـوة : نعم أعني تلك التي كانت تملك بيتا جميلا على هـامش البلدة ، والتي كانت - مع هذا - تحب ان تهجره السهرات الطــوال لتثرثر مع قريباتها عن الايام الخوالي ، وبهجة السنين الدارسة .

الشاب : (لا مباليا) التي سطا اللصوص على بيتها .

عليـوة : والتي لا يفتأ يعدها الاقرباء بطرد اللصوص والتحرير .

الشاب : (زافرا) ما اكثر ما يعد الاقرباء !

عليـوة : وعود كالرمال . جيد .. اننا نقترب من ضياء الشمس. أتظن ثمة أمل ؟

الشاب : لا ادري .. ربما لا ..

عليـوة : (يترنح ممثلا) ربما .. لا ادري .. كلمتان ثاقبتــان (فجأة) أما فكرت في مصابها من قبل ؟

الشاب : (اثر تأمل وتدبر) الحقيقة كلا . (يقهقه عليوة) ليس ذنبي . لقد حدثونا عنها كما يتوقعون عن موقع جزر لاهـــاي . ثم أكاذيب .. ثم مشاكلنا . مشاكلنا التي تلتهم الصفاء والطاقــة والاماني . (يقهقه عليوة) الدوامة المتوحشة يا هذا . نلوك مطــاط الزمان ، ونراوح في المكان . لا فرجة . لا ثقب . لا نفاذ .

عليـوة : (يربت على ظهره) تعجبني صراحتك يا رجل .

الشاب : (مغتاظا) اللعنة على الصراحة . (يضرب الارض بقدمه) من اين نبدأ ؟ من اين نبدأ ؟ هذا هو السؤال .

عليـوة : (باسما) تريد ان تعرف ؟

الشاب : بالتأكيد .. اريد .

عليـوة : (عبر قهقهة متداعية) اذن فمن زجاجة مليئة نبدأ .

الشاب : (يحدق الى عليوة ، ثم الى راديو الترانزيستور ، وبعد سهوم يغمغم في فتور مبحوح كالمرض) لعل .. ليكن .. ليكن .

(تندلق الموسيقى الجنائزية . ويناول عليوة الشاب الزجـاجة الاخرى فيحسو ملء فمه ، ثم يشرب هو مبتسما ... تسمع بعد قليل ضجة خارج المسرح)

عليوة : (مرتبكا كمن لدغ في قدمه) الدب الابله . هلم .. هلم .

(يتلكأ الشاب متلفتا حوله بحيرة ، فيجره عليوة ، وهو يـردد مجمجما :

- الدب الابله .. هلم . الدب الابله .. هلم .

يخرجان من اليسار ..

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انـواع الخواء المتبلد ، ويتعمق حزن الموسيقى السائلة في خلاء المسرح .

اثر دقيقة تقريبا ، يدخل علي من اليمين متزايد اللهفة ، متسارع الخطــى)

علي (متعبا ، وقد كنست عيناه مختلف جوانب المكان) ايضا.. لا احد . ولكن رائحته .. النفتالين الطري . ولكن صوته .. الشحم الذائب . عبثا . كملاسة ثعابين المياه . ما يخيل اليك انك امسكتــه حتى ينزلق غائصا في القعر الاسود الكثيف . (يدور) يا رب . انها نفسي .. وانا وحيد . ولو كانوا يساعدونني ! لو كانوا يعلمون انني من أجلهم (يفور صوته فيتجه اليهم) انتم يا .. لماذا ..

(في هذه اللحظة ، يدخل من اليمين رجل كبير ، يلبس ثيابا فاخرة ، ويضع على عينيه نظارة طبية يتدلى بين زجاجتيها أنف طويل كمنقار اللقلق . انه صحفي . بيده اليسرى دفتر أسود وباليمنــى قلم حبر ناشف مما يستعمله الصحفيون . ويعلق في كتفه الة تصوير سريعــة)

الصحفي : (صوته نسائي .. هش) اخيرا .. (يدمدم) لو لم يكن المرء بحاجة اليهم لما عرف كيف يذبهم عن باصريه (يصبح الــى جوار علي) ها انني أجد بعضكم . الحقيقة ، يكفي واحد . الا انني سأستغل التعدد في التأكيد . وما دام مثلنا يملك الموهبة فان المطابع ليست بلا فائدة . الحقيقة ان الصحافة مهنة مثيرة رغم متاعبها .

علي : (يغلب عليه النفور) والان ماذا تريد ؟

الصحفي : الحقيقة .. شيء بسيط للغاية . انني أعد ريبورتاجا فريدا . (يفتش عن كلمة) بوسعك ان تصفه احد مظاهر المعركة . الحقيقة .. ان المعركة مستمرة ، وليست الكلمة أقل اسلحتها .

علي : (نافد الصبر) والان .. هلا أفصحت عما تريد ؟ ان مهمة كبرى تنتظرني .

الصحفي : (متبسما) اعلم . وهي مهمة لن تنجز الا بقيــادة سيدنا الحكيمة .

علي : سيدك ؟!

الصحفي : أجل .. سيدي قائد المعركة الكبرى ، وفارس العودة، وبسمة الامل في مدلهم الديجور . (صمت - يبتسم) الحقيقــة .. الحقيقة جئت ابحث عن اعترافكم بذلك .

علي : اعترافنا ! هذا ما جئت تلتمسه حقا ؟ (غاضبا) لتطفــىء الشياطين ذبالة نور العالم . ألم تشبعوا من الكذب بعد ؟

الصحفي : ماذا أصابك ؟ الحقيقــة انني اكره موضة السخط والشتائم ، كما اكره تسالي النقاش واحتقان اللوزتين .

علي : (صاخبا) اكره ما تشاء . ولكن دعونا وشأننا .

الصحفي : (ضاحكا بسخرية) ندعكم ؟ والله عال .. الحقيقــة ان المسألة ليست بالسهولة التي تتصور يا حبيبي . هناك نظــام أقوى منا جميعا .

علي : لست حبيبك . ثم أي نظام مبعوج جئت تهرف عنه ؟

الصحفي : النظام . نعم النظام . الحقيقة ما الانسان ؟ مجرد مسمار زهيد في عربة النظام الهائلة . فاصغ الي جيدا اذا أردت ان تعرف نظامنا الخاص . (يسرع صوته مذكرا بحكاية ابريق الزيت) السيد يريد ديمومة الحكم . وديمومة الحكم تقتضي رضى الشعب . ورضى الشعب يقتضي مظاهر الوطنية والبطولة والصلاح . وقضيتكم أكثر القضايا حساسية ، وأنسبها لارتداء جلابيب الوطنية والبطـولة والصلاح . واذن ، فليكن ضجيج . ولتدق الطبول . الصامتة منهــا والداوية . ثم .. انا رجل يجالد الدهر ليعيش . العيش يفرض تنفيذ رغائب رئيس التحرير . ورئيس التحرير ينفذ رغائب صاحب الجريدة . وصاحب الجريدة ينمي ثراءه بتنفيذ رغائب السيد . ويدور حجـر الطاحون .. يدور ويدور طامسا ضجيج الشاتمين ، وهلوسة الصخابين

لا يتلكأ .. لا يتعثر . يتغير السيد ، ويتبدل حبر المطابع ، لكن الحجر لا يتلكأ .. لا يتعثر . ويدور . يدور ويدور الى ما لا نهاية . (يضحك) ها أنا اذيع سر المهنة . أيكون ذلك بلا مقابل . الحقيقة انت طيب ، ولن تضن علي بالتعويض .

علي : (منذهلا) أجل . طيب الى حد انني أود لو اطعم رأسك لقطط البرية . (يلتفت الى الجماعة) آسمعتم ما نحن ؟ ديدان لافخاخ العصافير الضائعة . (مشمئزا) وللدود المستنقع . اما ينبغي ان يعلمنا مذاق المستنقعات التفه شيئا ؟ (مخاطبا نفسه) كلمة سوف تعني لا ، والي الابد . (بعزم) الان .. الان تماما ستخرج اول دودة من المستنقع .

(يغادر المسرح من اليسار بخطوات عجلى)

الصحفي : (يضرب كفا بكف) والله عال . لهي مفبة ان ينام جهاز المباحث . لقد كنت مصيبا جدا اذ أثرت هذه القضية مع المسؤولين منذ ايام . الا ان للمسؤولين صوابهم ايضا ، فماذا يمكنهم في الواقع ان يفعلوا اكثر من مصادرة نصف المدارس والمراحيض العامة للمعتقلين . الحقيقة .. ان اية حكومة لن تعرف الاستقرار ما لم تجد حل هذا الاشكال . (كأنه يتذكر ، يتجه الى الجماعة) اوه .. ولكن بالنسبة لكم يختلف الامر .. أليس كذلك ؟ انكم أحكم من تابع الشيطان ذاك ، وستتعاونون معي دون ريب .

ـ (صمت)

(مبتسما) لا تتظاهروا بالذكاء ، فنحن نفهم بعضنا جيدا .

ـ (صمت)

طيب كم اذن ؟ خمسة لغير الاطفال

ـ (صمت)

(على حدة) انهم يساومون ببراعة . الحقيقة ليس بالمبلغ الزهيد.

ـ (صمت)

(محنقا) ماذا كان يدفع عملاء ذلك الدعي ؟ اكثر ؟ (بعد تردد) لا تلوموني اذا قلت .. اني اشم رائحة الشراهة .

ـ (صمت)

ما أشد عنادكم ! ليكن .. عشرة اذن .

ـ (صمت)

لا .. لن ازيد المبلغ قرشا واحدا .

ـ (صمت)

(على حدة) يا للمأزق ! يجب الخروج منه بأي ثمن (برهة) ستندمون لانني لن احتمل مساومة اكثر . اسمعوا أقسم انهم لم يرصدوا الا ما أعطيتكم .

ـ (صمت)

ما هذا ؟ لا بد من حل . (يدور مفكرا) الحل .. الحل . (تنثال الموسيقى) الحل .. الحل . (لا يزال يدور) الحل .. (يقفز بهستيرية) وجدتها .. وجدتها . عندما يتكلم البكم بأبلغ مما يتكلم اللسان . عنوان مثير . بعض الرتوش فقط . (يفتح الدفتر الاسود ويكتب) كلمة صمت أجمل وقعا وأمضى تأثيرا . عندما يتكلم الصمت بأبلغ مما يتكلم اللسان . (يكتب بصوت مسموع متحمس) وفي زاوية ظليلة وجدتهم . كانوا وجودا مترابطا ، بل موحدا .. تطيف به لهثات ألم غامض .. كثيف .. متدافع . وخزتني الرؤية ، وحين حييتهم انداح صوتي في الخواء متلاحقا بصدى كئيب .. كزفر المقابر . لا يحب رئيس التحرير كلمة المقابر . كزفر .. كزفر المدى الوحش . في البداية لم أفهم ، ثم عندما أطلقت الافواه الخرساء أصواتها المبتورة المثقلة بالمعنى أدركت انه البكم . ماذا أفعل ؟.. كدت أتركهم باحثا عن اخرين ، لولا انهم أغرقوني بوأوآتهم البليغة المؤثرة . فأخرجت صورة السيد ، ووضعتها امامهم . يا للروعة ! ان يراعة هوميروس تعيى عن سكب انفعالات المشهد وحرارته في كلمات . وثب عجوز فاختطف الصورة وراح يلثمها . وصوتت النساء في زغاريد مقطعة مبحوحة ، وانخرط الاطفال يدمدمون راقصين . كأنهم الاغريق يقدمون قرابين الشكر لاحكم واشجع الالهة . بديع .. بديع . سينبهر رئيس التحرير ، وستكون مكافأة مجزية هذه المرة . (يتقافز مهووسا) لم يبق الا الصور . (يوجه كاميرته اليهم ، ويلتقط ثلاث صور من زوايا مختلفة ، ثم يخرج مرددا) ألم أقل .. ما دام مثلنا يملك الموهبة، فليست المطابع بلا فائدة !.

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

وتذوب لحظات ، ثم يدخل عليوة ورفيقه متمايلين ، يحيط كل منهما كتف الاخر بذراعه . انهما يعبران المسرح .. ولولا بطؤهما وتوقفاتهما الوجيزة لما استمر المشهد اطول من دقيقة)

عليوة : (مواصلا روايته التي يلوح انها بدأت قبل دخولهما . لسانه متلجلج ، ومقاطع النمات مضحكة) فانا حالة استثنائية .. كانسان بلا ثقل .. بلا وزن . هل فهمت ما أعني ؟ تلك الوضعية التي تيبس فيها الجذور ، وتتلاشى الروابط . (يتوقفان) ربما قرأت ذلك في كتاب . لا اذكر ..

الشاب : (صاخبا) اللعنة على الكتب .

عليوة : اي والله . فهي الكذب والوعد الزائف والوهم المفسد . (يتنهد) عقيب الخروج الكئيب . (منفعلا) يا رجل ، حتى البحار تعلمت الغدر . وبدلا من أن تنفرج لموسى أغرقته ، وتراجعت ذليلة أمام .. أمام .. أمام (بقسوة مثقوبة بالتهاوي) من زني التاريخ بأمهم .

الشاب : (مبتهجا) عظيم .. عظيم . نخب البلاغة .

(يشربان ، ويتابعان ترنحهما)

عليوة : (متضاحكا) البلاغة ! ربما . ماذا كنت اقول ؟ ماذا كنت اقول ؟ اجل . عقيب الخروج (يكتئب صوته) كنا متفقين كما لا تتخيل . يشدنا الحزن ، والجوع والخوف بسماط واحد. لا شباك.. لا شكوك .. لا فواصل . نذرف الدمع في حضن الام المهدومة ،

ونزف الشجون آهات ، ونلتهم الكتب ، ونستمع الى الخطباء . وكانت الضوضاء المشتعلة توقد بقايا ضوء لطالما تقوتنا منه . لكن (يتوقفان قرب الحائط) سرعان ما هدأت الضوضاء ، وانطفأت بقايا الضوء . ذلك .. ماذا اسميه ؟ ادراك ناصع كثلج الميلاد . أفيخون المرء ادراكا بهذه القوة . في البداية لم يتكلم . غير ان عينيه كانتا تثيران القيء في جوفي . ليخسف الله تلك النظرة . كالوحل اللزج يغطي تمساحا همجيا مخيفا . وكنت اعلم . اخيرا .. اخيرا تشققت لزوجة الوحل . وبرز رأس التمساح هائجا .. غبيا . (متقلقلا) لنسرع يا صديق . اني .. قلبي مضطرب ، ولعلني خائف .. (بأسى) قبل ان تتنظف الارض من الغباء لن نذوق عذوبة الراحة .

الشاب : (وهما خارجان) والمصيبة ان جذر الغباء أعمق واصلب.

(يخفت صوته تدريجيا) انه الاكثر صلابة .

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة ، الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد . وينسكب مع الموسيقى عزيف ريح هادىء .

يدخل علي من اليمين ، وما فتئت لهفته تتنامى ، وخطواته تتوسع . يجوس بعينيه في المكان كما يفعل كل مرة) .

علي : (متشمما بتقزز) الرائحة ذاتها . أنفاس الموتى ، ولهاث المائعين . انه يستغل قانون الحلقة المفرغة ظانا ان الاطار الدائر أقوى من ارادة انسان يبصر منطلقه . سيرى .. (يخرج من حزامه خنجرا عتيقا يهزه في الجو) سيرى . لعنة البيت رهيبة لو تحل . انشي أعنيكم ايضا (مهدئا نفسه) أما تسمعون ؟ لماذا .. أهو اليأس ؟ ان بداية من اليأس تجعل حدود الممكن بلا نهاية . (برهة) وعلى كل ما الذي سنخسره ؟ الفتنا المقيتة مع الخور ؟ أهي التضحية العظيمة ؟! بربكم انطقوا . تكلموا أي شيء .. أي شيء .. (ممتعضا) حجارة منخورة .. وضيعة .

(ويغادر المسرح من اليسار راغيا ..

تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد .. وينسكب مع الموسيقى عزيف ريح تشتد .

يدخل عليوة من اليمين راكضا وقد بوخ الخوف كل التعابير الاخرى على وجهه)

عليوة : وحق الرب كاد ان يراني . (يمشي قلقا . وأجفانه حمراء تتورم) ما العمل ؟ ـ يا لغبطة صديقي ! انه يغفو الان كالسنونو بعد نهاية رحلته السنوية . (يميع صوته) اريد ان اغفو .. ان اتمدد وأغيب مرتحلا عن السخف والذكريات ووعي المستحيل . (تتزايد ميوعة صوته) يا صحاب . كل المدركين والناضجين يبصرون انسداد الافق بالمستحيل ، فلم نناطح الاوهام بعدئذ . لماذا لا نلتفت الى المعطى فنستنفده حتى ثمالته . (ركض خارج المسرح) هو .. هو يا للسماء .

(يجري بعصبية هاربا من اليسار)

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد .

يدخل علي من اليمين متطلعا حوله . والخنجر ما يزال يبرق في قبضته)

علي : الخيبة مرة اخرى . والرائحة تثقل وتتكاثف . اقتربت اللحظة . ومزيد من العناء لا يساوي شيئا اذا ما طافت بالذهن روعة البدء من نقاء التصفية الكاملة .

(يهرع خارجا من اليسار

وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد ..

فترة .. يدخل عليوة متثاقلا من اليمين)

عليوة : (عابرا المسرح) الغباء .. الغباء .

(يخرج . وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

فترة قصيرة .. ويدخل علي متدفق الحيوية)

علي : (عابرا المسرح) لا مستحيل . الارواح تصفر .

(يخرج . وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

فترة أقصر . يدخل عليوة لاهثا)

عليوة : (عابرا المسرح) تعبت .. تعبت .

(يخرج . وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

فترة أشد قصرا . يدخل علي)

علي : (عابرا المسرح) سأقض مضجعه . البدء غب النقاء .. البدء ....

(يخرج ساحبا خلفه بقية قوله . وتجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية بأقسى انواع الخواء المتبلد .

فترة وجيزة جدا . يدخل عليوة مجرور القدمين)

عليوة : (منهكا) كفى .. رأسي كالجبل الاجوف . وجسدي كالرمل تشتته ريح بلهاء .

(يدخل علي مشتعل الملامح)

علي : (في هياج) واخيرا اظفر بك .

(يبدو عليوة مجهودا نهائيا. بيد انه يستسلم فجأة فانط الهيئة. مبعثر الملامح)

عليوة : (ملتفتا) طيب . والان عم تبحث ؟

علي (اصرار فحسب) أنت تعرف عم أبحث ..

عليوة : (مثقل الاجفان خائرا) أعرف .. لا اعرف شيئا سوى .. عينيك .. هابيل الاحمق .. هابيل الابله .

علي : (ملوحا بالخنجر) لا تتجاهل . الهاتف داو ومزلزل يا عليوة .

عليوة : هاتف الرب !

علي : ربما .. الرب الذي يتفتح في النفس توقا ووهجا وانبعاثا .

عليوة : (مقهقها) لقد تأخر الرب اذن . او لعله يعبث . (فجأة يحول باصريه الى الجماعة) ألا ترون .. ان جلالته مدين لنا بالكثير بعد نمرة التهريج الطويلة التي نلعبها لا نزال .

علي : (هاجما) أمنعك من نفث السموم . انت هالك .

عليوة : هالك ؟

علي : (يهز الخنجر) يا عليوة .. (فترة) كان خائبا لانه لم يعرف نفسه . ثم كان ضائعا لانه لم يجد بدايته .

عليوة : أبعد هذا الخنجر الوضيع .

علي : لماذا ؟ مهمته لم تنجز بعد .

عليوة : (قافزا) هابيل .

علي : بل انه البدء .

عليوة : لا بدء ..

علي : بعد تنقية النفس من ذبابها ، وبتهويتها من عفونتها يستيقظ القدر .

عليوة : (خائفا) سوية عاقرنا المستحيل المطبق كالهواء . سوية ذقناه .. سوية تعلمناه فلم التحامق ؟

علي : ووحيدا يا عليوة أبصرت موت المستحيل واندثاره . (صارخا) هنالك عهد مقطوع يا عليوة أم نسيت ؟

(تنفجر موسيقى كالعصف ، ويسقط ضوء باهر على مؤخرة اليسار حيث يحملق كل من علي وعليوة ...

نرى نفس البيت الصغير الذي شاهدناه سابقا ، والحديقة التي تجتاحها جموع متتالية من الاطفال والنساء وبعض الرجال .. والصرخات .. ونأمة الكلمات الجماعية

ـ الرحيل .. الرحيل .. المرأة تسبى ... الخ

وعلى الشرفة نشهد الرجل والمرأة ، والصبي الذي يتمسح فزعا بتلابيب امه ..

المرأة : سنبني اخر .. أتضرع اليك .

الرجل : لن نكون جديرين بالآخر ما لم نحم هذا ..

المرأة : سيبلعنا الزحام ونضيع ..

الرجل : لا .. اياك . الفلام ، لن تتشاغلي عنه . ستعلمينه ، وتوقظين في أوصاله رجولة يترقبها ظهري العاري (حماس ومرارة) سأظل آهش نبحاتهم حتى يعود ، وألف ويل لك ان لم يعد ..

المرأة : (ناحبة) يا رب .. في صوتك نغم فاجع .. نغم الفراق .. وزئير مدافن البهجة .. كلا .. كلا

الرجل : هراء .. وأوهام . تحركي . الفلام جذرنا وأملنا فهل نفرط به من اجل الهراء !!

صوت امرأة : (تستحثهم) يا حفيظ . ألا تسمعون الرصاص . اتركوا كل شيء .. والمهم النجاة ..

(تختفي الانوار ، ويغور المنظر في التلاشي ..)

عليوة : وماذا تثبت ؟ انني لا أفتأ أنسى هذه الفقرة من حديث ذلك اليوم ؟ صحيح انني انساها .. وكم هو طبيعي ان ينسى المرء ما لا يجد له معنى . ان ما حدث بعد المشاهد (لفظ مضحك) والمواقف البطولية مثلا لا يندثر من الذهن . ما ظلت الحياة تنبض في الذهن . ولربما تسعفنا في الاخرة قوة الذاكرة ، فنغدو مهرجي الملك المقربين .

علي : (ذاهلا بالذكرى والخيبة) اليقين سليم .. وينبغي ان تنتهي يا عليوة . فأنت الاسار والظلام .. انت الطحلب والعشب السام .

عليوة : (محاولا التصلب) حذار .. فانا أيضا العقل والمنطق .. ولولاي لما كنت الا طيشا نزقا ، وضجيجا بائرا (فترة) الواقع انك لست بعيدا عن هذه الحالة مذ ركبك حمق اقصائي ..

علي : الشق المعطوب من عقلي . أؤمن بالبتر . وليمنحني الله القوة (بعزم) آن للمتلبد ان تصحو دماؤه ، فتنشد في موكب المنبعثين من جلد الهرم .

عليوة : لو سمعك صديقي الذي يحلم الان بأرضه الطاهرة .. المغسولة من الماحكات والكذب والضياع ، لاضاف الشعر الى خطابتك . يا رجل .. هل عميت ؟ ألا تبصر قدامك صلابة السدود المانعة ؟

علي : السدود الاصلية في الداخل . اما سدودك ، فطين رخو سرعان ما يتهاوى اذا ما انزاحت الاولى .

عليوة : (بالحاح) أف .. صيد السحاب مرارة جدباء . انت تعلم أن الغيلان لم يصدها رجل بمفرده . لقد مزقت الغيلان الرجل بمفرده . داسته .. وعلى الاشلاء شادت حانة لتساقي انخاب الظفر ..

علي : هذا ما أقول .. دم فاسد تجلط ومات ، فانقلب فحمة خراب تسمم الدم ، وتحجز دفقه .

عليوة : ما أبرعك في التملص ! لكأن الحقيقة تسبب لك مغصا . (يمثل ساخرا) ليتصور المشردون عملاقا يمتطي الريح ، ويحمل سيف الأساطير . يقاتل الغيلان فيقتل الغيلان .. وتقوم الساعة . (يضحك ثم بجدية مفاجئة) أتأمل عون الاقرباء يا هذا ؟ أم تأييد الاسرة الانسانية الفاضلة ؟ ..

علي : (بعد قصير تأمل) ليس من يهتم بالرمم .. اما حين تندلع نيران الغدر متوهجة بحقد الاباء وعذابات الضحايا ، فاننا سنغتصب من الاقرباء واجبهم ، ومن الاسرة الانسانية مسؤوليتها . (غائب النظرة ، يؤججه الحماس) .. ولكن ، لا بد قبل ذلك من فصد الدم الفاسد .. الدم الميت المسود .. كل الذين ينسون او يحاولون .. كل الذين يرضون هزيمتهم خائنين الاصل والوعد .. بالراحة والتلاؤم .. (يرتفع صوته) عليوة .. هذا ما أخبرتني به البصيرة الطائفة بالبيت .. بالارض النادبة جذرها المخلوع .. لا بد من فصد الدم الفاسد ، الذي تنتنه شهوة التلاؤم مع الراهن ...

(يقترب شاهرا خنجره)

عليوة : (يتقافز فزعا) لا .. أي جنون ..

علي : شذى الخلاص يغغم انفي ..

عليوة : رجاء .. ان اللعب بالاسلحة خطير .

علي : لن ينال المرء شيئا ما لم يمتط متن الاخطار ..

عليوة : (متراجعا) طيب .. سوف احيا بهدوء . لن ازعجك البتة .

علي : (مهاجما) اريد ان ابدأ ..

عليوة : تستطيع ان تبدأ .. لن أفوه بعد اليوم بكلمة .. سأحيا في الظل منزويا عن عينيك .

علي : لا بدء قبل الفصد . انت خدر يا عليوة ، ولا يملك الخدر ان يكون شيئا اخر .

(يقترب اكثر ، جاحظة عيناه)

عليوة : آه .. ارحمني .. أحب ان احيا ، وارتشف متع العيش الهادىء المنسي . (بحرارة) احب ان أفر من تاريخي ، وأذوب في غمرة العالم بلا شكل ، وبلا ملامح . أنفرز في ارض وانسى .. أتواءم مع حياة وانسى .. لدينا الكثير (يغير لهجته) كانت لنا ايام .. وكانت لنا ام . أتذكر لما فاجأتنا ونحن نلتهم رغيفها الذي سرقناه من السلة . لقد غصصنا ، واختبطت حركاتنا فضحكت ملء شدقها وهي تعنفنا .. ثم ...

علي : (منفعلا) صه .. صه .. لا تحاول التأثير علي .. لن ابيع وعد الوجود بالشفقة . أتسمع النداءات القاهرة .. من بعيد .. من صلب الماضي الاصيل .. الماضي حيث يكمن تبريرنا ومبتغانا معا (بعنف) لا تراوغ .. ان قرارات التاريخ لا تستأنف .

(يداوره مقتربا)

عليوة : (يتراجع في منحنيات) قاتل متوحش خلت منه المشاعر . ليس في عينيك الا الحقد ، والكراهية المسمومة .

علي : (متوجعا) ابدا .. من يعرف نفسه لا يبغض بواطنها المعلولة ، لكنه يرفضها . وبالحب .. بقهر القلب والالفة يسلخها عنه . ومن هنا ستستمد الطلقة الاولى نبلها (ضعيفا) آه .. لا اكرهك يا عليوة . لا يمكنني ان اكرهك .. غير انني اريد ان ابرد نفسي .. ولن يكون ذلك ما دمت موجودا .

عليوة : دعني ..

علي : لا استطيع .

عليوة : (مستغلا تراخي الاخر حتى النهاية) سأحيا .. سأحيا .

علي : لا استطيع .

عليوة : (يرامقه طويلا ، ثم بعمق ايحائي ذكي) وانت لن تستطيع ايضا ان تفعل ..

علي : آ .. ؟

عليوة : سترتعش يدك .. وتتراخى اصابعك . وسيسقط الخنجر هكذا .. بهدوء وتثاقل كجثة الندم .

علي : اصمت ..

عليوة : الوجه يفضح رغم بجاحة العينين وخز الزنابير الخافية .



لا شيء ثابت ، وفي السكون تدوم الحيرة . للقتل آلهة لا يتسرب الانسان على حبها ببساطة ..

علي : لا .. لا ..

عليوة : وينجلي الوهم . ان الاعصاب ثقيلة لا تطاوع ، والكتف منحل . وفي الساقين يسري خور انساني رائع . ويسقط الخنجر .. يسقط كالافعى لو تسممت بالتفاحة .

(يتراجع علي خائفا)

عليوة : (مواصلا بحرارة) ويأبى الوهم انهزامه ، فيصفر في الاعصاب لتحاول . تتوتر الاوصال ثانية . وقد يفلح المرء ليسقط في مصيدة الندم . القريص يلحس الباطن .. أشد الاغشية حساسية . القريص يلتف على الشغاف . تندفع البثور ، وتمتد اليد لتهرش ، فلا تبلغ شيئا . شفان للجحيم . والافضل ان يهدأ .. ويتواجد في الفة جديدة مع المكان الجديد .. ان يستنفد اللذات ، ويرتشف العذوبات الصغيرة التي يكتظ بها العالم . حسوة الخمر الجيد .. اللذة تفعم وحشة الليل .. اللحن الهادىء .. الغفوة الهانئة .. آه .. ما اكثر ما تحفل دنيانا بالمذاقات الماتعة .

(ينحدر علي ، وتسود برهة صمت ممطوطة ، يتفرس فيهما كل منهما بالاخر)

عليوة : هراء ان يبعثر المرء كل شيء من اجل السراب وخديعة الو...

(ينفجر صدى عميق يطمس قول عليوة :

وتوقظين في أوصاله رجولة يترقبها ظهري العاري . ساظل أهش نبحاتهم حتى يعود . والف ويل لك)

علي : (مستعيدا نفسه كالنهر يجتاح جليده) كدت تخدعني يا عليوة . كدت تنتزع الصواب من رأسي . (يهجم) الف ويل لي ان اتراجع (يمسك عليوة المشدوه ، ويطعنه في كتفه)

عليوة : آخ .. قاتل .. قاتل (1)

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد)

علي : اولى المعارك اقساها (يطعنه)

عليوة : (محاولا الهرب والذود عن نفسه) آخ .. بحق الارض والرحم .. اخ ..

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد)

علي : وتنزف النفس فاسد دمها .. (يطعنه)

عليوة : (متهاويا) قتلتني .. قتلتني ..

علي : تموت ليحيا أمل .

(تجتر الجماعة حركة هز الرؤوس المتتابعة الموحية باقسى انواع الخواء المتبلد)

عليوة : (يسقط على الارض ، متخبطا بدمه) السماء حمراء (بخفوت) لماذا يا علي ؟ أحن للارض . كنت أحن للارض .. لكن (متحشرجا) الذكي يموت بذكا ..

علي : (بعد صمت ذاهل ، يفيض المسرح فيه بالموسيقى الجنائزية يهوي على الجسد) أحبك ، وأرفضك . لكي نلبي نداء الارض المليء لا مفر من أشق التضحيات يا عليوة ...

(سكون طويل مبلل بالموسيقى ، وباجترار حركة هز الرؤوس)

علي : (ينهض نافضا رأسه ، ويتطلع الى الجماعة بحدة ثم يردد حازم الصوت) يبقى صمتكم .. يبقى صمتكم .

(ويسدل الستار)

سعد الله ونوس

---

(1) كل شيء مختلط .. الحوار والحركات .



الرّياح تخنق الجليد

« خمسة عشر عاما وهو يبحث عن طريق العودة !!
وحين اراد ان يكتب الى خطيبته شيئا ...
صمت لحظات ، ثم ابتسم بحرقة .. »

.. وأبحرت سفائن المشردين في الضباب
مضت تجوس في الضباب
حبيبتي ..
مضيتُ ..
أحمل الصليب ..
راعشا .. بدون دم
أكاد من أسى أموتْ
ومثلما يمد نفسه الى عنكبوت
مضت تمد نفسها وراء زورقي البحار
ولم أعد أرى سوى هديرها .
وكالحلم ...
أفقت ها هنا .. على رمال هذه الجزيرة الخراب
تخفي زورقي صخور هذه الجزيرة الخراب

*

هنا اجوع .. ما أزال
وأنت ..
جوعك العميق ما يزال
هناك .. حيث تحبس الهواء بومْ
وكالشموع تطفيء الغيوم
عيونها كريهة .. تسح جمرْ
وخطوها على الربى ..
يلصُّ .. يجهض الكروم
تشجعي .. تشجعي

*

حبيبتي
ســأنتظر
ودونمـا ضجـر
سأحمل الصليب فوق هامتي ..
سأنتظر

فرغم انني هنا .. ركام طينْ
أشد زورقي بكل صخرة كريهة العيون
تمد رأسها بدربي الحزين
فسوف يغسل المطر
طريقي الحزين
ولن أظل ها هنا .. ركام طين

*

هنا .. سيهطل المطر
دما .. على محاجري الصفارْ
يفك جرحها الى القرار
فصفقي سأحصد الدوار
فغربتي انتصار

*

حبيبتي ..
أكاد أسمع الرياح من بعيدْ
ترش في طريقي الحزين مطلع النشيدْ
وتخنق الجليد في مزارع الجليد
ومن هنا ..
أرى غمائم الدخان تزرع السماء
فصفقي ..
غمائم الدخان تزرع السماء

*

فيا حبيبتي .. حبيبة الرياح والمطر
تشجَّعي ..
تشجَّعي ..

تكريت ـ لواء بغداد

ابراهيم الزبيدي



نظرات في ديوان :

«المشرّد» لأبي سلمى

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

يقولون ان كل شيء يبدأ صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فهي تبدأ كبيره ثم تصغر على مرور الزمن . وهذا يصح على المصيبة بالمال وعلى فقد الاحباب وعلى فواجع الموت.. ولكن ما هو الامر في النكبة بالوطن وبالشرف وبالمثل العليا ؟ ان الفاجعة بموت قريب او حبيب هي فاجعة ناجمة عن الدهشة لحدوث شيء مفاجيء على الرغم من كونه طبيعيا ومحتوما . والدهشة تزول بالالفة ثم بالنسيان. ولكن فقد الوطن ليس امرا طبيعيا ولا محتوما، بل العكس هو الصحيح . ثم ان الوطن ليس لانسان واحد او لجيل واحد فتزول الفاجعة بزوال هذا الانسان او زوال ذلك الجيل . انه ميراث الاجداد للاباء يجب ان يسلمه الاولاد للاحفاد . لذا فان المصيبة بالوطن ، ومثلها المصيبة بالشرف وبالمثل ، لا يمكنها ان تصغر على الايام ، بل انها لتعظم وتتفاقم مع مرور الزمن . وهكذا نكبة العرب بفلسطين ، انها مصيبة امة بوطنها وبشرفها وبمثلها ، وكل يوم يمر دون ان تتضح فيه معالم الطريق لاستعادة هذا الوطن ، وللثأر للشرف ، ولعودة الايمان بالمثل ، هو يوم محرك لفجيعة النكبة ، مؤرث لنارها في القلوب والاعصاب .

ولكن أين نجد الاحساس بعظم النكبة وتزايدها وتفاقم خطرها بمرور الايام ؟ ان الحكام هم ، على اكثر التقديرات براءة ، مشغولون بالتناحر فيما بينهم ، وفي القضاء على المشاكل في بلادهم ، وفي البحث عن مستقبل أفضل لشعوبهم . والجماهير العربية ، المنكوبة حقا برقعة من وطنها وبشرفها وبمثلها العليا ، قد اشغلتها المعارك الجانبية ، وألهتها الشعارات المستحدثة بعد النكبة ، عن ادراك ما يجب ان تدركه من النكبة . وأهل فلسطين ، أهل فلسطين بين لاجيء ومشرد ، ألهتهم الرياح الصرصر في الخيام ، والبحث عن اللقمة في المهاجر ، عن ان يرفعوا رؤوسهم ليروا أين اصبحوا من وطنهم الذي قيل لهم في ذات يوم ان ليس بينهم وبينه الا ايام او أسابيع . انهم في انشغالهم بمشاكلهم الحياتية، كانسان في وسط غابة ، ليس يرى منها الا اشجارها القريبة ، بينما تغيب عنه أو تهون في اعتباره سعتها وأخطارها . لذا فان احساسهم بالنكبة قد خف توتره الى ان تضاءل . أذن فما دام هذا حال الحكام والجماهير وابناء الجزء المغتصب من الوطن ، فأين نجد الاحساس بعظم المصيبة وتزايدها وتفاقم خطرها بمرور الايام ؟

هل نقول انه لحسن الحظ انه ما زالت في الامة فئة تحمل صليب العذاب ، وتحترق بنار الاحساس ، وتنادي بعظم المهانة ، وتذكر بكل ما ضاع وتهيب بالعودة وتدعو الى الثأر ، ام نقول ان ذاك لسوء الحظ لانه لم يبق من الامة من يشعر بذلك ويفعله الا تلك الفئة وحدها . ان الفئة التي اعنيها بقولي هي فئة الشعراء ، فهم وحدهم الذين بقوا يحملون الاحساس المتزايد بالنكبة ، وبثقلها وبعارها ، والذين بقوا يعبرون عن هذا الاحساس بصرخات متعالية كأنهم الهامة التي تقول أساطير العرب عنها انها تظل تحوم على قبر القتيل تصيح وتعول حتى يثأر اهله له . وطبيعي ان ليس كل الشعراء يحسون هذا الاحساس بالنكبة ويحملون رايتها ، ولكن الذين بقوا يحسون ويترجمون احساسهم الى كلام مؤثر ومثير هم من الشعراء . واقول هذا بعد ان فرغت من قراءة الطبعة الجديدة التي اصدرها الشاعر العربي ، الشاعر الفلسطيني ابو سلمى ، لديوانه « المشرد » . فان قراءة هذا الديوان تضعنا ، بتوتر الاحاسيس والتهاب العاطفة وقوة الشاعرية ، وبعد خمسة عشر عاما من ضياع فلسطين ، امام النكبة وامام عارنا بها وامام مسؤولياتنا فيها ، عزلاء مجردين من بهارج الرياء والنفاق الباطلة . وفي قصائد هذا الديوان المتتالية ، وفي تتابعها بمرور السنين ، نجد مصداق ما قلته آنفا من ان المصيبة بالوطن والشرف والمثل العليا ليست مثل كل المصائب ، لتصغر بمضي الايام . فان احساس شاعر « المشرد » بمصيبة شعبه ومصيبة امته لم يزدد مع الايام الا حدة وتوترا ، ونفسه لم تزدد الا نقمة وثورة . لا مرور السنين ولا اطمئنان العيش . ولا ما ملأ الدنيا وشغل الناس من شعارات مغرية وبطولات مروية ودنى مستحدثة ، ألهت الشاعر عن وطنه الذي فقد . فكلما برز زعيم ، وكلما ارتفع شعار ، بل وكلما هبت نسمة عليلة او خطرت حسناء جميلة ، ضرب على صدره وصاح ، وطني ، أين ذهبتم بوطني ، متى يعود لي وطني ؟..

يبدأ ابو سلمى ديوانه بالقصيدة التي يحمل الديوان اسمها ، قصيدة « المشرد » ، تتالى بعدها قصائد تنطق عناوينها بالنار التي تلتهب في ابياتها : التراب الخضيب، النازحون ، الشعب ، نور ونار ، نسور الديار ، الدماء تصيح ، بقايا اهلي ، أحبة يتساقطون ، النهر الباكي ... وبين هذه القصائد الملتهبة التي تفيض بالحنين او بالنقمة

او بالثورة ، تنتشر قصائد رقيقة تحمل عناوينها ري العاطفة وارج الهوى : **الافق المعطر** ، شعاع ، الثوب الازرق ، حلم الشاعر ، **الغمازة** ، عينان **امويتان** . ولكن حتى هذه القصائد العطرة والغزلية لا تستطيع ان تبتعد كثيرا عن شغل الشاعر الدائم ، عن وطنه والنكبة بوطنه . ففي قصيدة « الثوب الازرق » تسمعه يبدأ قائلا :

تسألني .. لم استحى الزنبق
كأنها لم تدر من يعشق

مرت فلا الورد خلي ولا
بلبله او غصنه المورق

ويستمر هكذا ليختم القصيدة بقوله :

يا من غفا النجم على صدرها
وطل • وهو حالم ، يحقق

أمن سماء الحب ام موطني
بالله قولي • نوبك الازرق

وفي « الافق المعطر » تراه ينسج الغزل بحبيبته من نفحات المسك والعنبر ، ومن موكب الياسمين ونغم البلبل ، ثم لا يلبث حتى يتسلل موطنه الى الغزل بالحبيبة فتراه يسالها :

جارتي .. لم أغار من قبل الصبح ومن خفقة الشعاع المحير
هل سرقت الفنون من قسمات القدس او فجرها الحبيب الاشعر
لست ادري ، هل جملتك بلادي ام تمثلت انت في كل منظر

وتنتهي نجوى الفؤاد بهذه الصيحة التي تبدو لنا ما أبعدها عن الهوى والغزل :

وطني ، يا ضحية الظلم مالي لا الافي غير الجبين المعفر
ايها الظالمون ، ماذا جنى الشعب لتجنوا ؟ هل الضمير تحجر ؟
نوره الشعب ، طهري كل ارض واحطمي كل من طغى وتجبر !

وليس مستغربا بعد هذا ان تكون قصيدته « ابنة بلادي » وهي القصيدة المشهورة التي مطلعها :

اين الشذا والحلم المزهر اهكذا حبك يا اسمر

ليس مستغربا أن ترى الشاعر في قصيدته هذه يغني بلاده في غنائه ابنة بلاده . فهو يقول :

أهواك في أغنية حرة يخفق فيها الناي والمزهر
في طله الفجر على المنحني يهفو اليه الكرم والبيدر
وفي .. وفي .. الى ان يقول :
في موكب النصر وفي راية على ذرى تاريخنا تخطر
وفي اماني امتي تنتشي فيها المروءات وتستكبر
أهواك في شعبي وفي موطني فانت لا احلى ولا انضر ..

ان هذه الظاهرة من القوة والوضوح في قصائد « المشرد » بصورة لا يعدم فيها الشاعر من يظنه طبعة جديدة من شعرائنا التقليديين الاوائل ، الذين كانوا يبتدئون قصائدهم بالنسيب متغزلين لينتهوا فيها الى ذكر خصال ممدوحهم من شجاعة وكرم ، والى ذكر حاجتهم اليه واستمناحهم اياه . في هذا الاعتبار يكون قول ابي سلمى في قصيدته « اطياف » :

أطل الفجر من عينيك ما أروعها طله
أرى فيها خيال اللد والكرمل والرمله
وموج الشاطىء الغربي في عكا أرى ظله
ارى في افقها وطني فأطبعه على قبله
لقد حملت لي العينان ما لم استطع حمله
...

على شفتيك يا سمراء اخبار واسرار
ونيف ... ونحن في العالم يا سمراء اشعار
عليها من لظى التشريد والادمع آثار
وقد كانت لنا دنيا وكان المجد والغار
ونحن اليوم لا وطن ، ولا اهل ، ولا دار ..

أقول انه في هذا الاعتبار تكون هذه الابيات « حسن تخلص » ، كقول ابي نواس في جارة بيتيه التي ابوها غيور :

دعيني اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيها الخصيب امير

او قول المتنبي :

نودعهم والبين فينا كأنه قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق

الا ان قارىء ديوان ابي سلمى لا يحتاج الى كثير فطنة ليدرك ان الشاعر ليس شاعر مناسبات البتة ، وليدرك فوق ذلك ان العاطفة هي المهيج الرئيسي لكل عطائه الشعري ، وان الغنائية هي الطابع الاول والمهيمن على كل ما ينظمه . فالغناء العاطفي هو الموهبة الاولى في شاعرية ابي سلمى . ولولا ان النكبة ، وما سبقها من ثورات وفورات عاصرت سن العطاء عنده ، وما تلاها من فواجع ومحن متلاحقة ، لولا ان كل هذه وتلك ملأت جو الشاعر فخنقت فيه تغريد البلابل وهينمة النسائم وضحكات الحسان لما كان ابو سلمى غير شاعر الوردة العطرة والنظرة الساحرة والشفة الريا . ولكن القدر رسم خطا فلم يستطع الشاعر ان يخرج عنه . واذا جاز لنا ان نجري على لسان ابي سلمى مقالة احد الاوائل لما وجدنا خيرا من قول ذاك ، واحسن انه جرير ، حين عجب بعضهم من حسن نسيبه فقال : اما والله لو تركني هؤلاء الكلاب لشببت لهم تشبيبا تحن به العجوز الى ايام صباها ...

الى هذا الذي قلت آنفا ، الى الغنائية التي هي موهبة ابي سلمى الاصيلة ، ترد اصالة نتاج ابي سلمى الشعري بين ما قيل من شعر وطني والشعر الذي قيل في النكبة بصورة خاصة . فالجمال الفني في قصائد « المشرد » ليس مستمدا من روحها الخطابية ، كما في اكثر شعرنا الوطني ، وان انتزعت ابيات هذه القصائد التصفيق حارا من المستمعين اليها في المهرجانات وحفلات الذكرى . كما ان تلك القصائد ليست روائع ملحمية ، وان حفلت باللفظ الجزل ورواها صاحبها بصوته الجهوري والقائه الفخم . انها في الحقيقة قصائد غنائية ، تتغنى بهوى حبيب اسمه الوطن الضائع ، وتحن الى ذلك الحبيب ، وتبكي بعاده ، الذي يؤرث في النفس ذكريات المهانة والعار لان وغدا حقيرا قد اختطفه وحال دون لقائه بالنار والرصاص . وصدق العاطفة في هذا الشعر الغنائي هو الذي يثير في نفس القارىء ، وفي نفوس كل قرائه وسامعيه ، الحنين الجياش ، ثم النقمة المحنقة ، ثم الثورة العارمة ، متجاوبة في ذلك مع الشاعر الصادق في احساسه ، الرائع في غنائه ، المبدع في ادائه . هكذا نجد الحب والاحباب ، والقبل والاشواق ، هي مطالع قصائد الثورة في « المشرد » . اليك مثلا مطالع هذه القصائد :

في « بقايا اهلي » :

قبل الترب لا تقل انا حالم هذه غزة العلى والمكارم

وفي « التراب الخضيب » :

من يحيي عنا التراب الخضيبا ويناجي بعد الفراق الحبيبا

وفي « داري » :

هل تسألين النجم عن داري وابن احبابي وسماري
وفي « ارض الجهاد » :

درج المجد على ارض الجهاد فالثم الترب وقل هذي بلادي

من الحب اذن ينطلق الشاعر فيضرم النار في القلوب ، مستمدة من نار قلبه . والحق ان كلماته لتنطق بما يعتمل في نفسه من أسى وحسرة على وطنه الذي لا يراه الا من خلال الدموع ، كأن صورته تتباعد او تذوب :

كلما قلت أطل الفجر غابا اترى تغدو فلسطين سرابا
واذا الدمع روى عنها الهوى وجلا صورتها ذابت وذابا
واذا ما الدمع روى ارضها حالت الارض به قفرا يبابا
وعلى الدرب اذا لاحت مني داميات ترتجي منها الايابا
مسح الاهل رسومات الخطى لم نجد خلف المنى الا ترابا ..

ومن أسى وحسرة على اهله المشردين تحت الخيام الممزقة ، يسأل عنهم قومهم الذين اسلموهم الى الذل والتشريد :

ايها العرب اين شعب فلسطين خيام سود وعري وجوع
ودماء مطلولة وجباه عفرتها مذلة وخنوع
اننا لاجئون في كل قطر وبقايا الشعب الشريد قطيع
ليتنا لم نفارق الدار حتى تتلاقى اصولنا والفروع
وترامت اشلاؤنا داميات وحلا للاحبة التقطيع
كل شلو على ثرى عربي أجنبي ينز منه النجيع
والسؤال الحاني على شفتيه يا فلسطين هل اليك رجوع!

ومن نقمة على حكام تاجروا بمأساة قومه وبنكبة بلاده وغرروا بالامة العربية جمعاء في سياق تغريرهم بشعب فلسطين . وحين يضطرم احساس الشاعر ، بعد الحنين والحب ، بالاسى والنقمة ، تجده يصل في النهاية الى ان يتلبس صوت القدر ، منذرا ومتوعدا ، كأنه بذلك يحيي ذكرى الكهان المتنبئين ، او الشعراء العرافين ، حين يستنبطون من سحب الحاضر نذر المستقبل . ففي قصيدة « رجاء » اسمعه يقول :

ونحن من نحن ؟ ألم تعرفوا نحن الضحايا، نحن اهل الفداء
وانتم احبابنا جهرة وانتم اعداؤنا في الخفاء
يا ظالمي اهلي .. ألم تسمعوا ما نحن انعاما ولا نحن شاء
من عالم الغيب يدوي النداء أنا الفلسطيني سيف القضاء

وهل نملك نحن غير ان نقول ان هذا الشاعر ، الناطق بضمير امته ، المغني آلامها وفواجعها ، الذي يبني نبوءاته لا على الدراسات والمقارنات بل على الحدس والشعور ، صادق ؟ لقد كانت محنة فلسطين واهلها سيف القضاء في التاريخ العربي المعاصر . بها دكت عروش وزالت دول ، وستبقى كذلك . ستبقى نكبة فلسطين تجربة ومحكا ومقياسا ليقظة الأمة العربية ، ولادراك الجماهير ، ولصدق الحكام وصواب السياسات . وحين يولد الجيل الصادق ، الجيل المتطهر ، بعد الطوفان المقبل ، فسيذكر ان الشعراء وحدهم ، بعض الشعراء وشاعر « المشرد » في مقدمتهم ، هم الذين بقوا في الساحة يذكرون بالمصيبة الكبرى التي لم تصغر على مرور الزمن ، مثل سائر المصائب ، بل ظلت في وجدانهم وعلى السنتهم حية ، ذكية الاوار ، مضطرمة اللهيب .

الرقة **عبد السلام العجيلي**

المشرّد الشريد

.. وعندما يشرّد المشرد
ويطرق الارجاء باحثا ،
مفتشا عن دربه للنور من جديد
.. وعندما تمزق الآذان شهقة القيود
ويلتقي على تشريده ، وبعد ان تشرّدا
النار ، والتعذيب ، والحديد
.. وعندما ، وعندما ..
تعربد الرمضاء في بيوت القار، تحرق الشريان والوريد
تمزق الاعصاب ، تذهل الوجود
وتتلف الحياة في الزنود
تحملق الامال نحو الافق في ذهول
وحولها براعم الوفاء
ينتابها الذبول
يموت في الشفاه ألف خاطر جريح
يفر من قساوة الحياة ، يستريح
فالحرف بات ينطفي ، وقبل ان يلامس الشفاه
مبتلعا شروده ، ولاعقا بالصمت مبتغاه
يغيب في وادي الجماجم المحلولك الرهيب
في ألف خاطر ممزق غريب

***

.. وعندما يشرد المشرد
وتلعق الخواطر السوداء هدبه
تمتص حلمه الجميل ، تطوي في ثنايا الليل قلبه
وتقطع الجذور في الانسان ، تنسي الركب دربه
وتنقضي الساعات في انتظار ان يجيء ذئب الليل
ان تبرز الانياب في الوجود
ان يحضر الزلزال بالقيود
ان ينثني الشراع خاضعا ، مستسلما للسيل
تثور في وجه الدجى المربد صخرة خضراء كالربيع
حسب الشريد ما رأى ،
دعوه يعبر الطريق للرجوع
فلم تزل في دربه بقية ،
بقية خضراء من نجيع .

جامعة القاهرة **عبد الرحمن غنيم**

عودة التائه

الراوي والليل داج حالك الجنبات يغشاه القتام
والكائنات غوارق في لج بحر من ظلام
سار الشريد يدب كالمكلوم ناشته السهام
ويسائل الدرب الطويل عن الطريق الى المرام

★★★

الشريد يا طريق البؤس والآلام حتّام المسير
والرياح الهوج من حولي ولا ادري المصير
وذئاب الغدر لا ترحم ... والجو مطير
يا طريقي ؟ هل ضياء يكشف الدرب منير
انني اخشى على الآمال من يأس مرير
فالام السير ؟ خبرني ... اذا كنت البشير

★★★

الطريق سر ولا تيأس فلا بد ستأتي لمرادك
واسأل الدوح ففيه بعض عطر من بلادك
فهو يدري همسات الريح عن نفح نجادك
وعن السوسن في المرج نديا في وهادك
وعن الزنبق قرب الشط يبكي لبعادك
سل ! عسى تحظى لدى سؤلك هذا برشادك

★★★

الراوي ومشى النازح في عزم على تلك الطريق
لم يخفه الليل مسودا وان عز الصديق
سار في عزمه اعصار عتي او حريق
بفؤاد لامع الوقده ... للبؤس رفيق

★★★

الشريد ايه يا دوحه يا أم الظلال الوارفات !
يا سخاء وزهورا وثمارا يانعات !
يا ملاذا لشريد قد كوته الهاجرات !
أين دربي لبساتين بأرضي ناضرات ؟
أترى تدرين يا دوحه مسرى العاطرات ؟
أولم تخبرك أنسام رقاق عابرات ؟

★★★

الدوحه أنا لم أبرح مكان الغرس من يوم وجودي
لي جذور لحياتي وهي في الحق قيودي
فاسأل الريح التي تعبر من تلك الحدود
علها تدري الذي يجري على تلك النجود
علها تعرف دربا لك تسعى بالبنود
لبلاد الحب والمجد وجبات الكيود

★★★

الراوي ومضى النازح للريح ؟ ومن بعد السلام
سأل الريح التي تعبر عن ارض الكرام
عن مروج الزنبق الوسنان غشّاه الحمام
ورياض عرف المولد فيها ... والفطام

★★★

الشريد أيها الريح التي هبّت على الآجام سحرا
وانتشت من خمرة الازهار انداء وعطرا

وسرت روحا أبيا بين هذا الروض حرا
خبريني ، انني لا استطيع اليوم صبرا
بل خذيني بجناحين من الاشواق فجرا
في انبثاق النور : لن أقبل ان ارجع سرا

***

الريح ليتني أقدر ! لكن كيف ؟ والدرب طويل !
وفؤادي من تباريح الهوى صب عليل
لكن اصبر أيها النازح فالصبر جميل
ثم سر للمنحنى واسأله عن روض ظليل
جئته ليلا فأحسست شذاه في الخميل
لم أقم فيه ولم أرو من الشوق الغليل

***

الراوي ومضى النازح في عزم لذاك المنحنى
مزقت أقدامه الاشواك والظهر انحنى
ورأى فيما رواه الريح نورا وسنا
وشعاعا يرسل الاضواء في درب المنى

***

الشريد أيهذا المنحنى الصاعد في رأس النجاد
يا طريق المجد والعلياء يا درب الرشاد
انني قد جئت بالآمال من تلك الوهاد
وصعدت السفح لم احفل بشوك او قتاد
أترى تعرف أين الدرب ؟ دربي للبلاد ؟
لمغاني الحب في أرض تفدى بالفؤاد

***

المنحنى أيها الصاعد سر في عزمة نحو الجبل
انه يشرف فوق الكون من تلك القلل
انها القمة يغشاها على الدهر البطل
مقدما في زحفة لا خوف فيها او وجل
مؤمنا بالعزم والاقدام دربا والعمل
فاذا ما جئتها لاقيت نورا من امل

***

الراوي ومضى النازح في وثب الى ذاك اليفاع
ضاربا في الصخر مقداما بقلب لا يراع
ناظرا للقمة الشماء يكسوها الشعاع
أملا ان يجتلي الدرب على تلك البقاع

***

الشريد أيها الشامخ والراسخ ؟ يا رمز الشمم
يا منارا من سناء ومثارا للهمم
يجتلي البطحاء مختالا عزيزا . يا علم
أترى تعرف دربي اليوم ، هاتيك القمم
قد صعدت السفح رغم الصخر والاشواك فيه والظلم
علني أبصر دربا لبلادي عن أمم

***

الجبل يا ابن اصراري وعزمي يا ابن ارضي الراسيات
انت منها قطعة تسعى ... تشق النائبات
فاسأل الانجم عن أرضك فجر النيرات
عن حقول زاهرات ورياض ناضرات
فهي تبقى بعد نوم الناس دوما ساهرات
لتشع النور في تلك القلوب الصابرات

***

الشريد ايها النجم الذي قد رافق الليل سهادي
هل طريق واضح اجتازه نحو بلادي
هل سبيل للمنى الخضراء يلقاها فؤادي
انني اسعى وقد طال عن الارض بعادي
والربى في موطن الاحرار تدعو وتنادي
فهي في همس العبير الحلو او نوح الشوادي

***

الراوي وأضاءت في فؤاد الحر ومضات النجوم
وانمحى عن افق النفس ظلام وغيوم
رغم ذاك الافق المسود بالليل البهيم
فاهتدت روح الشريد الحر بالفجر العظيم

***

الشريد انا لن اسأل بعد اليوم شيئا غير نفسي
وسيلقاني غدي الزاهي وقد أطلعت شمسي
وسأبني أملي الباسم من أنقاض يأسي
فاطلعي يا شمس او يطلعك في الهيجاء بأسي
أنا لن احفل بالاشواك في درب التأسي
وسأمضي يا بلادي يعربي العزم قدسي

***

الراوي ومضى العائد اذ لاح على البعد الوطن
قلبه يهديه في الدرب على لحن الشجن
والمنايا فاغرات الفم يزجيها الزمن
مؤمنا بالعودة الكبرى على رغم الفتن

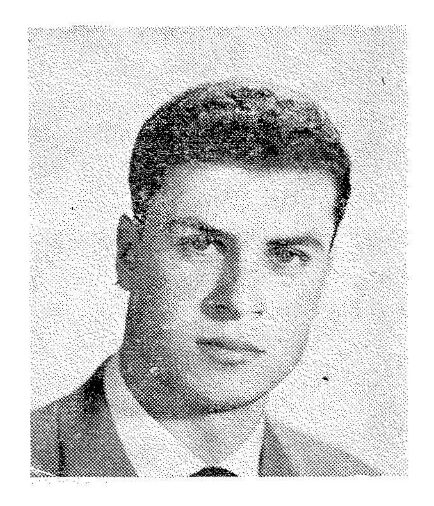
***

ورآه الدرب والدوح وذاك المنحنى
ورأته الريح والشم وقد شق الضنا
فتنادت : شع للتائه يا قوم على الدرب السنا
وهو لا شك وبالعزم سيحظى بالمنى

***

المجموعة افرحي يا أرض قد جاءك رهط الصابرين
ليس بين الزحف من بالنفس في الهيجا ضنين
لم يزعزعهم دعاء اليأس أو مر السنين
قد أتوا والقلب في الاحناء نور وحنين
وهتاف بالمنى الزهراء بين الثائرين
افرحي يا ارض قد جاءت زحوف العائدين

غزه — **علي هاشم رشيد**



لا تدفنوا الموتى

مأساة في فصل واحد

بقلم نديم خشفه

« كانت اعواما طمى فيها كدر ضمائرنا حتى اغرق كل شيء ... والويل لامتنا اذا كان لاعوامها الحزينة من معاد .. » .

الاشخاص

١ – المختار
٢ – المعلم
٣ – محمود . حلاق
٤ – سليم . طحان
٥ – ابو صالح . مزارع
٦ – صالح . ابنه
٧ – عباس . ناطور
٨ – ولد (١) ولد (٢) ابنا المختار
٩ – المجاهدون (١) و (٢) و (٣) وآخرون .

✶ تجري حوادث المسرحية في احدى قرى فلسطين سنة ١٩٣٧ .

(المشهد الاول)
المنظر ١

« غرفة واسعة ، دهنت حيطانها بالكلس . الارائك تحيط بها من جهاتها الثلاث . في صدرها كوة مدورة كأنها لسفينة بحرية . ركوة القهوة المرة ، والموقد الملتهب ، ورائحة البن والهال ، كل ذلك يوحي لنا بجو المضافة في بلاد الشام . علقت على الجدران اسلحة : بنادق، سيوف ، حقائب ، ذخيرة .. وصور لرجال مسلحين شواربهم مفتولة ، يحملقون بنظرات امتزجت الدهشة فيها بالوعيد . وفي الركن الايسر منضدة واطئة عليها بعض الكتب الصفر التي اتسخت صفحاتها ، وانتفخت من كثرة التقليب .. ولدان بين الثامنة والعاشرة يعبثان بالكتب ويقلبان صفحاتها .. » .

الولد ١ – قرب .. شفت في كتابي صورة ثانية ..

الولد ٢ – وأنا شفت صورة كمان ..

الولد ١ – لا . صورتي أحسن .. هذا ابو زيد راكب المهرة ، وبيده سيف ونبود ..

الولد ٢ – سيف ونبود بيد واحدة ؟

الولد ١ – معلوم .. لانه ماسك الرسن باليد الثانية .

الولد ٢ – ها .. ابو زيد بحياته ما مسك الرسن .. مهرته مالها رسن.. (يقترب وينظر في الكتاب) هيء .. هيء .. ما أبهمك.. هذا ما هو ابو زيد ..

الولد ١ – بدك تعرفني فيه .. هذا أبو زيد .. شايف شواربه؟

الولد ٢ – هذا عنتر .. شايف لونه .. عنتر الاسود ..

الولد ١ – هذا ما هو عنتر .. لازم يكون عنتر لونه ابيض .. لان الابيض دايما يغلب الاسود .. مرة تقاتل كلبنا الابيض مع كلب عباس الناطور وغلبه ..

الولد ٢ – كلب عباس ما هو أسود ..

الولد ١ – لا .. اسود .. (يترك الموضوع) انا مرة مشيت في العتمة وما خفت .. تخاف انت من الليل ؟

الولد ٢ – العتمة لا تخوف .. لكن ما سمعت اليهود .. قال انهم يخطفون الاولاد الصغار في الليل ..

الولد ١ – اليهود .. ليش ما يخطفونهم في النهار ؟..

الولد ٢ – في الليل الدنيا ساكتة ، وما فيها قمر ، يخنقون الكلاب ، ويقفون في زوايا الطريق ، وعيونهم تلمع ، واذا مر ولد مدوا أصابعهم وجروه من ذيل قميصه ، وسكروا فمه بطابة خيطان ..

الولد ١ – (بهمس) ويخنقوه ؟..

الولد ٢ – (بصوت مبحوح) .. يأخذوه معهم للمستعمرة ، وينوموه في سرير كله شوك من حديد .. يهزوه حتى يصفى دمه .. ويشربوه ..

(صمت .. الشرار يتطاير من الموقد ، ونباح كلب من بعيد .. يحدق أحدهما بالاخر ولا يرى صاحبه فهو يرسم صورة اليهودي في خياله ..) ..

الولد ١ – أنت شفت المستعمرة ؟..

الولد ٢ – اسمع .. (بتوجس) انا سمعت اصوات .. (ينهض ويتناول من الجدار بندقية وسيفين ، يمسك البندقية بيده اليسرى ، والسيفين باليد اليمنى ويعبس ..) .. هم اليهود .. خذ سيفين بسرعة ..

الولد ١ – لا .. المرة الماضية ضربني أبي لاني لعبت بالسيف.. سيضربك ابوك .. اتركه من يدك .. (يبرر الموقف الحماسي)

الولد ٢ – قلت لك يهود .. ألا أشبه ابو زيد .. هات المخدة من جنبك (يركبها) ..

الولد ١ – هه .. هه .. ابو زيد .. مالك شوارب .. ابو زيد من غير شوارب ؟..

الولد ٢ – (يفتق المخدة ويخرج منها قطعة صوف سوداء يجعلها تحت انفه) هكذا ابو زيد .. أين اليهود .. تعالوا كلكم ..

(اصوات من خارج الغرفة .. سعال ، حديث بصوت مرتفع ، ضحكات خشنة ..) ..

الولد ١ – جاء ابوك .. والله سيضربك ..

(تسقط شواربه ، يحاول أن يعيد الاشيا الى مكانها فيزيده الارتباك فوضى .. يدخل المختار) ..

المختار – تفضلوا يا جماعة .. (يرى البنادق والسيوف على الارض) ارفعها من الارض .. كم مرة قلت لك : لا تلعب فيها ..

تفضلوا يا جماعة .. (يقترب من الموقد .. يفحص القهوة ، ويعيدها الى مكانها وينهض .. يدخل معلم المدرسة .. ومحمود الحلاق)

المعلم ـ السلام عليكم .. تفضل يا محمود .. هذه القهوة حاضرة ..

محمود ـ ما شاء الله .. اولادك ابطال يا مختار .. طالعين للوالد .. قال : فرخ البط عوام ..

المعلم ـ اجلس قبل ان ينتفوا ريشك .. (للاولاد) .. كيف الحال يا شاطرين ؟

الولد ١ ـ عنتر لونه ابيض ولا اسود ؟..

المعلم ـ (يشير الى نظارته) والله بحياتي ما رأيته .. لكن أظنه أسود ، لان البلاء لا يكون الا اسود ..

محمود ـ (يجلس .. يتناول بندقية من الارض) .. هذه البارودة جديدة ؟ (يفحصها) والله جديدة .. متى اشتريتها يا مختار ؟.. ما رأيتها عندك المرة الماضية ..

المختار ـ ما أدراك انت .. كيف وجدتها ؟

(المعلم يقترب منه ، يفرغ خزانها .. يطلقها.. أصوات اصطكاكها)

المعلم ـ والله بارودة طيبة .. كم أتمنى لو يكون عندنا منها الف..

المختار ـ ومن أين الالف ؟..

محمود ـ اي والله .. السلاح بالنار .. لكن العاقل هذه الايام يبيع تحته مع فوقه ويشتري بارودة ..

المعلم ـ من باعك اياها ؟..

المختار ـ اشتريتها من واحد بدوي .. كان سارقها وخايف تنمسك معه ..

محمود ـ والله لقطة ..

المختار ـ لا لقطة ولا شيء .. لولا الـ ٥٠ ليرة انكليزية ما باعها.. البدوي ابوه بيبيعه بالمال ..

المعلم ـ اي والله سمعت انهم باعوا اراضيهم لشركة « بيكا » ..

محمود ـ ومتى كان لهم اراض .. هذه مراع مشاع .. ان لم يرحلوا عنها اليوم رحلوا غدا ..

المختار ـ لا تنس انهم شجعوا غيرهم على البيع ..

المعلم ـ الناس طمعوا بالمال يا مختار ..

المختار ـ ايه .. عين بني آدم ما تشبع الا من التراب ..

محمود ـ ما عاد احد يأمن على نفسه ، ومن كان معه « كم قرش » اخذهم ورحل .. الغني لا يهمه شيء ، اما الفقير ..

المختار ـ ليست قضية فقر وغنى .. الذي ما عنده وجدان يبيع اهله .. البارحة ابو صالح رجع من البلد ومعه اوراق حكومية .. وأراد ان اختم له عليها ..

المعلم ـ المواصلات مقطوعة .. كيف راح الى البلد ..

المختار ـ لا تخف عليه .. اذا كان عنده قضية ، يروح ولو مشيا ..

محمود ـ وختمت له على الاوراق ..

المختار ـ انا ؟ أعوذ بالله .. والله اقطع يدي ولا افعلها .. انا اشهد له على بيع ارضه ؟ هذه ما هي ارضه ، هذه ارض آبائنا وجدودنا .. ليتني اموت قبل ان يصبح جاري يهوديا ..

المعلم ـ والله ما عنده وجدان ..

محمود ـ لكن لازم نعذره .. عنده اراض طويلة عريضة ، ولا مانع اذا باع قطعة منها وتقوى بها على هذا الزمان ..

المعلم ـ يا محمود .. اليهود اغنياء .. ومستعدون ان يشتروا فلسطين كلها .. فاذا ركبنا الطمع فقل على ارضنا السلام .. ان لم نفتح عيوننا اليوم فلن نفتحها الا على ما يؤذي بعد اليوم .. وليس الرجل من يبيع ارضه اذا هاجمه العدو ، الرجل من يحارب على حدودها حتى يموت ..

المختار ـ لن يحدث ما نكره ان شاء الله .. لن يجرؤ احد على بيع أرضه في ضيعتنا بعد هذه الجفوة التي قابلنا بها ابا صالح..

وهو مع ذلك رجل طيب .. لكن عنده شوية طمع ..

المعلم ـ المال ؟!.. قال : أذل الحرص أعناق الرجال ..

محمود ـ لكن ابنه شاب يخزي العين .. والله كان لازم أروح معهم ..

المختار ـ لا . لا .. القضية بالمعقول .. اثنان او ثلاثة يكفون .. لا نريد ان نلفت الانظار ..

المعلم ـ من يظن ان هذا ابوه .. قال : شوكة خلفت وردة ..

محمود ـ هل تظنهم يتأخرون ؟..

المختار ـ كل شيء بالتأني يصير .. (للمعلم) ما رأيك نتسلى بمراجعة الحسابات .. وحين يرجعون يكون كل شيء مهيأ .

(يقوم الى خزانة فيفتحها ويخرج منها دفترا وقلما ويعود الى جلسته .. يفتح الدفتر على ركبتيه ويحدق فيه قليلا ثم للمعلم) خذ .. انت نظرك احسن مني .. كبرنا وراحت علينا ..

المعلم ـ البركة فيك يا مختار ..

المختار ـ (ينظر الى الولدين وهما يقلبان الكتب ويحاول ان يشغل محمود بشيء له جدوى) .. ما رأيك تحلق للاولاد يا محمود .. أرى حلاقتهم طويلة .. تسل بهم في هذه السهرة .. اه ؟..

محمود ـ تكرم يا مختار .. (يهيىء نفسه للحلاقة ، يختبىء الولدان وراء المخدة وقد فوجئا بالامر ، محمود يجذب احدهما) .. لا تريد ان تحلق يا منحوس .. آه ؟.. اجلس والا ربطتك مثل الخروف .. في عندكم بيض ؟ قم هات لي بيضة .. كل رأس ببيضة..

المختار ـ (يرفع رأسه عن الدفتر) هل تظن ان رأسه يسوى بيضة فاسدة .. انه فارغ حتى من الصوص الميت ..

المعلم ـ سبحان الله .. اسكت شوية يا محمود .. صحيح الطبع تحت الروح .. (يرى ان الحلاق يريد ان يدفع عن نفسه فيقول وهو يعود الى الدفتر) .. ولكن دعنا منك ..

المختار ـ اقرأ لي هذا الاسم .. لا اراه جيدا ..

المعلم ـ أم عيشه .. دفعت ٣ ليرات ..

المختار ـ هم .. ومن اين لها الثلاث ليرات .. أعرفها فقيرة لم تر في حياتها نكلة ..

المعلم ـ والله لا ادري ، لكنها دفعت ..

محمود ـ باعت بقرتها السنة الماضية ، وكانت ناوية تشتري أربع عنزات ..

المعلم ـ (مداعبا) انت عين في الطبق واذن لمن زعق .. ألا يكفي رأسان ليشغلا حلاقا واحدا !!..

المختار ـ والله عال .. احسب لي مجموع ما دفعه ابو صالح حتى أتأكد من كلامه ..

المعلم ـ ابو صالح .. هذا حسابه.. ٥٠ ليرة زائد ٢٠ .. يساوي ٧٠ .

المختار ـ أظنه دفع ايضا ..

المعلم ـ حلمك علي .. وهذه دفعة بـ ٤٠ ليرة .. ودفعة رابعة.. هذه كبيرة شوية ٨٠ ليرة ..

المختار ـ هذه دفعها بعد ما نفض يديه من بيع الاراضي .. الله يخزيك يا شيطان ..

المعلم ـ يعني المجموع ما وصل الـ ٢٠٠ ليرة .. قال غني قال.. والله أم عيشه اغنى منه .. المال الذي تصرفه هو مالك ..

المختار ـ يا سيدي كتر الله خيره ..

المعلم ـ سنحتاج الى كثير من المال يا مختار .. يلزمنا ذخائر وقطع غيار وأسلاك شائكة تحيط بالقرية من كل اطرافها ..

المختار ـ لا . لا .. اترك التدبير لي .. الذخائر موجودة .. واليوم يعود الشبان بالبنادق وقطع الغيار .. ولا يبقى عندنا غير قضية الاسلاك ..

محمود ـ والله قضية « شائكة » ..

المعلم ـ هل تمزح ؟!..

محمود ــ لا .. غريبة شويــــة .. هل تحسبنا في مستعمــرة يهودية .. ممن نخاف ؟

المعلم ــ ألا نعتبر بغيرنا .. اليهود أغاروا على عدة قرى ونهبوها واذا لم نرهم ((عين حمرا)) لا يرجعون عنا .. انهم ينظمون حراسـة دائمة على مستعمراتهم ..

محمود ــ هل تريد ان نصنع ((هاشومير)) (*) مثلهم .. لــن يكفينا اضعاف ما جمعنا ..

المختار ــ (ينهي النقاش) دعونا بما نحن فيه .. السلاح موجود ، والذخيرة موجودة ، وعند الخطر كلنا يد واحدة .. فما حاجتنا الـى ((هاشومير)) وغيره .. توكل على الله يا استاذ ..

محمود ــ لا .. تأخروا .. أخشى ان يكونوا لاقوا صعـوبة .. كان لازم أروح معهم .. قلبي على نار ..

المختار ــ انت لم تنته من حلاقة الاولاد .. سيأتون بعـد حين ، لن يتأخروا ..

المعلم ــ (ينظر في الدفتر) .. أرى ان حساب ((ابو صالح)) قليل .. يجب ان يدفع شوية ثانية ..

المختار ــ والله ليته يفعل .. سأكلمه في هذا ..

(اصوات .. سعال ضحك)

محمود ــ (يترك حلاقة الولد) .. أتسمع يا مختار .. اظنهــم جاءوا .. (يثب على قدميه وينظر من الباب) .. اهلا .. تفضلوا .. (يدخل) ابو صالح ، وعباس ، وسليم الطحان ..

(يدخلون .. ترحيب)

محمود ــ والله ظننتكم الشباب راجعين بالسلاح ..

ابو صالح ــ (مداعبا) ويلي على الحلاقين متى كانوا يحمــلون الســلاح ..

(*) هاشومير : الحارس ، وهي منظمة يهودية لحراسة المستعمرات ..

عباس ــ لا نغلط يا ((ابو صالح)) .. الحــلاق طول عمــره حامل سلاح ..

ابو صالح ــ كما قال المثل : السلاح بيد ال ... يجرح ..

المعلم ــ (لابي صالح) ماشلومخا ؟ ((كيف حالك))

ابو صالح ــ طوق ، توده لال .. ((حسن ، الحمد لله))

المعلم ــ لا .. ماشي في العبراني .

المختار ــ قال : من جاور القوم أربعين يوم.. صار منهم وفيهم..

ابو صالح ــ لا منهم ولا فيهم ، الله يلعنهم ..

المختار ــ من يسمعك تتكلم العبراني لا يظنك الا ابن يهودية ..

المعلم ــ لا .. هو يتمنى ان يكون ابن كلب ولا يكون ابن يهودية..

ابو صالح ــ تعني ، تريدني ان اكون مثلك .. (يضحكون)

المختار ــ (بجد) الله يقطع رجلهم من بلادنا ، ولا يجعلهم لنـا مجاورين ..

المعلم ــ ومن يطيق جيرتهــم .. النبي عليه السلام ما قـدر يجاورهم ..

المختار ــ والله تمنيت لو انه أفناهم من هذاك الزمان وأراحنا منهــم ..

المعلم ــ لا يفيد فيهم السيف .. الرومان فعلوا بهم الافاعيــل ، قتلوهم ، وأسروهم ، وحرثوا ارض القدس ومزجوها بالملح فلا تنزرع ولا ينتفع بها انسان .. ومع ذلك ...

المختار ــ انا ارى تجمعهم في بلادنا لحكمــة أرادها المـولى .. ما سمعتم حديث الرسول بأنهم سيجتمعون في بلد واحد ثم يقتلهــم المسلمون فيختبئون وراء الشجر او الحجر فينطق الجماد ويقــول : يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله ..

سليم ــ يا مسلم ، يا عبد الله .. وهــل نحن مسلمون حقــا يا جماعة .. راح زمان الصحابة الذين نصرتهم الملائكة ..

عباس ــ والله لا ادري ما يريد اليهود منا .. ألا تسعهم الدنيـا حتى يزاحمونا على فلسطين ..

سليم ــ بلاد خصبة وجــوها جميل ، وخيرات ، الله طـارح فيها البركة ..

المعلم ــ لهم أهداف بعيدة .. ألم تسمع ما قال نبيهم : ((فـي العام القادم نكون في اورشليم)) .. (اشعيا)

سليم ــ مرت آلاف السنين وما جاء ((عامهم القادم)) .. هـذا شيء خيالي ..

المعلم ــ لا يا سليم .. اليهودي بعمره ما كان خيالي .. اليهودي تاجر قبل ان يكون انسانا .. والتاجر اقرب الناس الـى الارض .. الى الواقع ..

محمود ــ وعلى ذكر الارض .. اول البارحة قمنا بجولة انــا والشباب حول الضيعة ، وقربنا من مستعمرة فرأينا جماعة مــن ((هاشومير)) يحفرون في الارض فحسبناهم يحفرون استحكامات ، فزحفنا حتى نسمع كلامهم فقال يهودي لصاحبه (يقلد خنة اليهود) :

ــ ليش الضابط أمرنا نحفر يا شمعون .. هو خايف من العرب؟

ــ هذا ما هو خندق يا رؤول ..

ــ طيب .. ليش الحفر من الصبح حتى المساء ؟..

ــ يا مسكين .. هذا الضابط ضيع في المنطقة قرشين وما بيقدر ينام قبلما يلاقيهم .. (يضحكون)

ابو صالح ــ وماذا يفعلون في اورشليم اذا اجتمعوا ..

محمود ــ سيؤلفون ((شركة المتسولين المتحدة)) ..

المعلم ــ (جادا) لا والله .. نحن المتسولون .. سيشترون منا الاراضي ويؤلفون دولة على انقاض هيكل سليمان ..

سليم ــ لن يؤلفوا دولة لانهم ينتظرون ان ينزل المسيح ..

المعلم ــ هذا قولهم بأفواههم .. اما ايديهم فترسم وتنفذ ..

ابو صالح ــ ألست مبالغا يا استاذ ؟.. اليهودي طول عمــره

ما فكر بالاستقرار .. فلندعه يؤلف دولة وسوف يبيعها بالربا بعد قليل ، ليستأنف تشرده ..

المعلم ـ اخشى ان يكون حن لحياة الاستقرار التي ازعجه عنها ((بختنصر)) .. (يهز رأسه أسيفا) اخاف ان يجرعونا من كأس أذاقتها ((بابل)) لهم ..

ابو صالح ـ الحق يا استاذ ان قراءتك الدائمة في الكتب أضرت بك .. ما دخل بابل في الموضوع ؟!.. كل ما في الامر انهم حنوا الى ارض الميعاد فجاؤوها وسوف يملون منها ويعودون الى تشردهم ..

المعلم ـ وشركة ((بيكا)) لشراء الاراضي .. ومستعمرة روتشيلد وغيرها ، وسكوت الانكليز على هجراتهم .. وتدريبهم على السلاح في المدارس والمستعمرات .. اني أشم في الجو رائحة مريبة (يلحظ توجسهم) .. على اني اتمنى ان يكون رأيي خطأ ..

محمود ـ وأنا اشم الرائحة نفسها يا استاذ .. البارحة رأيت بنات المدارس يتمرنن على السلاح وهن لابسات ((الشورت)) .. (يغمز بحاجبه) صدقني قلبي انقطع ..

عباس ـ لا .. شد حيلك .. غدا سنغزوهم في عقر دارهم ..

محمود ـ (يلوح بالموسى) اعلنوا الجهاد المقدس ، وسوف ترون طاعتي ..

محمود ـ لا تخف .. (للولد) نعيما .. قم بوس يد والدك ..

(الولد يقبل يد ابيه ويصافح الرجال)

المختار ـ (وهو يتفحص متكلفا الجد) الحمد لله على السلامة يا ابني .. (ينفلت منه الى خارج الغرفة وهم يضحكون)

ابو صالح ـ والله .. لا أراهم كما تقولون .. انهم أغبياء حتى في تجارتهم .. اصور انهم يشترون الاشياء بأضعاف ثمنها .. التاجر العاقل لا يفعل هذا ..

المعلم ـ اما العاقل فهو الذي يبيعهم .. هه (يعبس وينظر الى المدى)

ابو صالح ـ لعلك تقصدني .. كل ما أردته هو ان استغفل غفلتهم .. انهم بهائم في ملابس تجار .. دق الحديد وهو حام ..

المعلم ـ (هازئا) لا يدفعون لنا الا خوازيق .. هه ..

محمود ـ أعرف رجلا استرخص خلع الضرس فخلع أسنانه كلها..

المختار ـ (يرطب الجو الذي اشتعل) ابو صالح والحمد لله ، ما نورط في شيء .. تراجع قبلما يقع المحظور .. ونحن اذا سلحنا أنفسنا وكنا يدا واحدة عند الخطر فلن نخاف ـ بفضل الله ـ شيئا..

محمود ـ ولكنهم تأخروا ..

المختار ـ سيأتون قبل غياب الشمس .. سنزرع ارضنا ، ونأكل من خيراتها ، ونحميها بسلاحنا .. (يضحك بفرح) سنكون مثل الورد شوكه يحميه ..

المعلم ـ (يشير الى محمود) .. او يحميه العليق ..

محمود ـ والله لولا اني مشغول ((لقرصتك)) حتى اصبغ جسدك ..

(يدخل الولد وهو يصيح)

الولد ـ بابا .. صالح ومعه رجال كثير .. راكبين الخيل ..

(شرارة اشعلتهم جميعا .. يدخل صالح وهو يلهث متطلق الوجه ، عيناه تلمعان .. بعد التحيات)

محمود ـ .. والسلاح يا صالح ..

صالح ـ حاضر .. حاضر .. انتظروا شوية .. عندنا ضيوف.. (نظرات متسائلة) .. اشترينا السلاح ونحن راجعون التقينا بخيالة من المجاهدين ، فعزمناهم وفد قبلوا .. قوموا نستقبلهم .. (اصوات ترحيب من الخارج ، يدخل المجاهدون وصالح يسعى بين ايديهم ، بعضهم يرتدي العقال والكوفية ، على صدورهم أحزمة الرصاص بشكل متصالب ، وحول خصورهم المسدسات ، وبعضهم الاخر في الثياب البدوية وقد تلثم .. يستقبلهم رجال المضافة ، ويتخلون لهم عن صدر القاعة ، يجلسون وبنادقهم امامهم او على ركبهم ..) ..

المختار ـ أهلا وسهلا .. آنستونا وشرفتونا .. وزادت افراحنا بكم يا رجال .. يا هلا .. يا هلا ..

ابو صالح ـ كانت فرحة صارت فرحتين ..

مجاهد ١ ـ خير ان شاء الله .. كيف صارت فرحتين ؟..

ابو صالح ـ (يبتسم . ثم بتمهل كأنه يتمطق ببوح السر) يا سيدي كلنا تبرعنا وبعنا فوقنا مع تحتنا ، وحرمنا أنفسنا من اشياء كثيرة .. حتى نشتري لنا ((قطعتين)) سلاح ..

مجاهد ٢ ـ هم .. واشتريتم السلاح ..

ابو صالح ـ حلمك علي .. وأرسلنا ابني صالح وشباب الضيعة (يرتبك . لولده صالح) وماذا جرى معكم يا صالح ؟..

صالح ـ الله وفقنا ، واشترينا قطع سلاح جديدة ما انضرب بها طلقة (بتنصت) .. وأظن الشباب جاؤوا بها .. سلاح ما كنا نحلم به في المنام .. (يدخل بعض الفتيان وبيدهم رزم من البنادق كأنها العصي .. ملفوفة بالقنب ، وصناديق صغيرة للذخيرة ورشاش آلي صغير .. يستقطب السلاح عيون الحاضرين ، الملثمون ينظرون اليه بعيون شرهة ، وأهل القرية بحنان لا يبذل لغير فلذات الاكباد .. طلقات الزناد .. كلمات اعجاب)

مجاهد ٢ ـ (لصاحب له) أترى .. سلاح ألماني .. وهذا بلجيكي ..

مجاهد ١ ـ لكنه سلاح منوع .. ستحتاجون الى انواع كثيرة من الذخيرة ، كان من الافضل ان تشتروه من نوع واحد ..

صالح ـ ما باليد حيلة .. والله دفعنا الكثير حتى ظفرنا به ..

المختار ـ (للمجاهدين) هذا السلاح يا جماعة فيه أساور النسوان ، وخواتمهن وخلاخيلهن .. فيه مهور البنات التي قضى الرجال العمر في جمعها ..

المعلم ـ حب الوطن غلاب ..
مجاهد ٢ ـ ونحن هجرنا مضاربنا وأهالينا حتى ندافع عن كل ضعيف يا مختار ..
المختار ـ لا زالت فيكم المروة والشهامة ..
صالح ـ (يهز البندقية بيده) نحن بخير ما دام في ايدينا سلاح ..
مجاهد ١ ـ ألا يضايقكم اليهود في هذه الايام ؟..
صالح ـ حاولوا مرة ولكنهم ذاقوا الويلات .. وابن كلب الذي يعيدها .. هذا وما كان عندنا غير اربع ، خمس قطع سلاح .. اما الان .. (يسكت وهو يتلمس قطع السلاح بأنامله العشر كالاعمى ... فرح كأنه طفل) ..
مجاهد ٣ ـ أرنا هذا الرشاش يا مختار .. (يتفحصه)
الولد ١ ـ اعطني هذا يا بابا .. هذا صغير على قدي ..
المختار ـ ما شاء الله .. انت صغير على حمل السلاح ..
محمود ـ (بلهجة جدية يقصد بها السخرية) لما تبطل تبول في ثيابك اعطيك رشاش .. هه ؟.. (يضحكون)
مجاهد ٣ ـ (يميل على اذن جار له) .. عظيم .. أليس كذلك ؟ كم يساوي ؟.. (يتبادل المجاهدون نظرات طويلة ، مريبة)
مجاهد ١ ـ وهل توزعون السلاح اليوم ؟
محمود ـ أما انا فلن انصرف قبل ان آخذ سلاحي الجديد ..
ابو صالح ـ (وهو يهز رأسه يمينا وشمالا) .. ويلي على الحلاقين ..
صالح ـ سنوزعه هذا المساء ..
المعلم ـ ينقصنا شوية مال .. سنشتري ذخيرة وأسلاكا شائكة..
ابو صالح ـ اسلاك ؟.. هل تريد ان تحيط القرية بأسلاك ؟!..
محمود ـ اياك يا استاذ ، والا فانه لن يستطيع ان يتسلل الى بيت وهيبة في الضيعة الثانية ..
المختار ـ سنهتم الان بقضية الذخيرة .. اما الاسلاك فنؤجلها الى فرصة اخرى .. صب القهوة يا عباس ..
(يصب القهوة للحاضرين ... يغني أحدهم موالا .. ثم بعد ان تهدأ أصوات الاستحسان)
مجاهد ١ ـ لن توزعوا السلاح هذا المساء اذن ..
المختار ـ العجلة من الشيطان .. غدا من الصبح نوزع على كل شاب سلاحه ..
مجاهد ٣ ـ يجب ألا تتركوا السلاح بدون حفظ .. ادهنوه بالزيت وشحموه ، وضعوه في مكان امين ..
محمود ـ والله سنضعه في أعيننا ..

ابو صالح ـ ولكن عينك لا تتسع لاكثر من رصاصة كما ارى .. (يضحكون)
المختار ـ نحن عندنا الاستعداد الكافي .. بنينا مخزنا للسلاح والذخيرة .. ووسعناه حتى يكفي لدخول اهل الضيعة كلها ..
مجاهد ١ ـ لا .. هذا ملجأ ما هو مخزن ..
المختار ـ كما تقول .. ملجأ .. فيه فرش وطعام وماء .
مجاهد ٢ ـ والله مستعدون ..
المختار ـ قال : العاقل من وعظ بأخيه ..
صالح ـ الفضل في هذا لاستاذنا . هو الذي وعانا وعلمنا ..
المعلم ـ قضية دفاع عن النفس لا اكثر .. نحن سمعنا عن المذابح ورأينا غدر اليهود ومطامعهم ، فقلنا نحتاط للامر قبل ان يقع .. والباب الذي يأتيك منه الهوا سده ..
مجاهد ٢ ـ وستضعون السلاح في المخزن طبعا ..
مجاهد ١ ـ مكان امين ومضمون ..
مجاهد ٣ ـ والله لن ننام الا في المخزن حتى نجرب قولكم ..
المختار ـ اهلا وسهلا .. انه ملجأ كما قلت لكم ..
ابو صالح ـ وسوف يقوم صالح على حراستكم .. ما رأيك يا صالح ؟ (يوافق صالح وهو يهز قبضته .. يضحكون)
مجاهد ١ ـ (يهمس لجار له) سيضعون حراسة .. اخشى ان..
مجاهد ٣ ـ (يغمز ، وهو يحك لحيته) .. تخشى هذا الولد .. (يشير للرشاش) ألا تراه يستاهل .. اه ؟!..
مجاهد ٢ ـ (يتثاءب) .. والله تعبنا هذا اليوم ..
صالح ـ قصوا علينا شيئا مما لقيتم في حربكم مع الكلاب ..
ابو صالح ـ دعهم يا صالح ، انهم تعبون .. غدا يقصون علينا ..
مجاهد ١ ـ لو شئت لحكيت لك عنهم الكثير ..
مجاهد ٣ ـ نحن ما تركنا أهلنا ، وبعنا ما نملك الا لنقاتلهم ..
المختار ـ أرى الجماعة تعبين (لعباس) قم اشعل الفانوس وامش به قدامهم .. (لصالح) ستحرس ضيوفك .. أليس كذلك ؟
محمود ـ وأنا سأحرس معك أيضا ..
عباس ـ وأنا ؟!.. قضيت عمري انطر الذرة ، فلا اقل من حراسة السلاح اخر الايام ..
(يمشي المجاهدون ملتفعين بعباءاتهم وكوفياتهم .. عباس يلوح بالفانوس امامهم فيرسم على الجدران اشباحا)

(المشهد الثاني)

(صباح اليوم التالي . في المضافة نفسها . على النار وعاء نحاسي ، وعلى الارض طاسات ، وخبز تنوري . المختار ، ابو صالح ، المعلم .)
ابو صالح ـ هل ارسلت الاولاد ليدعوهم ؟..
المختار ـ ارسلت سليم الطحان ليأتي بهم .. اما الاولاد فلا ادري ما ايقظهم قبل طلوع الشمس ..
المعلم ـ أولاد .. يعجبون بكل شيء جديد ..
ابو صالح ـ الحق ان اولادك ـ الله يخليهم لك ـ مثل الشرارة.. وينتظرهم مستقبل عظيم ، ان شاء الله ..
المختار ـ والله ، ابنك صالح احسن شاب في الضيعة .. مرادنا نستقر شوية حتى نفرح به ..
ابو صالح ـ الله كريم يا مختار .. منتظر يصير معي ((كم قرش)) حتى اعمل له فرحة ما رآها احد ..
المختار ـ لا ، تأخرت عليه ، الله موسع عليك ، ويجب ان تكمل له نصف دينه ..
ابو صالح ـ الحالة واقفة .. لا بيع ولا شراء ..
المعلم ـ كنت اريد ان اسألك تدفع لنا ...
ابو صالح ـ ما دفعت لكم ؟!..

المختار ـ لازمنا شوية مال يا ابو صالح ..
ابو صالح ـ (يتهانف) والله ، كان قصدي أدين انا منكم ..
المعلم ـ فان جبناك يا عبد المعين تعينا ..
المختار ـ (وهو يضحك) لقيناك يا عبد المعين تنعان ..
ابو صالح ـ الله عليكم المستعان .. لا تتركوني اشتغل كما اريد ، فلا ارضي بعتها ، ولا حبوبي تصرفت بها ، ثم تأتون (يقلدهم) « يا عبد الصمد ، ويا عبد المعين » ..
المعلم ـ قلنا لك : الناس في أزمة ، وهم محتاجون للحبوب .. تريدنا ان نموت من الجوع ؟
ابو صالح ـ لماذا لم تخزنوا حبوبكم كما فعلت ؟..
المعلم ـ لانك الوحيد الذي تفيض حبوبك عن حاجتك ..
أبو صالح ـ اترك الناس لرب الناس ... انت عليهم وكيل ؟!
المعلم ـ اعرفك من قبل ، رجلا لا يهمك الا نفسك ، ولو تركناك لبعت ارضك لاراذل اليهود ، وهربت بأموالك للشام او بغداد ..
ابو صالح ـ وما زلت نادما لاني لم افعل ..
المختار ـ نادم .. ما شاء الله ..
ابو صالح ـ ماذا تريدني ان افعل بسلاحكم الذي تأكله الفئران في المخزن .. ان اي عاقل يندم على شراء سلاح لا فائدة منه ..
المختار ـ واليهود ؟
أبو صالح ـ وماذا فعل لكم اليهود ، لم تخافون من شوية كلاب ؟ والله لو طاوعني صالح لتركت لكم الضيعة من زمان ، ولكنه ولد عاق ، لا يسمع لي كلمة .. (ينظر الى المعلم) وانا على كل حال ، أعرف الذي قواه علي ..
المعلم ـ الله يقويه عليك .. حتى نقدر ان ..
المختار ـ (يلطف الجو) صلوا على النبي يا جماعة .. لا موجب لكل هذا الكلام .. خلونا نفطر مع ضيوفنا بخير ، وبعد ذلك كل شيء بالتأني يصير .. والله سليم تأخر ..
(يدخل سليم متباطئا منكس الرأس عابسا) .. أين هم ، هل دعوتهم ؟ اكشف الحليب ، انظر اذا كان غلي ... (صمت .. سليم يسير الى الوعاء ، ويكشف عنه غطاءه ساهيا ، يحرق اصابعه ، فيرمي به الى الارض ..)
سليم ـ حرقت أصابعي .. الله يلعنهم ..
المختار ـ لا .. كل شيء الا الضيف ..
سليم ـ هه .. لا ادري كيف اقول ، ولكنكم ستعلمون من غيري ، اذا لم تعلموا مني ..
المختار ـ ماذا ؟
ابو صالح ـ أي مصيبة جديدة ؟..
المعلم ـ ماذا جرى لك ؟..
سليم ـ (يجيل فيهم عيونا وساعا) .. المجاهدون ..
المعلم ـ سافروا ؟..
المختار ـ من غير فطور ؟..
ابو صالح ـ فليذهبوا ، هل تحزن لفراقهم ؟.. ادع الله انهم لم يسرقوا لنا شيئا ..
سليم ـ لقد سرقوا ال ..
أبو صالح ـ ماذا .. تكلم .. خرست ؟..
سليم ـ سرقوا السلاح .. (يبهتون .. ثم يتكلمون جميعا بصوت غاضب)
المعلم ـ السلاح ، سرقوه ؟.. هذا ظننا بهم ؟..
المختار ـ ويلي على المروة والشهامة ..
ابو صالح ـ أرأيتم ؟.. كانت فئران المخازن اكبر مما اتصور .. أسفي على الـ ٢٠٠ ليرة انكليز ..
المختار ـ ما تركوا ولا قطعة واحدة ؟..
المعلم ـ والحراس ، ماذا كانوا يحرسون ؟.. ألم ينتبهوا لهم ؟..
سليم ـ (تسيل دموعه) ذبحوهم .. ذبحوهم كلهم ..

ابو صالح ـ ماذا ؟ وصالح .. هل قتلوه .. ولدي صالح لم ينج منهم ايضا ؟!.. (يهزه من كتفيه) ولدي قتلوه ..
سليم ـ وعباس .. ومحمود ..
أبو صالح ـ هل قرأت هذا في كتبك يا ... تكلم .. ماذا تفهم من هذه الكتب السخيفة ؟.. لست الا فأرا مثلهم .. (يندفع نحو الباب .. ويقف على عتبته) اسمعوا .. سأبيع أرضي للشيطان ، وأحرق حبوبي وأذريها في الهواء ، وأبصق على قريتكم هذه .. وأرحل .. سأرحل ، والذي يقف في طريقي سأقتله .. تسمعون ؟ (ينطلق .. صمت ثقيل)
سليم ـ وأنا .. أيضا .. سأبحث عمن يشتري الطاحون .. وأرحل .. انتهى كل شيء ..
المعلم ـ (يرى المختار يتحرك) .. وأنت .. ألن ترحل معهم ؟.. هيا ، ارحلوا جميعا .. سأبقى وحدي ، سأفلهم بيدي ، انه ضميرنا الذي هزمنا ولم يهزمنا اليهود .. ولكن .. لن اهرب ، لن انهزم ، لن أيأس ، لن ارحل .. لن اموت الا على اسوار قريتي .. لئن سرق المخدوعون سلاحي ، أن لي أظافر وانيابا ... (يهز قبضته في وجه اشباح يراها) .. أنا أقاتل فأنا موجود .. هل تسمعون يا احفاد اشعيا .. لن تكونوا العام القادم في اورشليم ..
المختار ـ هيا .. دعنا نذهب ..
سليم ـ لا يؤكل تين الصبار الا اذا نزعت عنه اشواكه .. هيا ..
المعلم ـ الى اين ؟
المختار ـ ندفن الموتى ..
سليم ـ ستفوح رائحتهم في الشمس ..
المعلم ـ لا تدفنوهم .. دعوهم للشمس .. فلن تكون رائحة الموتى انتن من رائحة الخيانة التي انتشرت في كل مكان ..

نديم خشفه — جامعة دمشق

هي وأيار والشتاء

– ١ –

وحدقت عيناي ، والريح في ،
أبعاد أبعاد الدجى ، تعوي ...
يغور في كهفيهما ، جامدا
كل نهار ، راعش الصحو ...
.. تحدجان الشبح المنزوي ،
وراء غابات ، من الشجو ...
يقتاده الغيب الى مخدعي ،
عبر رؤى مشلولة الخطو ...
تحمل لي ، من لسعات الدجى ،
أي تهاويل هنـا تشـوي ...
تهجس بي ،
تهمس مهتاجـة ،
ـ وموكـب الزحـام ،
بي يلوي ـ ...
عن ازمات العالم المرتشي
ضميره ، في غمرة السطو ...
« الهه » ، يبحث عن «حاذق» (١)
يذر في الاعين ، ما يغوي ...
يغوي ، بذر الموت ، لم يرتعش ،
« كفا » ، تذري شبح المحو ...
يبحث عن « سهم كيوبيد » ، في
« بغضائه » طلائع الغزو ...
.. أليس « سهم الحب » ،
نهر الى ،
حقل « يهوذا » ؟!
مُرهُ .. يستهو ...

– ٢ –

مُرهُ ، مسافات الدجى ، ثرة ،
بألف لون ، جامد الزهو ...
.. أحس بالاضلاع ، مقرورة ،

---

(١) يروى في الاساطير : ان بلادا غزتها الحشرات فما كان من الملك الا ان استدعى حكيمها الطبيب .. للتخلص منها .. وكـان الجواب : امساك كل واحدة منها وذر مسحوق معـــين في اعينها .. للتصاب بالعمى .. فيتخلص منها . وضحك الملك طبعا ، اذ لـو استطاع مسكها لابادها وتخلص نهائيا منها .

تزحف ، في صمت الدجى ، نحوي ...
تكورت ، عن هيكل شاحب ،
يذوي ، باعصار الدجى ، يذوي ...
يلهبها القر بأسواطه ،
لترتمي ، عجفاء ، كالشلو ...
أي شتاء زاحف ، من هنا ؟!
يدب في عنف .. الى القبو ...
شدقاه ، أبعاد خليج ، طوى ،
ما شاء في الاعماق ، ان يطوي ...

***

وتطفر الاشباح ، من كوة ،
عجلى ، الى عاطفتي ، تأوي ...
أشباح طفل جائع ، جففت ،
لهاته ، دهياء في الجو ...
تشق بالاعصار ، قلب الفضا ،
فتهرم الارواح .. في التو ...
أي تماثيل .. حيارى ..
الى ،
مقبرة الموت .. بلا شدو ؟! ...
ويهدر السيل !!
فلا خيمة ،
الا ، على انقاضها .. تهوي ...
ولا حصير ، في انتظار البلى ،
يقريه ، الا اغتيل عن سهو ...

***

وينتهي صوت .. الى مسمعي ،
صداه .. ما كان ، ليستهوي ...
ينشق عن صرخة عريانة ،
أماه .. دفئا ، بعض ما أنوي ...
.. ما كان .. لو غمغمت في آهة ،
بنتاه .. عفوا ، باركي عفوي ...
الدفء ، أنى لي ، بايصاله ؟!
.. والسيل لم يسكت عن العدو ...
كتائب « التتار » .. مجنونة ،
لم تنكمش .. عن هادر اللغو ...
.. معي .. نلملم ، بعض أسمالنا ،
فالريح ، ذرت ، شبح المحو ...

— ٣ —

الريح ، سوطان ، على متنها ،
جرح الأذى ، ورفة الزهو ...
.. الريح ذرت ! يا نجاواي ، من
« يافا » .. أريقي لفتة الصفو ...
ذراتك السمراء .. من ساحلي ،
تخضل أعشابا ،
على غفوي ...
ريا ، باغفاءة عصفورة ،
على التراب الاشقر الحلو ...
ذراتك السمراء ! في لمحها ،
نكهة حقلي ، قبل ان يصوي ...
نكهة « حسان » ، طريح الثرى !!
وكفه ، شدت على النضو ...

***

مغارس الزيتون .. في خاطري ،
والسنديان الغض ، والسرو ...
عهدي بها ، كالأمس ، عطشى الى
لمسة كفي .. والصدى الرخو ...
عطشى ، الى طفولتي ، ثرة ،
بالغنج ، والاطياب ، واللهو ...
.. «أيار» (٢) عد ، بي ، في مطافاتها
أشيائها ، حقائبي ، فروي ...
أحباب قلبي ، والالى ، ما رست
أحلامهم ، الا على رهوي ...
ملاعبي .. متى .. متى ..
يا رؤى !
حطي .. ويا صوت المنى ، دو ..
ترى !! ألم يأن ،
قطاف الجنى ؟
أروي بها ، دربي ،
.. متى أروي ؟!...

— ٤ —

معابر الليل !! اما من شذى ،
عبر نقاء الامل الحلو ؟...
يفعم دربي .. في زحام المنى ،
بباقة .. من غدنا العلوي ...

(٢) ايار : الشهر الذي شهد مأساة فلسطين .

— ٥ —

وحدقت عيناي .. والريح في ،
أبعاد ، أبعاد الدجى ، تعوي ...
.. أشبال « ايار » ، وصناجة ،
تروي ، مطافات الصدى تروي ...
لا .. لن أكون الصمت ،
لن تصرع الايام ،
زهوي .. لم يمت زهوي ...
بين «الشهور» البكر ، لم انزرع ،
بدعا .. انا منها .. صدى يدوي ...
« عائلة » العام ، دروبي الى ،
دروبها .. مشدودة الخطو ...
منها .. انا .. حقائبي ، من ثرى ،
كنوزها ، من لونها الحلو ...
ألف مخاض ، في دمي .. لم تعد ،
عناكب الامس .. هنا تثوي ...
« تموز » يستجمع ألوانه ،
يدب في تيه ،
الى صحوي ...
« يعقوب » ،
يرتد بصيرا ، وفي ،
عينيه ، اشراق الغد العلوي ...
يفعم دربي ،
في زحام المنى ،
بألف لون ، من ذرى الشأو ...
يشدو « سليمان » ،
وينهل من ،
« طائره » .. أي فم يروي ...
قصة « شهر » لم تجد روحه ،
غير ، عبير الدم ، ما يروي ...

***

وحدقت عيناي !! والريح في ،
أبعاد ، أبعاد الدجى ، تعوي ...
.. قد لاح في عمقيهما ، راعشا
كل نهار ،
بالمنى ، صحو ...
اني أحس الثأر ، شدت خطى ،
زحافه ... طلائع الغزو ...

محمود البستاني — **العراق**

جريمة في قطنا

قصة بقلم محمد المجذوب

– ١ –

كان الرقيب برهان غارقــاً في نوم ثقيل ، عندما انطلق جرس الهاتف الموضوع بحذاء رأسه يقرع سمعه برنين مزعج طويل . ويبـدو انه كان مستغرقا في حلم غير سار ، سرعان ما اختلطت احداثه بهـذا الرنين ، فاذا هو يهب مذعورا ، وفي غير وعي يجذب جهاز الهـاتف ويقذف به بعيدا ، فيكاد يصدم رأس زميله المساعد ، لولا ان رده جانب الوسادة ، الذي كان مرتفعا فوق ذراعه ، التي اعتادت ان تأخذ مكانها تحت الوسادة ، كلما أخذ رأسه موضعه فوقها .. وفي هذه اللحظـة اخذ الرقيب يسترد كامل يقظته ، فاعتذر لرفيقه بأنه كان يحلم انـه في خط النار ، وقد سقطت بجانبه قذيفة يدوية ، فالتقطها ورمى بها ليتفادى انفجارها ..

وكان جرس الهاتف مستمرا في رنينه ، فرفع الرقيب السماعة..

– من هنا ؟

– هنا مركز درك قطنا ..

– هنا مركز الضابطة العـــامة في قوة اليرموك بدمشق .. الرقيب برهان يتكلم .

– شكرا .. هنا زميل لكم من ضابطة اليرموك في معسكر قطنـا وجد قتيلا عند مدخل البلد ..

– رقيب .. قتيل ؟!.. أهكذا قلت ؟!..

– نعم .. رقيب من ضابطة اليرموك الخاصة في قطنا .. وجدته جوالة الدرك قتيلا .. او ميتا ..

– قتيل .. ميت !.. أقتيل هو أم ميت ؟!

– المكان يوهم ان في الامر جريمة .. ولكن لا يبدو في الجثمان ما يدل على ذلك .

– شكرا .. احرسوا الجثمان .. سنجري اللازم حالا .

وأعاد الرقيب السماعة .. وأطرق يفكر : الساعة الان الثانية ، ومعنى ذلك انه لم يمض على نومه سوى ساعة .. وقد قضى يومـه في عمل متواصـل يراقب المتطوعة ، ويستمـع الى الشكـاوى و ... عشرات الاشياء الاخرى ، وكان يمني نفسه باغفاءة لا يقطعهـا الا النهوض لصلاة الفجر .. وها هو ذا مضطر الى مغادرة فراشه قبل الموعد بثلاث ساعات ، ليبدأ عملا لا يعلم متى ينتهي .. ومن يـدري فقد يكون الرجل ميتا لا قتيلا ، ما دام الدرك ، وهم الذين شاهـدوا جثمانه ، لا يستطيعون القطع بأحد الامرين . وفي هذه الحال سيكون مجهوده خاليا من كل معنى .

وتذكر برهان ان مثل هذا التفكير لا يحسن بالانسان الذي وهب نفسه لواجب الجهاد ، الجهاد الذي لا يكون قتالا للعدو فقط ، بـل قتالا للاهواء ، وقتالا للكسل الذي يـدفع صاحبه لايثار النوم علـى التحقيق في قضية كهذه .. أيا كانت نتائجها .

على انه لم يخطر في ذهنه موضوع الجهاد حتى أحس بانقباض موجع .. لقد انتظم في سلك المجاهدين ، في غمرة من الحماسـة الروحية التي تجعل الاستشهاد أروع ما يتصوره القلب المؤمـن ... وهو الروح الذي كان يسيطر على معسكـرات المجاهدين جميعا ، وبه بدأت المعارك الاولى ، فكان النصر ، وكان القتل ، وكان كلاهما شيـا جميلا في نظر هؤلاء الذين فارقوا اهليهم وأعمالهم ابتغاء رضوان الله .

ولا يزال يـــذكر الساعة التي فقد فيها رفيقه ومواطنه اللاذقـي « محمد الصباغ » .. ذلك الفتي الذي لم يستطع والداه صده عـن خوض هذه الغمرة ، لانه كان شديد الرغبة في الشهادة ، فأبى الله الا ان يحقق له رغبته ، وتم ذلك برصاصة يهودية حطمت فكه الاسفل وحملت اليه المنية ، بينما كان الى جانبه يطلق نيران بندقيته علـى العدو .. وتحول الاصابة بينه وبين الكلام ، فيسلم الروح وعلى ثغره ابتسامة الرضى بما آتاه الله من فضله . ولقد خاض برهان بعد معركة القدس تلك عدة ملاحم ، ورأى العديد من رفاقه المؤمنين يسبقونـه الى الجنة ، وفي كل مرة كان يتطلع الى حظه من هذه النعمة ، مزودا نفسه لها بكل ما يسعه .. ولكن الله لم يقدر له هذا المصير ، ومد بأجله حتى اليوم .. ليشهد التدهور المريع الذي بدأ يراود النفوس، فيطفىء شيئا فشيئا توهج الوقدة المقدسة ، التي ساقته الى هـذه الساحات .. وها هو ذا يرى بعيني رأسه ذلك التطور الفاجع الـذي أعقب الهدنة ، فجعل يحول الطاقات ، التي كانت معبأة لدك معاقـل اليهود ، واستنقاذ الارض المقدسة ، الى تدمير نفسها بهذه الخلافات اليومية التي يثيرها المتطوعة فيما بينهم لانفه الاسباب .. ثم بهـذه الانحرافات التي أخذت تطل هنا وهناك من بعض النفوس التي اعتادت الانحراف من قبل ، ثم وجدت في الجهاد من أجل فلسطين فرصـة للتوبة والتطهر .. حتى اذا تسرب روح الوهن الى جهاز النضال العام، استيقظت فيها عوامل الضعف القديمة ، فتكاد اليوم تستأنف سيرتها الاولى ، لا يمنعها من ذلك الا هذه البقية الباقية مـن روح النظام .. الذي تكافح الضابطة من أجل صيانته في هذه المعسكرات ..

ومما يساعد على مضاعفة هذا الانهيار المعنوي تلك الانباء التـي تأخذ طريقها بفوة الى كل شفة ولسان بين المتطوعة .. انها انبـاء الخيانات التي تنسب الى طائفة من الكبار .. الذين تصدروا لقيادة الجهاد ، فاذا هم ، فيما يقال ، يتواطأون مع العدو على تسليم الارض المقدسة !.. لقد بدأت هذه الشوائع همسات في الخلوات ، ثم انتهت الى العلانية ، يتداولها الجميع بين مصدق ومكذب .. وكفى بهـذا وحده مثيرا للشكوك ، مثبطا للعزائم ، مدمرا للحماسة ، محطمـا لكل تصميم روحي !..

وكانت هذه التصورات تتفاعل في صدر الرقيب برهان وخياله ، بينما هو متجه في سيارة الجيب نحو منزل القائد .. ولما وقفت بـه السيارة لدى الباب انتزع نفسه من شروده ، واعلن مهمته لحـرس المنزل ، وبعد قليل أقبل العقيد في ثياب النوم ليستمع الى الخبر ، وليتلقى الرقيب توجيهاته اللازمة .. ثم عـاد الى السيارة ليصحب الرئيس الذي كلف التحقيق في القضية ..

– ٢ –

وكانت الساعة لا تعدو الثالثة الا قليلا ، عندما وصل مكلفو التحقيق الى حيث يستقر الجثمان تحت شجرة الجوز العجوز ، التي تظلـل أغصانها بعض الطريق الداخل الى قطنا .. وترجل الرئيس وكاتبـه، وتبعهما الرقيب برهان ليلقوا النظر الذي لا بد منه على الجســد الهامـــد .

كانت الظلمة طاغية .. والجو ، كشأنه في مثل هذه الليلة مـن

آذار ، قارسا ، ولكن مصباح الضغط ، الذي احضره رجال الدرك لحراسة الجثمان ، بدد الكثير من تلك الظلمة ، ونشر شيئا غير قليل من الدفء ..

ونظر المحقق ومن معه الى ذلك الجسد المنبطح على صدره ، وقد امتد كل من ذراعيه في شبه زاوية قائمة ، وانفرجت ساقاه .. ولم يبد من وجهه سوى جانبيه ، لان مقدمته لاصقة بالارض ..

وتراءى ذلك الهيكل العملاق تحت الضوء المشع مهيب المنظر ، يوحي بأن صاحبه كان على حظ من القوة الجسدية غير يسير .

ولم يشأ المحقق ان يغير وضع الجثمان ، بانتظار الطبيب الشرعي .. ولكنه جعل يدقق النظر من أعلاه الى أدناه ، فلم يلمح أي اثر لجريمة .. اللهم الا ذلك التماس الشديد الذي بدا بين وجهه والارض ، حتى لكأن انفه قد كسر او بسط تحت ضغط ثقيل . غير ان مثل هذا قد يتأتى من أيد آثمة كما يحدث من سقطة فادحة .. ومن يدري ، فقد يكون الرجل مصابا بالصرع ، وقد فاجأه هنا ، فأكبه على وجهه بهذه الصورة !

وبدأ المحقق استيضاحاته مع كبير الدرك :

ـ من الرجل .. وما اسمه .. ومن أي البلاد هو ؟

ـ اسمه عبد الله خليل .. وهو أردني من اربد .. كان يتردد على مركزنا اثناء تجواله لمراقبة المتطوعين ..

ـ اذن فأنتم تعرفون الكثير عن سلوكه الخلقي ؟

ـ بالتأكيد .. انه رجل شهم يتحلى باخلاص كبير .. وكان صارما في حماية النظام .. مما جعل الكثيرين غير راضين عنه ..

وأمسك المحقق عن متابعة الاسئلة ، ليفكر بما يسمع ، ولاح عليه انه وجد في بعض هذا الوصف ما يستحق اهتمامه .. ثم طلب الى الرجل ان يطلعه على التقرير الذي كتبوه عن مشاهداتهم .

وقرأ التقرير .. ووقف عند هذه الاسطر : « وكان اخر عمل قام به في قطنا هو اخراجه بعض المتطوعة بالقوة من خمارة « ابو جورج » ..

وفي تمام الساعة الثانية عشرة مر بنا في طريقه الى المعسكر ، ثم حوالي الساعة الواحدة والنصف شاهدته جوالتنا فاقد الروح تحت شجرة الجوز .. » .

وسأل الرجل مرة اخرى : هل تعرفون أحدا من اولئك الذين أكرههم على مغادرة الخمارة ؟!

وجاءه الجواب بالنفي .. فالتفت الى الرقيب برهان : يحسن ان تحضر لي صاحب الخمارة وسيرافقك احد الدرك ليرشدك الى داره .. وستجدني بانتظاركم في مخفر الدرك .. » .

وترك المحقق الجثمان للطبيب الذي وصل آنئذ .. ومضى بسيارته الى داخل البلد ، ثم لم يكد يستقر الا قليلا حتى أقبلت سيارة الرقيب برهان بالخمار ، الذي أوشك قلبه ان يقف من شدة الرعب .. ولما رأى المحقق اضطرابه سكن روعه ، وأشار اليه بالجلوس، ثم جعل يسأله في لهجة لا تبعث القلق :

ـ الرقيب في الضابطة الخاصة لقوة اليرموك في قطنا عبد الله خليل الاردني .. قد مر بحانتك مساء اليوم .. هل تذكر ؟

ـ نعم اذكر جيدا .

ـ ماذا عمل عندك ؟

ـ اخرج المتطوعة الذين كانوا يعربدون .. وعلى الفور أغلقت حانتي ودخلت الدار .. ثم لم اغادرها الا الساعة .

ـ حسن .. تذكر .. هل تعرف هؤلاء المتطوعة ؟

ـ انهم من أقطار مختلفة .. اليمن .. الحجاز .. العراق و ... ولذلك من العسير أن اعرفهم جميعا .

ـ اذن فأنت تعرف بعضهم ؟

ـ طبعا ..

ـ أذكر لي اسم هذا البعض .

ـ سعيد حمدو الفلسطيني ، وعبده الخالد من الاردن .

ـ ثم من ؟

ـ لا اعرف اسماء الاخرين .. ولكن أظنني أعرف وجوههم ..

ولم يشأ المحقق ان يقطع تسلسل العمل فدعا بالرقيب برهان ، وكلفه ان يحمل الخمار في سيارته .. وبعد مكالمة هاتفية قصيرة انطلقت السيارتان في الطريق الى معسكر اليرموك خارج قطنا .

ـ ٢ ـ

ودخل المحقق مع رئيس مثله من المعسكر ، ووراءه كاتب التحقيق والرقيب برهان .. دخلوا جميعا احدى قاعات النوم ، وكان نزلاؤها الثمانية يغطون في نوم عميق ..

وطلب المحقق ان يؤتى أولا بسعيد وعبده .. فأوقظا بصعوبة ، وكلفا ارتداء ثيابهما ، ثم اخرجا الى غرفة مجاورة ، حيث جهز للمحقق مكتب مرتجل ...

ونظر المحقق الى المتطوعين ، وقد اخذتهما رعشة ظاهرة .. وبدا الجحوظ في عينيهما القلقتين ، فلم ير في ذلك ما يسترعي الاهتمام ، بل وجد له ما يسوغه في برودة الجو ، والنهوض المباغت من النوم ، وأشار الى احد الاثنين بأن يدنو منه ، ولكنه لم يفهم ما يريد ، وجعل ينقل بصره بين رفيقه والمحقق في نظرات زائغة ، فاضطر المحقق ان يشعره بقصده اليه ، وقال له في لهجة الآمر : انت .. تعال ..

ولكن الرجل غلبه الارتباك ، فأخذ يجمجم ، وهو يسارق رفيقه النظر : انا !! لا ... ما انا .. هو .. هو ..!

وبدا رفيقه فاغر الفم ، كانه عجز عن النطق ، وقد بهتت عيناه ، وانطفأ بريقهما ، فكأنهما مصنوعتان من الزجاج ، ولم يستطع ضبط ساقيه ، فجعلتا تهتزان بصورة افقدته التوازن ..

وهنا امر المحقق باخراج هذا الى مكان اخر ، ودفع الاول نحو مكتبه مكرها ..

ـ لم يبق مجال للكتمان .. خير لك ان تعترف .. والا فقدت

كل حق بالعطف ...

ـ اقسم لك .. اني .. اني .. لم اشترك بالقتل ..

واهتزت اعصاب المحقق وهو يسمع لفظة القتل .. القتل الذي لم يذكر انه رأى في هيئة القتيل اي دليل على حدوثه .. وثارت رغبته في معرفة التفاصيل التي بدأت تتدفق بغير جهد ..

ـ لكن دورك بارز في الجريمة .. قلت لك : تكلم بصراحة وصدق لتستحق العطف .. وسترى ان كل شيء معروف .. ولا سبيل الى الانكار ..

وبلغت أعصاب المتهم نهاية الانهيار ، ولم يبق له من سلطان على نفسه ، فأخذ يتكلم ، ويسجل الكاتب كل حرف من كلامه . وحتى اذا استنفد التحقيق غرضه امره المحقق بالجلوس .. وحذره ان يتكلم الا باذنه .. ثم دعا بالمتهم الثاني :

ـ أي عبده !.. لقد اتضح كل شيء .. فعليك بالصدق اذا شئت ان يكون لك حظ في الرحمة ..

وحدق في وجه رفيقه سعيد قبل اية كلمة .. ورآه يحرك كتفيه ويقلب كفيه اشعارا باعترافه .. لم يدر باي كلمة يجب أن يبدأ ، وجعل يتمتم :

ـ الشيطان .. الشيطان .. ل ...

وشد على اسنانه يريد اتمام كلمته ، ولكنه عجز عن ذلك .. ثم لم يستطع كلاما الا بعد ان نضح وجهه بالماء ، ومص بعض قطرات منه .. ثم راح يفضي بمكنوناته في حال من الاعياء الارادي التام .

وتوالى الافراد باعترافهم واحدا تلو الاخر .. وكان في اقرار كل منهم ضرب من الايحاء القاهر ، يجر الاخر مكرها الى الافضاء بكل ما في نفسه ..

وكانت الساعة قد قاربت السادسة .. وأطلت تباشير النهار ، فلم يبق مانع دون تمثيل وقائع الجريمة في مكانها ..

وعند شجرة الجوز توزع الثمانية مهامهم وأمكنتهم .. فتسلق عبده وآخر معه الفرع الممتد فوق الطريق ، وكمن اثنان في الخندق الايمن ، واحتل آخران خندقه الايسر .. ثم تولى الباقيان مراقبة طرفي الطريق ..

« .. وكان لا بد للرقيب من المرور بهذا المكان .. فلما ألقى مبروك حصانه على الشجرة تأهبنا للعمل ، وانتظرنا حتى كان الرقيب تحتنا ، فقذفنا بأنفسنا عليه ، وكاد يتغلب علينا رغم المفاجأة .. لولا ان ادركنا الرفاق من الخندقين ، فأخذ بعضهم بيديه وبعضهم برجليه، وتمكنا بذلك من دفعه على وجهه .. وكان علي ان اتولى عرك اخدعه الايمن ، وعلى عبده عرك الايسر ، ما زلنا بهما حتى خمدت حركته تماما .. وهنا جاء دور سعيد فغرس دبوسا في الفقرة الخلفية من عنقه حتى مزق الحبل الشوكي .. وبذلك تمت الخطة ، ونهضنا عن جسده .. » .

وكان « شحادة » يسرد هذه المعلومات وهو يتبع كلا منها بتمثيل عملي ، ويستشهد كلا من رفاقه على دوره في ذلك ، فيأتي الافراد [illegible] خلاف فيه ولا غموض ..

ـ ٤ ـ

.. واستغرقت محاكمة القتلة قرابة الثلاثة الاشهر .. وصدر الحكم باعدام ثلاثة منهم .. وتفاوت نصيب الباقين من السجن بين الخمس والخمس عشرة من السنين ..

وكان الرقيب برهان واقفا خارج قوس المحكمة يستمع الى قرارها، فلم يستطع ان يتمالك دمعتين كبيرتين تدحرجتا على وجنتيه ..

انه لا يشك في عدالة الحكم .. ولكنه يتساءل في حيرة وحرقة : لقد جاء هؤلاء ليظفروا بالشهادة في فلسطين ، او يسهموا في انقاذها ، فلماذا حرموا احدى الحسنيين ؟.. ومن المسؤول عن تحولهم الى هذا المصير الحقير !!!

محمد المجذوب

الاخلاق تخترعها الارانب وتستثمرها الذئاب

صدر حديثا في بيروت الكتاب الضخم « **العالم ليس عقلا** » آخر ما كتب عبد الله القصيمي .. جاء في احد فصوله المعنون بالعنوان اعلاه ص ٣٩٦ : « لقد كان الانسان في التاريخ معبدا تتجمع فيه كل الارباب والطغاة والاشباح لتتآمر على سحقه . كانوا يريدون ان يوجدوا انسانا بلا شهوات ولا تفكير ولا حرية ، كان وجود هذا الانسان الخرافي امل جميع التعاليم المقدسة وامل جميع المسيطرين الاقوياء الذين تعاقبوا على البشر يسحقون عقولهم وشهواتهم ومجدهم . لقد حرموا عليهم الضحك وشجاعة القلب والفكر ، وكانت الالهة تغضب على الذين يضحكون ويفرحون ، ولا ترضى الا على من يحزنون ويبكون . كان البكاء والانهيار النفسي عبادة ومزية وخلقا ؟.. لقد كانوا يريدون أن يحولوا التاريخ لله الى مبكى ، ولم يكفهم ان حولوه الى معبد ؟. جربوا كل وسيلة رديئة ليقتلوا في الانسان كل اسباب الذكاء والقوة . وكان من هذه الوسائل أن ابتكروا خصاء الرجال ، ولم يكونوا يريدون ان يخصوا فيهم القوة الجنسية فقط ، بل ان يخصوا فيهم فحولة العقل والحرية والشجاعة ، كان اهتمامهم ان يوجدوا مجتمعات من الخصيان ، وجدوا أن الخصيان يفقدون كل طموح الى الحرية والتمرد والمقاومة . والذين يقومون بعملية الخصاء للمجتمعات موجودون في كل زمان ، كما يوجد الخصيان ايضا في كل زمان . وما من دكتاتور أو زعيم اناني او دجال روحاني الا وخطته ان يخصي شعبه .. ان التحدي والعبقرية والقوة المتفوقة شهوات لم يستطع الطغاة والتقاليد والمعلمون ان يخضعوها بالخصاء .. »

قال الاستاذ قدري قلعجي في جريدة الكفاح : « في هذا الكتاب فصول قل ان يوجد لها مثيل في شرق او غرب » وقال الدكتور صلاح المنجد في جريدة « الحياة » : « انه كتاب قل ان تخرج المطابع مثله ، ولا شك ان مؤلفه عبقري فذ ، ولو ان الكتاب صدر في بلد متحضر فكريا لضجت الصحف بتحليله ونقل الفصول عنه . » « انه كتاب لا مثيل له في اللغة العربية وانه نادر المثال بين الكتب الغربية التي اصدرها كبار العقل والقلب وان من لا يقرأ هذا الكتاب خليق ان يصفع .. » .

«اكزوديس» في الدار البيضاء

« منذ سنوات أقلعت من احد الموانىء الاميركية باخرة تحمل أول فوج صهيوني الى ارض فلسطين ليدنس ارضا مقدسة ويشرد شعبا آمنا .. كان اسم هذه الباخرة : أكزوديس . وتخليدا لذلك الحدث عرف العالم الفني رواية أدبية وقطعة موسيقية وفيلما سينمائيا تحمل كلها الاسم نفسه : اكزوديس .. وفي الدار البيضاء يعيش الشعب العربي ازمة ضمير خانقة ، ذلك ان الرواية تباع في المكتبات والقطعة الموسيقية في دكاكين الالحان وما زالت الباخرة تتردد على ميناء المدينة لتحمل فلول الصهيونية الى حيث يدنسون ارضا مقدسة ويشردون شعبا آمنا » .

— ١ —

عباب رجع موسيقى ، صراخ ، عنبر مهتاج
وتسكر من انين الجاز ، الف مليحة مغناج
وترقص اكزوديس على ربيع ضاحك الامواج
فلا كثبان من سيناء غلفهن ليل داج
ولا بيداء يصدى الماء ، عند مرابعها الوهاج
سوى حلم تهيم على مواقع خطوه الافواج
يلون ليل اسرائيل من اشراقة المعراج

— ٢ —

أعيونك يا بلادي ضحوة غبشت وحزن ضاف
أفاعي الليل تلهث في الدروب وترقص الاطياف
ونجمك مستعار الضوء ، لمح كاذب خواف
أشاح بوجهه عن موجة يعتابها مجذاف
فقصت أكزديس جناح رب في يقيني غاف
وسالت في دماني موجة مثلوجة الأعطاف
فيا صحراء ظلي مات ، هلا أورق الصفصاف

— ٣ —

دروب اللص نهر من دم يرعاه انجيل
تطل فتستهل اشعة ويشيع ترتيل
ولكن الذي يجري ، دم في القدس مطلول
فان قلنا غداة غد ، يدق النصر أرغول
أغار على جناح النسر في الظلماء « شاويل » (١)
وتزحف اكزديس في دمي والسيف مسلول
و « شمحة » فرحة في الشط تنثرها المناديل

— ٤ —

جراح اليأس تصرخ في صلاتي أدمعا وتراب
وأدلج ، جفني المكدود نعلي والمراد سراب
وتفتح عشوة العينين بضعة أضلع وجراب
وفك أدرد تحت النعال وطفلة وسحتاب
وتجأر في ضميري نجدة مذبوحة وعتاب
فأين أفر ، لا نفق تغلغل في الثرى وانساب
ولا كف تهد السور ، تغسل لعنة الاحقاب

احمد المجاطي
من اتحاد كتاب المغرب العربي

---

(١) شاويل وشمحة زوجان يهوديان من انشط العناصر الصهيونية في الدار البيضاء وقد كوفئا اخيرا بالسفر الى ارض الميعاد .

حصاد المعركة في الفكر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢١ ـ

● كيف أفهم الوحدة العربية ومشروع سورية الكبرى والقضية الفلسطينية : تأليف رفيق كامل القطان. دمشق ، ١٩٤٥ ـ ٧٥ صفحة .

***

● الصهيونية تنشر الكفر والالحاد واللادينية في فلسطين المقدسة . مذكرة قدمها الى لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية في ٢٣ مارس ١٩٤٦ محمد صبري عابدين في ١٤ صفحة .

● الصهيونية ، نشأتها وأثرها الاجتماعي بقلم م. كفوري ، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٦ ـ ٧٢ صفحة .

والكاتب يؤكد على ان الصهيونيه حركة عنصرية وان من المستحيل قيام شركة بين العرب والصهيونيين لحكم فلسطين ، وينبه على خطر الصهيونية على العرب .

● قضية فلسطين تأليف نجيب صدقة . بيروت ١٩٤٦ .

● مطامع اليهود الصهيونيين في الاستيلاء على المسجد الاقصى والمقدسات الاسلامية في فلسطين . السلطة الانكليزية بفلسطين تسيطر على ادارة الاوقاف والمحاكم الشرعية والمساجد والمعابد الاسلامية ـ وهي شهادة لمحمد صبري عابدين امام لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية بالقدس في ٢٣ مارس ١٩٤٦ وهي في ١٤ صفحة . (انظر مذكرته سابقا) .

● هؤلاء الصهيونيون ، تأليف بشير كعدان وشفيق شالاتي . دمشق ، دار اليقظة العربية ١٩٤٦ ـ ٢٩٦ صفحة

***

● بلادنا فلسطين... تأليف مصطفى مراد الدباغ. يافا ، مكتبة الطاهر اخوان ، ١٩٤٧ ـ ٢٣٢ صفحة .

● بيان الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية ـ القاهرة ، مطبعة الشبكشي ، ١٩٤٧ ـ ١٦ صفحة .

● جغرافية فلسطين والبلاد العربية، تأليف وصفي عنبتاوي وسعيد صباغ ، بغداد ، ١٩٤٧

● خطب الوفود العربية في مؤتمر فلسطين بلندن سبتمبر ١٩٤٦ ، أصدرته جامعة الدول العربية ، ١٩٤٧ ـ ٧٧ صفحة .

● الصهيوني الغادر ـ قصة حقيقية دامية وقعت في مدينة طانجة ، احدى سواحل بلاد المغرب الاقصى ، مصدرة بنبذة عن اخلاق اليهود وعاداتهم وأوامر رؤسائهم في معاملة غيرهم من الطوائف الاخرى . نشرها مكتب مكافحة الوباء الصهيوني في الشرق الاوسط ـ طبع سنة ١٩٤٧ ـ ٧٣ صفحة .

● الفتوى الشرعية في جهاد الصهيونية ، تأليف السيد محمد حبيب العبيدي ، الموصل ، ١٩٤٧ ـ ١٦٨ صفحة .

● فلسطين . نشر مكتب مكافحة الوباء الصهيوني في الشرق الاوسط ، طبع سنة ١٩٤٧ ـ ٧٣ صفحة .

فلسطين للعرب ، تأليف عبد الغفار الجبار . القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٤٧ ـ ١١٢ صفحة .

● قضية فلسطين ، تأليف محمد رفعت ـ القاهرة، دار المعارف ، ١٩٤٧ ـ ١١٩ صفحة (العدد ٥٧ من سلسلة اقرأ)

● المسألة الصهيونية في نظر العلم، تأليف محمد عوض محمد، القاهرة، جامعة الدول العربية ، ١٩٤٧ ـ ٢٥ صفحة .

يفند الكاتب الزعم بأن يهود اوروبا من اصل فلسطيني على اسس علمية .

● وكذلك صدرت هناك بعض الكتب مثل : « مذكرة عصبة العمل القومي (مركز بيروت) ردا على تقرير اللجنة الملكية الانكليزية بشأن الجزء الجنوبي من ديار الشام « فلسطين » ، بيروت ، مطبعة الكشاف ، ٦٠ صفحة ـ والمؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧ ، عني بجمعه وتدقيقه فؤاد خليل مفرح ، وطبع بدمشق في ١٨٧ صفحة ـ مشكلة فلسطين (عرض عام) : النشرة الثانية من نشرات المكتب العربي ، وهي الجزء الثاني من المواد التي عرضها المكتب العربي بالقدس على لجنة التحقيق البريطانية الاميركية للنظر فيها خلال شهر اذار سنة ١٩٤٦ ، القدس ، مطبعة بيت المقدس طبع في ٢٢٢ صفحة ـ الصهيونية ، تأليف فرج الله الحلو سنة ١٩٤٥ ، والكتاب لا يأخذ وجهة النظر العربية الخالصة ويتبين فيه تحيز الكاتب ـ وكذلك النشرات الداخلية لعصبة التحرير الوطني في فلسطين سنة ١٩٤٥ ـ العقدة الفلسطينية والطريق الى حلها لعصبة التحرير الوطني في فلسطين ١٩٤٥ ـ ومشكلة الاراضي ومشروع شركة صندوق الامة لرابطة المثقفين العرب سنة ١٩٤٥ .

***

● وفي نهاية هذه الفترة ، والعالم العربي يغلي ضد الصهيونية والصحافة مشغولة بالخطر الصهيوني ، يتهم الاستاذ اسماعيل مظهر الذي كان يرأس تحرير مجلة المقتطف ، الدكتور طه حسين رئيس تحرير مجلة الكاتب المصري حينذاك ، التي كانت تصدرها دار الكاتب المصري ـ وهي « شركة مساهمة مصرية » للتجارة في أدوات الكتابة والطباعة ، أنشأت قسما للنشر باشراف طه حسين ـ اتهمه بانه يتعاون مع هذه الشركة ذات رأس المال اليهودي، والمشبوهة في نزعتها الصهيونية ، وتحداه ان تكون مجلة الكاتب المصري قد نشرت او يمكن ان تنشر شيئا عن القضية الفلسطينية ، رغم كثرة ما نشرته من شهريات سياسية على صفحاتها ، ورفض « المقتطف » ان يتعامل مع الكتاب الذين يتعاونون مع الكاتب المصري ، وكانت بداية المشكلة مقال لسلامة موسى رفض المقتطف نشره لتعامله مع الكاتب المصري ! ولثقة طه حسين بسلامة موقفه نشر كلمة اسماعيل مظهر في مجلته الكاتب المصري.

***

والفترة التالية التي تمتد من دخول الجيوش العربية فلسطين ، واعلان الحرب ... الى صدور التصريح الثلاثي لتأكيد حماية الاستعمار لاسرائيل ، تلك الفترة ـ من ١٩٤٨ الى ١٩٥٠ ـ هي فترة النكبة ، والصدمة ، واهتزاز الوجدان العربي بعنف ، وافتضاح القوى الرجعية العميلة المتحالفة مع الاستعمار الذي خلق اسرائيل ... قمة المأساة ، وضرب الشعب العربي من قياداته الضالعة مع الاستعمار ... فالقائد الاعلى للجيوش السبعة هو الامير عبد الله ، وقائده الفعلي هو غلوب ، ومطاردة قوى النضال الشعبي من حكومة عربية في

رام الله وغيرها ثم فضيحة مؤتمر اريحا ... مهزلة الهدنات الثلاث ، تشبث اسرائيل بسياسة الوضع القائم ، تبني الاستعمار الاميركي حماية اسرائيل ربيبة الاستعمار الجديد والصهيونية العالمية ثم مأساةاللاجئين، الحكومات العربية خاضعة للنفوذ الاستعماري ، والمغرب العربي لم يسفر عن وجهه العربي بعد ... حكومات لا وزن لها في المجال الدولي ، وكانت القضية قد خرجت الى المجال الدولي ... لقد كانت الصدمة من العنف بحيث أبرزت ازمة الكيان العربي وحتمية الوحدة العربية .

وبعد الصدمة اخذ الوجدان العربي يراجع ذاته ، يحاول ان يبحث عن حقيقته ويتعرف طريقه ... وقد تفجر الوجدان العربي عند قممه التي تملك السلطة على التغيير ، فكانت ثورات في سوريا ثم الثورة العربية الكبرى في مصر ... وابتدأت الاوضاع القديمة تهتز وتنهار لتخرج قوى الشعب الاصيلة ، وظهر في الكتب التي صدرت في هذه الفترة على قلتها نظرا للصدمة الاتجاه نحو البحث في معنى النكبة ، وان كانت الصحافة هي التي عكست بشكل اصدق حدة الازمة في هذه الفترة وعكست الاهتمام بالقضية اكثر من الكتب التي ظهرت ، وسنرى في هذه الفترة ظاهرة الكتيبات وهي ظاهرة ملحوظة عند النشاط السياسي وتعبئة الجماهير وقيادة الرأي العام .

ومن الكتب التي ظهرت في هذه الفترة نجد الكتب التالية :

- أوراق مجموعة ، كتاب أحمر عن فظائع الانكليز في فلسطين ... أصدره محمد علي الطاهر ومكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي ، طبع في القاهرة سنة ١٩٤٨ — ٦١٤ صفحة .
- طريق الخلاص — تحليل وضعي لمحنة فلسطين والقضايا العربية — تأليف جورج حنا . بيروت ، دار الاحد ١٩٤٨ — ٨١ صفحة .
- فلسطين والمظهر الجغرافي لمشكلتها ، تأليف يوسف مجلي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٤٨ — ١٧٤ صفحة
- فلسطين وضعها الجغرافي وتطورها التاريخي ، تأليف فخري الدين العبيدي ومحمد حامد الطائي بغداد ، مطبعة دار المعارف ١٩٤٨ — ٥٦ صفحة .
- فلسطين ، تأليف اسكندر عزيز ، القاهرة ، دار الفكر الحديث سنة ١٩٤٨ — ١٦ صفحة .
- فلسطين ، تأليف جفري بطرس غالي .
- القضية الفلسطينية ، تأليف محمد عبد المنعم عامر، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ — ١١٠ صفحة يريد الكاتب أن يستخلص العبرة من دراسته للقضية وهي ان القوة سبيل الحق وقد صدر الكتاب في مارس ١٩٤٨ ، ويذكر أن الشيوعيين هم اصدقاء للصهيونيين .
- المسألة الفلسطينية في منهاج المعارف السورية، تأليف وديع تلحوق . دمشق ، مطبعة الجمهورية السورية ١٩٤٨ — ٣٩ صفحة .
- معنى النكبة ، تأليف قسطنطين زريق . بيروت، دار العلم للملايين ١٩٤٨ — ٩٦ صفحة .
- عبرة فلسطين ، تأليف موسى العلمي — الطبعة الثالثة — بيروت ، دار الكشاف ١٩٤٩ — ٩٥ صفحة .
- كارثة فلسطين ، لجمعية انقاذ فلسطين ببغداد سنة ١٩٤٩ .
- من وحي فلسطين ، ابحاث ومقالات واحاديث تأليف احمد رمزي . القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٤٩ — ١٥٩ صفحة .
- بعد النكبة ، تأليف قدري حافظ طوقان . بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٥٠ — ٩٦ صفحة .
- دولة اسرائيل ، تأليف وديع تلحوق . دمشق ، مطبعة دمشق ١٩٥٠ — ٢١٠ صفحات .
- كارثة فلسطين ، تأليف فخري البارودي . دمشق ، مطبعة ابن زيدون ١٩٥٠ — ٦٤ صفحة .
- الصهيونية والماسونية تأليف عبد الرحمن سامي عصمت — طبعة ثانية — الاسكندرية ، مطابع رمسيس ١٩٥٠ — ١٣٢ صفحة .

ويؤكد الكاتب في بحثه ان كل يهودي صهيوني ، وان الماسونية مؤسسة صهيونية ، أسسها الصهيونيون من قديم لكي يمهد لهم الماسون أسباب الوصول الى أغراضهم ، وهو يربط بين البلاشفة والصهيونيين ، ويقول انه حاول في يونيه ١٩٤٨ كتابة مقال ينبه فيه على اطماع الصهيونية ، ولكن لم تنشره الا جريدة واحدة ، وطبع عجالة عن الموضوع ورفضتها الرقابة لانه كما يقول ربط بين الماسونية والصهيونية ، ثم اخذ يبحث حتى كتب كتابه هذا رابطا فيه بين الصهيونية والماسونية ، ورفض الرقيب طبع الطبعة الاولى سنة ١٩٤٩ ولكنه استطاع ان يطبعها في بيروت ثم يوزعها في مصر بالمجان .

***

وفي المرحلة التالية التي يمكن النظر اليها كفترتين من ١٩٥١ الى ١٩٥٦ ومن بعد العدوان الثلاثي على مصر الى الآن ، سنجد الكتب اخذت تكثر بشكل ملحوظ وخاصة بعد العدوان ، حيث اتضحت أبعاد الخطر وحيث يمكن ان يلمح المرء مظاهر الاهتمام الشديد بالقضية مما يوحي بالادراك الواعي لها ، واعطائها ما تستحقه من انتباه وتحفز ، مما يؤكد ان هناك طاقات ضخمة تدعمها ثورية عربية اصيلة خرجت الى الافق تحشد وتجمع استعدادا للمعركة الفاصلة للتخلص من الجسم الغريب الذي دقه الاستعمار في الارض العربية ... وخاتمة هذه المرحلة هو مؤتمر الذروة العربي في يناير ١٩٦٤ ، الذي اتخذ موقفا عربيا واحدا هو بداية مرحلة العمل العربي الموحد المشترك ، العمل العربي وقد اتحد جناحاه في المشرق والمغرب لمواجهة التحدي الاسرائيلي ... ان النهاية ، نهاية النضال ضد الاستعمار العالمي المتمثل في اسرائيل يبدو انها ستكلل بالنصر ، « وقد اتخذ المؤتمر القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيوني الماثل سواء في الميدان الدفاعي او الميدان الفني او ميدان تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره » .

والذي يتأمل التطورات السياسية..والاجتماعية.. والاقتصادية والاتجاهات الثورية التي حدثت في العالم العربي منذ النكبة .. الى الآن ، انها تطورات هائلة ومعجزة وثورية سيطمئن فعلا الى اننا مقدمون على مرحلة عمل خلاق ... وقد عكست هذه التطورات والاهتمامات ... الكتب العديدة التي ظهرت حول قضية فلسطين في هذه المرحلة .

***

وتمتاز هذه المرحلة بالكتب الهامة التي ظهرت فيها

من مثل كتاب سعدي بسيسو عن « اسرائيل جناية وخيانة » الذي يتناول الحركة الصهيونية ومراحلها ودور بريطانيا في خلق اسرائيل ، والكتاب يهدف الى جعل الشعور بالخطر اليهودي عاما لدى جميع الشعوب العربية والحكومات ، ويهدف الى تحويل هذا الشعور الى ارادة حية لمقاومته ومكافحته وتأكيد الحصار على اسرائيل ، وكتاب وليد قمحاوي عن « النكبة والبناء » في جزءين ، وكتاب هانيء الهندي ومحسن ابراهيم عن « اسرائيل فكرة حركة دولة » الذي يرى ان اليهود جميعا على اختلاف مذاهبهم السياسية في العالم لهم اهداف محددة ووسائل واحدة وان بدت متناقضة ومختلفة وهي الوصول الى مخططات الصهيونية واحلام اليهود ، ويربط بين الصهيونية والاستعمار ويتحدث عن المجتمع الاسرائيلي ونظم حكمه واحزابه السياسية ومنظماته العمالية وجيشه ومؤسساته ومعاهده ، وهناك « كارثة فلسطين » لعبد الله التل ، الذي يعتبر شهادة من أحد قواد المعركة ، وهو يتناول في الجزء الذي ظهر الفترة من صدور قرار التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ الى يوم ١٠ اكتوبر ١٩٤٩ ، مع الاهتمام بشرح المعارك والاحداث السياسية والعسكرية التي كان له صلة بها ، والكتاب مليء بالوثائق والمستندات وهو مرجع لا غنى عنه لدراسة معركة فلسطين ، وهناك كذلك كتاب شفيق الرشيدات عن « فلسطين تاريخا وعبرة ومصيرا » وكتاب « الصهيونية وربيبتها اسرائيل » لمحمد فوزي وعمر رشدي وهو دراسة مفصلة للصهيونية واسرائيل من مختلف جوانبها ، وكتاب « القضية الفلسطينية » لاكرم زعيتر وهو عبارة عن استعراض تاريخي موجز ولكنه دقيق لتطورات القضية حتى ١٩٥٥ ، وكتاب محمد علي علوبة عن « فلسطين وجاراتها » وأهميته ترجع الى ان صاحبه من الذين شاركوا في الجانب الشعبي والرسمي في بعض نواحي تطورات القضية وهو احد المساهمين في تكوين « هيئة وادي النيل العليا لانقاذ فلسطين » ، وظهرت كذلك اكثر من مرة ترجمة لبروتوكولات حكماء صهيون في الجرائد والمجلات ثم ترجمة دقيقة مدعمة بالشرح والتعليق لمحمد خليفة التونسي ... وكتاب محمد طلعت الغنيمي عن « قضية فلسطين أمام القانون الدولي » وهو يرى ان ما كتب عن فلسطين تغلب عليه النزعة السياسية والانسانية في عرض الموضوع وقل ان يهتم بابراز الناحية القانونية ابرازا فنيا ولذا فانه يقدم دراسة عن الناحية الدولية للقضية هي اشبه بالمذكرات التي تقدم الى الهيئات القضائية ، ويرى ان مواجهة اسرائيل لا تتم الا بايجاد تنظيم شعبي عربي يقوم على تحقيق الغاية الكبرى ... « وخير تنظيم هو التنظيم الذي يتفيا التنظيم الصهيوني ، فبعض السم ترياق لبعض ... واذن لا بد من قيام مؤتمر عربي عام على غرار المؤتمر الصهيوني يتزود بجهازين أحدهما اداري والاخر مالي ، وتكون مهمته اجراء دعاية واسعة النطاق للقضية ، واقناع الرأي العام العالمي بها واجتذاب الحكومات الى جانبها وتدريب المواطنين عموما والفلسطينيين خصوصا لاستعادة الوطن السليب ، وجمع المال اللازم لذلك من العرب ، كما كان المؤتمر الصهيوني يفعل » (ص ٢٣٢) — وهناك كتاب « هكذا ضاعت وهكذا تعود » لنقولا الدر ، الذي يبرز امكانيات العرب على خوض معركة ناجحة ضد الصهيونية وحلفائها من المستعمرين ، والاسلحة التي يملكها العرب لفرض حقهم واستعادة فلسطين وخاصة البترول والكتاب مدعم بالوقائع والمصادر والاحصائيات .

وأحدث الكتب التي ظهرت كتاب « نظام الحكم في اسرائيل » تأليف عبد الحميد متولي ، وهو عبارة عن محاضرات على طلبة قسم الدراسات الفلسطينية بمعهد الدراسات العربية العالية ، وهو أوفى وأحدث دراسة قانونية لنظام الحكم في اسرائيل من حيث الدولة والاحزاب السياسية ، ومشكلة الدستور بها والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والوضع الداخلي ، ويكشف المؤلف وهو احد فقهاء القانون البارزين عن غرابة نظام الحكم في اسرائيل وعما فيه من تناقضات ، مجتمع افراده جاءوا من ٧٤ دولة مختلفة ، ويتكلمون لغات متباينة ، دولة مواطنوها لم يولدوا بها ، احياء لغة ميتة لافتعال عنصر مشترك لكيانها القومي المصطنع ، مصادر متعددة للقانون ، تاريخيا شعب انطوائي والان قمة في النزعة العدوانية !

***

والان نظرة الى الكتب التي ظهرت في هذه المرحلة :

- تاريخ القدس ، تأليف عارف العارف . القاهرة دار المعارف ١٩٥١ .

وقد ألف الكاتب اكثر من كتاب عن النكبة ، فكتابه عن تاريخ القدس عرض تاريخي للاحداث التي ألمت بالمدينة في مختلف العصور ، وقد ألف كتابا بعنوان بيت المقدس (١٩٥٠) تناول فيه الحديث عن النكبة التي ألمت بالمدينة بوجه خاص وفلسطين بوجه عام من اليوم الذي صدر فيه قرار التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧ الى ١٩٥٠ ... وقد اصدر كذلك كتابا عن « النكبة » من اربعة اجزاء (١٩٥٦ — ١٩٥٩) ، وكذلك كتابا بعنوان « النكبة في صور » ٤٤٠ صفحة سنة ١٩٦١ طبع في بيروت بدار العلم للملايين ، فكأن له سبعة اجزاء عن النكبة — نكبة بيت المقدس .

- قضية فلسطين ، تأليف أحمد الشقيري . الجامعة العربية ١٩٥١ .
- الصهيونية سافرة ، تأليف احمد حامد الفقي . القاهرة ١٩٥١ .
- من اثر النكبة ، تأليف محمد نمر الخطيب . دمشق ، المطبعة العمومية ، ١٩٥١ — ٤٠٧ صفحة .
- اسرائيل خطر اقتصادي وعسكري وسياسي — اعداد المكتب الدائم لاتحاد غرف التجارة والصناعة والزراعة في البلاد العربية . بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٥٢ — ١٨٤ صفحة .

يحاول الكتاب ان يدرس اسرائيل من الداخل ، ويبين ان نشاطها العسكري والسياسي موجه نحو خدمة غرضها العدواني ، ويدرس الوضع الاقتصادي في اسرائيل ويذكر مشاكلها الاقتصادية ثم يبحث الموقف العربي ازاء اسرائيل ، ويهدف الكتاب الى تعبئة الجهود العربية لمقاومة الخطر الصهيوني .

- اسرائيل العدو المشترك ، تأليف محمد صفوت . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ — ٢٧٠ صفحة .

وقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في ١٩٥٢ ، ويولي الكتاب اهتماما لحرب فلسطين ويحاول تصوير اسرائيل من الداخل ويتحدث عن جيشها واقتصادياتها وسياستها العدوانية .

● تقرير عن تعليم ابناء اللاجئين الفلسطينيين ورعاية شؤونهم الاجتماعية والصحية مقدم من بعثة دراسة شؤون تعليم ابناء اللاجئين لمجلس جامعة الدول العربية . القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٠ – ١٨٤ صفحة .

● حرب فلسطين ، للضابط طارق الافريقي ١٩٥٢

● جيشنا في فلسطين ، تأليف السيد فرج – القاهرة – ١٢٦ صفحة .

● منابت الصهيونية تأليف توفيق قزمان ، بيروت ١٩٥٣ – ٤٨ صفحة .

وهو قصة تاريخية تعتمد على اقتباسات من التوراة « من فمك ادينك يا اسرائيل »

● حقائق عن عرب فلسطين صرح بها سماحة الحاج محمد امين الحسيني وكشف الستار عن بعض المؤامرات الدولية اليهودية التي كانت من اهم الاسباب في كارثة فلسطين – أصدره مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين – القاهرة ، المطبعة السلفية ١٩٥٤ – ٢٠٥ صفحة .

● فلسطين وجاراتها – اسباب ونتائج ، تأليف محمد علي علوبة . القاهرة ، لجنة البيان العربي ١٩٥٤ – ٢٢٠ صفحة .

● الشرق الاوسط ومشكلة فلسطين ، تأليف احمد سويلم العمري . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٤ – ٤٣٤ صفحة .

وهذا الكتاب دراسة للمشكلة على جانب من التفصيل ويبين ان الصهيونية اداة سياسية تعصبية ويتناول دولة اسرائيل ووضعها في المجال الدولي وبه نظرات حول مستقبل المشكلة .

● الصلح مع اسرائيل، تأليف عميد الامام . القاهرة، شركة النيل للنشر والتوزيع ١٩٥٤ – ١٩٨ صفحة .

والكتاب مناقشة واعية لقضية اسرائيل ، وواجب العرب في مواجهة هذا الخطر .

● من اجل فلسطين ، تأليف احمد الشرباصي . القاهرة ، المطبعة السلفية ١٩٥٤ – ٩٦ صفحة .

● اضطهاد العرب في اسرائيل ، تقرير موجز وتقرير مفصل : اعداد الشعبة السياسية لادارة فلسطين بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٥ – ٣٢ صفحة .

● أعوان اسرائيل في مصر ، تأليف علي محمد نظيف . القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٥ – ١٤٢ صفحة .

المؤلف خبير بمراقبة النقد بوزارة المالية ويتحدث عن أهمية المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل وتهريب الاموال الى اسرائيل اثناء حرب فلسطين وأساليب هذا التهريب .

● صرخة الى السماء : هل نترك اسرائيل تقوم وفلسطين تحتضر . القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٥٥ .

وهو كتاب مليء بعدد من الوقائع والحقائق ، وهو مجلد يحتوي على ثلاثة اجزاء بعنوان « فلسطين تحتضر » ٩٧ صفحة و « دولة اسرائيل » ١٤٠ صفحة و « اللاجئون العرب » ١٠٣ صفحات .

● القضية الفلسطينية ، تأليف اكرم زعيتر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٥ – ٣١٩ صفحة .

● المؤامرة الكبرى – اغتيال فلسطين ومحق العرب. القاهرة ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٥ – ٢٧٦ صفحة .

يتناول الكتاب لمحة تاريخية عن تاريخ فلسطين ثم فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وصور من نضال العرب ضد الاستعمار البريطاني ، ثم يستعرض العوامل الرئيسية في ضياع فلسطين ويوضح الخطط التي اعدتها الصهيونية بالتعاون مع الاستعمار لاغتصاب فلسطين .

● نحن واسرائيل ، تأليف بشارة المر ، ١٩٥٥

● اضطهاد العرب في اسرائيل . وضعته الامانة العامة لجامعة الدول العربية ١٩٥٦ – ٣٢ صفحة .

● املاك العرب واموالهم المجمدة في فلسطين المحتلة . وضعته الامانة العامة لجامعة الدول العربية ١٩٥٦ – ٤٠ صفحة .

● التقرير السنوي لمدير وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم عن الفترة الواقعة بين اول يوليو ١٩٥٥ وبين ٣٠ يونيه ١٩٥٦ – نيويورك ١٩٥٦ – ١٢٦ صفحة .

● الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار . تأليف فتحي الرملي . القاهرة ، وكالة الصحافة الافريقية ١٩٥٦ – ٢٥٦ صفحة .

والكتاب يحشد من الاحداث والوقائع ما يحتاج الى التدعيم بالسند العلمي ، ولكنه يكشف عن الرابطة الوثيقة بين الاستعمار والصهيونية .

● فلسطين ، كيف اخذت وكيف تحل مشكلتها ، تأليف محمد توفيق حسن . القاهرة ، لجنة البيان العربي ١٩٥٦ – ٩٣ صفحة .

● سكان فلسطين ودراسة تاريخهم الجنسي ، بقلم محمد السيد غلاب وهو مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٦ (ص ١٢٥ – ١٥٤) وهو دراسة انثروبولوجية علمية وملاحظات دقيقة حول الموضوع تبين ان عرب فلسطين هم سكانها الاصليون ، تاريخيا وانثروبولوجيا ، مستندا في ذلك كله الى الدراسة العلمية .

● مصرع اسرائيل ، تأليف حلمي ابو شعبان . دار اخبار اليوم ١٩٥٦ – ١٤٣ صفحة .

● هذا العدو ، تأليف محمد بليغ محمود . القاهرة ، دار الهنا للطباعة والنشر ١٩٥٦ – ١٥ صفحة .

● اسرائيل جناية وخيانة ، تأليف سعدي بسيسو – الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٧ – ٢٠١ صفحة .

● اعتداءات اسرائيل قبل هجوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ على مصر : اصدار الشعبة السياسية لادارة فلسطين بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ١٩٥٧ – ١٩٥ صفحة

● اميركا مستعمرة صهيونية ، تأليف صلاح دسوقي . القاهرة ، مجلة البوليس ١٩٥٧ – ٨١ صفحة.

● أيها العربي اعرف عدوك ، الاعتداء الاسرائيلي على قطاع غزة وسيناء ، ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ – ٨ مارس ١٩٥٧ ، وضع ادارة فلسطين بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ١٩٥٧ – ١٢٧ صفحة .

● البوليس الدولي ، تأليف حمدي فؤاد . القاهرة، الدار المصرية للكتب ١٩٥٧ – ٧٥ صفحة .

● بيان من الهيئة العربية العليا لفلسطين بشأن العدوان اليهودي على جبل المكبر وخطوط الهدنة واستفحال النفوذ الاميركي في الاردن ، تواطؤ اميركا وبريطانيا مع اليهود في مجلس الامن : صدر عن مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين . القاهرة ١٩٥٧ – ٨ صفحات .

● الحكومة العالمية ، حلم صهيون : تأليف محمد العتريس زكي . القاهرة ، مكتبة دار العروبة ١٩٥٧ — ٩٤ صفحة .

● سيناء أرض المعارك ، تأليف عبد الرحمن زكي . القاهرة ، وادي النيل للطباعة ١٩٥٧ — ٢٣٥ صفحة .

● كنت في اسرائيل ، تأليف ابراهيم عزت . المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ١٩٥٧ — ١٢٩ صفحة.
يحكي الكاتب في هذا الكتاب مغامرته كصحفي استطاع ان يدخل اسرائيل لمدة احد عشر يوما .

● محنة المسيحية في اسرائيل — وضع ادارة فلسطين بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ١٩٥٧ — ٦٣ صفحة .

● مذكرة عن خليج العقبة ومطامع اليهود السياسية والاقتصادية في الاقطار العربية وحوض البحر الاحمر وشرق افريقية . وضع الهيئة العربية العليا لفلسطين . القاهرة ١٩٥٧ — ١٦ صفحة .

● مذكرة عن قضية فلسطين ومطالب الشعب العربي الفلسطيني . وضع الهيئة العربية العليا لفلسطين . القاهرة ، ١٩٥٧ — ٢٣ صفحة .

● مناقشات الجمعية العمومية للامم المتحدة حول انسحاب قوات اسرائيل من سيناء والعقبة : عنيت بطبعه ادارة الصحافة بوزارة الخارجية . القاهرة ، ١٩٥٧ — ١١٨ صفحة (وهي النشرة الصحفية — العدد ٣)

● الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، المجموعة الاولى ، ١٩١٥ — ١٩٤٦ — عنيت بطبعها الشعبة السياسية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٥٧ — ٤٧٤ صفحة .

● اليهود كما وصفهم القرآن والانجيل والتوراة ، تأليف بشارة عبده سلامة . القاهرة ، مطبعة الامانة ١٩٥٧ — ٤٨ صفحة .

● اسرائيل — فكرة ، حركة ، دولة — تأليف هانيء الهندي ومحسن ابراهيم — دار الفجر الجديد للطباعة والنشر ببيروت ١٩٥٨ .

● اسرائيل قاعدة للاستعمار وليست امة ، تأليف عبدالمنعم الغزالي . القاهرة، دار الفكر ١٩٥٨ — ١١٤ صفحة

● فلسطين في المعركة ، تأليف فؤاد نصحي — طبعة ثانية — القاهرة ، ١٩٥٨ — ٢٥٥ صفحة .

● ندوة على مستوى عال ، أسئلة العرب واجابات الاميركان ، موقف الولايات المتحدة من اسرائيل ، اميركا والمؤامرات ضد البلاد العربية ، المعونة الاميركية الاقتصادية والعسكرية . تأليف حسين فهمي . القاهرة ، دار الفكر ١٩٥٨ — ٣٢ صفحة .

● ارض الميعاد ، تأليف حسين فوزي النجار . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩ — ٢٢٦ صفحة ، وهو دراسة علمية تاريخية للوعد الالهي لبني اسرائيل بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية ، ولعلها أوفى دراسة لهذه النقطة .

● الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، تأليف صبحي محمد ياسين . القاهرة ، النادي الفلسطيني العربي ١٩٥٩ — ٢٤٠ صفحة .

● الشيوعية والصهيونية ، تأليف ماهر نسيم . القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ — ١٩١ صفحة .
يحاول الكاتب ان يدلل على اساس من دراسة بروتوكولات حكماء صهيون أوجه الشبه بين الصهيونية والشيوعية في الاساليب والغايات .

● فلسطين المحتلة — وضع الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب . القاهرة ١٩٥٩ — ٧٠ صفحة .

● كارثة فلسطين (مذكرات عبد الله التل قائد معركة القدس) جزء اول ، القاهرة ، دار القلم ١٩٥٩ — ٦٤٥ صفحة .

● محاضرات في تاريخ قضية فلسطين — منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى (١٩٣٦) . تأليف احمد طربين . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩ — ٢٧٦ صفحة .

● اعتداءات اسرائيل على قطاع غزة وسيناء من ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ — ٨ مارس ١٩٥٧ ، من وضع الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ١٩٦٠ — ١٧٣ صفحة .

● الاقلية العربية في ظلام اسرائيل ، وضع الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ١٩٦٠ — ٧١ صفحة .

● نهاية اسرائيل ، تأليف صبري ابو المجد . القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٠ — ١٦٢ صفحة

● اسرائيل والقنبلة الذرية ، تأليف حسن مصطفى. بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٦١ — ٢٣٢ صفحة
والمؤلف كان آمر كلية الاركان العراقية فهو يحاول ان يوضح محاولة اسرائيل الحصول على السلاح الذري ونواياها العدوانية ضد العرب .

● طريق العودة الى فلسطين ، تأليف صبحي يس. القاهرة ١٩٦٠ — ٢٧٢ صفحة .
يحاول المؤلف ان يقدم بعض المقترحات التي تبين طريق العودة الى فلسطين في الفصل الاخير من كتابه .

● تاريخ القضية الفلسطينية ، تأليف الدكتور محمد انيس . القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦١
وهي عبارة عن محاضرة ألقاها بالجمعية الجغرافية في فبراير ١٩٦١ ويبرز المحاضر مسؤولية بريطانيا عن النكبة قبل الحرب الثانية ومسؤولية الولايات المتحدة بعدها الى الان .

● فلسطين تاريخا وعبرة ومصيرا ، تأليف شفيق الرشيدات . بيروت ، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة ١٩٦١ — ٤١٢ صفحة
وهو كتاب هام مفصل يربط بين قضية اللاجئين وقضية فلسطين ولا يمكن درس القضية الا بالنظر الى خطط الصهيونية العالمية وخلق دولة اسرائيل ، ويتحدث عن النزعة اليهودية كدين وقومية ويناقش ذلك ثم يستعرض آمال اليهود ومخططاتهم وقراراتهم وان السبب في تحقيق آمالهم هو اتفاق مخططهم مع الاستعمار ، وقد تناول القضية في عرض تاريخي موسع ليستخلص العبرة من دراستها .

● مشكلة اللاجئين العرب ، تأليف ادوارد سيدهم القاهرة ، مطبعة الوحدة ١٩٦١ .
والكتاب دراسة وافية للمشكلة ، وهو رسالة نال مؤلفها بها الدكتوراه ، وللكتاب طبعة أخرى نشرتها الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

● الخطر اليهودي ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسي — الطبعة الثانية — القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٦١ — ٢٤٨ صفحة .
وقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب الهام في سنة ١٩٥١ .

● رواية بن غوريون للتاريخ ، بقلم سيد نوفل . القاهرة ، جامعة الدول العربية ١٩٦٢ – ٦٤ صفحة .

وهو عبارة عن رد من وجهة النظر العربية على ست مقالات نشرها بن غوريون في النيويورك هيرالد تريبيون .

● دفاعا عن فلسطين والجزائر ، بقلم احمد الشقيري وتعريب خيري حماد . بيروت ، منشورات المكتب التجاري ١٩٦٢ – ٢١٠ صفحات .

والكتاب عبارة عن مجموعة الخطب التي القاها الشقيري في الامم المتحدة سنة ١٩٦٠ ، وأضاف المترجم في نهاية الكتاب خطابين له أحدهما عن الاستعمار والاخر عن الجزائر .

● فلسطين ، تأليف نايل شوكت الجمال . القاهرة، القيادة العامة للقوات المسلحة (رسائل الثقافة الحربية ٤٨) ١٩٦٢ – ١١٥ صفحة .

● أملاك العرب وأموالهم المجمدة في فلسطين المحتلة . أعده يعقوب خوري وأصدرته شعبة اللاجئين بادارة فلسطين بالامانة العامة لجامعة الدول العربية – ٤٠ صفحة .

● قضية فلسطين الحربية والسياسية ، تأليف جميل الشقيري . الاسكندرية ، ١٩٦٢ – ١٩٨ صفحة .

● القومية العربية والقومية اليهودية ، تأليف عبد الله بري . بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة (في حدود ١٩٦٢)

● النكبة والبناء ، تأليف وليد قمحاوي . بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٦٢ – جزآن .

● قضية فلسطين امام القانون الدولي ، تأليف محمد طلعت الغنيمي . القاهرة ، دار المعارف (١٩٦٣) – ٢٣٩ صفحة .

● الصهيونية وربيبتها اسرائيل ، تأليف محمد فوزي وعمر رشدي . القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٦٢ – ٣٩٦ صفحة .

● الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ، تأليف علي امام عطية . القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٣ – ٣٢٨ صفحة .

● فلسطين ومنطق السيادات السياسية ، تأليف وليد الخالدي . بيروت ، دار الفجر الجديد ١٩٦٣ .

عبارة عن خمس دراسات حول القضية الفلسطينية، قضية فلسطين والفكر التطبيقي ، فلسطين ومنطق السيادات السياسية ، العوامل الخارجية في القضية الفلسطينية ، الوحدة العربية بين الحقيقة والمجاز ، استراتيجية اسرائيل .

● فلسطين اليوم لا غدا ، بقلم رياض طه . بيروت (١٩٦٣) .

● هكذا ضاعت وهكذا تعود ، تأليف نقولا الدر . بيروت ١٩٦٣ .

● القضية الفلسطينية ، تأليف محمد عزة دروزة. بيروت ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – جزآن .

من المراجع التاريخية الوافية حول الموضوع ، والمؤلف من المؤرخين العرب الذين تخصصوا في القضية العربية وله اكثر من كتاب « ضخم » حول الموضوع مثل حول الحركة العربية في ستة اجزاء وعن الوحدة العربية وعن الجنس العربي ... وعن تاريخ بني اسرائيل من كتبهم .

● نظام الحكم في اسرائيل ، تأليف عبد الحميد متولي . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٤ – ٣١٦ صفحة .

***

وهناك الكتب التي صدرت في هذه الفترة ايضا عن الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ضمن السلاسل التي تصدرها الدار ، وان كانت احدى هذه السلاسل وهي سلسلة « اخترنا لك » قد صدرت قبل انشاء الدار القومية ... ويلاحظ ان بعض هذه الكتب من المراجع وبعضها الاخر يقوم على التعريف بالمناسبات والاحداث بهدف التوعية الشعبية ... ومن الامور التي ينبغي الالتفات اليها – ولا أدري ان كان ذلك عن تخطيط ام عن اتفاق وانعكاس تلقائي لاهتمامات اللجنة المشرفة على السلسلة – ان الكتاب الاول كان عن الصهيونية والكتاب الثاني عن زعمائها « زعماء العصابات الاستعمارية » ، مما يؤذن ، ان مشكلة الصهيونية هي المشكلة الاولى والعاجلة ، انها مأساة العرب ، ثم كان الكتاب الثالث هو « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر ... تخطيط لحل المشكلة ، مشكلة العرب بالاسلوب الثوري، وهو الاسلوب الوحيد الذي يصلح علاجا للوضع العربي.. على كل وجد العرب ذاتهم وعرفوا طريقهم ... وكانت لمسة يمكن استخراج معناها كتلخيص للطريق ، وقد صدر من سلسلة اخترنا لك الكتب التالية حول الموضوع :

● هذه هي الصهيونية ، اعداد لجنة الثقافة والنشر بهيئة التحرير ، العدد ١ – ١٩٥٤

● زعماء العصابات الاستعمارية – العدد الثاني – (اعداد لجنة اخترنا لك)

● اسرائيل والدول الكبرى ، تأليف يحيى عويس (العدد ٢٣) ١٩٥٦

● الصهيونية العالمية ، تأليف عباس محمود العقاد (العدد ٢٧)

● الصهيونية في المجال الدولي ، تأليف محمد عبد المعز نصر (العدد ٣٦) ١٩٥٧

● اسرائيل من صنع الاستعمار ، تأليف طه احمد شرف (العدد ٣٩)

● تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ، تأليف محمد عزة دروزة – ثلاثة اجزاء .

***

ومن مجموعة كتب سياسية ظهرت الكتب التالية او الكتيبات بمعنى أدق :

● أسرار الصهيونية ، تأليف عبد المنعم شميس ، ١٩٥٧ (العدد ١)

● خليج العقبة ، لحمدي حافظ ومحمد عبد الرازق (العدد ٢)

● بروتوكول حكماء صهيون (العدد ٥)

● التلمود شريعة اسرائيل – رقم ١٨

● اللاجئون لاحمد عمر هلال ويحيى عاكف – رقم ٣٣

● اسرائيل عصابة عدوانية ، لعبد المنعم شميس ومحمود الشرقاوي – رقم ٥٦

● الصهيوني العالمي (سنة ١٩٥٨) – رقم ٧٦

● اسرائيل جناية وخيانة، لسعدي بسيسو – رقم ٨٢

● اسرائيل في الميزان لمحمد عطية واكد ، ١٩٥٩ – رقم ١٠٣

● اسرائيل وكر الاستعمار لنفس المؤلف – رقم ١٠٧

● الذبائح الصهيونية، لعبد المنعم شميس – رقم ١٠٨
● مندوب الاردن في اسرائيل لنفس المؤلف – رقم ١١١
● ١٠٠ ساعة في الوحل – جزآن
● مؤامرة مياه الاردن ، لفتحي عثمان المحلاوي – رقم ١٣٨
● ازمة كليوباترة مؤامرة صهيونية ، لسعد جلال وعطية عبد الجواد – رقم ١٥٩
● لن تمر اسرائيل لمحمد مصطفى حسن (١٩٦٠) – رقم ١٧٢
● العالم والعدوان الثلاثي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ – رقم ١٨٣
● الاستعمار الصهيوني في اسيا وافريقيا ، لحامد اسماعيل سيد احمد (١٩٦٣)

***

ومن مجموعة كتب قومية ظهرت الكتيبات ، ثم الكتب او الدراسات غالبا منذ سنة ١٩٦٣ ... التالية :

● فلسطين وبعث القومية العربية لعبد الله التل (سنة ١٩٥٩) – رقم ٢٩
● تحويل مجرى نهر الاردن ، لاحمد عبد الكريم (سنة ١٩٦٠) – رقم ٥٠
● كيف صنع الانكليز الاردن ، المفاوضات السرية بين الصهيونية والبيت الهاشمي لمحمد العربي – رقم ٨٢
● فضائح اسرائيل لمحمد عطية واكد – جزآن .
● الوحدة وقضية فلسطين ، لناصر الدين النشاشيبي (سنة ١٩٦١) – رقم ١٠٩
● التغلغل الصهيوني في افريقيا لمحمد البشبيشي – رقم ١١٣
● جرائم الصهيونية بين القاهرة والقدس، لصبحي صادق النجار – ١١٨
● موجز القضية الفلسطينية، لعلي محمد علي – ١٣٤
● الاسرائيليون والمؤامرة الكبرى لجمال الدين الرمادي (١٩٦٢) – ١٤٨
● قضية اللاجئين لعادل حسن غنيم – ١٥٧
● الشعب الضليل اسرائيل لاحمد يوسف احمد – ١٧٦
● الذبائح البشرية التلمودية لعبد العاطي جلال – ١٨٤
● الوعد الباطل – وعد بلفور لعلي محمد علي – ١٨٨
● سحق العدوان الثلاثي لرابح لطفي جمعة – ١٨٩
● اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة ليحيى المصري – ١٩٢
● فلسطين بين عصبة الامم والامم المتحدة ، لعلي محمد علي – ١٩٤
● الصهيونية ماضيها وحاضرها لحلمي محمد نجم واحمد صقر – ١٩٥
● بن غوريون ... الكذاب ، لمحمد حسين شعبان (١٩٦٣) – ٢٣٣
● دولة الارهاب لعلي محمد علي ومحمد هانيء – ٢٤٠
● قضية لافون وفضائح بن غوريون لمحمد عطية واكد – ٢٢٣
● في داخل اسرائيل ، لعلي محمد علي – ٢٢٢

يعرض للوضع السياسي والاقتصادي داخل اسرائيل على نحو مفصل ، ووضع الاقلية العربية المضطهدة بها ، وبالكتاب قاموس لاهم الشخصيات الهامة والمدن وجدول يوضح الحكومات التي تعاقبت على اسرائيل ، والمؤلف بحكم عمله ووظيفته في مصلحة الاستعلامات ، تتوافر لديه المادة الكافية عن الموضوعات التي يعالجها خاصة باسرائيل .

● نهر الاردن والمؤامرة الصهيونية ، تأليف علي محمد علي – ٢٧٢

وقد صدر الكتاب في يناير ١٩٦٤ ، وقت انعقاد مؤتمر الذروة العربي ، وهو عبارة عن دراسة مستفيضة مدعمة بالخرائط والوثائق .

***

وهناك كتب أخرى غير ما ذكرنا ... ظهرت في هذه الفترة مثل « التسلل الاسرائيلي » لمحمود الشرقاوي، و « فلسطين اندلس الشرق » لمحمد جميل بيهم » ، و « فلسطين مأساة العالم العربي » لمحمد فايز القصري، وكذلك بعض الابحاث والدراسات مثل « ادعاء اسرائيل حق المرور في قناة السويس » لجمال مرسي بدر – محاضرات كتاب مؤتمر المحامين العرب، و « حق الجمهورية العربية المتحدة في منع اسرائيل من نقل بضائعها عبر قناة السويس » لعادل محمد علوبة .

***

والان ، وبعد ان رأينا هذا الحصاد ... الذي اخذ بعد السويس يعلو الى مستوى الخطر فعلا على الصعيد الفكري ، وقمته على الصعيد السياسي كان مؤتمر الذروة ... فلنا ان نثق في مواجهة التحدي الجديد بنجاح ، واننا نرى ضوء الصبح ، صبح فلسطين في الافق العربي .

القاهرة — **عبد الجليل حسن**

من المنفى الاختياري

الذكريات عندما تهزني ،
ولم يعد صقري يحرك الجناح
في كوخي البالي على الشاطىء
شباكي المهترئات
تقضي الليل تبعث الرعب لافكاري
وقاربي يضاجع الرمال
طفت به اللذة فانحنى ومال
... وتطمع الاسماك في كوخي
أنا الذي أطعمتها السردين
خدعتها ، جذبتها وفي ثناياها لبحرها :
حنين
وقيل لي : اكتب ففي تشرين :
معين مأساة ، معين بؤس !!
... وتبحر الافكار في رأسي ، تدور
اني ارى ازدحامها ، مرافئا تمور
أأكتب الضياع للضياع ؟
أأكسر الشراع بالشراع ؟

***

في كل عام امطروا تشرين :
باللعن والدموع والانين
مسكين !
سأكتب الشعر وأحرق الحروف
لعل شعبي في بلاد الشمس
ينظم الصفوف .
لعل مليون اجتماع فارغات
الا من التهديد والوعيد !
والشتم والاحلام والصيحات
يصبحن ألفا ، مائة ، عشرات :
تصنع للميدان دبابات
بالصمت والايمان والثبات
اقسم انني .. هناك
سأصلح القارب .. أرتق الشباك
اصرخ بالحيتان والاسماك
وأركب البحر وانشر القلوع
واقبر الآه بلا دمـــوع

***

لكنني هنا .. ما زلت منفيًا .
يصلبني « تشرين »
يرعبني « ايار »
لما انتهكنا وضح النهار
لكنني هنا ما زلت في كوخي :
شباكي المهترئات :
تقضي الليالي تبعث الرعب لافكاري
أشباحها مريعة كأنها حيات

***

بالامس غالبت الردى في قاربي .
وكان في يدي اخر مسمار
وقطعة من الجلد بلا لون
نزعتها من سترتي الجرداء
... وأبحر الشيخ وأوهم الاسماك
مغامرا يحرق شوقه القديم
فعنده الجنة كالجحيم
« همنجواي » ذلك العظيم
... لكنه عاد مع الصباح
عاد وكفاه دم ، جراح
وصيده الكبير من يديه راح .

***

اني هنا اكتب في تشرين
وقد مضى سبع وأربعون ، كلها تشرين
متى اغادر الشاطىء للشاطىء
وكلها شواطىء حبيبه
حتى أحط اقدامي على ثرى يافا ..
يافا الغريبه ؟؟

محيي الدين عبد الرحمن
جامعة القاهرة
كلية الاقتصاد والسياسة

الأب والابن

مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم سميح يانس

الشخصيات

في الفصل الاول

المختار
سامي ، ابنه
نزيه ، ابن اخيه
هدى ، ابنته
السائق أحمد
الناظر

في الفصل الثاني

سامي
نزيه
عادل } اصدقاء سامي
مروان }
فدوى ، حبيبته

في الفصل الثالث

. . . . ؟ ؟
. . . . ؟ ؟

الفصل الاول

المنظر ... غرفة في الطابق الاول ، مناسبة تماما اذا عرفنا انها غرفة الاستقبال في بيت مختار قرية من القرى المتأخرة ... في صدر المسرح نافذتان من الخشب أميل الى الطول يغطي كلا منهما ستار بسيط ... الجدران عارية ما عدا الجدار الايمن الذي يحمل صورة للمرحوم والد المختار ... يوجد تحت النافذتين ديوان عريض وطويل ومثله على الجانبين ... هناك منضدة قريبة من الديوان الايسر يمكن ان تستعمل لبقايا السجاير او لشرب الشاي .. ومنضدة اخرى في الزاوية اليمنى وضع عليها الراديو الذي يعمل بالبطارية .. باب الغرفة في يسار المسرح وأقرب للجمهور ...

نزيه : (جالسا قرب الباب كمن ينتظر الطبيب) سيداتي سادتي.. قبل انتصاف هذا القرن ، كانت هناك بواخر كبيرة تملكها دول معينة تمر بحيفا ويافا تفرغ الاخشاب والورق الرقيق لتعود به بعد شهور يلف البرتقال ويزين موائد الاوروبيين ... لكنها كانت احيانا وفي الليالي المظلمة تقذف الى الرصيف نماذج بشرية ملأ قلبها الحقد على كل البشر ... وبالقرب من يافا عاش أهل بيت دجن يقطفون البرتقال ويغنون شبابا وفتيات ، ويسمعون اشياء كثيرة لكن قلوبهم الطيبة لم تسمح لهم ان يروا ما كان يخبئه لهم القدر ... وفي بيت عمي تاجر البرتقال ومختار القرية حدثت اشياء واشياء ... اشياء عرفتها كل القرى في ذلك الساحل .. وحكايتنا ليست الا من الحياة ، من مآسيها ، وسنرى الان ...

المختار : (ينتهي من ترتيب بعض الاوراق والكتب بجانب الراديو، يبدو عليه الغضب ويكاد يرتعش ، لكنه صلب بعيد عن الخوف) كلاب.. خونة .. آه .. لو اعرف ذلك الخنزير ! (يدخل ابنه سامي من الباب المفتوح) سامي هل ذهبوا الى جهنم ؟..

سامي : نعم يا ابي ، وان امي تضحك كالمجنونة .

المختار : لماذا لا تضحك ؟ أليست هي التي انقذتنا من المشاكل؟..

سامي : نعم ، ولكنها بسبب السرعة ، قذفت بالسلاح الى مكان قذر لا يمكنهم ان يفتشوا فيه ...

المختار : (يضحك ، وقد بدأ يعود الى حالته الطبيعية كمختار للقرية) انه مكان يناسبهم اكثر مما يناسب السلاح .

سامي : (بعد برهة صمت) أبي ، من ترى ذهب واخبرهم عنه ؟

المختار : خمسة الاف ، ابحث عن الدنيء في هذه البلد ، أبحث عن القذر الوضيع بينهم ، تجده هو . ذهب ليأخذ بعض الشلنات ... آه ... ليس فقط من اجل النقود بل هناك الحسد والغيرة ، انهم يحسدون الانسان لانه يعمل ... لست أدري كيف يفكر بعض الناس ، وبعد كل هذا لا يمكننا الا ان نحبهم ، أجل انني احبهم .

سامي : أبي ... أتبقى تحب ذلك الرجل الذي اخبر البوليس عن وجود السلاح في بيتنا وسبب لنا كل هذه المتاعب ؟

المختار : نعم ، انه يبدو لي بريئا ، (يخرج من الغرفة ، ينظر الى الارض ويفكر ، يجلس سامي بجانب النافذة اليسرى وينظر الى الافق البعيد ، البعيد جدا ، ويضع ابهامه الايمن في فمه مستغرقا بتساؤلاته)

نزيه : (ينادي من خارج الغرفة) سامي.. يا سامي.. اين انت؟

سامي : انني هنا يا نزيه ، تعال .

نزيه : (يدخل لابسا بنطالا يناسب سنه الصغيرة ، انه يبدو في الرابعة عشرة ، يصغر ابن عمه سامي بعام واحد) لماذا تركتنا هكذا بسرعة ؟ ألم تقل بأنك ستذهب معنا الى البيارة لنرى تلك الشجرة اللذيذة ؟

سامي : ألم تعلم بأنهم أتوا لتفتيش بيتنا بحثا عن السلاح ؟

نزيه : لقد رأيتهم قرب البئر ، كل اولئك لتفتيش بيتكم ؟

سامي : نعم بيتنا ، ألا يعجبك بيتنا ؟ انه اكبر بيت في البلد .

نزيه : اعرف ذلك فهو بيت عمي ... لكن ، أين أخفيتم الـ ... (ويشير بيديه وابهامه كالمسدس)

سامي : لقد أخفيناها في بيت الـ ...

نزيه : آه ، فهمت ، في بيت الـ ...

سامي : لقد كان ابو محمود من بينهم، ابو محمود اخو رفيقك سعيد.

نزيه : لقد رأيته قبل ان يركبوا السيارات ، سمعته يقول لزميله : لو تباطأنا في التفتيش لاسترحنا من الذهاب الى يافا والعودة الى البلد ، فقلت له : تعالوا فتشوا بيتنا في الوقت الباقي (ويضحك)

سامي : انك دائما تحب اللعب والضحك ... هل صعدتم فوق السطح في الليلة الماضية ؟ هل رأيت النار ؟

نزيه : طبعا ، لقد اشعلوا النار في جزء كبير من تل ابيب .. لا شك ان اهل سلمه رجال شجعان ..

سامي : لا تنس ان قائدهم هو حسن سلامه الذي يعرفه الجميع..
(بعد برهة) لقد طلبوا النجدة من بقية المستعمرات .

نزيـه : واظن انها انجدتهم ، فقد توقف اطلاق النـــار بعد ساعة فقط ..

سامي : بل ذهب اليهم الانكليز ، ليحافظوا على الهدوء والنظام .

نزيـه : هل الانكليز دائما ضدنا ؟

سامي : طبعا ، فهم اصل المصيبة ... ثلاثون جنديا مسلحيـــن للتفتيش عن سلاح بسيط في بيتنا في نفس الوقت الذي يسكتون فيه عن مستودعات للاسلحة في تل ابيب ...

نزيـه : هل هذا صحيح ؟ انك تعرف اشياء كثيرة ولكنني ايضـا أعرف بعض الاشياء ، انني اعرف مثلا ان عمي قد حكم عليه بالاعـدام منذ عشر سنين ، وان الذي انقذه من الموت وليمة فاخرة أقامها لاحـد الضباط الانكليز الذين يعشقون اللحم والخمور الفاخرة ...

سامي : لا اظن الامر بهذه البساطة ، لكن ، هل تعرف انني لـــن اتابع دراستي بعد اليوم ، لقد اصبح الذهاب الى يافا مخاطرة كبيرة.

نزيـه : لماذا لا تذهب الى القدس ؟

سامي : القدس ... ان الاحوال هناك أردأ بكثير ... وفوق ذلك، يخاف ابي ان يظن اهل البلد ان ذهابي الـى القدس رحيل عـــن القريـــة .

نزيـه : رحيل عن القرية !..

سامي : اوه ... ألم تسمع بالخوف من الرحيل ... لقد رحل أهل الخيرية كلهم في يوم واحد .

نزيـه : كلهم ؟

سامي : نعم كلهـم .

نزيـه : لماذا ؟

سامي : لان اليهود هجموا بأعداد كبيرة في الليل المظلم بسلاحهم وحقدهم ، هجموا في منتصف الليل ليشردوا النساء والاطفال وليقتلوا الابرياء ، اما الذي نجا فقد خرج عاريا ، قال ابي ان بعض النســاء خرجن بثياب النوم يحملن اطفالهن ويركضن هاربات تحت اشجـار البرتقال ، وكأن السماء كانت غاضبة ، فأرسلت مطرا غزيرا ســالت به الوديان .

نزيـه : السماء غاضبة ، على من علينا ام على اليهود ؟

سامي : لست أدري ... هل اسأل ابي ؟ كم احب ابي فهـــو لا يعرف الكسل ولا الطرق الملتوية ... لقد اتوا لتفتيش البيت عـن السلاح ، ومع ذلك ، فانه سيجمع النقود من اهل البلد لشراء السلاح ، لشراء البنادق ، اسمع .. لقد اتى ...

نزيـه : ومعه آخرون .

المختار : (يدخل متبوعا بالناظر الذي يبدو قويا هادئا والسائق الذي يعرف كيف يتصرف ، المختار مضطرب جدا) .. وبعد ذلك ..

السائق : وضعت رأسي تحت المقود وانطلقت بالسيارة فـــي أقصى سرعة ممكنة ، حتى انني خفت ان نتدهور على اليمين او اليسار فننجو من مصيبة لنقع في مصيبة اخرى ...

الناظر : لولا هذه الحركة الرائعة لاتت هذه الرصاصة في رأسك (ويشير الى سترته الممزقة) لقد ثقبت الزجاج وجرحتني في كتفي (ثم يلتفت الى المختار) عندما وصلنـــا قريبا منهم خرجوا من بيـــن الاشجار بالرشاشات وبدأوا باطلاق النار كالمطر ..

السائق : لقد ارادوا قتلنا جميعا .

الناظر : بل أرادوا حرقنا ، لقد رأيت احدهم يخرج بعد أمتار قليلة يحمل وعاء البنزين ليصبه علينا فنلتهب جميعا .

السائق : لقد توقعوا ان نقف في ذلك المكان ، قرب البنزين ...

الناظر : ولكنك انقذتنا بذكائك ... عشرون بنتا وخمسة عشر شابا أنقذتهم من الموت يا احمد .

المختار : لقد ارادوا ان ينتقموا لهاغانتهم الذين قتلوا قريبا مـن الطاحون في بازور ، وكم جرح منهم ؟

الناظر : اظن انهم تسعة ، ثلاثة منهم تركناهم في المستشفـــى فـــي يافا ...

المختار : يجب علي ان اذهب لازور اهل الشهيدة والشهيد .

الناظر : لا اظن ذلك مناسبا الان فهم فـي حالة لا تسمح لهـم باستقبال احد بشكل لائق .

المختار : حتى أنا ؟

الناظر : انت خاصة يا سيدي ، لقد سمعتهم يلعنون ويشتمون.. لقد فقدوا اولادهم من اجل برتقالك ...

المختار : وهل اجبرتهم على ذلك ؟ اننا نحتاج الى كل قرش من النقود التي دفعناها ثمنا للبرتقال على اشجاره ، نريد النقود لنشتري السلاح وندافع عن برتقالنا جميعا ، ندافع عن بيـاراتنا ، يجب ان نحصل على المئات الكثيرة من الجنيهات ... البندقية الواحدة اصبحت تباع بمئة جنيه والرصاصة الواحدة بعشرة قروش ... وحتى بهـذه الاسعار لم نجد شيئا حتى الان ...

السائق : لقد اخـبرتنا بالامس انك ستشتري بسبعة وعشريـن فقط ، فكيف سيكون ذلك ؟

المختار : سوف نذهب بعيدا ، لقد اتصلت بالهيئة ووعدونا فـــي مصر ان يعطونا بقدر الامكان .

الناظر : وهل تعتقد ان ذلك سيتم بسرعة ؟

المختار : وهل لنا غير هذا السبيل ، اين لنا ان نختار ، فالمنافذ كلها مغلقة ، ونحن نعيش في سجن الحاجة ، الحاجة لكـل شيء ، للسلاح ... للقيادة ... للتدريب ... للتنظيم .. كل شيء ينقصنا ما عدا العواطف ، حتى حبنا لهذه الارض ، لهـذا البرتقال ليس الا شيئا غامضا في صدورنا ، وما فائدة العواطف في الصدور ، هل نختار من ابناء قريتنا اكثرهم حبا لبيته وبرتقاله ونضعهم حول القريـــة يحرسونها بقلوبهم واخلاصهم ؟

السائق : تفضل يا سيدي ، لقد بعت ذهب زوجتي ، وارجـــو تسجيل اسمي واسم اخي (ويعطيه النقود)

الناظر : سجل اسمي ايضا (يمد يده بالنقود الى المختار) .. لقد وفرتها من مهر ابنتي التي تزوجت من ذلك الميسور ، لست ادري لماذا يتزوج البعض في مثل هذه الظروف .

المختار : لانه لا يوجد شيء اخر يفعلوه ...

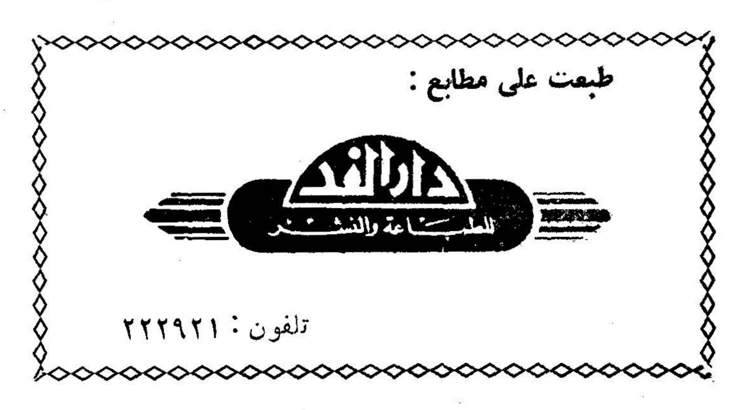
نزيـه : سجلوا اسمي انا ايضا وأبي سيعطيكم النقود ...

الناظر : انت ما زلت صغيرا يا نزيه .

نزيـه : عندما يصل السلاح سأكون قد كبرت .

السائق : لا سمح الله ، ستكون مصيبة كبيرة ، اننا نريد السلاح بسرعة ، لقد فهمنا في يافا ان الهاغانا بعد هزيمة الامس في تل ابيب بدأوا يتجهون بأعداد كبيرة اليها .

المختار : يجب على حسن الان ان يسهر الليالي ، فلا بد لهـم ان ينتقموا لتلك الهزيمة ... فاذا ما فعلوا واختاروا ليلة مظلمـة لتشريد الجميع فلا اتصور قريتنا ببنادقها التسع ستنتظر ليلة اخرى لترحل .. على كل حال هيا بنا لنرى الاخرين ، سنرى كل منهم يريد ان يشتري وطنه ...



نزيـه : (بعد ان خرج المختار ورفيقاه) سامي ، لماذا لم نشتـــر السلاح من قبل ؟

سامي : لانه لم يكن يباح ... حتى لو كان موجودا لما استطعنا ان نشتريه بسبب الافلاس ... لقد خسر الناس كثيرا اثناء الحـرب العالمية ، مصاريف كثيرة على البيارات من دون ان يشحن شيء يذكر.. كثيرون أثقلتهم الديون فباعوا بياراتهم ... وما ان انتهت الحرب وبدأ الاخرون باسترداد انفاسهم حتى جاءهم الرصاص والحرب منجديد.. (يتوقف عن الكلام عندما يرى اخته داخلة) .

هـدى : مساء الخير ..

نزيـه : مساء الخير ..

سامي : هل اتيت من المدرسة ؟

هـدى : نعم ، ولن اذهب غدا ، لقد اخبرتنا المديرة ان الانكليز سيتركون مركزهم القريب من المدرسة قبل المساء ... وقالت لنـــا : اصبح الخطر اكثر من أي وقت مضى ... ليس فقط على المدرســـة بل على البلد كلها .

نزيـه : وهل كان الانكليز هم الذين يحمونا من الخطر ؟

سامي : انهم يحبون ان يظهروا بهذا المظهر أحيانا ... هلعاد ابي؟

هـدى : لا ، انه ما زال في الخارج (ثم تخرج)

نزيـه : يجب ان اذهب ، فقد طلبت امي ان اشتري شيئا مـــن القهوة منذ الصباح ... (ويخرج ايضا)

(سامي ، بعد ان خرج الجميع ، يتجه الى النافذة اليسرى ويزيح الستار عنها ويثبته على حافتها ... ويجلس قريبا منها ينظر للخارج ، للافق البعيد ، كأنه يبحث عن جواب لسؤال جديد ، وبعد لحظـــات يدخل ابوه في حنق وغضب واضطراب ، حتى انه بادر بسؤالابنهالذي يقف عندما يراه هذا السؤال)

المختار : لماذا تجلس هكذا ؟.. لماذا لا تقرأ دروسك او تكتـــب وظائفـك ؟

سامي : أبي ...

المختار : أوه ... لقد نسيت انك لم تعد تذهب الى المدرسة ...

سامي : أبي ... لقد قالت هدى ان الانكليز سيتركون المركز هذا المساء ، هل هذا صحيح ؟

المختار : بل ربما تركوه الان ، لقد اخبرونا بذلك في اخر لحظة ، لعن الله هذه الظروف ... لقد أعلمونا بذلك بعد ان اتى جماعة من سلمة وطلبوا البنادق التسع الموجودة عندنا .

سامي : وهل اخذوها ؟

المختار : طبعا ، أن احتمال الهجوم عليهم كبير جدا ، ولم نكـن نعلم ان الانكليز سوف يتركون مركزهم قبل الغروب ، لقد بقينا هكذا من دون اي سلاح يذكر ... ماذا نفعل ؟ لا شيء ... غير الانتظـار والصبر ... السلاح ، الخوف ، النار ، الموت ، الرحيل ... اشيـاء لم يعرفها الناس من قبل ... ماذا سنرى بعد ذلك ... سامـــي ، اذهب واحضر لي فنجانا من القهوة ، انني في أشد الحاجة اليه ...

(يخرج سامي بينما يتجه ابوه الى النافذة المكشوفة ، ينظر الى بعيد ساهما ، انه يرى المركز كما يرى بعيدا جدا اطراف يازور وسلمة وتل ابيب ويافا ، كلها من تلك النافذة العالية ... يسود المسرح ضوء أحمر خافت يوحي بظلال حمراء لشمس تغيب وراء افق فيه بعض الغيوم ، وفجأة يسمع أزيز الرصاص المتواصل ، وتصيب احـــدى الرصاصات المختار في رأسه فيسقط على الديوان ... بعد لحظـة ، يدخل سامي مسرعا وعندما يرى أباه مستلقيا يصرخ ..

سامي : بابا ... بابا ...

(يقفز الى جانب والده مشدوها لا يدري ماذا يفعل ، ويشتـــد احمرار الضوء في المسرح ليسدل الستار)

الفصل الثاني

المنظر ، غرفة صغيرة في قبو متواضع ، لا يدخلها ضوء النهـار الا من نافذة ضيقة تمتد على طول الرصيف في الخارج ، في النافـذة الواح زجاجية سميكة تزيد من عتمة الغرفة ، باب الغرفة على يسار المسرح اقرب الى الجمهور ... هناك باب اخر يقابله على اليمين يقود الى المطبخ والاشياء الاخرى ... الاثاث بسيط جدا ، سرير مدرسـي مفروش ، يمتد تحت النافذة ورأسه يستند على الحائط الايسر ... بالقرب من رأس السرير يوجد منضدة صغيرة وضع عليها جهاز راديـو صغير وبجانبه بعض الصحف المتنوعة ... هناك ديوان طويل يمتـد محاذيا الجدار الايمن بجانبه ومن بعيد رفوف من الكتب غير المرتبـة وامامه منضدة متوسطة الحجم وانيقة ، على اليسار وبالقرب مـــن جهاز الراديو يوجد كرسيان من القش الرخيص ..

نزيـه : (عندما يفتح الستار ، يبدو جالسا على احـد كراسـي القش ممن ينتظر الطبيب ، يسلط عليه ضوء خافت بينما يبقـــى المسرح مظلما) ... سيداتي سادتي ، كنا في الطابق الثاني فأصبحنـا في القبو ، تحت الارض ... كنا نرى البرتقال والسماء والنجوم في أرضنا الحبيبة ، ففدونا بعد أيام لا نرى الا الجدران ، لقـد رفض صديقنا سامي أن يسكن غرفة صغيرة في أعلى البناء واختار هـــذا القبو الرطب ، قال لي عندما زرته اول مرة ، هذا المكان يناسبني ، فهل هذا صحيح ؟ لا ، ابـــــدا ، انه مكان لا يناسب احدا . سيـــداتي سادتي ... انني انصحكم جميعا ان تحافظوا على بيوتكم العـــالية ، احذروا الهبوط ، فعواقبه وخيمة ، وسنرى الان نموذجا من الهبوط ، الهبوط البائس (يظلم المسرح بكامله ليخرج نزيه ونبدأ المسرحية)

سامي : (يسمع طرقا على الباب فيقف ليفتحه بعد ان كان جالسا على الديوان) اهلا عادل ، تفضل ، أدخل ...

عادل : (شاب أميل الى القصر من اولئك العمليين الذين يثقون بأنفسهم وبالحياة ، يدخل مرحا) أين أنت يا عم سام ، لقد اختفيت عن الانظار منذ ان انتهى الامتحان ، شكرا للامتحانات والجامعة التـي تتيح لنا فرصة لرؤية طلعتك البهية ...

سامي : تفضل اجلس ولكن لا تناديني بالعم سام فانني اكـــره هذا الاسم ...

عادل : (يجلس على كرسي القش ، بينما يعود سامي الىمكانه) سألت عنك في الشركة فقالوا انك مأذون حتى اخر الشهر ، فلمـــاذا

لا نراك ، لا في المقهى ولا في الحزب ولا في الطريق ، اين تذهب ؟
سامي : انني ابقى هنا .
عادل : تبقى هنا في هذا القبو ، هل تريد ان تمرض ؟.. وماذا تفعل هنا ، تنظر الى الجدران العفنة ام تتمتع بوقع الخطى على الرصيف ؟
سامي : بل أستلقي على السرير ، انظر الى السقف واستمع الى الخطى تأتي وتذهب ، اما الجدران فانني اخاف ان انظر اليها انها تذكرني بأن حياتنا كلها جدران رطبة ...
عادل : ما شاء الله ، طبعا ، يجب ان تتفلسف لتصبح مناسبا لحبيبتك التي تدرس الفلسفة ، جدران رطبة ، انك تعلمها الفضيلة وهي تعلمك الفلسفة ، لقد رأيتها بالامس في النادي جالسة وحدها متجنبة الحديث حتى مع الجنس اللطيف ... وأنت يا استاذ لماذا لا تأتي الى الحزب ، انك تدفع اشتراكا شهريا فلماذا لا تذهب ؟
سامي : لا اشعر بالرغبة في ذلك .
عادل : هذا السقف ووقع الخطى أفضل ... لقد تغيرت يا سامي ... كنت تضحك وتتكلم وتخطط ، اما الان فانك لا تطاق ، قل لي كيف ستحافظ على صديقتك ؟.. ألم تعمل من اجل ذلك عشر سنوات متواصله ، تعمل وتدرس وتسهر الليل ... وذلك الحب الذي رفعك الى القمر ... هل انفقتما على الزواج بعد ان انتهيت من الجامعة وقرف الجامعة ، هل حددتم الموعد ؟
سامي : لن أتزوج .. (يسمع طرقا على الباب فيذهب ليفتح)
عادل : اضحك على غيري اما انا ... أظنه نزيه ، فقد رأيته في الطريق ووعدني بأن يتبعني اليك ...
نزيه : (بعد ان دخل) السلام عليكم ، (اصبح نزيه من انصار خلها على الله بعد هذه السنين الطويلة)
سامي : اهلا نزيه .
عادل : تعال يا شيخ نزيه ، تعال يا رجل ، يا صالح ... يا أبا الصغار ...
نزيه : ماذا ! الا يعجبك الصغار ؟ غدا تتزوج ونرى ذريتك ، يا ابا اللسان الطويل ، ماذا تكون قيمتك بدون هذا اللسان في حزبك التقدمي ؟
عادل : كفى .. كفى .. هل تغضب بسرعة يا بارد ، يا رجعي... هل قرأت الاخبار في مجلة الكواكب عن البطل الكبير سامي ؟ انه قرر الاعتكاف والتفرغ لتأملاته ... ليس تحت شجرة ، بل هنا تحت وقع الاقدام ... لقد قرر ايضا عدم الزواج ، تماما مثل فريد الاطرش ، هل سيتعارض الزواج مع مهنتك يا حضرة الاستاذ الكبير ؟
نزيه : لم افهم حتى الان بداية القصة فأنا لا اقرأ الصحف كثيرا ، لماذا لم نعد نراك يا سيد سامي ؟ هل اخذت فدوى كل اوقاتك ، أم انك مخلص لحزبك ؟
سامي : لم يعد لي حزب لاخلص له ...
عادل : شيء جميل ، لم أكن اتصور انك ستصبح انهزاميا الى هذا الحد ... تترك الحزب والمقهى ... تترك العمل والجميلة الناعمة ... لتستلقي هنا على السرير تنظر الى السقف وتسمع موسيقى وقع الاقدام يا فيلسوف ، يا عميق ..
نزيه : لعله يريد ان يبرهن على وعيه وانسانيته كما كان يقول لنا ...
عادل : وعي أحمق وانسانية سوداء ، المجنون ... يترك الحزب والعروس الجميلة ، قم يا اخي ، قم ، الانسان يتمتع بالشمس والفتيات الجميلات وليس بالسقف وخيوط العنكبوت (ويشير للاعلى) ...
سامي : (بهدوء كبير) انكما احمقان ...
عادل : لماذا لا تكون انت الاحمق ؟
سامي : انا او انتم لا يهم ، المهم انني غير متفق معكم .
نزيه : طاوعني يا سامي وتابع طريقك ، تزوج ولا تفكر في شيء والان اخرج معنا لنرى فيلما ... او نذهب معك الى الجامعة فقد اخبرني يوسف ان نتائجكم ربما ظهرت اليوم مساء ...
سامي : اعذروني ، فانني لا ارغب في الخروج .
عادل : اتركه يا نزيه ، انه حر ، أم انك ايضا ستطلق الحرية ؟
سامي : هل تظنون انفسكم احرارا ؟ انكم عبيد ، وقد أبقى مثلكم، لكن لا ... لن افضي حياتي عبدا لاحساسات كثيفة : تزوج ، كل .. العب الورق .. اسمع الخطابات .. صفق .. اقرأ الصحف ومزقها وتمزق ... ماذا تتصورون ؟ بعد سنين سيبيض شعرنا ويشيب ونقف كالاصنام عاجزين ، نلتفت الى هذه الايام ، فماذا نرى ، لا شيء، كل هذا الهراء ... الزواج والحياة الرتيبة .. القمر والدجاج والخطابات والمذاهب المتنوعة تنهشنا كالدود يلتهم الجيفة السمينة .. كل هذا هراء ... كل هذا باطل ... يجب ان تعود ارضنا ونعود ، يجب ان نتطهر من العار ... يجب ان نعود .
نزيه : ان نعود ؟
سامي : اجل ان نعود .
عادل : واذا عدنا ، هل ستحب القمر والزواج عندئذ ؟
سامي : عندئذ فقط سأشعر بأنني انسان ... سأتخلص من هذا الشيء الكريه الذي يمزقني ويشد عيني الى التراب .
نزيه : حسنا ، قل ماذا تريدنا ان نفعل ؟
عادل : اجل ، ماذا نفعل ؟
سامي : علينا ان نتحرك .
عادل : نتحرك ، الى اليمين ام الى اليسار ؟
سامي : بل الى الامام .
عادل : امامنا جدار كبير بنته السنوات والليالي يا أستاذ .
سامي : يجب ان نهدمه والا اصبح سدا كبيرا .
نزيه : انه اكبر مما نتصور .
سامي : لنبدأ بحجر صغير فيه ، لنبدأ بأظافرنا نحك ذلك الجدار.
عادل : سأرى الى اين سنصل بمناقشتك ، أخبرني من اي جزء نبدأ وتأكد بأنني سأبدأ قبلك .
سامي : هذا ما يجنني .
عادل : وهل تجلس هنا تبحث عن الجواب في سقفك المتعفن ؟
سامي : علينا ان نبدأ بأساس الجدار ، من أسفله ، سنحفر التراب بأصابعنا لنهدم الاساس .
عادل : وهل يرحب بك الحراس على الجانبين ؟
سامي : علينا ان نتفق مع ذلك الذي يعمل على الطرف المناسب، فاذا رفض قتلناه ...
نزيه : أتريد ان تبدأ بالقتل ؟
سامي : وداوها بالتي كانت هي الداء .
عادل : وهل نسيت المال والعالم ... وهل تبدأ الا مع الاخرين، الذين انتهوا معنا قبل عشر سنين ؟
سامي : سيأتي كل شيء عندما نبدأ .
عادل : بل يجب ان نبدأ مع اشياء كثيرة ، يجب ان يبدأ معنا الاخرين ، وهذا ما يقودنا للحزب .
سامي : كنت اظن ذلك ... لكن الايام والمستوى الذي يتحرك عليه الاخرون يصيبني بالغثيان ... انهم لن يتحركوا الا اذا تحركنا .
نزيه : لماذا لا يتحركون هم ويحركونا معهم ، بل لماذا لا نتحرك معا؟
سامي : في كل يوم تتحرك فيه الروائح الطيبة التي تبعث الامل يتحرك القذرون بروائحهم العفنة ليسجنونا في قبور اليأس ...
عادل : هيا بنا يا سيد نزيه ... يبدو ان الاستاذ سيفلسف كل شيء (يسمع طرق على الباب فيذهب نزيه ويفتح لمروان الذي يدخل في اناة زائدة كمن يستعد لحفلة كبيرة ، انه وسيم لحد الجمال في كل شيء)
مروان : هل انتم وحدكم هنا ؟ (ثم يلتفت الى سامي) كيف حالك يا سيد سامي وكيف حال جولييتك ؟ هل تعطف عليك هذه الايام أم انها بخيلة كغيرها من بنات هذه المدينة ؟

نزيــه : هذه شؤون شخصية لا تهم سواه ...
سامي : دعه يتكلم .
عـادل : وهل يطيب له الا مثل هذا الحديث .
نزيــه : كم برميلا من «البريلكريم» تستهلك في الشهر يا مروان ؟
مروان : تريد ان ترشدني سواء السبيل لتربح على حسابي هكتارا اخر في الجنة ... لا تحلم فـي ذلك ، فسأبقى أحب كل البنـات الجميلات .. ان الله يحب الجمال .. ألا تعلم ذلك ؟

عـادل : ولكنك اخيرا يا مراهق ستحب واحدة فقط وستركب على عنقك وسوفك الى عش الزوجية السعيد (ويضحك ساخرا)
مروان : بل سأبقى احب كل البنات الجميلات ، حتى بعد زواجي بواحدة ... ان قلبي واسع جدا فماذا افعل ، ليس الذنب ذنبي .
نزيــه : انك فاسد ، لكن الايام ستصلحك .
مروان : أبدا ، انني فقط صادق مع نفسي وعواطفي ... فانا لا احب الكذب ، وهذا حقي ... بل واجبي ايضا ، لا تنس ايضـا ان علينا نحن الشباب واجب كبير نحو كل الفتيات الجميلات .

سامي : (بسخرية ومرارة) ألا تشعر بواجبات اخرى عليك ؟.. عندما تجلس لتفكر في نفسك وفي الاخرين .
مروان : انني افكر في نفسي وفي الاخريات ... سامي ، ألا يوجد عندك زجاجة من البيرة ؟ يجب عليك ان تقدم شيئا لضيوفك ، ليس لي ، بل لهم ، اظن انهم عطشى ...

نزيــه : لا نريد شيئا ، نريد أن نذهب ... سنشرب القهـوة في النادي .
مروان : اجلس يا شيخ ، البيرة صحية اكثر ... وفوق ذلك ، اريد ان نكمل الحديث عن الحقوق والواجبات ، انني احب أن اتمتـع بكل الحقوق ... اما الواجبات فمنظرها على الرف يعجبني كثيرا ، انني احفظها هناك ولا استهلك منها الا القليل عند الضرورة القصوى... وفي ذلك تكمن سعادتي ...
عـادل : سعادتك من النوع القذر .
مروان : وما هو نوع سعادتك يا صاحب السعادة ، يا صديـق الشخصيات الكبيرة ؟
نزيــه : انني ذاهب (ويتجه الى الباب) ... هل تذهب معـي يا عادل ؟..
عـادل : طبعا . (ويتبعه) .
مروان : وانا ثالثكم ... هل أبقى هنا بعيدا عن الجنس اللطيف.. مع أن هذا المكان ثمين جدا لامثالنا ، انه يناسب انواعا خاصـة مـن المواعيد السعيدة .

عـادل : اخرج يا قذر (ويدفعه مازحا الى الخارج ويخرج الجميع)
سامي : (يشعل سيكارة وينظر الى النافذة ويدخن بعمق ، ثـم يسير ببطء الى باب المطبخ ثم يعود الى الباب الخارجي كأنه يهـم بالخروج ، لكنه لا يلبث ان يذهب الى الديوان ويتساقط عليه كمـن هده التعب ، يرسل الدخان في عصبية ، يحملق في سقف الغرفـة تارة وفي ارضها تارة اخرى . يسمع طرقا على الباب ويتردد قليـلا قبل ان يذهب ليفتح الباب ، فتدخل فدوى التي تبدو انيقة وجميلة ، اما وجهها الوسيم فيبدو قاسي الملامح يناسب فتاة مثلها تذهب لغرفة شاب لم يطلب منها ذلك) أهلا فدوى ، تفضلي ...

فدوى : (تقترب منه كأنها تعرض شفتيها لقبلة طويلة وتمـد ذراعيها قليلا غير انها تفاجأ به يتركها ليعود الى الديوان حيث كـان يجلس) سامي ، ماذا حدث ؟ أتغيرت الى هذا الحد يا عزيزي ؟ ألانني آتي اليك ألانني احبك كثيرا ؟.. هذه هي النهاية !

سامي : (يشير لها ان تجلس بجانبه) اجلسي يا فدوى ، هـل تريدين كأسا من الشاي او القهوة ؟

فدوى : لا اريد ان اجلس ولا اريد شايك البارد ، قل يا سامي : أفهمني ماذا تقصد ... أين ذهب الحنين ؟ اين سامي الودود الآنس ؟ أين ذهبت احلامك في البيت البعيد بين اشجار الوادي .. وصـورة الموقد في غرفة سماوية تجمعنا حتى الموت ... نلهو ونتحدث ، نتمتع بغناء المطر قرب النار ... ونجلس بهدوء في ليالي الصيف المقمرة ... صور جميلة رائعة تأتي اليوم لتهدمها بصمتك المميت ... وتريدنـي بعد ذلك ان اجلس وأشرب الشاي ... هل كنت تعبث ؟
سامي : (ينظر الى النافذة) أبدا ... لقد أحببتك وما زلت ، لكـن ....

فدوى : لكن ماذا لا.. منذ ان انتهت الامتحانات وانت متجهـم لا تبتسم الا ابتسامة تجارية (نحـاول أن تعبر عنها للجمهور) ... ولا تكلمني الا لتجيب على سؤال ... كم كنت رائعا ، أربع سنيـن متعتني فيها بكل شيء ... جعلتني أعشق الحياة ... كنت رجـلا يعجب كل امراة ... مع انك تميل الى النقاش والجدال ... بيـن لحظة وأخرى تظهر النتائج وننتهي من الدراسة وتبدأ حياتك بل نبدأ حياتنا من جديد ... ماذا تريد اكثر من ذلك ؟.. هـل تريدني ان اقطف النجوم لنبقى سعيـدا ... هل أذيب نفسي كأسا تشربـه فتنتشي ... (وتقترب منه متـوسلة مستغلة أنوثتها الناضجة) ابتسم يا سامي لا تتركني شقية .. سامي .. هيا بنا نخرج ... هل تريد أن نزور اخي ام نذهب الى النادي ؟

سامي : لا اريد ان اخرج ، لا اريد أن ارى احدا ، انني اريد... اريد أن اموت (ويقف متجها نحو الباب) لقد توهمت انني استطيـع ان استمر ... لقد نجحت أن أنسى كل هذه السنين ، لكنني لـم أعد استطيع ... اريد ان اعود هناك ... اريد أن أعيش حيث ولدت، حيث ولد ابي وأجدادي ... بعيدا عن تلك الارض اشعر أنني تحت حذاء الزمن ذليل كسير الجناح ... هناك سأغزل لك طوقا من زهور

البرتقال ، وسأجعل من عبيره عطرا لشعرك ... وسترقص القريــة على البيادر ...

فدوى : كم انت رائع يا سامي وكم أحبك ، لكن انظر اين نحـن الان ... هل ننتظر معجزة ؟..

سامي : انها ليست معجزة .. لا .. لن تكون ابدا معجزة الا اذا عشنا عبيد انفسنا ... يجب ان نتحرر ... لقد رسموا لهزيمتنـــا منذ عشرات السنين ... وعلينا ان نسير نحو الثأر حتى لو طـــال الطريــق ..

فدوى : سامي : كن واقعيا ولا تفكر في مشاكل صعبة ... انظر الى الاخرين ... هل تريد أن تسير وحدك ؟ هل هي بلدك انتفقط ؟ دع الزمن يجد الحل ...

سامي : الزمن . لقد كان الزمن جزءا من مأساتنا ... وجبنـــاء نحن ان جلسنا نترقب السماء ...

فدوى : سامي .. حبيبي .. (تقترب منه محاولة تقبيلــه او استعمال العاطفة)

سامي : فدوى ، (يتراجع مبتعدا عنها) ابتعدي عني ، انــك كالاخرين أصابكم الخبل ، تنتظرون المطر حتى يسقي ارضكم التي تعبث فيها المياه ... ثلاث سنين قضيتها معك ، حسبت نفسي فيها وصلت السماء ، لكنني الان ارتجف للذكرى ... ايام عبث ... انني لم اخلق لاتزوج وأنجب الاطفال ... لا اريد ابني ان يستيقظ الا تحت اشجار البرتقال ...

فدوى : ولكنك هنا يا عزيزي في قبو رطب !

سامي : بل انه قبر ... كلما جاء الليل ، وعندما تبتعدين عــن رأسي كثيرأ ... أرغب النوم ولكنني أخشاه ، ارغبه لاستريح واخشاه لانني اشعر بأنني اموت ... انني أرى احلاما مزعجة ... أحلم دائما بالحرب .. القتلى والنار .. الجرحى والصراخ ..

فدوى : لماذا تبقى هنا ؟ لماذا اخترت هذا المكان ؟

لانه يناسبني ، لانني أحب ان ابقى مع حقيقتي ...

فدوى : وهل أنت وحدك تملك الحقيقة ؟

سامي : كل له حقيقته ولكنني هنا اعيشها .

فدوى : تعيشها هنا في هذا المكان المظلم ... انك لا تكاد تراها .

سامي : لقد اصبحت كالخفافيش أرى في الظلام اكثر مما أرى في نور الشمس ... وعندما أغمض عيني أحس بالحقيقة وأراها .

فدوى : وهل تمنحك هذه الرؤيا السعادة والامل ؟

سامي : ربما .. انها تدفعني لعمل شيء ما ... وعندما أمضـي اليه سأعرف السعادة الحقيقية .

فدوى : اذن ، كنت تكذب علي عندما قلت لي : لقاؤنا يا فدوى يمنحني ذروة السعادة ... اريد ان أراك كل يوم ... هل كنت تكذب؟

سامي : لا ، لم اكذب ... كنت صادقا معك كما كنت مـــع نفسي ...

فدوى : وقد تغيرت الان فتغيرت سعادتك (تتهاوى على الديوان من شدة الاضطراب الذي دفعها اليه) ... لماذا تعذبني ؟.. انك تحطم حياتي ... لقد أصبحت أنانيا .. أصبحت عبدا لافكارك الخيالية ..

سامي : فدوى ... انك لا تفهمينني ...

فدوى : لا اريد ان اتهمك ... انك تتركني وحدي وتذهب فـي دربك المظلمة ... استيقظ يا عزيزي انك تعيش في حلم ... فـي حلم مرعب ...

سامي : كنت اعيش في حلم ، وقد استيقظت ...

فدوى : انك تستيقظ في الظلام ...

سامي : لا بد أن يأتي الصباح ... وتشرق الشمس ونعود .

فدوى : عدت للحن مرة ثانية ... أجل سنعود أما الان فسأعود انا الى البيت فقد تأخرت (وتنهض متراخية وتتجه الى البـاب) وعندما تغير لحنك أخبرني ... وطابت ليلتك (لكن سامي لم يتحرك ولم يهتم بمغادرتها الغرفة وتركها أياه) ... أنبقى صامتا لا تتحرك ؟ أيسرك ان اذهب ؟ فلتعلم اذن انني لا اريد ان اراك بعد اليــوم ... لا احب ان اراك ... لقد أصبحت اكرهك ، هل سمعت ؟

(وتفتح الباب في غضب لتنهض وتقفله بقوة ... ويخفت الضوء في المسرح ليتحول الى أحمر باهت ... ينهض سامي بهدوء رجـل في الستين من عمره ويتجه الى المنضدة الموجودة قرب السرير وبيدين مرتعشتين يخرج من جارورها مسدسا صغيرا ... يرفعه ببطء كبير نحو رأسه ... لم يجد الشجاعة الكافية فيرخي يده الى اسفـل ، ويقف كالصنم او كالراهب في خشوعه ... وبعد ثوان ، يرفع يـده بسرعة ليطلق رصاصتين تستقران في رأسه ، يطلق آهة محزونــة ويهوي مستندا على السرير ثم الى الارض ... بعد لحظات ، يطرق الباب ويطرق ، ونسمع فدوى من الخارج تنادي بصوت المستغيث) افتح يا سامي ، افتح ... لقد نجحت الاول ...

(ويستمر الطرق ويستمر النداء ... ثم يخرج نزيه من بـاب المطبخ ليخاطب الجمهور)

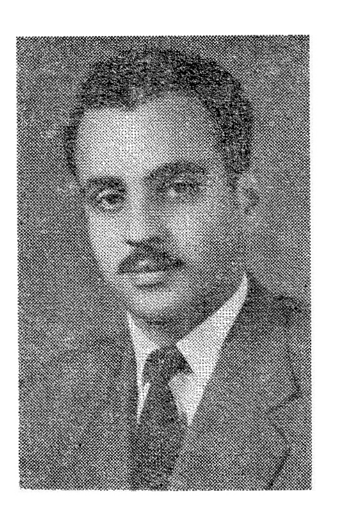
نزيه : سيداتي ، سادتي ... لقد رأيتم قصة الاب والابن ، الفصل الاول والفصل الثاني ... اما الفصل الثالث فسيكتبه آباء اخرون وابناء اخرون فالى اللقاء مع الفصل الثالث ..

(ويسدل الستار)

صفاقس (تونس)

سميح يانس

الغريب



١

أمس شعرت بالدوار
شعرت انني غريب
وانني أعيش في متاهة انتظار

أمس رأيت بئر زيت (*) .. صورة على جدار
زيتونها وتينها وأرضها البوار
والعائدين في المساء من كرومها
بكل ما يجمع التراب من همومها
والعائدات في طلوع الشمس بالجرار
من «عينها» ، يحكين عن نضوبها ...
عن المواسم التي ستطرق الابواب دونما ثمار
لتقذف المعذبين في دروبها
الى مجاهل القفار
كي يرجعوا بالخبز والثياب للصغار

٢

أنا هنا
أحس انني غريب
وان غربتي مخيفة وقاسيه
فكل ما أبصره غريب
حتى القميص والحذاء ... والرؤى التي ...
تمر بي في وضح النهار

٣

من ينقذ الغريب ...
من يرده الى دياره
تشعبت به الدروب
دون ان يبين درب داره
واستنفذته الرحلة العشواء ...
لم تترك سوى انتظاره
يا أملا يلج في قراره

(*) قرية الشاعر

يلحف في استنفاره
زوده بالمنى وبالاصرار في سفاره
لعله يبصر درب الدار قبل لحظة انهياره .

٤

أنا غريب
منذ نزلت هذه المدينه
وطفت في الشوارع الرحاب والازقة المهينه
أبحث عن حب وعن دفء وعن سكينه
فأغرف السراب والليب
سبع سنين قد مضت
وقصتي الحزينه
فصولها تدور في مدارها
وتجمع المطامح الكبار والصغار في اطارها
وتسرق المنى ... لتجعل الحياة مثل ميتةالغريب
أواه كم أحن للفرار من اسارها

٥

أمس رأيت بئر زيت ... صورة على جدار
عيونها لا تمرح الطيور في رحابها
ترابها غير الذي أعرف من ترابها
غيطانها عيدان
وديانها قيعان
والنسوة «المبرجات» الحالمات بالنفار
يدفن ما ولدن في شعابها
لانهن لم يجدن الخبز والثمار

٦

زيتونتي الخضراء في الجبل
تذوي لان راشدا راعيها الامين
مل قباع البغل والمحراث
وأتلف القمباز والسروال واشترى
« قندرة » فاخرة وبنطلونا فاخرا
وزيت شعر عاطرا
وغادر البيت الى المقهى ليقهر الملل .
زيتونتي الخضراء ذاويه
وراشد ما زال في المقهى يداعب الامل
بثروة تأتيه من مائدة القمار
لكي يشيد في المدينة المجاوره
حديقة ودار
لكي يعيش عيشة « الكبار »

٧

أنا غريب
وراشـد غريب
غربتنا واحدة وموتنا
ورعبنا مـن الغـد القريب
وان يكن هناك
او كنت ها هنا
لاننا نغامر
لاننا نقامر
لاننا نعيش في متاهة انتظار
لاننا نبحث في مائـدة القمار
عن روعة انتصار .

٨

أمس رأيت بئرزيت شعلة من النوار
وموعدا من العطاء والثمر
امس رأيت الماء يفلق الحجر
والبرق يوقظ المنومين في مغاور الخدر
امس رأيت يابس الشجر
يزهر بالبراعم الصغار
امس سمعت العائدات بالجرار
يحكين عن مواسم لم يعرف الكبار
مثيلها من قبل ... والرجال «سارحين» بالبذار
وراشدا يعود للزيتونة الخضراء في الجبل
عيناه تزخران بالامل
أمس شهدت روعة انتصار

الكويت

ناجي علوش

خواطر في الفن والنكبة

بقلم الدكتور عبد الرحمن اللبان



اذا التفتنا الى ما يكتب في الفن في هذه الايام لاحظنا ان الجدل يدور حول مفاهيم المدارس الفنية المختلفة ، ورأينا الاهتمام ينصب على اساليب الفن ووسائله اكثر منه على النواحي العميقة فيه ، حتى اصبح الفنان الذي يستطيع الخروج بعيدا عن المنطق والمعقول ويحملنا معه الى عالمه الخاص بكل ما فيه من غموض وفردية هو الفنان المبدع ... ربما كانت الغرابة بحد ذاتها امرا يدل على قدرة في الابتكار ، ولكن هل تكفي بحد ذاتها ايضا دلالة على اصالة الفنان وعلى قدرته على الابداع السليم ؟

ليست المدارس التجريدية في الفن بغريبة عنا ، فلقد عاشت الفنون العربية - الاسلامية - حياتها تنسج على منوالها في معظم ما انتجته من اعمال ، ولكنها لم تستطع ان تعبر عن الانفعالات التي شعر بها الفنان ... انني أخال الفنان الذي يسعى وراء الجمالية بمعناها المتجرد المثالي يحبس شعوره داخل نفسه وينكب يعمل ، مبتكرا ولا شك ، على خلق صورة جميلة ، ولكنها بلا معنى وبلا ارتباط بالواقع ... ولعل الذي كان يحول دون قيام الفن بالدور الطليعي في النضال العربي يعود الى مثل هذه الاسباب . فنحن لا نجد في تاريخنا الطويل الحافل بالنضال والصراع فنا تعبيريا يستطيع ان يكون حافزا حضاريا للعمل . لقد كانت معظم الاعمال الفنية اعمالا شكلية مبنية على الزينة ومستندة الى الرفاهية والثراء اكثر منها اعمالا اصيلة ذات محتوى منبعث عن الادراك الوجداني للمشكلات التي تكتنف الفنان ، ذلك الادراك الذي يثير فيه الانفعالات الضرورية للتعبير تعبيرا ماديا ملموسا ... وحتى الشعراء كانوا في معظم محاولاتهم يمدحون الاثرياء طمعا بالعطاء فاذا لم يصلوهم قالوا فيهم ما حلا لهم من هجاء وتشهير ... حتى سيطرت على الشعر اقوال مثل : « أعذب الشعر أكذبه ... » لقد سيطرت على اتجاهاتنا الفنية على مر الزمن مفاهيم جامدة نمطية لا تكاد تحيد عن خطوطها الهندسية المرسومة والاشكال الصنمية للاشياء ، كأنها اخذت كليا بالمهارة في خلق متاهات أزلية لا نهاية لها من الخطوط والالوان وبكل ما في الصنعة من رشاقة ودقة . اننا لا شك نعجب بها ، ولكننا لا نتأثر بها ...



(١) بداية المأساة

*

لم تكن هذه النزعة في الفنون نزعة عابرة بل اساسية عامة اعتمدها معظم الذين تصدوا للعمل الجمالي ، ليس في الفنون الشكلية فحسب ، بل في الكثير من الفنون الكتابية ايضا ، فالمقالات مثلا ، تبدو لي بتراكيبها وجملها المحددة وترديداتها الرتيبة اقرب الى المتاهات الهندسية منها الى العمل الفني المخلص . كان « الجمال » غاية يسعى اليها الفن ويبحث عنها ، وكان العامل الرئيسي الذي ادى بالتالي الى تجميده في قوالب ثابتة محددة بعيدة عن الحركة والتفاعل وعن التعبير الصادق والثورة المنطلقة . ولقد ادت هذه النظرة في مختلف العصور الفنية الى الابتعاد شيئا فشيئا عن الاشكال وحسن الاداء وفائدة العمل ، والاقتراب شيئا فشيئا من الذاتية والانغلاقية والاشكال الحسابية المجردة باللون والخطوط . وبذلك اصبح الفنان منفصلا عن المجتمع وفقد حيويته وانقطع عن الناس ليطل عليهم كالطاووس مزهوا بذيله وبألوانه ومملوءا بالغيرة والحسد .

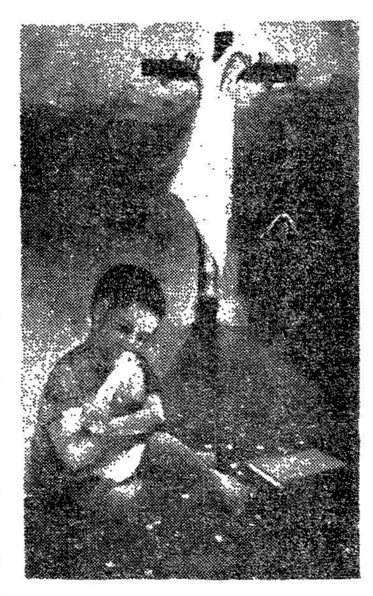


(٦) ستة عشر عاما

لعبت الديمقراطية وحرية الرأي دورا أساسيا في تحطيم ذلك الجمود وفي شق الطريق امام الفنان وافساح المجال له للتعبير عن نفسه ، عن مشاعره ، عن ارائه وأفكاره بكل حرية وبلا مواربة والتواء ، فتبدلت مفاهيم الفن من السعي وراء « الجمال » الى السعي وراء التعبير عن الشعور الانساني الصادق عن المشاركة الانسانية بكل مداها وعلى كل المستويات . لقد اصبح الفن بعد هذه الخطوة حرا من عبودية التحكم ، واكثر اصالة وصدقا وأخلاقية مما كان عليه في اثوابه المنمقة القديمة ، لانه لم يعد يهتم بالنفاق بل سار مع الناس

يحس آلامهم ويصيبه ما يصيبهم ويعيش حياتهم بكل ما فيها من عنف وزخم وعمق ...

*


(٧) فلسطين على الصليب

علينا ان ننظر الى المشكلة الفنية المعاصرة من هذه الزاوية ، فلقد تحطمت الابراج العاجية ونزل منها الفنان الى ساحة الحياة يحرثها بقلمه وريشته ، كالعامل ، كالفلاح ، له رسالة وعليه مسؤولية العطاء المفيد ...

لم نكن ازاء النكبة في مستواها ، لا ادبيا ولا فنيا ولا سياسيا ... حتى أكاد أقول ولا قوميا ... هنالك اسباب عديدة بلا شك حالت دون تمكننا من التحكم في مصيرنا الثقافي والحضاري بحيث يأتي منسجما مع مشاكلنا وقضايانا ومتهيئا لملاقاتها بالمستوى الذي تظهر فيه ... فبالرغم من ان قضية فلسطين نشأت خلال فترة من الزمن ، فهي لم تكن بالنسبة الينا الا قضية من القضايا تطورت في مرحلة من البلبلة والفوضى فلم تحظ بأكثر من الخطابة والمظاهرات الموسمية ...

لقد منحت النكبة هذه القضية قوة دفعت بها الى حدود المصير العربي فهزت نفوسنا من جذورها وأيقظتنا من غفلتنا وفجرت الثورات في شتى الميادين بما فيها الفنية والثقافية ، ورفعتها الى المستوى الذي يتحتم عليها ان تطل منه ليس على القضية الفلسطينية فحسب ، بل على كل القضايا العربية ، بوعي وبصيرة نافذة . ومع ذلك فلا نزال نتلمس خطانا بشيء من القلق ، والخوف والتردد والحيرة ، نبحث عن قيم جديدة ومفاهيم يستطيع الجيل الجديد - ان يبني بها اسس نضاله في سبيل البقاء والتطور ، في سبيل الحياة ... نحن نواجه اليوم تحديا لتجربتنا التاريخية ، ولحضارتنا وامكاناتنا وحقنا في الحياة ... لا مهرب لنا من مواجهة ذلك ، رغم الحيرة ورغم القلق...

لقد صدمتنا النكبة صدمة اثارت في نفوسنا شعورا بالخيبة وبالاهانة ... عشنا بعدها فترة جيلا ضائعا مات ماضيه ولم يكن له مستقبل واضح ... بلا امل ولا هدف ولا نقطة للانطلاق ، كانت بالنسبة الينا مرحلة يأس بهيم وركود قاتم ...

*

الفنان الاصيل هو الذي يعكس أجواء بيئته ومشاعر شعبه واحساساته ... ولعل هذه الميزة هي بالنسبة للفنان الفلسطيني اسماعيل شموط اكثر الدلائل صحة على اصالته وجديته . فالمواضيع التي تناولها ليست مهمة بحد ذاتها ، ولكنها مهمة من حيث انها اطارات تتضمن عناصر التفاعل الفني بين الفنان وبيئته ، بكل ما في ذلك من الثورية والتأثر ... ان الذي يلفت النظر في اعماله هو ذلك التجاوب الصادق بين المراحل التي مرت بها نفسية مجتمعنا والمراحل التي مر بها الفنان بما في ذلك من ضياع وحيرة وذهول ... ان اشخاصه تصرخ في العراء فلا تجد من يسمع نداءها ... انها تهز قبضتها في فراغ مهيب فتظل قبضة متاهبة تتأرجح بين التعبير العنيف عن الغضب والثورة في وجه لا ندري ان كان وجه العدو ام وجه الامة السادرة اللاهية ام وجه القدر ... ولكنها على كل حال قبضة طليعة تفجرت في نفوسها أبعاد النكبة فوعتها وأدركت الفراغ السياسي والقومي الذي خلقته تلك اللامبالاة والمصالح الآنية المتضاربة ...


(٥) هنا كان أبي ..!

لقد عكست اعمال شموط الباكرة حالة زملائه من اللاجئين ، ولكنه فعل ذلك على نحو نفذ به الى ما وراء الظواهر العرضية للقضية ... انه عاش النكبة من الداخل ، وتأملها من الداخل فلم يرتح لتسجيل حركات النزوح والانتقال تسجيلا آليا قصصيا فحسب ، بل اختمرت في نفسه كل العوامل والمشاهد ، كل الدماء والاشلاء ، كل الاسلاك الشائكة والدموع والجروح والحطام فجمع في لوحاته - في مكان واحد وفي دفعة واحدة (١ و ٢) كل المراحل التي مرت بها المأساة فصهر في عمله ماضيها وحاضرها ومستقبلها - اللاجئون في سيرهم اللامتناهي يبني بهم دنيا من الالم والغيظ فيرتب خطاهم عن قصد في بناء محمل بالقيم والمعاني ... ومع ذلك الى أين ؟!.. كان الفنان يستنكر مسيرتهم وينكر عليهم ذلك النزوح المأتمي المهيب ... اننا نلاحظ التيه في لوحاته الباكرة ، يأس يحمل أثقال الماضي ... مأساة الحاضر ... غموض الغد في حركة دائمة تكاد تخرج بالقضية من نطاقها المحلي الخاص الى واقعها الانساني معيدا الى الاذهان قصص الطوفان والكوارث الكبرى التي اصبحت تراثا نسانيا لا زمان له ولا مكان ...

لم تن النكبة حادثة تاريخية عـابرة بل حدثا انسانيـا هائلا ... نموذجا حيا لمـا يحيط بالامة العربية من اخطار تضافرت عليها قوى الشـر فجعلت نضالها نضالا انسانيا ـ نضال الخير ضد الشر ... وبذلك تحدت زمنها واصبحت قضية حية ابدا فعالة ابدا بالرغم من الفترة التي كادت تتحـول فيها الى صـورة للاستسلام والخمـول كـأن الانسانية قد فقدت املهـا وايمانها بالخير وبالحق ... كما يبدو ذلك بوضوح فـي



صورة الفنان بريشته

اعمال الفنان الوسطى ـ انها مرحـلة العجز والحزن والانهزام ... هذا كهل يدفن شبابه بيديه في موقد (٣) ، وهناك طفلان لا حاجة للحياة بهما ولا لهما بها حاجة (٤) ، وهنا طفل لا يبدو ان احـدا يريده ولا يبدو انه يعرف ان للاطفال أما او أبا او اقارب ، قابـع امام كرسيـــه الكسيح لا يدري كيف أتى الـى هنا ، بلا حيـاة ، بلا حركة (٥) ، وفي باب احد الملاجىء عائلة جامدة لا يربط بين افرادها سوى الخوف والترقب والانتظـار (٦) ولقد سارت هذه المعانـي بالفنان الى خارج واقعه ، كأنه فقد كل أمل في هذا الواقع ، فعمـد الى افراغ كل ما في نفسه من تضارب وتفاعل في لوحة رمزية شبـه سيريالية جمع فيها مفاهيم مختلفة وصورا شتى ، صاهرا كل معانـي المأساة ، كل ابعاد النكبة في مزيج من اللعنة التاريخية الازليـة ، والامل الصغير .. من الايمان بالانسان ، بالمحبة ، بالبقاء ، بالغد (٧) .

*

ان اسماعيل شموط وحيد في ميدان عمله .. فنحن لا نجد بين الشعراء والادباء والفنانين الذين عاصروا النكبة من تناولها بالعمـل والاخلاص الذي نتوقعه في الفنان الاصيل ... لقد كان الفنانون عندنا من اتباع تلك المدرسة التي تؤمن بالفن للفن فحسب ، كانوا جماليين يبحثون عن الهرب من الواقع ، الهـرب من الحقيقة ، الهرب مـن الانسانية . فسدوا انوفهم حتى لا تزكمهـــا رائحة ما يحيط بهم ، وأغمضوا عيونهم حتى لا تبصر الدماء والاشلاء ... سوف يندثرون حتما في حمأة النضال الثوري الخلاق الذي نخوضه حاليا ...

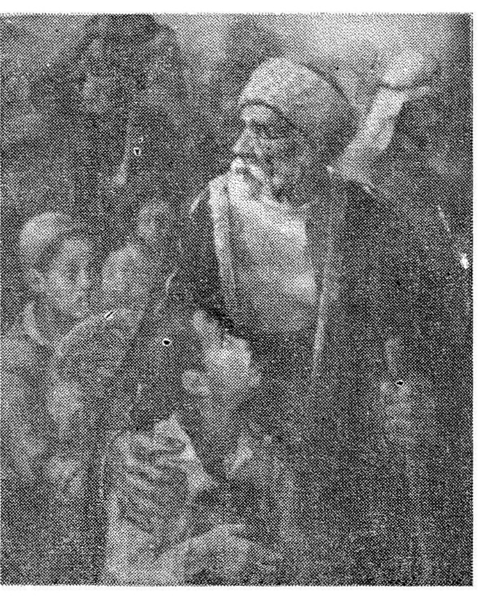
اما صاحبنا فلقد تعلم الفن في ظلال النكبة وبها فلا يستطيـع ابدا الافلات منها ، ولا يجد لفنه معنى خارج نطاقها ، لذلك نـراه يعيش الان على هامش الفن بما يقوم به من اعمال يدرك هو قبـل اي انسان اخر ، انها خارج مجرى حياته الروحية ... ان ارتبـاط النكبة بالتربية الفنية عند شموط حقيقة ذات اهمية بالغة ليس من حيث المواضيع التي يتطرق اليها بل ايضا من حيث الاسلوب الـذي يلجأ اليه في التعبير عن انفعالاته ... فهو يبني عمله على اسس شكلية لا تزال تحافظ على الكثير من مدرسيتها ، كأن هذه المواضيع قد فرضت عليه التزام التعبير الواقعي حتى يتسنى له التعاطي مع غيره مـن الناس بلغة مفهومة ، لذلك لم تجرف الفنان تلك التيارات البورجوازية الكمالية التي جرفت معظم الفنانين الشبان بمدارسها المختلفـة ، فشموط بالنسبة للفن الفلسطيني ، فنان رائد ، معبر ، صاحب رسالة ، ابن قضية تبحث لها عن اسلوب تخلد به وعن وسيلة تنتقل بها مـن جيل الى جيل ومن عهد الى عهد ، لا يمكن لنا ، بـل لا يحق لنا ان نتوقع منه التجرد او ان نحبسه في سجن المحاولات التجريدية كأننـا نفرض عليه ان ينسى القضية وينسى ذاته فيصبح تابع مدرسة لا رائد نضال ... ان تجريد القضية فنيا ليس الا محاولة لجعلها احـدى القضايا العابرة المبتذلة التي يستطيع الفنان ان يستمد منها انماطا جمالية تقف في منتصف الطريق بين البصر والبصيرة ، بين العيـن والقلب ... وهي في تجريدها لا انفعال فيها ولا اثارة ... ان تجريد القضية فنيا ولو كان تجريدا في الاسلوب فحسب سوف يؤدي حتما الى قتلها واندثارها كقوة دافعة خلاقة موجهة ... فلذلك لا نستطيـع ان نتوقع منه الانخراط في متاهات الفن الحديث التي قضت علـى معظم القوى الفنية الصاعدة ... وبعد فلسنا نحن بحاجة الـى التجربة الجديدة في الجمالية لاننا قد رأيناها تعود عن طريق المدرسة التكعيبية والرسوم الهندسية الحديثة الى الجمالية كما عرفهـا الفن العربي الاسلامي التليد ، فنحن لا نبحث اليوم عن وسـائل للنزق بل عن حوافز للحياة . ان الاسلوب الواقعي يعبر عن المواضيع الانسانية الواقعية اكثر مما يعبر عنها الاسلوب التجريدي ... والقضية الفلسطينية قضية انسانية في الدرجة الاولى ، وليست قضية فلسفية او عقائدية ... وأبناؤها ما زالوا يفتقـرون الى التربية الفنيـة الحديثة التي قد تسمح لهم بقراءة اللوحات و ((تفسير احلامهـا))



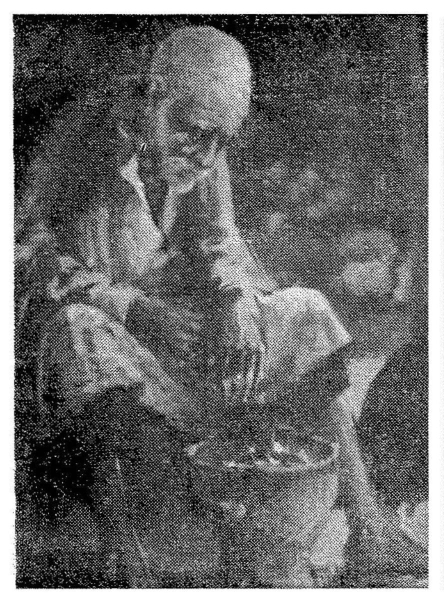
(٨) ربيع فلسطين



(٣) علكة بعد منتصف الليل



(٢) سنعود



(٥) ذكريات وواقع ونار ..

فتساعدهم على سبر اغوارها الغامضة ... ولذلك عمد الفنان بوعيه وبارادته الى تطوير اسلوبه الواقعي تطويرا محافظا نوعا ما ، حتـى يصل به الى جمهوره بوضوح وتفاهم صادق صريح ، وهذه لعمـري هي في الحقيقة غاية كل فنان وهدفه الاول وأس عمله .

✶

منذ فترة والفنان شموط يحاول الخروج بالنكبة من ركودها ... من يأسها ... من الحالة المستحيلة التي هي فيها ... من الخوف... من الدمار ... فراح في لوحته الكبيرة « ربيع فلسطيـن » (٨) يغني انشودة الفردوس المفقود ، أرض السلام والمحبة ... والعطاء ... من هنا يجب ان تبدأ المرحلة القادمة ، مرحلة البناء ، مرحلة النهوض والسعي ، مرحلة الخلاص ...

ويتراءى لي ان الوقت قد أزف ، وان ألنشاط قد دب في القضية من جديد ، فهل يواكب الفنان الذي عاش نكبته في مراحلها المختلفة هذه المرحلة الجديدة ؟ اننا لا نشك في الامكانات وفي الظروف ، وان كنا نعتقد ان فترة من التفاعل والتحضير لا بد ان تمر قبل ان يرتفع حداء الفنان من جديد ...

عبد الرحمن اللبان

أصابع المطر

« الى الغرباء »

★ .... ★

★ .... ★

– ١ –

تكسّرت أضالع السماءْ ،
وزورقي يطوف فوق جبهة الخليج
في المساء ،
تقوده ذراع خوفي السجين من زمان .
فأشتهي سحابة غريبة ، تذرني
خيوطها أمان ،
أحبه مجرح اللمى ،
يا شوقي الشغوف بالدمى ،
أود لو يمر بي نهارْ !!
أمصه .. أمص والشتاء ؟
حبيبنا هو الشتاء .
أخاف أن أدوخ ، ان يشدني الدوارْ
اخاف ان تخونني النجوم في المدار .
فعدت والظلام يا صديقتي يكفّن النهار

●

بلحظة تزنر البقاء ،
أصابع المطر ،
سمعتها وروحي التي تغازل الارقْ
تدق باب كوخي الجريح كالشفق .
« سخية اصابع المطر »
تحب لو أفك عن ضميري الحصار
تحب لو افتح الكوى ..!!
« أواه لو تهشم الزجاج
فعمرنا ينام خلف توتة السياج .
أواه لو عشقت قبل لحظة الزوال
وذقت (طعمة الهوى) .
فؤادي المحجر الدروب ،
يود لو يذوب ،
عروقه الخنيقة الظلال ،
غمامة تسح في مقالع الغروب . »

●

فيا مجامر الندم ،
تهاجر الاصابع المطيرة العطاء ؟!
وما فتحت باب خيمتي لها ،
حزينة .. نشيدها بشارة
ومقلتي غواية ، يعنكب الضلال
في رموشها ،
تخيط الشفاه لوعة الاسى ،
كم اشتهيت لو وهبتها ،
من السنابل الخواء لو وهبتها !!
لعلها ترش في جرودنا نضار ،
وأيما نضار ..

●

صرخت حين خيم الفراغ ،
ومزقت قوافل الصدى ،
فلم تجب أصابع المطر ..!!
وخضبت حواجب المدى ،
وصوتي الجريح غار في مجاهل البحار ،
قرارها ؟ معتم هو القرار .

– ٢ –

صديقتي .. احب لو ذبحت من زمان ،
دمائي الحريقة السواد
ترش فوق أضلع القمر
لتمسح الفصول دودة تموت في الحجر
لتلبس الظلام للحداد
قوافل البشر ،
لعله يعود « عاد » .
يحرش العروق بالعروق
وينحر الغروب في الشروق
هدية .. ضحية لربة تلحّس الصديد
تنفّخ اللهيب في الجليد ،
وحطبة ضعيفة تكسر الحديد ،
فتستفيق امة عديمة المنال
تكلّس القبور من جديد ..
ومن جناح غيمة حكاية تهرهرت
حروفها مصيرنا الكئيب ،
خيوطها التراب يا ضباب
تذره أظافر الهواء
فتزحم الوجود ، يا شقاءنا ، سحائب
الرماد .
ترى يعود « عاد » ؟!
تلفه غلالة رموشها المساء ،

صغارنا يهللون ، هل يرونه ؟
جواده بألف حافر وحافر كبير ..!!
ورأسه بلا عيون ،
يطير دون جانح ، تقوده الريـــاح والظنون .
صغارنا يا عاد خائفون
يولولون ، والظلام ،
جنونه ؟ معذب هو الجنون ..
فنسمة الفناء هدهدت جفوننا ،
تحركت مغالق النزيف ،
وكيف والقصور خلوة البغاء ؟!
سقوفها يا عاد عاليه ،
ففي جفون كل كوة تنام حبتـــان في العراء
تثرثران .. تشربان دمع داليه ..
« يتيمة هي الفضيلة الكسيرة الجناح تنام حاله ،
بفارس خيوله مطهمه » .
وجودنا يا عاد تمتمه
مدامع الصفصاف في غديرنا حكاية عميقة الجراح .
صفصافنا .. من الف الف عام
يذرذر الدموع لا ينام ،
أنيسه الطيور حين يغتلي بقلبها الاوام
فمن صدى صفصافنا تألم الحمام ..

●

دروبنا طويلة ، وصوت ساعة الزوال ،
يموج ما يموج في مسامع الزمن
وأمثنا يموت في صميمها ابتهال ،
صغيرها تحبه .. تحبه
غلاله حصاد عالم مكوكب من الكلال ،
غلاله ؟ بخيلة هي الغلال
ولا ثمار ، لا ثمار في السلال ..!!

●

صديقتي ، والرعب يزرع العـروق بالضنى ،
يشرش الهزال في الضلوع ،
ينشف الوريد ، يكسر الجرار ،
يعرش السهاد خيمة الدوار
وانت يا مدينتي تراك تسمعيـــــن ساعة القطار ؟
سيختفي الزمان والمكان ،
ويسبح الضباب فوق جبهة القمر ..
« سمعتها .. أوشكت أن أذوب آهة
أذوب حبة حزينة مع المطر ..
أذرة من الرماد نستحيل ؟!
وحفنة من السنين جمرت .. ولا اثر ..
شفاهنا تبرعم الحجر ،
عيوننا صور ،
عيوننا حفر ،
بكهفها الوسيع كالمدى ،
ترمد القدر .. »
مصيرنا سحابة تعبها السماء ،
وومضة شحيحة لعتمة المساء ..

●

لئيمة .. تلوّح البروق ،
جوانح الرياح تغزل الدخان شمعة
تنقّط العزاء في العروق
وربنا الغريب لم يعد ،
وأعين ضريرة تغيب في مجامر الدخان
ترقّص الرموش رعشة عنيفه ،
وخيبة عميقة تشقنا ..
فشوقنا المعلق الشروش في مزارع الوطن ،
يشدنا .. يشدنا ،
هي السفوح حلوة خدودها «المغبره»
الله .. لو سرقت في جيـــوبي العريضة الثقوب ،
من التراب «كمشة» ، من الطيور قبّره .
أيسمحون ان نؤوب ،
وفي عيون بيت لحم ، فوق ذروة ندوب ؟!
ضحية ، نقدم الذبائح القلوب .
أيسمحون ان اعود ؟
نسيت صرة صغيرة لامّي المعذبه ،
هناك في مدينتي تنام متعبه ،
حبيبها الذي اختفى ،
رجته ان يجيئها بمشطها الخشب ،
يا مشطها الخشب ،
يا مشطها المكحل الرموش بالتعب ،
حبيبها .. بوعدها الذبيح ما وفى ..

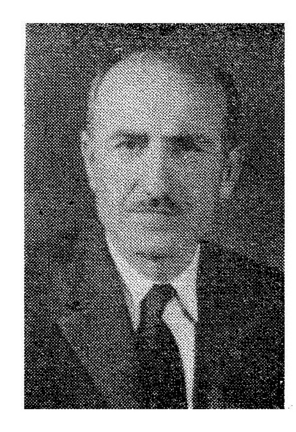
●

صديقتي .. ويعبر الزمان .. يعبر الزمان ،
يا عاد لم نسيتنا ؟!
صغارنا تكدسوا .. تفتحت محابس الدمار ،
ولحظة تمر ، والوجود غفلة ..
فعالمي وريقة ربيعها اصفرار ،
وساعة القطار
تنام فوق حاجب النهار ،
الصفر في يمينها ، والموت في اليسار

●

تلفلفت قوافل الجراد ،
بكيتها بلوعة .. ومقلتي تلوب خلف شفق النهار .
أحس في العروق لفح نار
أحس لفح نار ،
والفارس العظيم (عاد) لم يعد ،
فسافر القطار ...

فايز خضور جامعة دمشق



نكبة فلسطين في شعر المهجر

بقلم فريد جحا

— ١ —

نزلت (*) بالامة العربية كوارث ونكبات كثيرة ، ولكن نكبة فلسطين **هي النكبة العظمى والكارثة الفادحة** . ولقد أتت فداحتها من امرين : أولهما ، ان قطرا يحتل منزلة القلب من جسم الوطن العربي قد سرقه شعب غريب مجرم . والثاني ، ان ابناء هذا القطر قد اكرهوا على التخلي عن ديارهم ومساكنهم ، وشردوا في الآفاق ليعيشوا حياة اللاجئين الشقية .

والحقيقة ان نكبة فلسطين ليست مأساة عربية فقط ، وانما هي مأساة انسانية ايضا ، اذ لم نعرف في تاريخ البشرية أن وطنا سرق على هذا الشكل ، وان شعبا قد أهين وشرد على هذا المنوال . أننا مع الشاعر القروي في قوله : « ان نكبة فلسطين لا يماثلها نكبة ما لا في الارض ولا في السماء ، وكل خطب مهما فدح يهون بالنسبة اليها . وكل انسان عربيا كان ام غربيا لا يحزن لها ولا يغضب ولا يثور ، فقد تجرد من كل شعور ، وكل انسانية ، وكل دين » . (١)

تركت هذه النكبة اثرا عميقا في تاريخ العرب الحديث ، انها هزت أعماق النفس العربية هزا عميقا ، ونبهتها الى امور كثيرة أخطرها : ان الحق للاقوياء العلماء ، وان لا مكان تحت الشمس للجهلة الضعفاء ، وان على العرب لكي يستردوا الوطن السليب ان يعتمدوا على انفسهم .

وكان لا بد بعد هذا ان تترك النكبة أثرها في الشعر العربي . وقد لخصت هذه الاثار في الامور التالية : « انها قدمت للشعر زادا لا ينفد ، وانها أغنت العنصر العاطفي في الشعر ، ونفخت روح التمرد والانطلاق والثورة ، ودفعت الشعراء المعاصرين الى التطور والتجديد ، وغلبت على الشعر المعاصر الاتجاه الالزامي الهادف » . (٢)

— ٢ —

وما دامت النكبة عربية وانسانية ، فان من الطبيعي ان **تترك أصداء كثيرة لدى عرب المهجر** الذين نعرف حبهم لوطنهم واهتمامهم بقضاياه . أنها هزت قلوب المهاجرين حتى الاعماق ، ودفعت الشعراء والادباء الى ان يبكوها ويحملوا على مسببيها .

ولقد حدثنا الاستاذ اكرم زعيتر في كتابه « مهمة في قارة » بالتفصيل عن الحفاوة التي لقيها الوفد العربي الذي سافر الى اميركا اللاتينيه عام ١٩٤٨ لشرح قضية فلسطين . كان الوفد يستقبل من قبل الجاليات استقبالات تليق بالملوك وكان موضع الترحاب في كل مكان ينزل به ، كما قدم المهاجرون كل مساعدة له لينجح في مهمته .

وليست هذه هي المرة الاولى التي يهتم فيها المغتربون بقضية فلسطين ، فلطالما اقاموا الحفلات الخطابية من اجلها ، وبخاصة في عام ١٩٣٨ ، ذلك العام الذي شهد انتصارات الثورة العربية الفلسطينية ، تلك الانتصارات التي أضطرت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ، والى اصدار « الكتاب الابيض » الذي كان فيه شيء من التراجع عن السياسة الممالئة للصهيونية .

ولا ننس المناظرة التي أجراها امين الريحاني في « سان فرانسيسكو » مع حاخام يهودي وحاكم بريطاني سابق في فلسطين ، حيث استطاع الريحاني ببديهته وذكائه وموهبته الخطابية أن ينتزع النصر من خصميه حين أبطل مكيدتهما بتقديمه للكلام قائلا : « أعطيت حق الكلام اولا على اعتبار ان الحق الاول في فلسطين هو لامتي العربية . وعليه فأنا أشكر لزميلي هذا الاعتراف الصريح منهما » . (٣)

وقد ذكر الاستاذ زعيتر ان لجنة للدفاع عن فلسطين تألفت من الجاليتين اللبنانية والسورية في « سان باولو » بعد قطيعة أستمرت سبعة عشر عاما ، فلقد جمعت النكبة القلوب المختلفة التي وحد بينها الهدف المشترك .

— ٣ —

ولا شك ان **الشعراء** على اختلاف اتجاهاتهم السياسية **كانوا يهتمون بهذه القضية** . كان الاستاذ زعيتر يثني في كل مدينة يزورها على الادباء وما يقدمون للوفد من مساعدات معنوية لا تقدر بثمن . لقد ذكر بالخير كل الخير « القروي وفرحات وسمعان وغراب وصيدح وقنصل وقربان والمعلوف » كما اطلق هو نفسه على القروي اللقب المشهور « قديس القومية العربية » .

كانت لا تمر مناسبة الا وينتهزها الشعراء للتعرض لقضية فلسطين . كانت الاعياد مثلا تنقلب الى مآتم ، كيف يحتفل القروي بعيد المولد النبوي وفلسطين نازل بها الشر ؟

يهنىء بعضكم بعضا واني ... أهني النفس اني لا أهني
أأنقض مبدئي وأخون عهدي ... مسايرة لكم ويقال : اني ...

(*) الفصل الخامس من كتاب قيد الطبع بعنوان « العروبة في شعر المهجر » .

(١) الديوان — ص ٧٠٣ — الطبعة الجديدة .

(٢) مأساة فلسطين واثرها في الشعر المعاصر — محاضرة للدكتور صالح الاشتر — دمشق ١٩٦١

(٣) ادبنا وادباؤنا ص ٢٢٤

ويهدي الياس قنصل رباعياته التي نظمها في الارجنتين وطبعها في دمشق عام ١٩٥٦ « الى الجنود العرب الذين سيدخلون تل ابيب ليدكوا دولة العصابات على رؤوس بناتها ، رمزا لايمانه بأن النصر القريب ، لنا، للحق ، للعروبة الخالدة » .

« ويتطوع الشاعر القروي للطواف على المواطنين المتفرقين في المدن والقرى لجمع التبرعات منهم لاغاثة فلسطين بها ، وكان يبيع في جولته جوارب اؤتمن عليها من احد تجار سان باولو لكي ينفق على نفسه من ارباحها، لا من مال التبرعات » . (٤)

وفي ابيات له مؤثرة يصف ما لاقاه من تعنت المواطنين وشحهم ، ومنهم :

أفضول ما أرى ام غيرة	أوقرت ظهري وهدت منكبيا
أنحلت علة غيري جسدي	وأسالت كبدي من مقلتيا
يا بني امي هل كلفتكم	حمل عبء لم يهشم ساعديا
طالما سابق عسري يسركم	حين لا املك الا اصفريا
ان وهبتم فضل مال فانا	نازف ما في عروقي ويديا
ولكم باذل فلس يدعي	انه لولاي لا يبذل شيا
أنا راض حاسب كل يد	تنفع الامه مهداة اليا
سايروني واخدموا اوطانكم	واحسبوا المنة يا قومي عليا

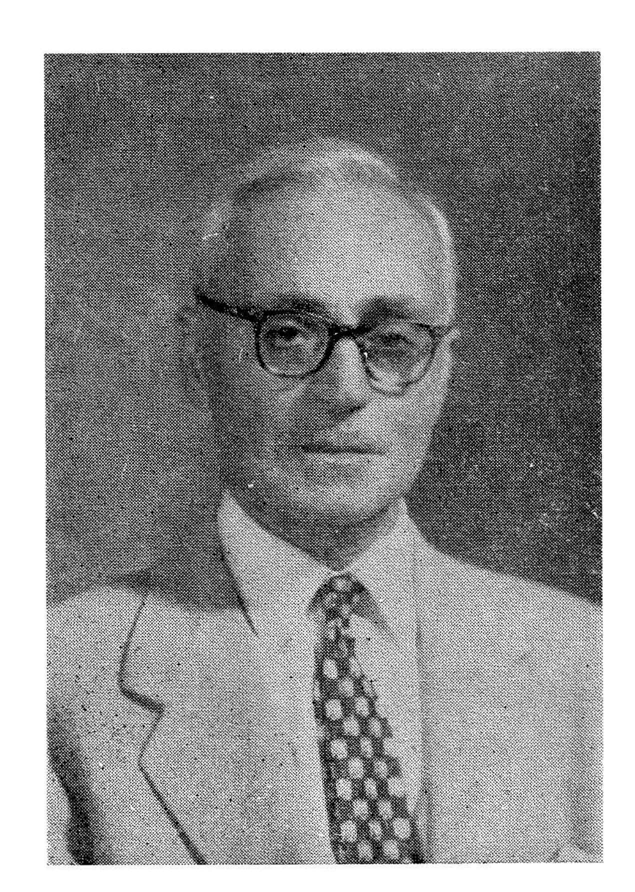
وفي الوقت نفسه كان الشاعر صيدح يطوف في مدن الارجنتين ونواحيها وفي يده ديوانه « النوافل » الذي طبعه ورصد ريعه للمنكوبين :

يا أهل ودي لا أكلفكم	ترفيه همي انه عرم
بسرابكم لا ترتوي كبد	لم تردها الغدران والديم
لا تحسبوا عتبي لموجدة	الله ما بيني وبينكم
احببتكم وبلوت نجدتكم	فاذا الذي استنجدته صنم
حققت ان دموعكم كرم	في الوعد لا في غيره كرم
فرغت يدي منكم وما فرغت	أذني كان لبانتي نغم
لم يبق فيكم من عروبتكم	الا لسان مفصح وفم
ان العروبة يا بلابلها	دوح على كف الفتى وفم

— ٤ —

وكم صور الشعراء في المهاجر آلامهم لهذه القضية التي نزلت بأمتهم . ان نسيب عريضة في عام ١٩٣٨ ، وقبل النكبة بعشر سنوات ، يقدم لنا حاله في الهجر : صدر يعلو ويهبط ، ودم يراق تحيات ، ونوم لا يطيع ، وتوق الى ساحة المجد ، ولكن الساحة بعيدة ، لذلك يمسي على ثورة ، ويصبح على دمعة :

(٤) المصدر السابق — ص ١٣٧



الشاعر القروي

أرى تفاح هذا العيد جمرا	ولو قطفوه من جنات عدن
وألمس ناعم الازهار شوكا	وأنشق عطرها نتنا بنتن
ويطرف ناظري حسن الغواني	ويجرح مسمعي شدو المغني
أأرضى والرسول قتيل غيظ	وأفرح والمسيح شهيد حزن ؟!

وعندما يقف « الغراب الغازي » على نافذة الشاعر صيدح في « بحمدون » يخيل اليه انه آت من اسرائيل ليسرق داره كما سرق اليهود فلسطين :

تطيرت من ناعب في الصباح	دخيل على مهرجان السنا
مغير يمزق شمل الرياح	اذا دافعته عن المجتنى
تقزز منه عيون الاقاح	وتطبق اجفانها ان دنا
تسرب في غرفتي واستراح	فسرب منه الي العنا
أتأبى جدار الغراب الوقاح	عجاف الطيور وارضى أنا
ومن أنبأ الطير ان اجتياح	مقامي أيسر ما في الدنى

وان انتسابي الى يعرب
يحلل مأواي للاجنبي

فلسطين من غربة موثقة   تراعيك في الكربة المطبقه
فتعلو وتهبط منا الصدور   وتهفو وأبصارنا مطرقه
ومن خلف هذا الخضم البعيد   نحييك بالدمعة المحرقه
فلسطين كم أرق بيننا   وبعض البلية ما أرقه
الى ساحة المجد فيك يتوق   ولكن حبل النوى أوثقه
فيمسي على ثورة في الحشا   ويصبح والعين مغرورقه

ويتمنى زكي قنصل لو أن السبيل ممهد الى مهد السلام . ولكن كيف يتم ذلك والليل داج والطريق طويل طويل ؟ ان اشواقه عاتية عاتية ، وقلبه يقطر دمعا ودما ، ويكاد الظلام يطوي سفينته لولا بصيص من رجاء :

هل لي الى مهد السلام سبيل؟   الليل داج والطريق طويل
عصفت بي الاشواق عاتية اللظى   واحر قلب بالدموع يسيل
لتكاد تغرق في الظلام سفينتي   لولا بصيص للرجاء ضئيل
هيهات يحملني جناح خافق   وأخوه في أصفاده مشلول

كذلك يشق على أبي ماضي أن تحزن ارض السلام، لذلك يسهر كأن السيف تقطع كبده ، وكيف ينام وخطب فلسطين خطب العلا ، وما هو بهين :

ديار السلام وأرض الهنا   يشق على الكل ان تحزنا
فخطب فلسطين خطب العلا   وما كان رزء العلا هينا
سهرنا له فكأن السيو   ف تحز بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعينا   ترى حولها للردى أعينا

ولا يجد القروي دمعة يذرفها على امه التي يعبدها، فبكاؤه على المليون من اللاجئين قد أنضب دمعه :

أبعد فلسطين يناح على فتى   وهل بقيت من مقلة دمعة بعد
وما الحقد من طبعي ولكن اذا بغى   على وطني الباغون فجرني الحقد

وتشرق مقلة الشاعر صيدح بالدموع الكثيرة ، فيا أيها اللائم لا تلمه ، أما هدر دم الامة ؟ أما استشهد الحق ؟

شرقت بمائك يا مقلتي   ألا ليت ماءك في مهجتي
فيا لائمي ان هدرت الدمو   ع أما هدرت دمها امتي ؟
أما استشهد الحق حيث الرجال   بكوا كالنساء على الميت ؟

والحسن حوله في الدنيا ، وهو متجهم متألم يرحل هنا وهناك : زاده الالم وصاحبه الجزع على الاوطان ، وعلى لسانه سؤال رهيب : هل انطوى علم العروبة في فلسطين :

ما لي اطوف وقبلتي حلم   خاب المسافر زاده الالم
الحسن يضحك في الربى وأنا   متجهم وسواي يبتسم
جزعي على الاوطان يصحبني   هل في فلسطين انطوى العلم ؟

بل ان بعض الشعراء قد بلغ بهم اليأس والالم حد الكفر بحكمة الله ، والا ما سر هذا الشر الكبير ينزل بالقدس . ان صرعة الحق قد زعزعت ايمان الشاعر القروي بالحق والباطل :

واحيرة العاقل في خالق   قضى وأمضى بشقا العاقل
يفعل ما لو غيره فاعل   لقامت الدنيا على الفاعل
القدس لم تزن فما بالها   ترجم عن بابل من بابل
كم صرعة للحق قد زعزعت   رأيي في الحق ، وفي الباطل

— ٥ —

واذا أردت معرفة **أسباب النكبة** ، وجدت الجواب على ذلك لدى شعراء المهجر . ففي رأي الياس قنصل ان الذل في الأخلاق هو سبب ضياع القدس :

انا خسرنا القدس وهي وديعة   في عهدنا من سؤدد الخلاق
ما كان من وهن السلاح ضياعها   بل من شيوع الذل في الاخلاق

وجميع العرب مسؤولون عن ذلك ، مسؤولون لانهم خنعوا وسكتوا ، ولان ذنب المظلوم حين يقبل الظلم كذنب



نسيب عريضه

الظالم

ذنب الطغاة كذنب الخانعين لهم   سيان في الجرم ظلام ومذلول
سيذكر العار ان العرب دمرهم   يوم الكريهة مجهول ومرذول
وليس يبرأ من اثم الونى احد   فكلنا عن ضياع القدس مسؤول

والفرقة والانقسام — في رأي الشاعر صيدح — هما سبب النكبة :

يمينا لم ينل منا مراما   عدو لم نسقه الى المرام
ولا اغتصب الحمى لو لم نمهد   طريق الغاصبين بالانقسام

ونحن الذين صنعنا أقدارنا بأيدينا فلا نلقينها على غيرنا :

أقدارنا صنع ايدينا فما جرحت   الا بسهم وضعناه بأيديها

اما القروي فيعلل سبب العون الكبير الذي تقدمه أميركا لليهود في رسالة ارسلها الى صديقه صيدح من الولايات المتحدة بقوله : « التوراة في كل بيت ، عند كل سرير ، ولا تكاد تخلو منها غرفة في فندق . وقد هالني ما رأيت من سلطانها على العقول التي أوشكت ان تفقد مرونتها وتعدم تفكيرها . والتوراة أقوى وأفتك سلاح يتذرع به اليهود للفوز بمآربهم ، وأول مآربهم فلسطين »

ويرى الشاعر فرحات أن سبب ضياع فلسطين ولواء الاسكندرون هو فقدان العزة والحياء من وجوه الزعماء الذين نضب شعورهم فأصبحوا أذلاء ، وخاب أمل عقدناه على ابائهم :

هذي وذاك لنا ولم نخسرهما   لو ان في بعض الوجوه حياء
نضبت فانضبت الشعور وكذبت   شمما تبجحنا به واباء

— ٦ —

ولقد كانت **خيانة الملوك والرؤساء** آنذاك وتخاذلهم وانقسامهم ومطامعهم أهم أسباب النكبة . لذلك شن شعراء المهجر عليهم حملات شعواء تتناسب والجرم الذي أقدموا عليه .

فالياس قنصل يظنهم اسودا لكثرة ما القوا من خطب، ولكنهم يوم الغضبة للوطن تحولوا — يا للعار — الى ديوك

حسبناهم اذا غضبوا اسودا   فكانوا يوم غضبتهم ديوكا
ولو كان الكلام يشيد عرشا   لكان العرب اغلبهم ملوكا

وكان فرحات يظن صاحب التاج صقرا فلما غزيت الديار المقدسة ، انقلب الملك المتوج الى هدهد حقير :

ملوك ظنناهم اسودا وعندما   غزينا رأينا صاحب التاج هدهدا

ايليا
ابو ماضي

ولذلك يري الشباب – عندما يخاطبهم – كيف تخاذل الملوك والامراء ، وكيف ذلوا ليحموا القابهم . ولمن؟ للصهاينة ، أذل من وطىء الثرى . كلامهم امام قومهم زئير ، وأمام العدى مواء ، وسيدك الشعب عروشهم :

أرأيتم الزعماء كيف تخاذلوا   أرأيتم الاقيال والامراء
ذل الجميع على حمى ألقابهم   لأذل من وطىء الثرى استخذاء
يتزاءرون كأنهم أسد فان   لمحوا العدى انقلب الزئير مواء
لو شاء هذا الشعبدك عروشهم   وأزال كل متوج لو شاء

وقبل هذا يهزأ بألقابهم الضخمة وكرامتهم الهزيلة التي ديست بأقدام اليهود :

واذا لقيت ذوي الجلالة من   ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكل ذي لقب   خاو كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بألقاب لهم سمنت   وكرامة هزلت أسى وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا   شم الانوف استنشقوا الدرنا

ويصورهم الشاعر صيدح كما كانوا أثناء القتال بصورتهم البشعة وخصامهم الكريه وأطماعهم التي تقدمت جيوشهم :

أما اختصموا فيالحمى المستباح   خصام الصقور على الجثة
فهذا سريع الى السائبات   وكان بطيئا الى النجدة
وهذا مليك قريع الحروب   يؤوب من النصر بالهدنة
أعدوا فيالق أطماعهم   على رأس جيش بلا عدة

لذلك يدعو في قصيدة اخرى الى الثورة عليهم ما داموا قد أصبحوا رمما ، والشعوب يقودها الاقوياء الاحياء ، لا الاموات الاذلاء :

دنيا العروبة أدبرت ومشت   مقلوبة من رأسها القدم
العابثون بحقنا اتحدوا   والقائمون بأمرنا انقسموا
حتى من هذا الخنوع لهم   يا امة دانت لها الامم
ثوري عليهم انهم رمم   بئس الشعوب تقودها رمم

ولا ينسى الشعراء **ملوك الزيت وامراءه** الذين بخلوا حتى بالتهديد بقطع الزيت عن دول المستعمرين مكتفين باطلاق التصاريح الجوفاء ، كقول عبد العزيز آل سعود عام ١٩٤٧ : « ان فلسطين عزيزة عليه ، وانها بؤبؤعينيه ، وانه لا يرضى لها الا ما يرضاه لنفسه » . اما عند الشدائد فلا شيء الا الوفاء بالالتزامات تجاه من اسعفوا اسرائيل وسندوها . ونسوا أن « زيت الحجاز والعراق والكويت ليس لاهل الحجاز ، ولا لاهل العراق ، ولا لاهل الكويت ، انما هو ملك لله ، لانهم لم يزرعوه حتى يستغلوه ، ولا صنعوه حتى يتاجروا به ، فيجب ان يدفعوا ضريبة ثقيلة لله عليه » (٥) .

فذلك الامير الذي طفا نجمه على الزيت لا يسقي العرب الا السراب . يقول فرحات :

وصاحبنا الطافي علىالزيتنجمه   سقانا زلال الآل في غمرةالصدى

وهؤلاء الاغنياء العرب ، ماذا تفيد ثروتهم اذا ابعد عنهم مجد امتهم ، بل ما أفقر الانسان مهما بلغماله حين يفقد وطنه .

ونمضي مع الياس فرحات في هذه الابيات من قصيدته التي يصفع فيها الامراء اصحاب الملايين ، حين يتمنى – وهو الفقير – لو ملك نفط الكويت ليحيله جنودا يمشون فوق جثث اليهود لتحرير الديار المقدسة :

ماذا يفيد العرب ثروة بعضهم   ان كان حائط بعضهم مسدودا
ما أفقر المتمولين اذا همو   كسبوا بخسران البلاد نقودا
لو كان لي نفط الكويت جعلته   يمشي على جثث اليهود جنودا

– ٧ –

ولم يسلم الشعب العربي بعد الملوك والزعماء من لوم الشعراء وحملتهم ، بل ان بعضهم عده مسؤولا ايضا. ان الطغاة – كما يقول الياس قنصل – جنوا علينا فما ثارت حماستنا فذنبنا كذنبهم :

جنوا علينا فما ثارت حماستنا   غيظا ولا خف تحتالسوط تهليل
ذنب الطغاة كذنب الخانعينلهم   سيان في الجرم ظلام ومذلول

وفي عيد المولد النبوي يأبى القروي أن يشارك في العيد ، ويخيل اليه انه يسمع وعيده وتقريعه ، وهو تقريع قاس قاس يستحقه الشعب الذي يبيع ارضه لليهود ، ثم يحتفل بعيده :

وعيد هائل سمعته روحي   ولولا لفظكم سمعته اذني
يفجره النبي شواظ نار   على شط وبادية وحزن :
أمسخرة الشعوب لعنت شعبا   ذليلا لست منك ولست مني
تعيد لي وأنت تبيع ارضي   وعرضي لليهود ، اليك عني »

ويتألم الشاعر صيدح للوعود تبذل في المهجر كلاما وأرقاما على الورق . وفي الوطن الكلام كثير ، والناس يفتخرون بأجدادهم الجبابرة وهم الاقزام . ما أشبههم بالظلال تفخر بأطوادها . اما فلسطين فهي تجد كل شيء الا السلاح والزاد :

وفي مهاجرنا الاصوات عالية   والجود يضرب أصفارا بآحاد
مرحىفلسطين مهما تطلبي تجدي   الا السلاح والا بلغة الزاد
ما في الشام ولا لبنان ألسنة   الا وذكرك فيها رائح غاد
فخر السوخ بأجداد جبابرة   فخر الظلال استكانت تحتأطواد

ويسأل الشاعر الصارمي في حفلة استقبال السفير الشاعر « أبو ريشة » في الارجنتين عن اخبار الوطن ، وعن انباء الراية الواحدة متى تظلل اقطاره . ثم ينثني – والالم يعصر فؤاده – ليسأل عن فلسطين متى يعود اليها المجد ، وهل يظل اليهود فيها عبئا ثقيلا ؟ ويعجب كيف استكان العرب للهوان وهم ابناء قحطان وكيفأطمأنوا لحياتهم ، والعز طعين مقتول ، ومئات الالوف مناللاجئين مشردون :

أتضم البلاد رايتها الكبرى   وشيكا ام ذاك امر يطول
أيؤول المجد المضيع في القد   س ، ام المجد غاله الدهر غول
أيظل اليهود عبئا ثقيلا   أم لها يومها الامر الوبيل
كيف قرت على الهوان وما أبناء قحطان للهوان سليل
واطمأنت الى المناصبوالعز طعين بصدره وقتيل
ومئات الالوف من أسر الشعب جياع مشردون فلول (٦)

فريد جحا

(٥) الكلمة للاستاذ نيقولا الحداد (٦) للبحث تتمة في العدد القادم

في أصـــــول المسألة الفلسطينية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٢ ـ

في الحرب الاولى ، فاتصل بالسير ماك ماهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ، ودارت بينهما محادثات ، كان هدفها الحصول على مساعدة انجلترا في الاعتراف باستقلال الولايات العربية مقابل انضمامها للحلفاء في الحرب الاولى .. وقد بذل الشريف جهده لمساعدة الحلفاء ، في الوقت الذي استغلوا هم فيه الحرب لتنفيذ اهداف الرأسمالية الاحتكارية ، فوقع اتفاق سايكس بيكو السري بين انجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية ، ثم صدر وعد بلفور ، وكلاهما ، الاتفاق والوعد يوزعان البلاد العربية بين دول الحلفاء ..

***

وكان صدور وعد بلفور ، نقضا واضحا لدعوة مكماهون للحسين ، فقد كانت فلسطين من بين الولايات التي حفظتها هذه الوعود كجزء من الامبراطورية العربية ، ومن هنا ساعدت قوات الحسين اللورد اللنبي في استيلائه وامتلاكه لها ، الا ان الانجليز عندما فتحوها بدأوا ينفذون مخططهم بفتح اسواقها للمنتجات ، وتصدير رأس المال اليها واستيراد المواد الخام منها .

وتنفيذا لهذا المخطط عمد الاستعمار الى انشاء حركة اقتصادية نامية ، فقد ساهم الحكم العثماني في ايجاد لون من الوان الركود الاقتصادي ، ومن هنا بدأ الاستعمار في انشاء خطوط السكك الحديدية وشبكات الطرق والموانىء وغيرها من الانشاءات التي تساعده على اقصى استفادة من فلسطين .

وقد هزت هذه الانشاءات الاقتصاد الفلسطيني الذي كان يعتمد على الزراعة بشكل متخلف ، فبدأ يتطور تطورا جديدا . فالطابع الذي كان سائدا في الزراعة الفلسطينية اذ ذاك قريب من الاكتفاء الذاتي ، اذ كان اغلبية الانتاج من الحبوب والغلال يستهلكها الفلاحون محليا ، ومن هنا كانت الطرق المستخدمة في الانتاج الزراعي طرقا متخلفة ، فالري يعتمد على الامطار والادوات المستخدمة في الزراعة ادوات بالية كالمحراث الخشبي والاسمدة غير الكيماوية . وكانت خطورة هذا اللون من الزراعة انه غير كاف لتوفير حياة اقتصادية نشطة وكان تنشيط الزراعة بعد ظهور الموانىء وطرق المواصلات مولدا لتنشيط التجارة ، فتحولت الزراعة الفلسطينية الى زراعة كثيفة ، فتضاعفت مثلا المساحة المزروعة بالاشجار الحمضية (الموالح) ، وبدأت المنتجات الزراعية تظهر كسلعة تساعدها الظروف الحضارية على التصدير وادى هذا ايضا الى ظهور المدن ونموها ، مما خلق نوعا اخر من الزراعة الكثيفة ـ لم يكن مهتما به من قبل ـ وهو زراعة الخضار والفواكه ، وبالطبع فان هذا لا يعني ان الزراعة الفلسطينية قد تحولت كلها الى زراعة كثيفة ، فقد ظلت هناك مساحات كثيرة تعتمد على الطرق البالية ولكن المهم ان بدء التطوير الرأسمالي للزراعة ، قد ظهر في هذه المرحلة وظهر معها بشكل جنيني صناعة فلسطينية متواضعة اساسها الحرفيون من اليهود والعرب الذين بدأوا العمل في ظروف تتحدى الرأسمالية الاحتكارية الوافدة .

***

أدى هذا التطور الى نشوء طبقات اجتماعية في فلسطين ، واضمحلال بعض الطبقات « غير ان هذا التغير لم يقترن بتغير مماثل له في جميع نواحي الحياة الفلسطينية ولا سيما ان صعود الطبقات الجديدة صعودا اقتصاديا واجتماعيا بما كان يمكنها من الاستمرار في هذا السبيل ومن فتح الامكانيات واسعة امامها لتتولى الحكم السياسي » . (٥٦)

كانت الرأسمالية العربية الناشئة في فلسطين « تريد ان تكون اقتصاديات فلسطين جميعا في مجال الاستغلال والاستثمار ، غير ان الاوضاع التي فرضها الاستعمار على فلسطين لا تسمح بذلك » . (٥٧)

كانت هذه الاوضاع تتبلور في بقاء النظم الاقطاعية من ناحية ، ثم افساح السبيل امام الاحتلال الصهيوني الذي يوقف الاراضي الخصبة على الشعب اليهودي فيحرم الرأسمالية العربية من تداولها بين ايديها فضلا عن تثبيته اقدام الاحتكارات الكبرى وحمايته للصناعات الاحتكارية الاجنبية بنظامه الجمركي . وبدأت الرأسمالية العربية تشكل احزابها السياسية ، « تلك الاحزاب التي تدخلت فيها الطلائع السياسية لطبقتي الاقطاعيين والرأسماليين » مثل حزب الكتلة الوطنية ، ومؤتمر الشباب والحزب العربي الفلسطيني .. (٥٨)

وفي نفس الوقت كانت الطبقة العاملة الفلسطينية تتكون في خفوت ، فظهرت مراكز تجمعها في المدن الكبرى ، وتكونت اساسا من العمال الزراعيين الذين سحبت الرأسمالية الارض من تحت اقدامهم فبدأوا يهاجرون الى المدن ، كذلك تحول البدو الى عمال نظرا لحالة الفقر الشديدة التي كان يعانيها المجتمع الفلسطيني . وظهرت القيادات العمالية في فلسطين منذ سنة ١٩٣٠ ، فعقدت المؤتمرات العمالية ، وألفت بعض النقابات .

ويلاحظ ان تطور المجتمع الفلسطيني قد واكب الهجرة الصهيونية وانعكس ايضا على اليهود الوافدين ، فسياسة الهجرة قد اعتمدت على تصدير رؤوس الاموال الصهيونية والانكليزية ولهذا تميزت الحياة الاقتصادية بعد الانتداب « بالميزات التي نجدها في اقتصاد المستعمرات أي بتطفل عدد صغير من الاحتكارات ـ صناعية ومالية وزراعية ـ على اقتصاد متأخر نسبيا ، ومن جهة اخرى بتطفل الاستعمار ـ ككل ـ على المستعمرة ككل ايضا . » (٥٩) ، فقامت السلطات الاستعمارية بحماية احتكاراتها بواسطة حماية جمركية متقنة ، حتى ان متوسط الرسوم الجمركية سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٠ ٪ على السكر و ١٤٩ ٪ على الدخان ... الخ .

وكان هذا الاحتكار يشكل خطرا على الطبقات الصاعدة ، يهودية وعربية ، اذ ان المهاجرين اليهود كانوا اما اصحاب رؤوس اموال للاستغلال ، او عمالا فقراء للعمل في المستعمرات ، وكان هؤلاء العمال يعيشون في ظروف عمل بالغة السوء فقد دلت بعض التقديرات على ان ٦٠ ٪ من العمال اليهود يبلغ دخلهم أقل من ٦ جنيهات فلسطينية في الشهر وقدر عدد العمال اليهود العاطلين جزئيا وكليا ب ١٢٠٠٠ عامل ، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية بعد ان خف الطلب على العمل بسبب انتهاء الحرب قدر عدد العمال اليهود العاطلين بستة الاف ، كذلك كانت اجور العمال العرب منخفضة جدا ، تصل الى ١٣٨ ملا يوميا وتتراوح ساعات عملهم بين ٨ ـ ١٦ ساعة يوميا ، ورغم هذا فقد كانت التفرقة العنصرية تعمل على خفض اجورهم عن زملائهم اليهود ، فالعامل الفلسطيني كان يتقاضى من ٨٠ ـ ١٢٠ ملا لحرث الارض ، بينما يتقاضى اليهودي لنفس العمل من ٢٠٠ ـ ٢٥٠ ملا ، ويلاحظ ان الاجر في كلا الحالتين يتضمن استغلالا معينا .. كذلك هاجر الى فلسطين عدد من الحرفيين اليهود ، ومارسوا نشاطهم المحدود هناك ، وظهرت بعض الصناعات اليهودية التي ما لبثت ان تطورت .. في الوقت الذي تطور فيه الاقتصاد العربي الفلسطيني ، الا ان هذا التطور ـ بفعل عديد من الظروف ـ قد نشأ عنه تجمعين طبقيين منفصلين ، فنلاحظ مثلا « انقسام الغرف التجارية قسمين عربية ويهودية كما ان مصدري الموالح الفلسطينية أنشأوا بورصتين للاثمار الحمضية واحدة منها يهودية والاخرى عربية » . (٦٠)

ان شكل التطور في المجتمع الفلسطيني قد خضع لعدة اتجاهات :

- فهو قد خضع لبقايا الفكر الاقطاعي ، ممثلا في ازدواجية البرجوازية الفلسطينية الناشئة عن التطور الرأسمالي للانتاج الزراعي ، وعن التطور الرأسمالي للانتاج الصناعي .
- وهو قد خضع للتفرقة بين العرب وبين اليهود ، فنشأت برجوازية يهودية واخرى عربية متنافستين ، ونشأت طبقة عمالية عربية واخرى فلسطينية متنافستين ، يدير هذا التنافس ويعمل على اذكاء ناره الرأسمالية الاحتكارية الصهيونية الانكليزية .

ومن خلال هذا المنحنى الخط بدأت الحركة الوطنية الفلسطينية..

كانت طبيعة التكوين الخاص للطبقة القائدة للحركة الوطنية خلال الحرب الاولى هي التي أنهت المرحلة الاولى منها بابدال الحكم

الانكليزي بالحكم التركي ، ولقد استطاع الاستعمار الانكليزي بما له من دراية وحنكة ، ان يضرب الرأسمالية الناشئة ، فاجتذب من قيادتها العناصر الاقطاعية التي يسهل التحالف معها ، والتي ترتبط مصالحها بمصالحه وبدأت اللجنة التنفيذية العربية وهي الهيئة التي انتخبتها المؤتمرات العربية للاشراف على الحركة الوطنية في فلسطين اذ ذاك في محاولة فهم الموقف ، غير انها وقعت في الفخ الذي نصبه الاستعمار لها اذ « شهدت قضية فلسطين منذ الاحتلال البريطاني الى عام ١٩٢٦ سلسلة من المذابح التي قام بها العرب ضد اليهود بسبب الاستفزازات الاستعمارية المتكررة ، ظانين ان هؤلاء هم المصدر الرئيسي للبلاء وان الحكم البريطاني لولاهم لحقق وعوده ونفذها » .

وعندما استحكمت الازمة الاقتصادية في فلسطين نتيجة للازمة العالمية للنظام الرأسمالي (١٩٢٥ – ١٩٢٩) ، بدأت سلسلة اخرى من المذابح ...

لقد استطاع الاستعمار البريطاني ان يوهم الحركة الوطنية بان اليهود هم اسباب الازمة في حين ان اليهود ضحايا مثل العرب للامبريالية ، وساعدت العناصر الاقطاعية على تحويل النضال الثوري ضد الاستعمار الى نضال عنصري وديني .. الا ان البرجوازية العربية بدأت تدرك – بنموها وتطورها – طبيعة المعركة ورفعت شعار الامة ، وأوفدت عددا من الوفود الى مؤتمرات عالمية بهدف شرح قضية الوطن الفلسطيني بأكمله .. فاحتجت على الوطن القومي اليهودي وطالبت بحكومة برلمانية وفلسطنة الوظائف والمساواة بين العمال العرب واليهود في العمل الحكومي ، وهي في اعتراضها على الوطن اليهودي تسجل خطره الشديد « على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي » ثم تنص على ان « سكان البلاد الاصليين من اخواننا الموسويين لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وفي المؤتمر العربي السابع (١٩٢٨) سجلت « ان العرب في فلسطين وهم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم » . (٦١)

واخذ النضال العربي في تلك المرحلة عدة وسائل سلمية في الغالب ، فامتنع العرب عن الترشيح في الانتخابات البلدية ورفضوا مشروع الوكالة العربية . الا ان هذا لا يعني ثورية القيادة السياسية على اطلاقها فقد شابت بعض مواقفها تهاونية واضحة ، كما ان موقفها العنصري من اليهود لم يتلاش تماما .

وخطورة الموقف العنصري من اليهود – فضلا عما في العنصرية نفسها من تخلف – انه ابعد المعركة عن مجالها الحقيقي ، فالانكليز هم العدو الاساسي في المعركة ، ووجودهم هو الذي سبب وجود اليهود في فلسطين ، وترك حكومة الانتداب وشن حرب دينية على اليهود دون كيشوتية لا معنى لها ، وقد اثبتت مراحل التطور بعد ذلك خطأها وعدم جدواها .

الا ان تطور الرأسمالية العربية كان يفتح باستمرار آفاقا لرؤية اوسع وبالتالي لموقف اكثر ثورية . وخاصة في الفترة التي تلت عام ١٩٣٢ حيث توسعت حكومة الانتداب في السماح لرؤوس الاموال بالعمل ، وزادت ايضا الاموال الاجنبية في فلسطين ، ففي هذه الفترة « وعت الرأسمالية العربية الناهضة بأن الاستعمار البريطاني هو عدوها الرئيسي وتحولت ثائرتها من مكافحة اليهود الى مكافحة حكومة بريطانيا العظمى ، فأخذت الحركة الوطنية العربية القومات الرئيسية للحركات القومية حتى ان تقرير بيل (١٩٣٧) لا يجد مفرا من الاعتراف بذلك اذ يقول : ويظهر جليا اذن ان مشكلة فلسطين هي مشكلة سياسية وانها كما هي في البلاد العربية الاخرى مشكلة القومية الثائرة » . (٦٢)

وتشكلت قيادة جديدة للحركة الوطنية ، وبدأت الثورةالفلسطينية سنة ١٩٣٩ بقيادة الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى ، واندلعت من المدن الرئيسية ... وكانت بدايتها بعض المظاهرات العنيفة التي ما لبثت – تحت ضغط المقاومة – ان تحولت الى ثورة » .

ووجهت قيادة الحرس الوطني بيانا بالكفاح المسلح جاء فيه ان الانكليز « هم الاصل في قضيتنا واليهود الفرع ، هم الذين رمونا بالصهيونية وهم الذين يهدرون دماء ابنائنا » .

الا ان المعتدلين في قيادة الحركة الوطنية لم يتوقعوا تحول الاضراب الى ثورة مسلحة فبدأت محاولات الصلح ، والتقهقر ، ثم ساعدهم ملوك العرب معتمدين كما جاء في بيان اللجنة العربية العليا « على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل » .

وقد حاولت قيادة الطبقات الشعبية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية ان تقدم حلا عمليا للمسألة ، مبنيا على ما كشفت عنه التطورات الاخيرة ..

١ – فمن ناحية كان انحدار الفاشية الاوروبية قد ادى الى قيام حكومات شعبية في اوروبا وهي مركز الاضطهادات القومية والعنصرية وبخاصة ضد اليهود – مما بشر بقرب زوال المسألة اليهودية زوالا نهائيا .

٢ – ومن ناحية ثانية كانت جماهير اليهود في فلسطين تفكر في ان تبرحها وتعود الى بلادها المحررة لان الطبقات العمالية اليهودية بدأت تنفذ ارتباطها العنصري والديني بالصهيونية بعدما تركز الانتاج الصهيوني وكشف عن طفيليته .

ولهذا طالبت القوى الجديدة :

١ – الغاء الانتداب وانشاء حكومة ديمقراطية وطنية في فلسطين تمثل جميع سكانها عربا ويهودا .

٢ – السماح لمن يريد العودة من اليهود المصدرين الى فلسطين الى بلده الاصلي بالعودة ، ووقف الهجرة اليهودية الى فلسطين وسقوط خرافة انشاء الوطن القومي اليهودي .

الا ان هذه المطالب كانت تجابه بضراوة من جبهات ثلاث :

- من الاستعمار البريطاني الذي كان ما يزال يحلم بالاستيلاء على جزء من فلسطين ولو لحساب زعيمة معسكره اميركا ..
- من الجبهات اليمينية التي كانت تقود الحركة الصهيونية .
- من الدول العربية التي كانت تحاول في تلك المرحلة ان تستفيد من المسألة الفلسطينية للتغلب على مشاكلها الداخلية ..

***

كان قرار التقسيم هو احسن الحلول السيئة ، والدول التي وافقت عليه كانت تدرك جيدا انه لا يوجد حل احسن سوءا منه ، فالحق الفلسطيني كان واضحا جدا ، والباطل الصهيوني كان ايضا واضحا جدا! . الا ان المعارك العنصرية العنيفة كانت قد قضت على أي أمل في انشاء دولة ديمقراطية تضم العرب واليهود ، ومن هنا كان التقسيم هو الحل المعقول ..! صحيح ان التقسيم كان سيعطي للاستعمار قاعدة في المنطقة ، الا انه كان ايضا سيسمح بقيام دولة فلسطينية عربية تستطيع أن تؤكد وجودها وتنمي اقتصادها ولم تكن الدولة اليهودية هي القاعدة الوحيدة للاستعمار في المنطقة اذ ذاك ، كما انها ليست هي الوحيدة الان ...

ولكن الدول العربية رفضت التقسيم !! وبدأت تستعد لدخول الحرب !!

ورفضت العناصر الصهيونية اليمينية – مثل عصابة شتيرن – التقسيم ، وقال مناحم بيجن « ان الوطن – وطن اليهود – قد بتر » . وبدأت هذه العناصر تستعد لدخول الحرب !!

ويعد الموقف الذي وقفته مصر من المسألة الفلسطينية – قبل يوليو ١٩٥٢ – دليلا واضحا على مدى ما كانت تعانيه البرجوازية المصرية من ازمات ..!

كان التطور الذي شهده المجتمع المصري منذ ثورة ١٩١٩ يتمثل في محاولة البرجوازية المصرية صنع ثورتها « والقيادة السياسية لتلك المرحلة هي قيادة البرجوازية في مرحلة نشوئها والطابع السائد للرأسمالية المصرية اذ ذاك هو طابع الرأسمالية التجارية الضعيفة ، ومن هنا اخذت اسلوب الكفاح المتهادن المستسلم احيانا .. وكان يحيط بالرأسمالية المصرية عدد من القوى الاجتماعية الغريبة التكوين ، فكبار ملاك الاراضي كانوا يشكلون نوعا من الاستغلال الرأسمالي للارض لان النسبة الكبرى من اراضيهم كانت تستغل ايجاريا .. بينما كان

رأس المال السائل في ايديهم يستغل في شركات اجنبية تعمل في مصر ، وفي نفس الوقت كانت مصانع النسيج في لانكشير ترتبط مصالحها بمصالحهم ، فالقطن وهو السلعة الرئيسية للانتاج الزراعي كان يصدر الى انكلترا » (٦٣) وكان هذا الازدواج في النمو ، هو الذي لم يتح للحركة الوطنية المصرية تحقيق ثورتها حتى عام ١٩٥٢ ، فكبار ملاك الاراضي كانوا اقوياء ، وكان الملك على رأسهم يمثل سلطة قوية ، ساعدتها الظروف التاريخية على العصف بجميع المكاسب الديمقراطية ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية نمت قوى اجتماعية جديدة ، فالقيادة السياسية للبرجوازية المصرية كانت قد ارتبطت بالقوى الاستعمارية نتيجة لدخول عدد من كبار ملاك الاراضي فيها ، ومن هنا فان نشوء الصناعات الوطنية في الحرب العالمية الثانية وتطورها ، حمل فئات حرة من البرجوازية المصرية ، كانت ترى نفسها تواجه مقاومة من كبار ملاك الاراضي والفئات الاحتكارية من البرجوازية العميلة ومقاومة اخرى من جماهير الشعب التي نمت وزادت قوتها في تلك المرحله ... وكانت فضائح فساد الحكم تفوح رائحتها .. والجماهير تتململ في ثورة عنيفة .. والسخط ينتشر بين ضباط الجيش وجنوده .. ومن هنا كانت الحاجة ماسة الى :

١ - اجراء يسهل اعلان الاحكام العرفية والقبض على القيادات الشعبية من ناحية .

٢ - ويشغل ضباط الجيش والجماهير الشعبية عن المطالبة باجلاء الجيوش الانكليزية والاصلاح الداخلي ..

٣ - ويحقق مكاسب خاصة للمشتركين فيه .

وقد بدأ التمهيد للحرب الفلسطينية قبلها بسنوات ، وكانت الجمعيات الدينية تعمل بهمة لنشر التعصب الديني ضد اليهود والمسيحيين ، مما كان مثار شكوى للطوائف غير المسلمة ، كما بدأت حملة اغتيال اليهود ونسف منشآتهم الاقتصادية ، بهدف اثارة الروح التعصبية لدى الجماهير الشعبية للحصول على موافقتها على دخول الحرب .

وانفرد الملك باصدار قرار دخول الحرب على الرغم من علمه بأن حالة الجيش لا تسمح بدخول الحرب . يقول اللواء المواوي قائد حملة فلسطين ان وزير الحربية المصرية طلبه من العريش في ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ للوقوف على رأيه فيما يختص بدخول الجيش حرب فلسطين « فأفهمته الموقف بمنتهى الصراحة وهو ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اي معركة كانت ، وعرضت عليه في احدى مرات زياراتي لمصر ان يحضر للعريش بنفسه ، وفعلا حضر فلم يجد اي شيء في الاسلحة صالحا على الاطلاق للدخول في المعركة فذكرته بالموقف الذي رآه بنفسه بالعريش وما سمعه من جميع ضباط الاسلحة فيما يختص بالحالة السيئة التي عليها الجيش ، فاخبرني ان دولة رئيس الوزراء سيحضر بعد قليل فاذكر له ما تقول» (٦٤) . وعندما حضر رئيس الوزراء اخبره « ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اية معركة مهما كانت حالتها ومهما قيل عن اليهود من ضعف فان جيشنا تنقصه كافة المعدات وأهمها الاسلحة التي يستعملها الجنود في المعركة فالبنادق في حالة سيئة » . (٦٥)

ويقول ابراهيم عبد الهادي رئيس ديوان الملك المصري السابق فاروق : « المسألة كانت مسبوقة بدعاية طويلة لدخول الحرب ، وكانت الجامعة العربية منعقدة ، وكانت كل المسائل المتعلقة بهذا الموضوع بين الملك فاروق وبين الجامعة العربية . وانا لم اعلم مطلقا عن دخول الحرب شيء الا حين علم كل الناس » (٦٦) . ويقول الفريق محمد حيدر وزير الحربية الذي دخلت مصر الحرب في عهده : « ان العسكريين لم يجتمعوا ولم يؤخذ رأيهم انما كان هناك اتفاق بين ملك مصر ورؤساء الدول العربية في اجتماع انشاص سنة ١٩٤٧ بأن يدخلوا الحرب » . (٦٧)

لقد كشفت حرب فلسطين بمراحلها المتعددة عن الرجعيةالعربية في صحوة موتها ..

١ - فكانت فضيحة الاسلحة الفاسدة في مصر (٦٨) ، دليلا حيا على مدى الاستغلالية البشعة التي وصلت اليها نظم الحكم ، كذلك كان اعلان الحرب فرضا لاعلان الاحكام العرفية واعتقال الاف الشرفاء ومصادرة الصحف الحرة .. كمحاولة لاعطاء الرجعية سنوات تطيل عمرها.

٢ - وكان الانسحاب من اللد والرملة ، يكشف عن طبيعة الحرب الانتهازية ، فراح الاف الفلسطينيين والعرب ضحية الغدر ، وضحية أطماع الاستعمار الانكليزي وحلفائه الذين اكتشفوا تحول اسرائيل الى قاعدة اميركية فبدأوا يحاولون خلق قاعدة اخرى انكليزية تضم الضفة الغربية من نهر الاردن ، وشرق الاردن في مملكة واحدة !

٣ - وكان ضياع فلسطين العربية التي طالب بانشائها قرار الامم المتحدة بالتقسيم ثم كارثة اللاجئين دليلا حيا على ما يمكن ان يصنعه الاستعمار وعملاؤه بالشعب العربي ..

ومن هنا كانت كارثة فلسطين هي صحوة الموت للرجعيةالعربية ، وصحوة الميلاد للقوى النامية في مصر والبلاد العربية !

ان المظهر الباقي لمشكلة فلسطين هو كارثة اللاجئين العرب واكثر من نصف اللاجئين العرب يعيشون في الضفة الغربية للاردن حيث يعيش ٤٩٩،٦٠٦ لاجئين فلسطينيين يتوزعون في مدن عمان واربد ونابلس وأريس والقدس والخليل ، يعيش منهم ١٣،٢٥٠ لاجئا في المخيمات التي اقامتها وكالة الغوث وعددها ٢٤ مخيما ، في الوقت الذي يعيش فيه ثلاثة اضعاف هذا العدد خارج المعسكرات يعملون مختلف الاعمال في الاردن ، ويتوزع النصف الثاني من اللاجئين بين قطاع غزه ولبنان وسوريا ، ويعيش في لبنان ١٠٣،٦٠٠ لاجيء منهم ٣٠ ٪ يعيشون في خمسة عشر مخيما تابعة لوكالة الغوث .. اما في سوريا فيبلغ عدد اللاجئين ٨٨،١٧٩ لاجئا ، يعيش منهم ١٩،٧٢٥ في عشرة مخيمات ويعيش الباقون خارج هذه المخيمات . ويعيش في قطاع غزه - وهو الجزء الباقي من فلسطين بعد أن ضم جزآها الاخران الى الاردن واسرائيل ، حوالي ٢١٤ الف لاجيء فلسطيني ينضمون الى سكان القطاع الاصليين وهم ٨٥،٠٠٠ نسمة وبذلك يصبح عدد السكان حوالي ٣٠٠ الف نسمة .

ولقد تطور عدد اللاجئين بتطور الحرب الفلسطينية ، فقبل ١٤ مايو ١٩٤٨ كان عدد اللاجئين ٦٠ الف لاجيء .. أغلبهم جاء من القدس ويافا وطبرية وهي المناطق التي كانت في يد اليهود في ذلك الوقت وفي الفترة التي تلت قيام اسرائيل في ١٥ مايو حتى توقيع الهدنة الاولى ارتفع عدد اللاجئين الى ٣٦٠ الف لاجيء توزعوا بين مصر وسوريا ولبنان والاردن ثم بقي جزء منهم في المدن التي لم تكن قد وقعت حتى ذلك الوقت بين يدي اليهود - اللد والرملة والمجدل والناصرة وعكا - وظل العدد يرتفع بعد استئناف القتال وبعد توقيع اتفاقية رودوس الشهيرة ارتفع العدد الى ٩٤٠ الف لاجيء .

ويعيش اللاجئون الفلسطينيون في ظروف معيشية في منتهى السوء ، يقول ليلنتال « ففي لبنان مثلا تعيش حوالي ٣٤٣ اسرة في شبيلا في خيام متعددة الانواع والاشكال وعندما تسقط الامطار الغزيرة في الشتاء وتذوب الثلوج على الجبال يقيم هؤلاء اللاجئون ويعيشون وينامون في الجبال وتبني بعض الاسر اكواخا في الصحراء تسكن فيها كل سبعة افراد في كوخ ، ويعتمد كثير من اللاجئين على بيع الخضروات او العمال كبوابين او في اية مهنة اخرى وفي الخيام والاكواخ لا توجد أرض صلبة ، بل انها لزجة ومملوءة بالطين ومعظم الخيام ممزقة وتوجد خرق مبللة بالماء هنا وهناك ، وقد توجد في الاركان بطانية موضوعة على بعض القش لكي تبعث الدفء وينتشر في الخيمة بعض مواقد البترول ، والمنازل بلا اسقف ويعد النساء خبزهن على الارض ويخلطون الدقيق الذي تقدمه هيئة الاغاثة بالماء والخمير اما في الاردن فيعيش اللاجئون في المعسكرات او في الكهوف الموجودة بين السهول الصخرية في جوريا وسماريا ومن هناك يستحيل عليهم رؤية ديارهم وحقولهم وبساتينهم » . (٦٩)

ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الدليل الحي على ما يمكن ان تصنعه الرأسمالية العالمية من اجل تنفيذ مخططها والاستيلاء على اسواق العالم العربي ..

وعلينا ان نحاول فهم المسألة الفلسطينية كجزء من صراعنا الرهيب ضد الاستعمار العالمي وان نعمل من اجل كفاح لا تهادن فيه الاستعمار وقواعده ..

ويوم تنتصر القوى التقدمية في صراعها من اجـــل التحرر .. ستنتصر قضية الشعب الفلسطيني .

القاهرة صلاح عيسى

مراجع الدراسة

** تأثرنا في تكوين اطار المعالجة بدراسة الاستاذ صبحي وحيده « في اصول المسألة المصرية » وهي الدراسة التي ارتفعت بالمسألة المصرية الى جذورها التاريخية من وجهــة نظر صاحبها ، اما فــي الهندسة الداخلية لدراستنا فنحن ندين للاستاذ ابراهيم عامر صاحب « ثورة مصر القومية » بذلك التقسيم الى قوى تعرض من خـــلال صراعها مع غيرها من القوى ، وبالطبع فان مسؤولية الدراسة بأكملهـــا تقع على عاتقنا . هذا وقد حرصنا على ان نورد الحقائق من مصـــادر كلما امكن ذلك ، مكتفين بالربط بينها ـ فضلا عن اختيارها ـ بمـــا يخدم نهجنا في البحث .

(١) عبد الله التل ـ فلسطين وبعث القومية العربية ـ الدار القومية بالقاهرة ـ ١٩٥٩ ـ ص ٦
(٢) نفس المرجع ص ٦
(٣) صادق مسعد المحامي ـ قضية فلسطين ـ دار القرن العشريـــن للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٤٥ ص ٨٢
(٤) سماحة السيد امين الحسيني ـ حقائق عـــن قضية فلسطين ط ٢ ـ مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين بالقاهرة ١٩٥٦ ـ ص ٣٦
(٥) مرجع رقم ٣ ـ ص ٨٣
(٦) الم وجر ـ اليهودية دين لا قومية ـ اخترنا لك ٥٤ ـ دار المعارف القاهرة ـ ص ٢٦
(٧) نفس المرجع ص ٢٣
(٨) عباس محمود العقاد ـ الصهيونية العالمية ـ اخترنا لك ٢٧ ـ دار المعارف بالقاهرة ص ٣٨
(٩) نفس المرجع ص ٣٨
(١٠) نفس المرجع ص ٣٨
(١١) نفس المرجع ص ٤٣
(١٢) نفس المرجع ص ٤٨
(١٣) نفس المرجع ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩
(١٤) مرجع رقم ٨ ص ٩٢
(١٥) نفس المرجع ص ١١٣
(١٦) نفس المرجع ص ١١٤
(١٧) مرجع رقم ٦ ص ٣٤
(١٨) خروشوف ـ تقرير الى المؤتمر الحادي والعشرين الاستثنائـــي للحزب الشيوعي السوفييتي ص ١١٥
(١٩) اسرائيل كوهين ـ هذه هي الصهيونية ـ اختـــرنا لك ١ ـ دار المعارف بالقاهرة ـ ص ١٤
(٢٠) محمد عزة دروزه ـ تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ـ ٣ اجزاء ـ اخترنا لك ٨٥ ـ ٨٧ الدار القومية بالقاهرة
(٢١) مرجع رقم ٣ ص ٤
(٢٢) محمد عبد العز نصر ـ الصهيونية في المجال الدولي ـ اخترنا لك ٣٦ ـ دار المعارف بمصر ـ ص ٢٤
(٢٣) راجع انجيل متى ـ اصحاح ٢٧ ـ وسامي منصور ـ مفاجـــأة خطيرة في الدورة الثانية لمؤتمر الفاتيكان ـ الاهرام القـــاهرية عدد ٢٨٠٨٤ في اول نوفمبر ١٩٦٣
(٢٤) في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع هذه العبـــارة « هكذا قال الرب الى اسرائيل ـ في عبر النهر سكن آباؤكــم منذ الدهر » وقد يفيد هذا ان بني اسرائيل الذين يقررون ان أباهم الاكبر من عبر النهر اي من وراء النهر الذي هو نهر الفرات على الارجح ـ راجع محمد عزة دروزه مرجع ٢٠
(٢٥) مرجع ٣ ص ٦
(٢٦) جان بابي ـ استاذ بجامعة باريس ـ القوانين الاساسية للاقتصاد الرأسمـــــالي ـ ترجمة شريف حتاته وآخرون ـ دار الفكـــر ـ القاهرة ١٩٥٧

(٢٧) مرجع ٣ ص ٦ (٢٨) مرجع ٢٦ ص ٤٤
(٢٩) مرجع ٣ ص ٨ (٣٠) مرجع ٢٦ ص ٤٤
(٣١) مرجع ٢٦ ص ٤٤ (٣٢) مرجع ٢٢ ص ٥٦
(٣٣) نفس المرجع ص ١٣ (٣٤) مرجع ١٩ ص ٤٧
(٣٥) مرجع ٢٢ ص ٣٠
(٣٦) ابراهيم عامر ـ ثورة مصر القومية ـ دار النديم بالقاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٩٠
(٣٧) ج.ي. عليزرمين ـ الطبقـــة والامة ـ دار القلم بسوريـــا ـ ١٩٥٤ ـ ص ٤٣
(٣٨) ي. ستالين ـ الماركسية والمسألة الوطنيـــة ـ ص ٨
(٣٩) مرجع ٢٧ ص ١٨
(٤٠) نفس المرجع ص ٢٠
(٤١) حق الامة في تقرير مصيرها ـ ترجمة باشراف دار ابن الوليد ـ دمشق ١٩٥٧ ـ ص ١١
(٤٢) نفس المرجع ص ١٢
(٤٣) نفس المرجع ص ٩
(٤٤) لينين ـ الدولة والثورة ـ ترجمة فؤاد ايوب (د.) ـ دار دمشق للطباعة والنشر ـ ص ٩ ، ١٠
(٤٥) مرجع ٤١ ص ٤
(٤٦) نفس المرجع ص ٩
(٤٧) كارل ماركس ـ المسألة اليهودية ـ ترجمة محمـــد عيتاني ـ دار بيروت ـ ص ٥٦
(٤٨) نفس المرجع ص ٥٦
(٤٩) عبد المنعم الغزالي ـ اسرائيل قاعدة للاستعمار وليست امـــة ـ دار الفكر بالقاهرة ١٩٥٩ ـ ص ١٨
(٥٠) علي محمد علي ـ في داخل اسرائيل ـ كتب قومية ـ الــدار القومية بالقاهرة ـ ص ١٩٧
(٥١) مرجع ٢٦ ـ ص ٩٠
(٥٢) مرجع ٣ ص ١٢
(٥٣) مرجع ٢٦ ص ٩٠
(٥٤) عميد الامام ـ الصلح مع اسرائيل ـ كتاب النيل ـ القاهـــرة ١٩٥٥ ـ ص ١٣٦
(٥٥) راجع ـ طه شرف ـ الاحداث العربية في تاريخها الحديـث ـ واحمد طربين ـ الوحدة العربية
(٥٦) مرجع ٣ ص ٦٩
(٥٧) نفس المرجع ص ٦٩
(٥٨) نفس المرجع ص ٧١
(٥٩) نفس المرجع ص ٣٦
(٦٠) نفس المرجع ص ٦٩
(٦١) نفس المرجع ص ٧٨
(٦٢) نفس المرجع ص ٨٨
(٦٣) صلاح عيسى ـ اتجـــاهات الحركة الوطنيـــة المصرية بيـــن ١٩١٩ ـ ١٩٥٢ ـ ملحق المساء الادبي والفني ديسمبر ١٩٦٣
(٦٤) المحاضر الرسمية لمحكمة الثورة المصريـــة عام ٥٣ ـ ١٩٥٤ ـ محاكمة ابراهيم عبد الهادي رئيس وزراء مصر عام ١٩٤٨
(٦٥) ، (٦٦) ، (٦٧) نفس المرجع
(٦٨) لمراجعة تفاصيل قضية الاسلحة الفاسدة ـ ارجع الى مقـــالات الاستاذ احسان عبد القدوس في مجلة روز اليوسف القاهريـــة من ٦ يونيو ١٩٥٠ ـ وكذلك ثلاث مقالات لنفس الكاتب عن الحرب الفلسطينية بعنوان « اني اطالب بالتحقيق مع الفريق محمد حيدر » بنفس المجلة في الاعداد ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، في ٢٤ ـ ١٠ ، ٣١ ـ ١٠ ، ٧ ـ ١١ عام ١٩٥٠
(٦٩) صلاح عيسى ـ مجتمع المأساة كيف يعيش ـ دراسة عن مجتمع اللاجئين الفلسطينيين ـ مجلـــة المجتمع العربي القـــاهرية ـ مايو ١٩٦١ .

نجيٌّ بلا أحزان

قصة بقلم علي زين العابدين الحسيني

بخطوات مترنحة راح يهبط سلالم الملهى الليلي . وتوقف بعد لحظات مستندا بظهره على الجدار ، وهو يهز رأسه يمنة ويسرة . « لا جدوى .. سأركب القطار وأعود ، الخمر ليست غطاء للحقيقة ، احد الملاعين قال لي : حتى تنسى أغرق نفسك في برميل كحول .. » صدقته وهربت .. « ذات زمن سأركب طائرة تسعى للنور دائما .. وتترك عالم الليل المفزع وراءها » . ولوح بيده امام عينيه : « جبان.. اللعنة التي تعض روحي .. ماتت .. كلنا سنموت .. أزيحي يا زوجتي الغطاء الابيض عن وجهك .. هذا انا .. عينان محروقتان .. قاتل .. وقتيل ، جبان .. العيون تلاحقني دائما .. تلصق فوهاتها بجسدي كالقواقع ، وتلعقني ، اين كنت ؟ أصوات ككعوب البنادق تنصب في صوانتي اذني .. درك .. درك .. الجبان يختبىء بين اشجار البرتقال كنبات شيطاني يلتصق بالجذوع . صرخات ، ونحيب

كانوا اربعة يا زوجتي ، عيونهم زرقاء ، واحدا .. واحدا .. واحدا .. واحدا .. الناس يقولون الله يريد ، ويشملوني بألف نظرة رثاء .. الله لا يريد .. اخذت اردد ذلك مليون مرة على هذا النحو، ومليون مرة على نحو اخر ، لا جدوى » .

وعاد الى الهبوط .

« أين تقودني ؟ هذه السلالم لا تنتهي ابدا .. هبوط .. هبوط.. هبوط .. في نهاية المطاف أجد نفسي في قبو معتم ، وينغلق الباب الصخري خلفي بلا صوت ، والمعاول .. تراك تراك » .

ورفع كفيه الى وجهه . صدمت وجهه نسمات الشارع . « الدنيا برد . لسنا في الشتاء .. تموز .. سيجدني عمال النظافة قبل الفجر متيبس الاطراف بجوار جدار ، ويلقون بي في عربة القمامة وتنتهي رحلة العمر » .

***

عبر الشارع بخطوات سريعة . « سيظنني الناس معتوها ، يجب ان اكف عن مخاطبة نفسي ، صوت اخر يصرخ داخلي ، صوتي لا يطغي على الصوت الاخر ، لا جدوى من غرس سبابتي في اذني .. انه يصرخ من الجانب الاخر » .

توقف الشاب ليرد على سائق التاكسي الذي أطل برأسه من نافذة العربة . وهز اصبعه في وجه السائق قائلا :

ـ لا .. أحب المشي .

راقبت عيناه اضواء السيارات والميدان . « السيارات تفر من عيوني ، والاضواء . سأتيه . قالوا لي ارحل وستنسى . هاأنذا ادب في مدينة مجهولة . لربما ينتصب احد اللصوص العتاة ويشهر امام عيني سكينا مفزعا . سألعنه ان لم يدفنها حتى المقبض في صدري » .

وتوقف وهو يتأمل (شيئا) . « لست وحيدا . كلبان ضالان يحتكان ببعضهما في زاوية معتمة . الكلاب لا تعرف الاحزان . ليتني ... » .

وهز رأسه : اهذي .. ماذا أقول ؟

★★★

بدت في الشارع امرأة أخذ صوت حذائها « يطرقع » بتتابع سريع ، توقف وأستدار ، وحين حاذته قالت بصوت خافت :

ـ دعني اسير بجانبك .. أرجوك .

ـ أنا يا سيدتي ؟

أومأت برأسها في الحاح :

ـ أرجوك ..

ـ ولكن انظري جيدا .. انا واثق .. لست أنا .

ـ يلتقطون كل « مشبوهة » تسير وحدها . دعني أشبك ذراعي في ذراعك .

ـ ماذا ؟ انا لست من اولئك .. لقد شربت عدة كؤوس وهذا لا يعني ابدا انني مخمور .. لا ..

ضحكت وهي تضغط على ذراعه :

ـ مجرد تمثيل .. الا تفهم ؟ يجب ان تبدو كذلك .. والا ...

تبدلت نبرة صوتها فسألها في عطف :

ـ والا ماذا ؟

ـ ستأخذني « الاداب » الى الحجز . لم يحدث هذا لي من قبل .. يا الهي لو حدث .. يا للعار .

حدق فيها في دهشة :

ـ ماذا قلت ؟ يا للعار ؟

ـ لست من هنا ؟

أومأ برأسه : ـ من الجانب الاخر .

قالت في مرح : ـ وتقيم وحدك ؟

فاحت رائحة الخمر من فمه فأشاحت بوجهها .

ـ مع زوجتي .. البائسة تجلس بجوار النافذة ترقب طلوع شبحي تحت فوانيس الشارع .. ستصاب بالبرد .

وارتعش صوته :

ـ أكلها البرد . سأصرخ في وجهها ألا تنتظرني هكذا .. حنانها يعذب ضميري .. أكلها البرد ..

أرخت ذراعها وتمتمت في عطف شديد :

ـ أنت تبكي ؟

رفع يده الى وجهه :

ـ هاتي أصابعك .. مرريها هنا . أرأيت ؟ لا دموع .. انني أرتجف .. البرد عندكم يأتي في الصيف ..

ـ بل هو أسوأ صيف عشته .

تطلع اليها وأشار بأصابعه :

ـ في داخلي شتاء ..

بدا وجهه لها ممصوصا شديد الشحوب .

ـ نحن لم نتعارف بعد .. اسمي سوزي .. مدام سوزي .. ما رأيك ؟..

ـ المرحوم رمزي .

أوشكت ان تضحك لكنه ظل عابسا ، فبسملت وهي تغمغم :

ـ ليمت الشر .. ليمت ..

ـ شر ؟ أين الشر ؟ منذ سبع ليال وانا احمل نعشي وأعدو في المدينة العارية .

وتوقف وأشار بذراع منحن للسماء :

ـ انظري .. ماذا قلت عن اسمك ؟ انظري يا سوزي .. السماء

أعلى مما يجب . أخطأ الرب حين جعلها مسكنه .. لماذا أبعد نفسه هكذا ؟ اريده .. اريد ان احترمه بكل ذرات وجودي واسمع صوته ينبع من دمي : انها حمة الابدية .

ابتلعت المرأة لعابها في خوف .

« يا للمجنون التعس ماذا يقول ؟ »

ـ أين بيتك ؟

ـ لا بيت لي .. اسقطت المساء قنبلة .. بوو .. وانتهى كل شيء ، صار عاريا في حوض الجليد .

أخذت تراقب وجهه في قلق .

« الانسان تفر منه الشياطين هذه الايام .. »

ـ لا تتطلعي هكذا .. المجانين سعداء ، وأنا لست سعيدا .. هل ادركت ؟

قالت في نفسها :

« وحتى .. اريد صديقا لليلة واحدة ، أكره ان يتبادلني الرجال .. دائما يقولون .. اخلعي ملابسك .. عارية .. نريدك عارية .. ابتسمي .. قبلي بعنف .. وعندما لا يشعرون باللذة لمضاجعتي ، يخلعون احذيتهم ، صارخين .. لا نقود . فكرت .. ماذا يحدث لو ان احزاني ضاجعت أحزان رجل ؟.. »

وأحست بالشاب يلوذ بها .

ـ هل تفكر في شيء ؟

ـ أيجب ان افكر في شيء ؟

ـ لا ادري .. أنت تقرأ ؟

ـ هناك .. أجل هناك يلتهم الصغار الاوراق لاعتقادهم ان هذا أفضل ، ويسمرون عيونهم علو لوحة « عائدون » ، ويهزجون بأمل وحنين ويتكاثرون ..

ـ ما معنى هذا ؟

ـ أنا قاتل ..

ـ لا اصدق .

ـ جبان ..

ـ قد تكون .

ـ الحرب التي تخلق هؤلاء .. انني أعود ارتجف .. اين تموز ؟

ـ ماذا ؟

ظل صامتا ، عاد الى خواطره :

« ذراعها ساخنة ، كيف لا تحس بالبرد ؟.. الخمر .. فلتمت الحقيقة .. »

ـ أنت تؤلم ذراعي .. فيم تفكر ؟

ـ لا شيء ..

تلفتت اليه في أسى عميق :

« انه مثلي يبصق نفسه كل ثانية .. »

أصغت الى اصطكاك أسنانه .. قالت في حنان :

ـ انت محموم .. التصق بي .

ـ ماذا ؟

ـ مريض ؟

ـ منذ متى ؟

ووضع راحته على فمها :

ـ أنا سأقول .. منذ سحبت الغطاء الابيض عن وجهها وسمعت حشرجاتها .. آه .. دعيني أريك شيئا يا سوزي هنا .. انظري .

أخرج من بين اوراقه صورة :

ـ سأشعل عودا .. أنا هذا قبل عامين .. ابدو صغيرا .. وهذه زوجتي .. ترتدي الثوب الابيض . هل ارتديته ليلة يا سوزي ؟

التمعت عيناها بالدموع . أعاد الصورة الى جيبه والتفت لها :

تخافين ؟.. تقولين مجنون .. جبان .. أي شيء .. أنا لا شيء ، فقط لا تذهبي .. لا احب ان اموت بلا امرأة .

أمسكته من ذراعه :

ـ عدت للبكاء ؟

قال بصوته الباكي :

ـ ماذا يفعلون ببعضهم هذه الايام ؟ كانت ستلد لي .. انظري ها ، ما لون عيني ؟

ـ . . . .

ـ سوداء .. وعيناها ايضا .. فكيف ارضى بطفل أزرق العينين ؟

ـ . . . .

ـ رويت للناس القصة . لطموني على وجهي قائلين : زوجتك عد لها .. مشيئة الله .. ليست اول امرأة يمزقون طهرها ..

لم اصدق .. لو لم اختبىء ، أكان يحدث ؟ عندما رأيتها عارية على السرير .. حطمت الزجاج بقبضتي .. أكلت بأظافري جلدي .. أنا جبان ؟ تطلعي يا سوزي جيدا .. ممن اخاف ؟.. هذه الارتعاشة من البرودة .. كانوا يتبادلونها في غرفة نومنا .. أتدرين ! كانوا يجتثون اعضاء الرجال .. هربت ، اختبأت ، وعندما رأيتها عارية أحسست انهم اجتثوه ..

ـ لا افهم .. بل اكاد افهم .. انت تخيفني .

ـ ومن منا لا يخاف ؟.. جيل الخوف ..

جدتي كانت تروي لي حواديت الجان والغيلان ، هل كانت جدتك ايضا ؟

ـ لم تكن لي جدة ..

لمس ذراعها وهمس بصوت مبحوح :

ـ ليسوا خرافة .. الغيلان ليسوا خرافة . لو أسقطت نفسك في داخلي لتسمرت من شدة الرعب .. في داخلي غول .. اصغي ..

سحبت المرأة ذراعها بشدة : ـ ارجوك دعني ..

ـ لا تذهبي .. سأكف .. لن ابحث عن النور .

وأخذ يدعك بأصابعه وجهه بقسوة :

ـ يجب ان ازيل ملامحي .. هذا الوجه لا اريده .. لا اريده ..

أمسكت ذراعه في حنان وقالت :

ـ لا تقل هذا .. أتدري ماذا سنعمل الليلة ؟

تلفت لها مستفهما ، قالت :

ـ نتبادل الاحزان .. التف في شتائي ..

ـ ماذا ؟

ـ نزوج الاحزان ..

ـ وبعد ؟

ـ أتدري ؟.. سيولد لنا نبي جديد .. لا يشبه المصلوب ، ولا محمدا ولا الاخرين .. نبي بلا احزان .. ألا يروق لك هذا ؟

ـ لا أصدق ..

ـ نتراهن ؟

حدق في الظلام . التف سوزي رأسها الى الخلف واحتوت عيناها النجوم . همست :

ـ انظر .. ملايين .. ملايين من الينابيع الصغيرة تريق نورها في الفضاء .. حقل لا نهائي من الزهور الزرقاء .. انظر تلك .. انها لي .

تطلع ، وغمغم :

ـ جدتي كانت تقول هكذا .. النجوم أرواح .. كلما مات احدنا أضاءت السماء نجمة ..

صمت قليلا :

ـ اين نجمتي ؟ سأحدق بعيني حتى نهاية المطاف .. الابعاد اللانهائية حيث ترقد الاموات في بطن المجهول ..

ـ ماذا تقول ؟ ليتك تضحك عندما تنتهي ..

ـ . . .

ـ انت ترتعش .. محموم ..

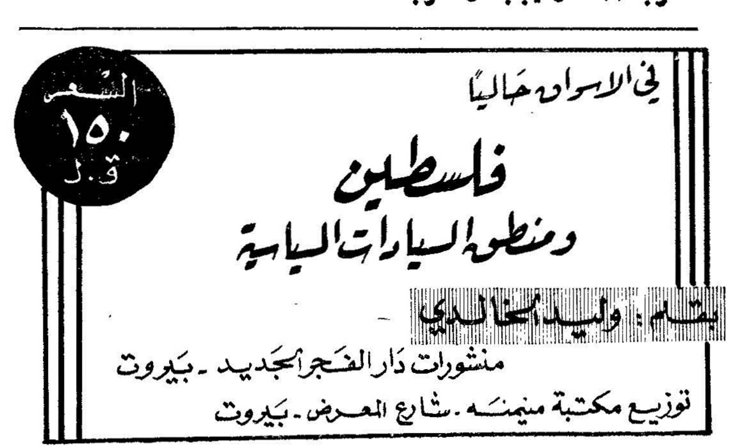
ـ ها نحن ..

توقف وأشار الى أحد الادوار في عمارة كبيرة :

ـ الدور الثالث ، النافذة المضاءة .. ما زالوا يلعبون .. يجب ان تذكري الحقيقة أمامهم .. ان يدرك الجميع انني لم اخلع جلدي الاسود بعد ..

. . . . . .

ـ اية شقة ؟
اشار بيده : ـ هنا .. هنا .. اضغطي هنا ..
دوى الرنين في الدور كله . فتح الباب شاب صغير ما ان تبين رمزي حتى بسط ذراعيه هاتفا :
ـ اين .. اين انت ؟ متى اتيت ؟.. لا تقل اكثر من يوم .. سنغضب حقيقة ..
نظر الى المرأة . قال رمزي في ارتباك :
ـ مدام سوزي .. صديقي أياس ..
اندفع شابان من خلف أياس وعانقا رمزي في مودة وحب وجذباه للداخل . توقفوا حول مائدة عليها ثلاث كؤوس ، وبعض اوراق اللعب .
ـ تفضل هنا .. متى حضرت ؟
نظر رمزي الى سوزي قائلا : ـ صفوت وحمدي .
تسلقت نظرات صفوت جسد سوزي :
« سيقول غدا للباقين .. تصوروا ماذا فعل ؟ خمنوا ؟ حضر بعد منتصف الليل ثملا تسحبه ساقطة من ذراعه » .
قال حمدي وهو يداعب ورق اللعب باصابعه :
ـ علمنا بما حدث .. انني احمل لك ...
قاطعه رمزي : ـ أرجوك دعني احمل نعشي وحدي ..
امتدت يده الى علبة السجاير ، وتناول واحدة . ارتعشت اصابعه بشدة وهو يحاول اشعالها . انطفأ العود . همت الدموع من عينيه بغزارة . ألصق وجهه بالمائدة واخذ ينشج بعنف .
ـ انه لم يكف عن البكاء ..
ـ لعله شرب كثيرا .
رأته سوزي يحاول النهوض فامسكته من كتفه .
ـ الى اين ؟
ـ الفندق ..
قال صفوت في عتاب : ـ فندق ؟.. صديقنا يقيم في فندق .
قال اياس : ـ ليس هكذا ...
اخذ رمزي يحدق في الوجوه
« صفوت يضحك كالمعتاد . لم يحدث ان رأى هذا المخلوق حزينا . يخسر فيضحك ، يبكي فيضحك .. اياس ، ماذا فعلوا بك يا صغيري ؟.. ضاعت الطفولة ... وماذا ؟ عيونهم تركض كالحشرات على وجهي » .
أتاه صوت حمدي : ـ متى جئت ؟
رفع يده الى جبينه :
« قطار بضاعة يدوي ، يتجول في انحائي .. لو رأتني زوجتي ويد سوزي تتحسس ساقي لبكت وقالت : انت خائن .. انت ..
آه يا زوجتي عذبوك .. تركوا صديدهم في احشائك ، ورحلوا.. جعلت تصدقين انك خاطئة .. تكسرت عيناك وزهوت انا .. ثم .. تطهرت من النار بالخطيئة .. وبقيت انا .. جبان .. كومة من براز الحرب .. أكان يجب ان اهرب ؟ »



افاق على صوت اياس : ـ ماذا تفيد الدموع ؟
قالت سوزي : ـ سآخذه لغرفة النوم ..
غمز لها صفوت بعينيه : ـ قوديه الى هناك .
أمسكته من ذراعه وتوسلت : ـ دعني احدثك بشيء .
ـ دوار ..
لفت ذراعها حوله ، ساعدها حمدي على انهاضه . سارت الى غرفة النوم . أجلسته على حافة السرير . جلست بجواره . قبلته . قال في صوت منفعل : ـ لا تفعلي ذلك .
أحنت رأسها .
ـ استرح .. هكذا .. حدثني الان . سأفك أولا حذاءك . دعني افعل . سأغلق البـاب . لن يسمعنا احد . سأطفىء النـور . واحد .. اثنين ...
تمددت بجواره على السرير . أتمت :
ـ ثلاثة .. عانقني كما كـانت صغيرتي تفعل . حدثني عن مدينتك ، وعن الغيلان .. انت أحزن من رأيت ، لماذا ؟
ـ لا شيء ..
ـ سأغضب منك .
وحتى ...
ضحكت في مرح : ـ أنت لا تريدني .
ضايقها صمته ، قالت مرة اخرى : ـ لا تريدني ؟
أصغت الى صوته العميق : ـ سوزي .. كيف يموت الالم ؟
ـ الزمن ، الناس ، الحياة سخية بالنسيان .
لوح بيده في عصبية : ـ النسيان أشد ألما .
طوقته بذراعيهـا : ـ دعنا نجربه مرة واحـدة .
ابتعـد عنهـا ، مغمغمـا :
ـ لا .. زوجتي لن تحتمل هـذا .
ـ أنت بـائس .. أتظنهـا لا تخـونك ؟
صاح في غضب :
ـ كيـف تجرؤين ؟ انـت عـاهر ..
ـ ...
انتفضت لدى سماعها كلمته ، ثم صمت بشع ، حدثت نفسها من خلال رجفة البكاء :
« اجل عاهرة ، عملي ان اضم الرجال الى صدري أشتم رائحتهم، أبتلع قيء أحزانهم .. وعندما نبكي حياتنا .. عندما نذرف ايامنـا يبتسمون في خبث مرددين : الاسطوانة المشروخة » .
قالت اخيرا :
ـ رمزي .. يجب ان نرى أحزاننا من خلال أحزانهم .
أصغت الى صوته آسفا : ـ سوزي .. اصفحي .
قالت في سخرية :
ـ سمعتها ألف مرة ، في داخلي كالغول الـذي حدثتني عنه . لا تعتذر ، امثالنا لا يستحقون كلمة اعتذار .. أشعل لي واحدة .
ناولها سيجارة ، أشعلها لها . بدا وجهها على ضوء الثقـاب جميلا رقيقا مبتلا بآثار دموع لا يدري متى ذرفتها . رأى في عينيها الظلال الرمادية ، وعاد الالم يهرسه من جديد .
هتفت سوزي وهي تهز ذراعه بشدة :
ـ يا مجنون ، كادت النار ان تحرق أصابعك .
ألقى بعود الثقاب بعيدا . قال في صوت غريب :
ـ هل تؤلم الحروق كثيرا ؟
ـ ماذا ؟ كفى يا رمزي .
عاد الى ذلك الصوت :
ـ أتدرين ؟ انها امنيتي ان اموت بها ، أتحول الى رماد ، أرى يدي وهي تسود ، وتسود ، أشتم جلدي وهو يحترق ، ينكمش ، لحمي وهو يسيح ، رائحة شعري وهو يطقطق ، وأنا عاجز عن الصراخ ، ان اطفىء النار من فمي ...

ابتعدت سوزي عنه :
ــ أنت مجنون .. لست أدري ماذا أنت ؟.. ساخرج من هنا .. سأدعهم ياخذونني للحجز .
أتاها صوته غريبا :
ــ ألم تقولي أنت هذا ؟.. سنتبادل الاحزان ؟.. سابادلك اياها.. اصغي .. حدث شيء كهذا منذ سبع ليال .. زوجتي ....
ألقت سوزي بالسيجارة بعيدا ، وشهقت :
ــ لا تقل ، لا أحب أحاديث الموت . سأحلم بذلك . أي سوء حظ هذا ؟
ارتعش صوتها : ــ هل رأيتها وهي تحترق ؟
فاجاب :
ــ وهي تحترق ؟ انني اهذي ، هل تسمعينه يا سوزي ؟ صفوت يضحك . القطار يتجول في رأسي . الوحدة رهيبة . الشمس تشتعل من اجل الاخرين . لا تعبأ الدنيا بأحد . كل يعدو بصليبه . ألم تشاهدي لوحة الحنان الكاذب ؟ تمثلي امرأة قروية وضعت أوزة تحت ذراعها وباليد الاخرى تزق الحبوب في حلقها . الحياة تفعل بنا ذلك .. تزقنا .. تزقنا .. بعد هذا ...
ــ وبعد ؟
ــ لا جدوى ، ستصدقين انت وأظل وحدي .. يجب ان يؤمن اصحاب الخطايا بالسماء لتحملها عنهم .. المؤمنون يحملون خطاياهم للاله ، غير ان الخطيئة تمتطي ظهر ضميري تسوطه كل نهار ، وكل مساء .. هل تحبين الحرب يا سوزي ؟
ــ وهل في الدنيا من يحبها ؟
ــ أنا .. أنا .. جعلوا مني ذلك الجبان المختبيء بين اشجار البرتقال . اريد ان اجتث اعضاءهم . ما أروع ان تسير نساؤهم حبالى بأطفال سمر سود العيون .
ــ ما زلت تفكر بهم من خلالك .
ــ أهو سييء ، ان اكون ؟
ــ ألم تفكر بالاخرين ؟
ــ حملوا آلامهم للسماء كما ترين ، أما انا ، يا ويلي ، الاشباح.. النعوش والخمر . أريد ان اخدر الفول ، اخنق الصوت الاخر . وماذا ؟ حدثيني أنت .. لست كالاخريات ..
ــ بل مثلهم .
ــ أترين هذا السواد ؟ يذكرني بوجهها حين أزحت الغطاء ، أخاف من الظلام . انا عذبتها .. صارت تلوذ في اقصى الغرفة حين تراني . كنت اضبطها وهي تضرب بطنها .. تتألم ، وتردد .. يهودي.. يهودي في بيتنا .. كان يجب ان تصرخ في وجهي جبان .. صدقت البائسة انها خاطئة ، أحرقت بطنها ، وطفلها .. اخذت تدنو مني موجة من نار ، وفمها يجاهد لينطق باسمي ، تريدني أن اغفر لها .. تصوري ؟ هل بامكاني ان أصف كيف نطقت باسمي ؟ يا الهي .. كيف؟ كيف تنفصل عنا الذاكرة ؟ كيف يسقط منا الشعور ؟ كيف لا نصدق ؟ كل ليلة أتعاطى حبوبا لانام . منذ سبع ليال وأنا أعدو من اشباحي .. هل تدركين ؟.. أخذت أعدو في الشوارع في منتصف الليل، لا احد.. المدينة عارية ، لا احد .. الاشياء تفنى . أعمدة النور مقلوبة . النجوم تساقطت صرعى تحت قدمي .. أنا انزلق في سائل لزج يحاصر أنفاسي . وأعدو ، واعود ، اقتحم الباب ، احملق في زوجتي .. أصرخ .. أعدو .. واعود ، أغوص من جديد ، اهذي ، لا احد .. لا احد .. ألم أقل يا سوزي ان السماء أعلى مما يجب ؟ اتصغين ؟ خذي منديلي ، أتحسين بملوحة الدموع في فمك ؟ هل أقبلك الان ؟
ألصقت سوزي شفتيها على عنقه :
ــ أحب البكاء الليلة ، حدثني ، سيموت هذا الالم .
ــ لا شيء يوقف الالم . الموت وحده .
صمت قليلا ، وأتم :
ــ وحتى الموت ، عندما ساموت سيرقد بجواري . سوزي ؟..
ــ ماذا ؟
ــ ركبت القطار وجئت لانسى . سحبت الغطاء عن وجهها ، كان ذائبا ، خصلة الشعر ملتصقة بشدة على جبينها .
ضمت سوزي يده بين راحتيها في حنان : ــ حدثني ..
أحس بأنفاسها على عنقه ، غشيه الدوار :
ــ الوسادة ناعمة . الاحجار ليست خشنة . لذا يضعون احجارا كثيرة في القبور . الاحزان تورق ، تزهر .
قال في صوت يمطر نعاسا :
ــ صفوت .. أتسم .. أتسمعينه يضحك ؟
ــ اجل وبعد ؟
أحس بأصابعها على وجهه ناعمة :
ــ أصابعها حبوب نومي ، سأنام ، نبي لا يشبه المصلوب ، متى ، كيف ؟
عاد صوت سوزي : ــ وبعد يا رمزي ؟
ــ صا .. صفوت .. أتسم .. أتسمعينه ؟
ــ . . . .
ارتخت اصابعه ، لعله يحلم ، منذ متى لم يحلم ؟
« الليلة زفاف الاحزان ، الكلبان الضالان ، الساقي يدهن فمه بالابتسامة ، سلالم الملهى .. هبوط » .
قالت سوزي في قلق : ــ رمزي وبعد ؟
أزعجها انه ظل صامتا ، ركبت أنفاسها على شفتيه ، هزته بيدها :
ــ حدثني .. وبعد ؟
ــ ... بعد .. ما .. ذا ؟
حدقت في الظلام ، غمغمت :
ــ أفرغ شهوة أحزانه في أحزاني .. وانتشى ..
هكذا .. يا رمزي ؟ أتصغي ؟ أتريدني وحدي ان احمل نعشي وأعدو ؟ لست أسطوانة مشروخة .. انت لن تضربني بالحذاء .. ستضاجعني احزانك الليلة .. ماذا ؟.. انت تطردني بصمتك .. أين أذهب ؟ انا عاهر .. سيعرفني الناس من خطواتي ، سيقبضون علي .. لاني لست فاضلة كزوجته .. اين جيوبك ، اريدها ؟ صفوت يضحك ، أتسمعه يا رمزي ؟ أتسمعينه يا سوزي ؟
. . . . . .
قامت ، أضاءت النور وهي تحدث نفسها :
ــ رائحة الخمر أسكرتني .
اقتربت منه . هزت رأسها في أسى . تذكرته وهو يشير بذراع منحن للسماء . انحنت عليه . قبلته وهي تهمس :
ــ ستلمس السماء الارض الليلة من اجلك .. اني ارى ميلاد النبي الجديد على شفتيك ..
أطفأت النور . خرجت . كان الثلاثة لا يزالون يلعبون الورق . تفرسوا فيها : ــ الى اين ؟
. . . .
كانت عيناها شديدتي الالتهاب ، أزالت الدموع الساحيق عن وجهها .
قال صفوت لصديقه هامسا : ــ رخيصة .
أغلقت الباب خلفها بلا صوت .
. . . . . .
كانت لا تزال تبكي حين رفعت عينيها للسماء . أعلى مما يجب.. تماما .. تماما .. كما قلت يا رمزي . البرد شديد الليلة . الشتاء ياتي في الصيف هنا . طفلتي أكلها البرد . لا تزال تترقب طلوع شبحي تحت فوانيس الشارع .. الغيلان ليسوا خرافة .. النجوم أرواح .. كلما مات أحدنا أضاءت السماء نجمة .. آه .. أين نجمتي الزرقاء الصغيرة ؟ الصوت الاخر ، يقول : يوما ما .. سيولد النبي ، لا يشبه المصلوب ، ولا محمدا ، ولا الاخرين ..
. . . . . .
علا صوت طرقعات حذائها ، احتواها ظلام الشارع ، وملايين الينابيع الصغيرة تريق نورها في الفضاء .

غزه

علي زين العابدين الحسيني

فلسطين والادب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

الاكتشارف هذه وبشكل كان يشير الى ان اي عمل ادبي ـ في غمار عملية الاكتشاف هذه ـ لن يكون كبيرا .

ولذلك بالذات ـ كما اعتقد ـ تميزت السنوات الماضية ، منـذ النكبة والى الان ـ بنوع انفعالي شديد المباشرة من الشعر والاقصوصة، نوع يتناسب تماما مع « جو التوقع » المترافق بعملية اكتشاف القضية الفلسطينية .

لقد كان الادباء العرب ـ الذين انفعلوا فعلا بالنكبـة ـ يعيشون معركة مستمرة منذ عام ١٩٤٨ ، معركة يومية مليئة بالتوقعات والانتظارات المتواصلة لمفاجأة ما ، وقد فرضت هذه المرحلة نفسها فرضا على اعمالهم الادبية فانتجوا شعرا حماسيا لا يبدو قط انه شعر لانسان مهزوم ، بـل لانسان ما زال في ساحة القتال بكل ما يعني ذلك من المباشرة والانفعال العاطفي المحض ، واعقب هذا النوع من الشعر شعر رثاء ، ينضح ببكـاء فاجع لا يصدق ، ولكنه كان ايضا شعرا مباشرا كل مؤونته هـو الانفعال العاطفي المحض لانسان ما زال يخوض في ساحة حرب قائمـة ويكتشف شيئا فشيئا الابعاد المعقدة واللانهائية للقضية التي كان يعتقد انها قضيته البسيطة الواضحة .

ثالثا ـ انني اميل الى الاعتقاد انه في غياب العمـل السياسي الايجابي المباشر لقضية من القضايا ، يظل العمل الادبي المتعلق بها عملا ناقصا وغير قادر على الخروج من انفعاليته المؤقتة ليستوعب الابعـاد الحقيقية لتلك القضية ويعبر عنها ، بالتالي .

ان الاديب الذي تتضح له ابعاد قضية منفعل بها انفعالا حقيقيـا ومخلصا لا يستطيع ان يتجاهل غياب العمل السياسي المباشر في سبيلها ويكتفي بانشاء عمل فني يتعلق بها ، ويجد نفسه امام اختياريـن : اما ان يواصل مهمته كداعية من دعاة هذه القضية في حدود العمل الادبي الذي يخدم هذه المهمة ، واما ان ينغمر في العمل السياسي الذي يدله عليه اجتهاده الامر الذي يحول دونه ودون الانصراف الى انشاء عمـل ادبي كبير لاسباب معروفة تماما .

ولست اعتقد ابدا انها مجرد مصادفة ان يكون معظم الادباء العرب الذين اعطوا قسما لائقا من اعمالهم الفنية لنكبة فلسطين منغمرين فـي اعمال سياسية ، وانهم يصرفون اوقاتا اكثر في العمل السياسي من تلك التي يصرفونها للعمل الادبي .

وهناك مثال بين ايدينا لا يقل قيمة عن المثال السابق ، وهو الحركة الادبية العربية في فلسطين المحتلة .

لقد شهدت هذه الحركة نموا مبكرا بعد النكبة مباشرة ، وكـان نموها يتركز بشكل خاص في الزجل وفي الشعر .. ولا يستطيـع اي انسان ان يتجاهل قيمة ذلك الشعر وذلك الزجل اذا ربطها في الظروف التي يعيشها عرب الارض المحتلة .

ولكن ما يلفت النظر حقا هو ان معظم الشعراء الذين قادوا رحلة النمو تلك قد انصرفوا الى العمل السياسي المباشر ، بعد سنوات قليلة من النكبة ، كل حسب اجتهاده .

ان ضخامة الحاجة لعمل سياسي يعبر تعبيرا يوميا وعمليا عـن المأساة قضية تستوقف اندفاع اي اديب ينفعل بتلك المأساة انفعـالا صادقا ، ولا شك ان هذا بالذات كان سببا هاما من الاسباب التي جعلت « اثر النكبة الفلسطينية في الادب العربـي الحديث دون المستوى » المطلـوب .

ان هذا الكلام لا يعني ابدا ان مهمة الاديب هي ان يعمل في الحقل السياسي ، وانما القصد هو القول بان انعدام الاثر اللائق للنكبة فـي العمل السياسي العربي يضع الاديب في موقف خاص ودقيق ، ربمـا كان من غير المنطقي القبول به لو كان العمل السياسي في سبيل القضية الفلسطينية عملا قائما ومزدهرا .

هذا كله يؤدي بنا الى نتيجة خطيرة ، ولكنها ـ ببساطة ـ نتيجـة قائمة : وهي ان الاديب العربي المنفعل فعلا وصدقا بالقضية الفلسطينية يعتبر ان جزءا كبيرا من مهمته الادبية يجب ان يكون منصرفـا لاغراض دعاوية ، في المرحلة الراهنة .

وهي نتيجة تشير الى سبب من الاسباب التـي تحول دون انشاء عمل ادبي كبير يوازي في قيمته « قيمة » النكبـة الفلسطينية فـي الحياة العربية .

***

ولكن هذا الكلام لا يعني مطلقا ان الادب العربي لم ينفعل بالمأساة الفلسطينية كليا ، رغم انه يعني بانه لم ينفعل بشكل كاف ، او متناسب مع حجم النكبة .

ان الاعمال الادبية التي شهدتها السنوات التي تلت النكبة ، حتـى الان ، والتي يمكن ان تنسب الى ما يسمى بادب النكبة هي في الواقـع اعمال غزيرة ومنوعة ولكنها ليست اعمالا كبيرة يصل مستواها الـى المستوى التاريخي لتلك النكبة .

لقد استطاع الشعراء يوسف الخطيب ، وسليمان العيسى ، وهارون هاشم رشيد كما استطاعت سلمى الخضراء الجيوسي وفدوى طوقان ان يعبروا عن كمية هائلة من الالم والرثاء النابعين من تأثر صحيح بالنكبة ، تأثر صادق ومخلص وعميق ، ولكنه كان دائما انفعالا مباشرا لم يستطـع ان يحمل ابعاد القضية بمجملها في صيغة تصل الى مستواها .

واذا كان الشعر في هذه الدرجة من الاستجابة ، فقـد كانت الاقصوصة في درجة اقل بكثير ، اما الرواية فانها معدومة تقريبا .

ورغم ذلك فان التأثر بالنكبة لم يستطع ان يتجاوز كثيرا الادبـاء الفلسطينيين انفسهم الى سائر الادباء العرب ، ولذلك فاننـا سنواجه بفقر مدقع اذا ما حاولنا ان نبحث عن اثر النكبة الفلسطينية في اعمال الادباء العرب من غير الفلسطينيين .

وفي نطاق الادباء الفلسطينيين ايضا لم يستطع التأثر بالنكبة ان يتحقق في ابعاده الحقيقية الكاملة ، ويبدو سواء فـي الشعـر او الاقصوصة جزئيا وعاديا ، وهذا الكلام ليس اتهاما اذا وضع داخـل الاطار الذي حدده البحث منذ البدء .

***

بالنسبة للشق الاخر من السؤال : « كيف تتصورون مستقبـل « ادب النكبة » في نتاجنا الحديث ؟ » فانني ارى اننا ، فـي المرحلة الراهنة ، نمر في منعطف حاسم بهذا الصدد ، ويتبدى ذلك في كـل اشكال النكبة ، سواء على الصعيد السياسي او الاجتماعي او الفني .

يبدو ان مرحلة استكشاف القضية الفلسطينية توشك على نهايتها ـ من جميع النواحي ـ وسوف يكون انتهاء تلك المرحلة بداية طبيعيـة لاعمال ناضجة ، على جميع المستويات ايضا .

هناك في صفوف الفلسطينيين انفسهم ما يمكن ان نسميه : امـرا رهن التمخض ، وتبدو مظاهر هذا التمخض في كل نبضات المجتمع العربي بشكل نادر ، ولا شك بان المؤرخ الاجتماعي يستطيع ـ اعتمادا علـى احداث مماثلة في التاريخ ـ ان يؤكد بان العمل الادبي سوف يكـون المبادر في بداية المرحلة القادمة .

ان خمسة عشر عاما في عمر المجتمع تظل فترة قصيرة لا يمكن الحكم عليها بذاتها ، ولكن هذه الفترة يمكن ان تعتمد كعلامة للحكم على المستقبل وهي ـ في هذا المجال ـ علامة جيدة .

تصوري الشخصي المحض ان ادب النكبة سيستطيع ان يكون فـي المرحلة القادمة رائدا للانبعاث الفلسطيني على كافة المستويات ، وهـو يتجه نحو هذا الدور اتجاها واضحا .

ان القفز من مرحلة الحماس الى مرحلة الندب الـى مرحلـة « الحماس العقلي » ـ وهي الخطوط العريضة لتطور ادب النكبة فـي السنوات الماضية ـ يدل على ان المرحلة القادمة ستكون مرحلة « ارساء قواعد للعمل » ، عبر اعمال ادبية كبيرة وواعية وحقيقية ، وهـذا ليس خلطا بين مهمة الباحث ومهمة الاديب ، ولكنه « خلط » بين مهمة الاديب وعالمه الملتصق به التصاقا عضويا والمتأثر باحداثه الى حد بكاها فيـه وندبها بصورة تدل على ان علاقته بتلك الاحداث ليست علاقة جانبية او جزئية او عابرة او شكلية ، بل علاقة مصير .

شهـــادة فيلسوف اميركي

– تتمة المنشور على الصفحة ١١ –

واذن فليس أبعد عن الصواب مما ذهب اليه بعض ساسة الغرب من ان اسناد مقاليد الامور في فلسطين الى اليهود سوف يعود بالنفع على العرب انفسهم ، وكأن « المسألـة الفلسطينية » هي مجرد مشكلـة أقتصادية نستطيـع ان نفصل فيها بالاحتكام الى بعض الخبراء الفنيين الذيـن يدرسون نوع الامكانيات الاقتصادية الموجودة لدى الطرفين، لكي يبينوا لنا أيهما اقدر على النهوض بمستوى البلاد .

« اننا لنود – بطبيعة الحال – لفلسطين مستقبـلا اقتصاديا زاهرا ، وتقدما حضاريا متصلا ، ولكننا – فيما يقول هوكنج – لا نستطيـع ان ننسى او أن نتناسى ان لفلسطين شخصيتها الخاصة باعتبارها أرضا مقدسـة تجمع على احترامها الـديانات السماوية الثلاث » . فليست فلسطين مجرد بقعة جغرافية عادية نستطيع ان نعهد بمصيرها الى طائفة من الراسماليين الغربيين مـن اليهود او الصهيونيين ، بل هي في الحقيقة ارض مقدسة تتجه نحوها أنظار المؤمنين جميعا في شتى بقاع العالم . ومهما كان من امر المـزاعم الصهيونية ، فان فلسطين ليست بالمكان المـلائم للتجارب العلمية والاختبـارات الاجتماعية ، لأن امثال هذه التجارب والاختبارات لا يمكن ان تقام الا في قلب العالم الحديث ، لا في مكان ناء بعيـد عن موطن الحضارة الاوروبية . وحتى لو تصورنا امكان نجاح اسرائيل في اقامة وطن قومي بفلسطين ، فان مثل هذا الوطن لن يكون مجتمعا صالحا لسكنى علماء مـن أمثال اينشتين ، او فلاسفة من امثـال برجسون : لان العلماء في حاجة الى مناخ علمي يعيشون فيه جنبا الـى جنب مع اقرانهم من العلماء الاخرين ، كما ان الفلاسفـة في حاجة الى بيئة فلسفية يعيشون فيها جنبا الى جنب مع زملائهم من الفلاسفة الاخرين . وفضلا عن ذلك ، فان اصحاب رؤوس الاموال واهل الصناعات الكبرى لـن يستطيعوا ان يجدوا لهم في بلد كفلسطين مركزا ملائما ، خصوصا وان المواد الاولية منعدمة تقريبا هناك ، مما قد لا يسمح بقيام صناعات ثقيلة في قلب الاراضي المقدسة. واما اذا أصر اليهود على تصنيع فلسطين ، وخلق جـو صناعي مستجلب في قلب الاراضي المقدسة ، فانهم لـن يصلوا في نهاية الامر الا الى تحقيق بعض مطامعهم المادية الخاصة على حساب تلك البقعة الطاهرة من بقاع الشرق الاوسط . ولو قدر لمثل هذا الوطن القومي اليهودي ان يقوم في هذه المنطقة ، فانه لن يكون الا موئلا لشرذمة من الراسماليين اليهود الذين تعمر قلوبهم مشاعر الخوف ، والتربص ، والتعصب .. الخ » . (١)

ويقرأ المرء هذه التنبؤات التي كتبها هوكنج فـي نهاية عام ١٩٣١ ، فيعجب كيف جاء التاريخ مصداقـا لاقواله ، ولا يسعه سوى ان يعترف لهذا المفكر السياسي الممتاز ببعد النظر وصدق الحدس . وقد يكون من الحديث المعاد ان نقول ان تحالف الصهيونية مع الاستعمار الغربي المسلح هو الذي خلق دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي الكبير ، فكان قيامها نذيرا بانعدام كل استقرار سياسـي في منطقة الشرق الأوسط ، واصبح الوطن القومـي اليهودي معقلا للتعصب والذعر والخوف المستمـر ، خصوصا بعد كل ما لاقاه اهـل فلسطين العرب مـن تشريد واضطهاد ووحشية – ولا يستطيع احد ان يتكهن في الوقت الحاضر بمدى « الصراع الدموي » الذي قـد يترتب على استمرار قيام هذه الدولة اليهودية المغتصبة في قلب العالم العربي ، ولكن حسب هوكنج ان يكـون قد اوضح كل هذا بصراحة في دراسته للقضية الفلسطينية منذ اكثر من ثلاثين عاما ، دون ان يلقى نداؤه اي صدى لدى زعماء الغرب من المستعمرين المغرضين ...

ولم يصمت هوكنج – حتى بعد قيام دولة اسرائيل – فقد كتب على صفحات مجلة « العصر المسيحي » في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥١ مقالا عنيفا يندد فيه بسياسة اميركا نحو اسرائيل ، ويدعو الى وقف المساعدات المالية والحربية والفنية لهذه الدولة اليهودية المغتصبة . وقد جعل هوكنج عنوان مقاله : « هل اسرائيل حليفـة طبيعية لنا ؟ » ، قاصدا بهذا التساؤل ان يبرز للعالم الاميركي سذاجـة الاعتقاد بأن المصالح الاميركية متطابقة تماما مع المصالح الاسرائيلية في الشرق الاوسط . وهوكنج لا يجهـل ان الدعايات الصهيونية قد اعتادت ان تصور « اسرائيل » للشعب الاميركي بصورة « الحليف الطبيعي » ، خصوصا وان « هذه الدولة الفتية تمثل – في وسط تلك الصحراء الشاسعة من التأخر والتخلف والهمجية – واحة خصبة من النشاط الديموقراطي » !.. ولكن اصحاب هـذه الدعوى – فيما يقول هوكنج – يجهلون حقيقة المـوقف في فلسطين ، أن لم نقل بأنهم لا يفهمون شيئا عن وضع العرب في هذه المنطقة . ولو قدر لاي كاتب اميركي ان يلمس عن طريق « الخبرة الشخصية » حقيقة المـوقف في هذه البقعة المقدسة من بقـاع العالم العربي ، لادرك على الفور أن لفلسطين العربية حضارتها الخاصة التـي لا يصح ان نحكم عليهـا من وجهة نظرنا الاميركيـة .

---

(١) W.E. Hocking : « Spirit of World-Political», 1932, pp. 358-362.

ـ حقا ان الدعاية الصهيونية قد اعتادت ان تصور لنا العالم العربي بصورة المجتمع المتخلف الذي يرزح تحت وطأة التخلف الاقطاعي ، ولكن الباحث المنصف الذي يزور العالم العربي لاول مرة سرعان ما يجد نفسه بازاء ١٥٠ مليونا من السكان الذين يؤمنون بكرامتهم الانسانية ، ويعملون جاهدين في سبيل تحقيق مجتمع عربي جديد... فليست اسرائيل وحدها هي البقعة المضيئة المليئة بالوعود والآمال في وسط تلك المنطقة المظلمة المتخلفة ، بل اننا لنجد في كل بقعة من بقاع العالم العربي قلوبا تنبض بحياة جديدة ، ونفوسا عامرة بالثقة في مستقبل الوطن العربي الكبير . ومهما كان من أمر تلك الدعايات المغرضة التي ينشرها الصهيونيون في شتى بقاع العالم عن تأخر العرب، وتخلف المجتمعات العربية ، وانتشار الامية والبؤس والمرض في معظم بلدان العالم العربي ، فان من المؤكد ان المجتمع العربي ماض في تحقيق معاييره الخاصة وقيمه الذاتية ، بالطريقة التي تتلاءم مع طبيعة تراثه الثقافي . وليس المقصود من هذه الدعايات اليهودية الكاذبة سوى العمل على توسيع شقة الخلاف بين اميركا والعالم العربي، حتى تظفر اسرائيل وحدها بكل ما تطمع فيه من مساعدات اميركية . (١)

بيد اننا لو آلينا على انفسنا ـ فيما يقول هوكنج ـ الا نستمع الى هذه الدعايات الصهيونية المغرضة ، لاستطعنا ان نتحقق من ان العالم العربي ليس صحراء جدباء (اخلاقيا وسياسيا) كما تصوره لنا أجهزة الدعاية اليهودية ، بل هو عالم حي نابض بالحركة ، مفعم بالنشاط، مليء بالامكانيات ، قدير على الاستجابة لكل ما قد يقدم له من مساعدات . صحيح ان العالم العربي قد لا يخلو من بعض رواسب العهد الاقطاعي ، ولكن هذا لا يعني انه عاجز عن التغلب على آثار الاقطاعية البائدة . « وليس المهم ان نعرف أين أنت الان ، بل المهم أن نعرف الى أين أنت ماض بعد حين » . وهوكنج موقن تمام الايقان بأن للعالم العربي عقليته الخاصة ، وارادته المستقلة ، فهو لا بد من ان يصدر في تغيره عن تراثه الخاص ، وماضيه الروحي المستقل ، ماضيا في الاتجاه الذي تفرضه عليه طبيعة تكوينه الثقافي . وقد جاءت الاحداث التاريخية ـ مرة اخرى ـ مؤيدة لما ذهب اليه هوكنج ، فان السنوات العشر الاخيرة من تاريخ الامة العربية قد جاءت حافلة بالثورات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، فأثبت العرب للعالم أجمع انهم قديرون على محو شتى آثار العهد الاقطاعي الذي عمل الاستعمار على تثبيت دعائمه أمدا طويلا من الزمن . وهكذا شهد العالم العربي اشتراكيات جديدة استمدت مقوماتها وخصائصها من صميم تراثنا العربي الاسلامي ، ومن خبراتنا الاليمة مع الاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم ، فصح ما تنبأ به هوكنج عام ١٩٥١ من ان المجتمع العربي سائر حتما في السبيل الى القضاء على رواسب الاقطاعية ، والتخلف الاقتصادي ، وعدم تكافؤ الفرص ، وشتى المظالم الاجتماعية العديدة .

والحق ان العالم العربي ـ كما قال هوكنج ـ لا يمثل جماعات غير متجانسة من الشعوب ، استقدمت في الازمنة الحديثة من سائر بقاع الارض ، ثم فرض عليها بالقوة ان تبدأ حياة اجتماعية جديدة ، وفقا لدستور مصطنع ليس له أدنى جذور تاريخية عميقة في حياة اصحابه ، وانما العالم العربي استمرار تاريخي historical continuity وهو ماض في تحقيق تغيراته الاجتماعية ، وفقا لانماطه الروحية الخاصة . فليس في وسع المؤرخ الحديث ان يتجاهل ذلك «الجدل» التاريخي الهام الذي يعمل عمله في صميم العالم العربي ، لكي يناصر بعض العناصر الاجنبية الدخيلة على فلسطين ، بحجة انها عناصر أقوى أو أقدر او انشط في مضمار التصنيع او الانتاج او التطبيق العلمي !

ثم يخلص هوكنج من دراسته السياسية الواعية الى هذه النتيجة الاساسية الهامة ، الا وهي ان كل سياسة تتعارض مع مصالح العرب هي في جوهرها سياسة معادية للروح الاميركية الديموقراطية . فكل مساعدة تقدمها اميركا لاسرائيل لن تكون الا مجرد مكافأة للعدوان، وبالتالي فان العرب لن يفهموها الا على انها تعضيد لسياسة الغدر الوحشية ، ضد اصحاب الحقوق الشرعية في فلسطين . وهكذا ينتهي هوكنج الى القول بأن كل تجاهل ـ من جانب اميركا ـ للانتفاضة العربية الكبرى انما هو عون تقدمه الولايات المتحدة لاسرائيل في صراعها الدامي ضد العالم العربي . ولا يتسع المقام لايراد الكثير من عبارات فيلسوف هارفارد الكبير في تأييده للقضية العربية (خصوصا في رسائله الشخصية الى كاتب هذه السطور خلال الاعوام الاخيرة) ، ولكن حسبنا ان نكون قد وضعنا بين ايدي القارىء خلاصة امينة لاراء هذا المفكر السياسي المنصف الذي وقف يحذر ابناء شعبه من الانسياق وراء الدعايات الصهيونية المغرضة ضد العالم العربي .

القاهرة **زكريا ابراهيم**

---

(١) cf. « **The Christian Century.** » Sept. 1951, pp. 1072-1074.

متى تحارب اسرائيل ؟

— تتمة المنشور على الصفحة ٩ —

ولا بد لنا من الاشارة هنا ، الى ان مشروع تحويل نهر الاردن يهدف في أساسه الى ازالة نقاط الضعف هذه ، فيزيد مساحة اسرائيل المفيدة ، ويضاعف عدد سكانها ، ويطور اقتصادها ، ويوسع مدى انطلاقتها التجارية ، وبخاصة في افريقيا واسيا .

وتحاول اسرائيل ان تسد منافذ الضعف في كيانها ، بحلول تعوضها عن تلك النواحي المهلهلة . وما يهمنا في هذا المجال هو الجيش ، الذي سعت اسرائيل الى رفع مستوى كفاءته وقدرته ، قيادة وتدريبا وتسليحا . وان اسرائيل واثقة ولا شك ، بأنها غير قادرة على مجاراة الجيوش العربية في ميدان التسليح ، لذا فانها تسعى الى الاستعاضة عن الكم بالكيف ، كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ، فسلحت جيشها باسلحة حديثة ، وانشأت صناعات للاغراض الحربية . فقد باعت المانيا الغربية وهولندا والولايات المتحدة الاميركية ونيكاراغوا وبرمانيا اسلحة خفيفة وذخائر من مختلف العيارات والانواع . وأصبحت صناعة السلاح والتجارة به تدران على خزينة الدولة كمية كبيرة من القطع النادر .

وتكفي اسرائيل ذاتها بالاسلحة الخفيفة وذخائرها . أما الاسلحة الثقيلة كالدبابات والطائرات والقطع البحرية فانها لا تزال تستوردها من دول الكتلة الغربية . وأهم الاسلحة التي زود بها الجيش الاسرائيلي طائرات « سوبر ميستير » و « ميراج » النفاثة الفرنسية ، ودبابات A. M. X. الفرنسية الحديثة ، وصواريخ « هوك » الاميركية .

— ٧ —

وهكذا نرى اسرائيل تغرق في تسلحها ، لتغرق بعد ذلك في عدوانها . فقد اقامت كيانها ، ورسمت ستراتيجيتها ، ونظمت تعبئتها ، ووجهت اقتصادها وقواها الفكرية والبشرية والثقافية ، حسب مفهوم الحرب ، وجعلت ذلك كله روافد تصب في مسلك واحد هو : مسلك الحرب . ومهما حاولت ان تخفي صدى فحيحها بنغم السلام الكاذب ، فانها لا بد يوما زاحفة الينا معتدية علينا . فمتى تشن اسرائيل الحرب في المكان الذي تنتقيه والزمان الذي تحدده ؟

ان اول ما يتبادر الى الذهن لدى طرح هذا السؤال ، ان نعود الى عام ١٩٥٦ ، يوم شنت اسرائيل الحرب متدثرة بالاسلحة الفرنسية والبريطانية . لقد قررت ان تشن حربا وقائية . فقد درست ميزان القوى آنذاك ، فوجدت ان سورية ومصر كسرتا طوق احتكار السلاح الذي كان محصورا يومئذ بين ايدي الدول الغربية ، لتسلحتا باسلحه من الكتله الشرقيه . وقدرت اسرائيل ان كفه القوى العربيه رجحت حتى أصبح مستحيلا عليها ان تعدل الكفه قط . لان مشكلة اسرائيل ليست في كمية السلاح . اذ انها قادرة على الاستعانه ببعض الدول الاستعماريه التي تزودها بالكميات والانواع التي تريدها . ولكن مشكلتها هي في طاقتها على استيعاب الاسلحة . وهي طاقة محدوده بسعة الارض وعدد السكان .

وحينما ثبت لاسرائيل ان كفه السلاح العربي رجحت كفة طاقتها في الاستيعاب ، قررت البدء بحرب وقائية تعطل بها على الجيشين العربيين فرصه التدرب على استخدام هده الاسلحه من النواحي التكتيكيه والتكنيكيه والقياديه ، وبخاصة ان الجيشين كانا مضطرين يومذاك الى اعادة تنظيم جميع القيادات والوحدات في مختلف الاسلحة . وفي تلك الفترة الحرجة راحت اسرائيل ، بعد ان تبنت فكرة الحرب ، تفتش عن الطريقة التي تسلكها لتبلغ غرضها ، فانتهزت فرصه تاميم قناة السويس ، واستثمرت لوعة الاستعمار الذي فقد صوابه ، ومدت يدها الى فرنسا وانكلترا ، وشنت الدول الثلاث الحرب . الا ان اسرائيل خاب مسعاها ، وخرجت من الجولة خاسرة ، منتظرة جولة ثانية .

ان الدرس الذي يمكن ان تلقننا اياه حرب العدوان الثلاثي ، هو ان اسرائيل مصممة على شن حرب وقائية ، كلما ثبت لها ان القوه العسكرية العربيه قد رجحت كفة طاقة استيعابها في التسلح وقدرتها في القتال والدفاع عن كيانها ، شريطه ان تتوفر لها ظروف تبرر العدوان في نظرها ونظر اعوانها من الدول الاستعمارية ، وان لا يكون من وراء ذلك مخاطرة سياسية تؤدي الى زعزعة كيانها كدولة .

فاذا انتقلنا من عام العدوان الثلاثي الى يومنا هذا ، الا نجد ان الشروط جميعها متوفرة لاسرائيل كي تشن عدوانا جديدا ، سوى شرط الظرف الذي يبرر هذا العدوان في نظرها ونظر الصهيونيه والاستعمار . وليس من المستبعد ان تجد اسرائيل لنفسها في الايام القادمة المبرر الذي تختبىء وراءه لتنشب أظفارها ، حينما تشرع سورية ولبنان في تحويل مجاري نهري بانياس والحاصباني ، مما يؤثر في قيمة المشروع الاسرائيلي بتحويل مجرى نهر الاردن وفي النتائج المنتظرة منه .

واذا ما أدى موقف العرب هذا الى جنوح مشروع التحويل الاسرائيلي نحو الفشل ، بشكل لا يحقق الاغراض المقصودة ، فقد تلجأ اسرائيل الى وسيلة الحرب ، متعللة بمبرر اقتصادي يتعلق بتطوير المنطقة ونموها الاقتصادي ، متسلحة بدعم بعض الدول الاستعمارية لها في موقفها وسلوكها .

واذا كانت اسرائيل في عام ١٩٥٦ قد هدفت في حربها ايضا الى تحطيم مبدأ « الجبهة العربية الواحدة » ، الذي تمثل آنذاك بالقيادة المشتركة ، فانها تواجه الازمة اليوم مرة ثانية ، بشكل اخر ومفاهيم جديدة . ذلك ان مؤتمر الرؤساء والملوك العرب الذي انعقد في القاهرة خلال الشهر الاول من هذا العام ، قد قرر – حسبما نشرته الصحف العربية وبخاصة القاهرية – تشكيل قيادة مشتركة :

– يرأسها قائد عام من القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة .

– وتضع الدول العربية تحت تصرفها الوحدات العسكرية التي تتطلبها الخطط المرسومة .

– ولها راية واحدة .

– ولها الحق في تحريك ونقل القوات التابعة لها الى اي بلد عربي .

وبذلك يتوسع المدى الجغرافي للقيادة المشتركة ، حتى يشمل حدود الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، وتغدو هذه القيادة قادرة على التصرف بامكانات عسكرية هائلة ، تردفها طاقات بشرية واقتصادية وسياسية ردبلوماسية عظيمة .

ولا بد لنا هنا من ان نعيد الى الذاكرة موقف اسرائيل من تشكيل القيادة المشتركة الاولى ، وبخاصة من نقل قوات دوله عربية الى ارض دوله عربية اخرى . فقد اتصف ذلك الموقف بالرفض العنيف لمبدأ « الجبهة العربية الواحدة » ، حيث تعتبر الحدود العربية المحيطة باسرائيل جبهة واحدة ، تخضع لقيادة عمليات واحدة ، وتعمل كالجسم الواحد يديره عقل واحد .

لقد أكدت اسرائيل يومذاك ، في بياناتها الرسمية وتصريحات قادتها ، أنها تعارض معارضة تامة وجود وحدات عسكرية عربية غير اردنية في الاردن . وهي ستقف اليوم مثل هذا الموقف . وقد يجنح بها الامر فتعلن حربا وقائيه ، حينما تبدأ القيادة العربية المشتركة اعمالها ، ويقدم كل بلد عربي ما يتوجب عليه من مال او جيش او ارض . وقد ابدت جميع الدول العربية استعدادها لتنفيذ ما يترتب عليها من قرارات مؤتمر الرؤساء والملوك . فقد صرح وزير خارجية الاردن في القاهرة قائلا : « ان الاردن يضع جميع امكاناته في خدمة قرارات المؤتمر ، على المستويين السياسي والعسكري . وقد ابدى الاردن استعداده لاستقبال اي قوات عسكرية عربية ، اذا كانت الضرورة تقتضي وجود هذه القوات في الاردن » .

والى جانب مشكلة القيادة العربية المشتركة ، ستواجه اسرائيل مشكلة جديدة قد تثير جنونها فتدفعها الى هاوية الحرب ، وذلك حينما يتم تنظيم الكيان الفلسطيني عسكريا وسياسيا واجتماعيا . وقد كانت نقطة الانطلاق في هذه القضية قرار مؤتمر الملوك والرؤساء في « تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره » . وهكذا ستواجه اسرائيل منظمة سياسية عسكرية جديدة ، هي صاحبة الحق في العودة الى وطنها . وستقف امامها في الهيئات الدولية ، تقارعها الحجة بالحجة . ويوم تكون هذه المنظمة العربية قادرة على ان تشهر السلاح لتضرب خصمها ، فان اسرائيل لن تتورع عن شن عدوان جديد ، يحقق لها شل هذه المنظمة وتخريب قواعدها ومنشآتها .

واذا كانت اسرائيل تتنفس برئتين ، احداهما على البحر المتوسط تصلها باوروبا واميركا ، فان رئتها الثانية على خليج العقبة تصلها بآسيا وافريقيا . وهذه الرئة الثانية التي لا يربطها بقلب اسرائيل سوى خيط واهن من الاتصال ، معرضة في كل حين للشلل والاندثار . ويوم تنقطع اسرائيل عن شريان حياتها الممتد الى الجنوب ، فان اقتصادها وكيانها ومعيشتها ستنهار وتغدو مشلولة . وليس من المستبعد يومذاك ان تنطلق في عدوان يعيد لها رئتها المختنقة . وهذا ما يفسره قول بن غوريون : « ان حرية الملاحة نحو المحيط الهندي ستكون مؤمنة ، اذا لزم الامر ، بواسطه القوات البحرية والجوية والبرية الاسرائيلية » .

ومن المؤكد ان رئة اسرائيل الثانية لن تستطيع البقاء منعزلة نائية ، ولهذا فان مشروع تحويل الاردن سيمنح ميناء ايلات القوة والمنعة ، ويمدها بشرايين الحياة .

وهكذا نعود مرة اخرى ، لندور في دائرة مترابطة الحلقات ، متماسكة في عللها واسبابها . ولن تهدأ اسرائيل حتى تحقق مشروعها في التحويل ، اليوم او غدا او بعد غد .

دمشق — **هيثم كيلاني**